محمد ملك العرب

دراسة تحليلية موثقة للعبقرية المحمدية

شاكر فضل الله النعماني



محمد ملك العرب

دراسة تحليلية موثقة للعبقرية المحمدية

إعداد

د. شاكر فضل الله النعماني

فهرس

مقدمة **صفحة**

استهلال

هذه الدراسة تستند بشكل مباشر وصريح على كتابات لأربعة من الكتّاب المحدثين وهم الشيخ خليل عبد الكريم والأديب والشاعر العراقي الراحل معروف الرصافي والدكتور سيد محمود القمني والمستشار محمد سعيد العشماوي .

بينما يتفق الجميع في غرض المشروع الإسلامي، إلا أنهم يختلفون في بعض التفاصيل.

يرى المستشار العشماوي أن الدولة الاسلامية انتهت بموت رسول الاسلام ولكن البقية تعتقد أن الدولة أريد لها أن تستمر لقرون كثيرة تالية .

وبينما يعتقد الشيخ خليل عبد الكريم ود. سيد القمني أن مشروع الدولة اقليمي بحت يرى معروف الرصافي أن الدولة عالمية التوجه وأن النهضة تتجاوز حدود الجزيرة العربية .

وحين يخلص د. سيد القمني أن زعامة الدولة قاصرة على الفرع الهاشمي من قريش ، يرى الشيخ خليل عبد الكريم أن الزعامة منوطة بقريش عامة وليست قاصرة على بني هاشم .

هذه خلافات في التفاصيل ولكن المؤكد أن نبي الإسلام استطاع بعبقرية فذة وعزم لا يلين أن يحقق حلم أجداده ويضع أساس امبراطورية عظيمة امتدت من مشارف الصين شرقا إلى مشارف فرنسا غربا .. إنه شخصية مبهرة جديرة بالتأمل والدراسة المتأنية الفاحصة التي تليق بمثل من في مقامه الشامخ وشعبيته الطاغية.

مقدمة

لا شك أن محمد بن عبد المطلب القرشي نبي الإسلام عبقرية فذة قلّ أن يأتي الزمان بمثلها .

لا يختلف في هذا مؤيد أو معارض. ولكن الاختلاف ينشأ عندما ننظر بعين فاحصة إلى كتب التراث الإسلامي. فبينما يخلص البعض بأنه كان صاحب دعوة سماوية، ودين حنيف يخلص البعض الآخر أنه كان ملكا للعرب فقط . وأنه جاء ليؤسس دولة للعرب على غرار الروم والفرس .. دولة يجمع فيها شتات القبائل العربية المتناثرة في الجزيرة تحت زعامة قريش أو بني هاشم تحقيقا لحلم جده الخامس قصي بن كلاب وجده المباشر عبد المطلب.

يزعم هذا البعض أن نبي الإسلام ادعى أنه مرسل من السماء لكي يكون كلامه مقدس ومطاع، وبهذا يستطيع أن يسيطر على أتباعه ويوجههم إلى تحقيق مشروعه العظيم.

وفي الحقيقة أن القارئ المتأني يستطيع أن يقتفي أثر هذا الفكر في ما وصل إلينا من أقوال معاصري النبي وأتباعه.

وها هى نطفة قليلة مما تذخر به كتب السيرة والأحاديث عن نبي الإسلام وغرض دعوته :

١- يقول عبد الله بن الزبعري:
لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

٢- ويقول الوليد بن يزيد الخليفة الأموي:
تلعب بالنبوة هاشمي   بلا وحي أتاه ولا كتاب

٣- جاء في السيرة النبوية:

وبعد فتح مكة سنة 8هـ وقف النبي (صلى الله عليه وسلم) يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم لواء أثر لواء .. وإلى جانبه وقف أبو سفيان شيخ الأمويين مع العباس عم النبي يشاهدان الاستعراض معا فقال أبو سفيان للعباس : "لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما" فأجاب العباس قائلا "إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان" فرد أبو سفيان "أما هذه (أي النبوة) فما زال في نفسي منها شئ" .

٤- في الجزء الثاني من تاريخ الطبري يقول عتبة بن ربيعة لقريش بعد أن التقى بالنبي وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة: "يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه

فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به" .

٥- عن النبي قال "والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر"

٦- كان عبد المطلب جد النبي يقول مشيرا إلى أبنائه وحفدته "إذا أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء".

٧- في سيرة ابن هشام ٤١٧\٢ والسيرة الحلبية ١/ ٣٤٩ – ٣٥٠ وتاريخ الطبري ٤٧٩/٢ قال محمد لملأ قريش "أرأيتكم إن أعطيتكم ما سألتم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم".

٨- قال النبي لعمه أبي طالب: "يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه". والأمر هو السلطان كما هو واضح مما يلى.

٩- بعد موت نبي الإسلام تمت البيعة إلى أبي بكر لكن علي بن أبي طالب كان في نفسه شئ من هذه البيعة فتوجه إليه أبو عبيدة بن الجراح وقال له : "يا ابن عم ، إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك – أي مشيخة قريش – ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا فسلم لأبي بكر هذا الأمر وإنك إن تعش ويطل بقاؤك فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق ولكن عليا لم يرضه ذلك التلطف من جانب أبي عبيدة فثار ثائر علي وقال : "يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل بيته" .

١٠-لما تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد أبي بكر وعمر دخل عليه أبو سفيان فقال : "صارت إليك تميم" و "عدي" فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار" .

حقا كان ملكا عظيما امتدت أطرافه شرقا وغربا وطبق صيته الآفاق الممتدة حتى أنهى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية في ٣ ابريل سنة ١٩٢٤.

ولكن كيف تمكن رجل أمي بسيط في بيئة عربية قاحلة في القرن السابع الميلادي أن يضع أساسا لهذا الملك العظيم الذي استمر لمدة ثلاثة عشرة قرنا؟

هذا هو موضوع هذه الدراسة المتأنية التي تلقي الضوء على الجوانب المظلمة والمسكوت عنها في التاريخ الإسلامي.

وهي دراسة موثقة ترتكز على المرجعيات الاسلامية الأساسية التي لا ينكرها إلا مكابر ، وفي إنكارها تقويض للدين كله وهدم لأعمدته .
إنها المرجعيات التي تلقتها الأمة بعمومها بكل التجلة والتقدير والاحترام ووضعتها في أعلى مقام خلال أربعة عشرة قرنا من الدعوة الإسلامية .

الدراسة أيضا تعكس فهم الصحابة وهم الدائرة المحيطة بنبي الإسلام مباشرة.. وهم الذين تلقوا الدعوة من المبلغ الأول وفهموها حق فهم وعاشوا حياتهم بموجبها بل وماتوا دفاعا عنها.

في الختام .. نحب أن نوجه عناية القارئ الكريم إننا لن نختم هذه الدراسة بفصل يلخص مضمونها أو يوجز نتائجها ولكننا نترك هذا للقارئ الفطن الذي يقرأ بعقل مستنير وأعين مفتوحة لكي يصل إلى النتائج التي لا يخطئها كل باحث بتوخى الموضوعية وينشد الحقيقة مهما كانت مخالفة للفكر السائد الناتج عن ثقافة الحفظ والتلقين .

الكتب الأساسية

الكتب الأساسية التي تم إعداد هذا الكتاب إعتمادا عليها هي :

١- كتاب الشخصية المحمدية
معروف الرصافي
منشورات الجمل
الطبعة الأولى – المانيا – ٢٠٠٢

٢- الخلافة الإسلامية
المستشار محمد سعيد العشماوي
سينا للنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٠

٣- الحزب الهاشمي
د. سيد محمود القمني
سينا للنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٠

٤- حروب دولة الرسول
د. سيد محمود القمني
مدبولي الصغير
الطبعة الثانية ١٩٩٦

٥- دولة يثرب – بصائر في عام الوفود
خليل عبد الكريم
سينا للنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٩

٦- الجذور التاريخية للشريعة الاسلامية
خليل عبد الكريم
سينا للنشر
الطبعة الثانية ١٩٩٧
٧- شدو الربابة فى احوال مجتمع الصحابة
خليل عبد الكريم
سينا للنشر
الطبعة الاولى ١٩٩٧

٨- قريش من القبيلة الى الدولة المركزية
خليل عبد الكريم
سينا للنشر
الطبعة الثانية ١٩٩٧

الباب الأول

كتاب الشخصية المحمدية

معروف الرصافي

إن الغاية التي كان يرمي إليها محمد من الدعوة إلى الله أو من النبوة ليست بدينية محضة بدليل أنه قبل الجزية من مشركي العرب ومن اليهود الذين أشركوا عزيرا مع الله ومن النصارى الذين أشركوا عيسى عليه السلام مع الله . إذ لا ريب أن أخذ الجزية منهم وتركهم على ما هم عليه من الكفر والضلال ينافي أنه لم يرسل إلا لدعوة الناس كافة إلى التوحيد أي إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

إنها دعوة إلى إحداث نهضة عربية دينية اجتماعية سياسية ، تكون عربية المبتدأ عالمية المنتهى ، أي يقوم بها العرب في بدء الأمر ثم تعم وتشمل الناس جميعا في النهاية .

ولا شك أن مثل هذه النهضة تحتاج في سيرها وتكاملها إلى المال ، ففتح لهم هذا المورد المالي بأخذ الجزية من غير العرب ، على أن يكون هؤلاء الذين يؤدونها مع بقائهم على كفرهم أهل عهد وذمة تحت حماية العرب .

ولمّا كانت هذه النهضة عربية أي يقوم بها العرب دون غيرهم ، وكان العرب كلهم أو أكثرهم مشركين وثنيين ، وكانوا مع ذلك متخالفين متخاذلين يأكل بعضهم بعضا ، كان من الضروري لمحمد أن يجمع كلمتهم قبل كل شئ ، فيكوّن فيهم وحدة دينية ويربطهم برابطة الإخاء الديني . وكذلك فعل إذ أنكر عليهم عبادة الأصنام وشنع بها كل تشنيع وتفنن في إبطالها وتفنيدها بما هو مسطور في القرآن ، ودعاهم بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" التي هي من مبتكراته ، إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وكان في أول الأمر مكتفيا في دعوتهم بالآيات القرآنية إذ لم تكن له قوة يستند إليها في إرغامهم على قبول ما يدعوهم إليه ، وقد قاسى ما قاسى من عداوة قومه المشركين ولقي منهم أذى كثيرا هو وأتباعه القليلون المستضعفون .

ولكنه بعد الهجرة إلى المدينة حصلت له تلك القوة ، فصار يدعوهم وفي إحدى يديه القرآن وفي الأخرى السيف ، فلا يرعى لهم إلا ولا ذمة ، ولا يقبل منهم عذرا ولا جزية إلا الإسلام ، فكان يدعوهم إليه فإن أسلموا فبها وإلاّ سلّ عليهم السيف فلا يغمده حتى يسلموا .

وإذا علمت ماذا يريد محمد من وراء دعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، علمت سبب تشدده في تشنيعه عليهم ووثنيتهم ، وتشديده عليهم إنكار الشرك بالله حتى جعله من الذنوب التي لا تغتفر إذ قال : "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"[1] .

والحقيقة إن الله يغفر أن يُشرك به ولا يغفر ما دون ذلك ، لأن ما دون الشرك من المنكرات قد يتعلق بحقوق الناس بعضهم مع بعض فلا تجوز مغفرته ، بخلاف الشرك بالله فإنه لا يضر الله شيئا ولا يتعلق بحقوق الناس بعضهم مع بعض .

إن محمدا يعرف هذه الحقيقة جيدا ، ولكن كما قلنا أن سبب تشدده في إنكار الشرك إلى هذا الحد هو ما يريد من جمع كلمتهم وتكوين وحدة دينية فيهم لكي ينهض بهم نهضة كبرى تكون عاقبتها الخير للناس أجمعين .

ولما كانت الوحدة الدينية وحدها مجردة من المرغبات المادية والمعنوية لا تكفي لإنهاضهم النهضة المطلوبة جعل لها من المرغبات المعنوية الجنة التي تنال بالأعمال الصالحة ، وجعل أفضل الأعمال الصالحة ، الشهادة أي الموت في سبيل النهضة أو في سبيل الله على تعبيره . وتفنن بآياته القرآنية ما شاء الخيال أن يتفنن في وصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، وهذه الجنة التي جاء وصفها في القرآن وفي الأحاديث النبوية هي من مبتكرات محمد التي لم يسبق إليها ، وفيها دلالة على ما في خياله من سعة ومن قوة . ولم يعتبر الشهيد المقتول في سبيل الله ميتا بل جعله حيا يرزق إذ قال : "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"[٢] .

وجعل لنهضتهم من المرغبات المادية أن أحل لهم الغنائم والنساء والسبايا في الحرب ، وزاد أن ضرب لهم الجزية على غيرهم من أهل الأديان ولم تكن الغنائم في الأديان ، السابقة حلالا ، فكان من خصائصه أن أُحلت له الغنائم كما يدعيه كتاب السيرة النبوية ، والذي نراه أن أخذ الغنائم والسبايا من عادة العرب في الجاهلية فإنهم كانوا في حروبهم إذا أغار بعضهم على بعض استاقوا الأنعام التي هي جل أموالهم وأخذوا النساء سبايا ، فمحمد أقرهم على ما كانوا عليه لأن المصلحة اقتضت ذلك .

وإذا علمت هذه المرغبات المادية والمعنوية وعلمت أن العرب كانوا بطبيعة بلادهم القاحلة يعيشون في ضنك من العيش محرومين من نعيم الحضارة كل الحرمان ، وعلمت أيضا أنهم كانوا ببداوتهم من أشد الناس بأسا وأشهرهم في الحروب شجاعة وإقداما فقد انكشف لك سر الموفقيات والفتوح التي جنوها من نهضتهم الإسلامية المحمدية .

شجاعة وإقدام مع شظف في العيش ، حصلت بعدها وحدة في القوم جعلتهم جسما واحدا ، ثم انفتحت لهم أبواب الجنان من جهة ، وتكدست أمامهم غنائم الحرب من جهة أخرى ، فأي عجب يبقى بعد هذا من أن نراهم قد دوخوا البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في مدة لا تزيد على ثلاثين سنة .

دع الناس يختلقون المعجزات لمحمد ، وانظر إلى هذه النهضة وآثارها الباهرة فإنها معجزة المعجزات التي لم يسبق لها نظير في البشر منذ عُرف التاريخ إلى يومنا هذا .

وكيف ينكر علينا منكر ما قلناه من أن الغاية التي كان يرمي إليها محمد هي هذه ، وقد صرح هو نفسه بها عدة مرّات .

فقد جاء في سيرة ابن هشام وفي السيرة الحلبية ما خلاصته : لمّا مرض أبو طالب مرض وفاته ، أتاه الملأ من قريش وطلبوا منه أن يكلم محمدا في أن يتركهم وآلهتهم ويتركوه هم وشأنه ، فدعاه أبو طالب وكلمه في ذلك فقال محمد "أرأيتكم أن أعطيتكم ما سألتم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم"[٣] ، وهذا صريح في أنه يريد لهم الملك على العرب وأن العجم تطيعهم وتخضع لهم فتكون من رعاياهم ، وذلك ليس من الدين لأن غاية الدين هي عبادة الله وحده لا شريك له .

وقد صرح بغايته لسراقة بن مالك المدلجي ففي السيرة الحلبية ما خلاصته[٤] : لما خرج محمد من مكة مهاجرا إلى المدينة هو وأبو بكر جعلت قريش لمن قتلهما أو أسرهما مائتي ناقة وأرسلت بذلك الأخبار إلى أهل السواحل ، فخرج في طلبهما سراقة بن مالك ، فأدركهما ولكن الله عصمهما منه حتى أن سراقة قال : يا محمد ، إني لأعلم أنه سيظهر أمرك في العالم وتملك رقاب الناس ، فعاهدني إني إذا أتيتك يوم ملكك فأكرمني . وطلب إليه أن يكتب له كتاب أمان ، فأمر عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وكان معهما فكتب له كتاب أمان . ولما أراد سراقة الانصراف قال له محمد : كيف بك يا سراقة إذا تسورت بسواري كسرى ؟ قال : كسرى بن هرمز ؟ قال نعم . وهذا صريح في أنه يريد من وراء الدعوة إلى الله فتح بلاد فارس واغتنام أموال كسرى حتى سواريه فيأخذهما سراقة ويتسور بهما . وقد صرح بغايته يوم الخندق ، ففي السيرة الحلبية[٥] ، وكذا في سيرة ابن هشام[٦] عن سلمان الفارسي قال : ضربت في ناحية من الخندق فغلظت علي ورسول الله قريب مني ، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان علي ، نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! ما هذا الذي رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟ قال قلت : نعم ، قال : أمّا الأولى فإن الله تعالى فتح عليّ بها اليمن ، وأمّا الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب وأمّا الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق . وفي رواية أخرى أنه لمّا اشتدت تلك الكدية على سلمان ، أخذ رسول الله ، المعول من سلمان ، وقال : بسم الله ، وضرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت برقة ، فكبر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح اليمن ، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرقت برقة فكبر وقال : أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب في مكاني هذا . وفي رواية : إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، وجعل يصف لسلمان أماكن فارس ، ويقول سلمان ، صدقت يا رسول الله هذه صفتها ، أشهد أنك رسول الله ثم قال رسول الله ، "هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان"[٧] .

لا شك أن هذه البرقات أو اللمعات كانت تحصل من اصطدام المعول بالحجر عند ضربه بشدة كما يحصل مثلها تحت حوافر الخيل إذا مشت في الأرض الصلبة واصطدمت بالصخور ، وإن محمدا كان لا يضيع الفرص بل ينتهزها لبنيان ما يدعو إلى تصديقه والإيمان به ، ولمّا كان عمله هذا يؤدي إلى غايته ، وكان – كما قلت فيما تقدم – واسع الخيال قويه بحيث إذا تخيل أمرا صار عنده كأنه يراه بعينه ويلمسه بيده ، تصور غايته عند ضربات المعول وتخيل أن تلك البرقات التي برقت له تحت المعول ، قد أضاءت له البلاد التي يريد فتحها حتى صار كأنه يرى أبوابها وقصورها كأنه أنياب الكلاب ، لأن القصور إذا رآها الإنسان من بعد رآها كذلك .

ولمّا قال لسلمان ما قال يوم الخندق ، وشاع ذلك بين الصحابة ، قال جمع من المنافقين منهم معتب بن قشير : ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق أي الخوف لا تستطيعون أن تبرزوا . فنزلت الآية "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير"(٨) .

وفي رواية أخرى أن سبب نزول هذه الآية غير ذلك وهو : أن محمدا لمّا فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ، فنزلت الآية . فهل بعد هذه الصراحة يصح أن يقال إن غاية محمد كانت دينية محضة .

وقد صرح بغايته على وجه آخر لعدي بن حاتم لمّا وفد عليه من الشام ، ففي سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية ما خلاصته : إن عدي بن حاتم لمّا غشيته خيل محمد فر هاربا إلى الشام ، وكان على دين النصرانية أو على دين الركوسية وهي دين بين النصرانية والصابئية ، وكان شريفا يسير في قومه بالمرباع أي يأخذ ربع الغنيمة كما هو شأن الأشراف من أخذهم في الجاهلية ربع الغنيمة ، وكانت خيل محمد قد أخذت أخته في السبايا ، غير أن محمدا من عليها فأطلقها وأكرمها ، فذهبت إلى أخيها عدي في الشام ، فحرضته على اللحوق بمحمد ، فخرج إلى المدينة وافدا ، وهنا نترك الكلام له لأن الرواية عنه قال : فخرجت حتى جئته أي محمدا بالمدينة فدخلت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم ، فقام رسول الله وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بي إليه ، إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها ، فقلت : ما هو بملك ، ثم مضى حتى إذا دخل بيته ، تناول وسادة بيده من أدم محشوة ليفا فقدمها إلي ، وقال : اجلس على هذه فقلت : بل أنت فاجلس عليها ، قال : بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله بالأرض ، فقلت والله ما هذا بأمر ملك ثم قال لي : يا عدي بن حاتم ، أسلم تسلم ، قالها ثلاثا ، فقلت : إني على دين ، قال أنا أعلم بدينك منك ، فقلت أنت أعلم بديني ! قال : نعم ، ألست من الركوسية ، ألست من القوم الذين لهم دين ، فقلت : بلى ، فقال : ألم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، فقلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبي مرسل ، يعلم ما يُجهل . ثم قال لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى ، وتقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها ، قال : فوالله ليتمنّ هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ؛ وفي رواية ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليشوكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال عدي وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج البيت ، وايم الله لتكونن الثانية ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه(٩) .

لا شك أن في قوله : "ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه" إشارة إلى ما سيفتحون ويملكون من البلاد التي تدر لهم بخراجها وجزيتها عدا الغنائم ، ومن الفقرة الثالثة من كلامه صراحة بأنه يطلب لهم الملك والسلطان من وراء دعوته الدينية .

ومن تصريحاته بغايته ما قاله لوفد بني عذرة قبيلة باليمن ، وكان عذرة أخا قصي لأمه ، وهو الذي أعان قصيا على أخذه ولاية الكعبة من خزاعة . ففي السيرة الحلبية : إنه وفد على رسول الله اثنا عشر رجلا من بين عذرة وسلموا بسلام الجاهلية ، فقال لهم رسول الله : من القوم ؟ فقال قائلهم ، من بني عذرة : نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ، فلنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله : مرحبا بكم وأهلا ، فاستأنسوا ولا تستوحشوا ، ما أعرفني بكم ، ثم قال لهم : فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟ قالوا : يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا ، فقدما مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، وقالوا : إلام تدعو ؟ فقال : أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تشهدوا أني رسول الله إلى الناس كافة ، فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال : الصلوات الخمس ، تحسن طهورهن ، وتصليهن لمواقيتهن ، فإنه من أفضل العمل ، ثم ذكر لهم باقي الفرائض من الصيام والزكاة والحج ، فأسلموا ، وبشرهم رسول الله بفتح الشام عليهم وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده ، ثم انصرفوا وقد أجيزوا ، وكسى رسول الله أحدهم بردا . فأنت ترى أن دعوة بني عذرة إلى الإسلام قد تمت وانتهت بتلقينهم الشهادتين وتعليمهم الفرائض ، ولم يبق حاجة إلى تبشيرهم بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده ، ولكنه أراد أن يذكر لهم الغاية التي يرمي إليها من وراء دعوتهم إلى الإسلام ليطمئنوا إلى إسلامهم ، وليوقظ فيهم حب النهوض إلى فتوح البلاد والاستيلاء عليها . ولقد كانت الغاية التي يريدها محمد شائعة يعرفها حتى كفار قريش ، فقد كان الأسود بن عبد يغوث وهو ابن خال محمد ، إذا رأى المسلمين وما هم عليه من تقشف وخشونة عيش ورثاثة ثياب يقول مستهزئا بهم : "قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر" ، وليس من العجب أن نرى محمد يبوح بغايته للناس قصد ترغيبهم في قبول الدعوة ، ولكن العجب كل العجب أن نراه فرض أن البلاد قد فتحت له فعلا حتى أنه أقطع بعض الوافدين عليه منها أرضا . فقد جاء في كتب السير[١٠] أنه وفد عليه قبل الهجرة الداريون أبو هند الداري وتميم الداري وأخوه نعيم وأربعة آخرون وسألوه أن يعطيهم أرضا من أرض الشام ، فقال لهم : سلوا حيث شئتم ، قال أبو هند فنهضنا من عنده نتشاور في أي أرض نأخذ ، فقال تميم الداري : نسأله بيت المقدس وكورتها، فقال أبو هند هذا محل ملك العجم ، وسيصير محل ملك العرب ، فأخاف أن لا يتم لنا ، قال تميم : نسأله بيت جيرون وكورتها ، فنهضنا إلى رسول الله فذكرنا ذلك له ، فدعا بقطعة من أدم وكتب لهم كتابا هذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين ، إذا أعطاه الله الأرض ، وهب لهم بيت عينون وجيرون والمرطوم وبيت إبراهيم إلى أبد الأبد . شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة وكتب .

ثم أعطانا كتابنا ، وقال : انصرفوا حتى تسمعوا أني قد هاجرت . قال أبو هند : فانصرفنا ، فلما هاجر إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يجدد لنا كتابا آخر ، فكتب لنا كتابا هذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الدري وأصحابه ، إني أنطيتكم بيت عينون وجيرون والمرطوم وبيت إبراهيم برمتهم وجميع ما فيهم ، نطية بُتّت ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد ، فمن آذاهم آذاه الله . شهد بذلك أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان .

أنطى لغة يمانية في أعطى وهي شائعة اليوم في كلام العامة وعينون وجيرون من بلاد الشام ، ولم أقف على المرطوم في معجم البلدان ولا على بيت إبراهيم ، وهو ما يسمى اليوم بالخليل قرب بيت المقدس ، ولم أقف في كتب السير على ما يفهم منه تنفيذ هذا الكتاب بعد فتح الشام ، فلا أعلم أعطي هؤلاء الداريون الأماكن المذكورة في الكتاب أم لم يعطوها . ومهما يكن فالحكم في هذه المسألة من الوجهة الحقوقية كالحكم في هبة السمكة قبل صيدها ، إلا أنها من جهة أخرى تدل على قوة إيمان محمد بحصول غايته كما هو ظاهر.

لمن يريد الملك والسلطان

قلنا فيما تقدم إن الغاية التي ينزع إليها محمد ليست بدينية محضة بل هو يريد أن يحدث نهضة كبرى أو موجة عربية كبرى تكون دينية اجتماعية سياسية يقوم بها العرب في بدء الأمر على أن تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس ثم يكون نفعها عاما شاملا للناس أجمعين ، وقد مر بك قوله للملأ من قريش عند أبي طالب لمّا حضرته الوفاة "أعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم"[١١] والمخاطب في قوله تملكون هم الملأ من قريش ، وإذا جاز الاعتماد على ما جاء في كتب القوم من الأحاديث المأثورة ، قلنا : إنه كان يريد في نهضته بالعرب أن يكون الملك والسلطان من ورائها لقريش مباشرة ، وللعرب بواسطة قريش ، ولنورد ما هنالك من الأدلة على ذلك مقدمين بين يدي ذلك الكلمة التالية :

الناس قسمان

(الأثَرة) بفتحتين اسم من الاستئثار ، يقال : استأثر بالشئ على غيره إذا استبد به وخصّ به نفسه ، وضده (الإيثار) وهو أن يقدم غيره على نفسه ، ويخص بالشئ غيره دون نفسه ولنسم صاحب الأثرة بالأثري ، وصاحب الإيثار بالإيثاري ، فالناس بالنظر إلى هذا في حياتهم الاجتماعية قسمان إمّا أثريون أنانيون وهم القسم الأكثر ، وإمّا إيثاريون وهم القسم الأقل النادر . وإذا نظرنا إلى محمد بمنظار ما هو مأثور في كتب السير والحديث رأيناه في الذروة العليا من مقام الإيثاريين ، ووجدناه قد ترفع بنفسه عن حطام الدنيا وزخرفها الفاني ، واحتقر الماديات كلها ، ونظر إليها نظر المقت والازدراء إلا اثنتين منها أخبر هو عن نفسه بحبه إياهما "الطيب والنساء" ، ولم يرد لنفسه إلا ما هو أبدي خالد من تقديس القوم إياه ، ومن ذكرهم له بالصلاة والسلام إلى الأبد . ولذلك قرن اسمه باسم الله ، ولم يجعل الإيمان شهادة واحدة بل شهادتين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ، مع أن الدعوة التي قام بها كانت إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" وحدها كافية لذلك ، غير أنه جعل اسمه رديفا لاسم الله ليكون مقدسا مطاعا عند القوم الذين يريد أن يقودهم إلى خيري الدنيا والقصوى . ولم يكتف بذلك بل جعل على المسلمين أن يذكروه عند كل تشهد في صلاتهم التي يصلونها كل يوم خمس مرات . مع أن الصلاة إنما هي عبادة لله ينبغي أن تختص بذكر الله كما قال في القرآن : "وأقم الصلاة لذكري"[١٢] أي لأجل ذكري . وكذلك جعل المؤذنين يذكرون اسمه مع اسم الله عند دعوتهم الناس إلى الصلاة في آذانهم ، وكل ذلك خارج عن أصل الدعوة التي جاء يدعو بها الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له . لم يرد محمد لنفسه ملكا ولا سلطانا ، بل كل ما أراده لنفسه هو هذا الذي ذكرناه ، وهو لعمري خير من ألف ملك وألف سلطان ، ولم يطلب غير ذلك أجرا على دعوته التي قام بها إلى الله ، وهو كما تراه أجر عظيم لا تطمع فيه ولا تطمح إليه إلا النفوس

الكبيرة التي لا تصبو إلى الفانيات ولا تميل إلى الماديات . نعم ! إن محمدا اكتفى بالذكر المقدس الخالد لنفسه ، ولكنه أراد الملك والسلطان لقومه قريش ، خصوصا لذوي قرابته الأدنين منهم . وزاد هؤلاء أعني ذوي قرابته الأدنين أن طلب لهم المودة من المسلمين كما جاء في القرآن "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى"(١٣) زيادة على استحقاقهم ما يستحقه سائر قريش من ولاية الملك والسلطان .

عزم محمد وحزمه

إن عزمه الذي هو أكبر عامل من عوامل نجاحه في الدعوة إلى الإسلام كان لعمري أمضى من السيف وأقوى من الفولاذ لا يرده راد ولا يثنيه ثان ، لقد كان محمد لا يعرف الفشل كيف يكون ، ولا اليأس من أين يأتي ، فلا ترده عما يريده الخيبة ، ولا تضعضع عزيمته المقاومة ، وإذا أردت أن تعرف عزم محمد وما لقيه من المقاومة لمّا أعلن الدعوة بعدما استمر ثلاث سنين يدعو إلى الإسلام خفية ، فانظر إليه في دار عمه أبي طالب وقد مشت إليه قريش وطلبوا من أن ينهى ابن أخيه عنهم ، وقالوا له : إنا لا نصبر حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . وانظر كيف دعاه عمه أبو طالب وقال له : يا ابن أخي إن قومك جاءوني وقالوا لي كذا وكذا ، فابق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، وانظر كيف أجاب هو عمه قائلا : يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ثم انظر إليه بعدما قال هذا كيف استعبر وأخذ يبكي ، ثم قام موليا ، وكيف رق له أبو طالب فناداه من خلفه أن أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه فقال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك ، ثم انظر إليه كيف صبر على ما ناله من أذى قومه المشركين وكيف احتمل ما سمعه من أقوال المستهزئين ، ثم انظر إليه وقد مات عمه أبو طالب الذي كان يحميه كيف خرج إلى الطائف وهو حزين مكروب مما لقي من قريش وقرابته ، وكيف أتى سادات ثقيف وطلب منهم أن يحموه وينصروه ليقوم بدعوة الناس إلى الإسلام ، وكيف هؤلاء السادات أهانوه وردوا عليه رداً منكراً حتى قال أحدهم أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ، ثم هم كيف طردوه وقالوا له اخرج من بلدنا ، وكيف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه ، فلم يتخلص منهم إلا بدخوله حائطا من حوائطهم ، ثم انظر إليه لمّا جلس إلى ذلك الحائط كيف رفع طرفه إلى السماء قائلا : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ثم دع عنك هذا وانظر إليه وقد خرج إلى قبائل العرب في الموسم كيف كان يأتيهم قبيلة بعد قبيلة ، وكيف كان يعرض نفسه عليهم يدعوهم إلى الإسلام ويطلب منهم أن يحموه ليقوم بدعوة الناس إليه ، وكيف كانوا يردون عليه أقبح رد وهو لا يضجر ولا يسأم ولا ييأس حتى قبض الله له في أحد المواسم أناسا من أهل المدينة قد حضروا الموسم فأصغوا إليه وأجابوه إلى ما أراد ، فكانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية وكانت هذه البيعة أول موفقية وأول نجاح حصل لمحمد بفضل عزمه القوي المتين ، ثم كانت بعد ذلك الهجرة إلى المدينة .

يجب عليك أيها القارئ الكريم أن تقرأ تفاصيل ما ذكرناه لك مختصرا فيما تقدم فإنه مسطور في كتب السير فلذلك لم نر حاجة إلى ذكره هنا بالتفصيل ، فإنك إذا وقفت على تفاصيله علمت مقدار ما لقيه محمد من الأذى ، وما قاساه من المشقة ، وعلمت بذلك ما كان له من قوة عزم وطول صبر(١٤) .

نحن إنما نتكلم هنا عن عزم محمد ولما كان محمد بفضل عزمه القوي وصبره العظيم قد حصل على هذه الموفقية التي هي أول نجاح نجحه في دعوته والتي هي أساس كل نجاح نجحه فيما بعد ، كان من المناسب أن لا ننتقل إلى بحث آخر إلا بعد أن نذكر السبب الأصلي في حصول هذه الموفقية ، وإن كان ذلك خارجا عن صدد كلامنا هنا ، ولا تعجب أيها القارئ من قولنا أن هذه الموفقيّة هي أساس كل نجاح نجحه محمد فيما بعد ، لأن هذه البيعة هي التي سببت الهجرة فكانت الدعامة الكبرى التي استند إليها محمد في هجرته إلى المدينة ، ومن المعلوم أن دعوة محمد لم تقم إلا بسيوف الأنصار والمهاجرين بعد الهجرة ، فلولا هجرته إلى المدينة ولولا استقتال الأنصار في سبيل دعوته لبقي أمره محصورا في مكة بين أشخاص معدودين مستضعفين .

استثمر محمد العداء القائم بين الأوس والخزرج من ناحية وعدائهم لليهود من ناحية أخرى لكي يجتنبهم إلى دعوته .

كان اليهود يقولون للأنصار أن نبيا مبعوث الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم محمد وفد الأنصار في موسم الحج ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك .

فلمّا قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله[١٥]حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله على بيعة النساء ، وقال ذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب ، وهنا أخذ ابن إسحق يذكر أسماءهم فانظرها هناك[١٦] .

والمراد ببيعة النساء أنهم بايعوه على الإيمان به فقط كما تبايعه النساء من غير أن يمنعوه ويقاتلوا الناس دونه ، ثم جاءت بعد هذه بيعة العقبة الثانية وهي بيعة الحرب ، بايعوه فيها على حرب الأحمر والأسود ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين كلهم من الأوس والخزرج ، فانظر تفصيل ذلك في كتب السير[١٧] .

بقي محمد زمانا طويلا يتحين المواسم فيأتيه ويعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الإسلام ، أو يطلب منهم أن يحموه وإن لم يؤمنوا به ليقوم بدعوة الناس إلى الإسلام ، فلم يجبه أحد إلى قبول دعوته ولا إلى حمايته إلا هؤلاء الذين هم من الخزرج والأوس فإنهم أجابوه إلى كلا الأمرين من تصديقه وحمايته معا حتى إنهم بايعوه على حرب الأحمر والأسود ، والذي حملهم على هذا هو ما كانوا يسمعونه من إيعاد اليهود إياهم بمبعثه وأنهم يتبعونه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم . فإن العداوة كانت مستحكمة بينهم وبين اليهود من جهة ، وبين كلا الحيين من جهة أخرى ، مع أنهما من أصل واحد فإن الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم[١٨] ، وإن كلا الحيين قد سئما هذه الحالة وملا الحروب ، زد على ذلك أن اليهود كانوا بينهما عاملا من عوامل إيقاظ الفتنة وإيقاد نار الحرب .

فلذلك عندما رأوا محمدا صدقوه بلا تردد ، وقالوا هذا هو الذي توعدنا به اليهود فلننتهز هذه الفرصة ولنبادرهم ولنسبقهم إليه فنقتلهم به قبل أن يسبقونا إليه فيقتلونا به .

ولمّا كان الأنصار (هم الأوس والخزرج لأنهم بعد هذه البيعة صاروا يسمون بالأنصار) أعداء لليهود ، كان محمد عدوا لهم أيضا بضرورة حكم هذه البيعة ، وكذلك لما كان اليهود أعداء للأنصار كانوا أعداء لمحمد أيضا ، فعداوة اليهود لمحمد وعداوة محمد لليهود إنما نشأت وتكونت يوم العقبة ، لذلك نرى محمدا بعد الهجرة أفنى يهود المدينة قتلا وإجلاء ، وليس بعجيب إذ ليس إفناء اليهود قتلا وإجلاء إلا نتيجة ضرورية حاصلة من اتحاد أعداء اليهود وهم الأوس والخزرج واجتماعهم على محمد .

بقي هنا سؤال يلزم إيراده وهو : هل كان اليهود صادقين في وعيدهم لأعدائهم بمبعث نبي يقوم من مكة فيقتلهم قتل عاد وإرم ؟ وهل كانوا يجدون ذلك مذكورا عندهم في التوراة ؟ إن الجواب على هذا السؤال لا يحتاج إلى طويل تأمل ولا كثير تفكير ، لأن اليهود إنما كانوا يقولون هذا القول تخويفا وتهديدا لأعدائهم فإن العاجز عن قهر أعدائه يليق به أن يلجأ إلى مثل هذا الوعيد والتهديد ، ولأنه من البعيد أن يسمح اليهود لأحد أن يكون نبيا وهو ليس من شعب الله المختار أي من بني إسرائيل .

وأما محمد فإنه لمّا علم من مبايعيه في العقبة أن اليهود كانوا يقولون لهم "سيبعث نبي قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم" ، تمسك بهذا القول منهم ، وجعله حجة عليهم وأنزل فيه بعدما هاجر إلى المدينة آيات قرآنية منها ما جاء في سورة البقرة "ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين"[١٩] ومعنى قوله في هذه الآية يستفتحون على الذين كفروا يستنصرون على المشركين ويقولون لأعدائهم : قد أظل زمان نبي يخرج تصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، كما ذكره الزمخشري في الكشاف[٢٠] .

حزمه

الحزم هو ضبط الأمور والأخذ فيها بالثقة ، وأن لا يقدم الإنسان على أمر إلا بعد التثبيت فيه والاستيثاق منه ، وأن لا يدخل حتى يعرف كيف يكون المخرج ؛ وقد كان محمد من الحزم على جانب عظيم ، كان حازما جد حازم ، وأكبر دليل على حزمه أنه كان لا يترك المشاورة في الأمور كما قالت عنه عائشة "ما رأيت رجلا أكثر مشاورة للرجال من رسول الله" وكذلك يكون الحازم .

فمما يدل على حزمه اختباره للأنصار في غزوة بدر قبل أن يلقى العدو ، وذلك أنه لمّا خرج في غزوة بدر يطلب عير قريش حتى نزل بواد يقال له ذَفِران (بفتح فكسر) ، أتاه الخبر عن قريش بأنهم قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم ، فعلم من هذا الخبر أنه سيلقى حربا ، وكان معه خمسة وثلثمائة رجل ، أربعة وستون من المهاجرين وباقيهم من الأنصار ، فأخذ يفكر في الأمر أولا ، لأنه لما ندب المسلمين إلى الخروج قال لهم : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينقلكموها[٢١] ، ولم يقل لهم اخرجوا لحرب قريش . ثانيا لأنه لمّا دعاهم إلى الخروج لطلب العير لم يحتفل للأمر ولم يهتم به ، بل قال : من كان ظهره حاضرا فليركب معنا[٢٢] ، ولم ينتظر من كان ظهره غائبا عنه ، ولذا كان عدد الجيش قليلا وكان يمكن أن

يكون عددهم أكثر من ذلك . ثالثا أن هذه الحرب التي سيلقاها ستكون أول حرب بينه وبين أعدائه من قريش ، فإذا كانت الدائرة فيها لأعدائه كانت الخيبة فيها كبرى والمصيبة عظمى . رابعا أن الأنصار لمّا بايعوه عند العقبة إنما بايعوه على الدفاع عنه لا على الهجوم على أعدائه ، فلذا صار يتخوف من أن الأنصار لا يرون عليهم نصرته إلا إذا دهمه العدو في المدينة ، وليس الأمر هنا كذلك بل أن محمدا هو الذي خرج يريد قريشا .

كل هذه الأمور دعت محمدا إلى التفكير والتثبت ، فأراد أن لا يقدم على هذه الحرب إلا بعد أن يستوثق من الأنصار ويعلم أنهم ناصروه على كل حال ، ولذلك أخبرهم الخبر ، فعقد مجلس حرب للاستشارة فقال لهم : إن القوم قد خرجوا من مكة على كلّ صعب وذلول ، فما تقولون ألعير أحب إليكم من النفير ؟ فقالت طائفة منهم العير أحب إلينا من لقاء العدو ، وفي رواية قالوا : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ، إنا خرجنا للعير ، وفي رواية قالوا : لا رسول الله ، عليك بالعير ودع العدو . فعند ذلك تغير وجه رسول الله ، فلمّا رأى ذلك أبو بكر قام فقال : وأحسن ، ثم قام عمر فقال : وأحسن ، ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"[٢٣] ، بل نقول : إنا معكم مقاتلون ما دامت منّا عين تطرف . فو الذي بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد (وهي مدينة بالحبشة) لجالدنا بالسيوف معك من دونه ، فأشرق وجه رسول الله وسرّ بذلك وقال خيرا ودعا له بخير[٢٤] .

ومما يدل على حزم محمد حديث الثلمة في الخندق يوم تألبت عليه الأحزاب في المدينة ، فقد روى أنه كان يختلف إلى ثلمة في الخندق ، والثلمة الخلل في الحائط فعن عائشة قالت : كان رسول الله يذهب إلى تلك الثلمة ، وكان البرد شديدا ، فإذا أخذه البرد جاء فأدفأته في حضني ، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة ، ويقول : ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها . فبينما رسول الله في حضني صار يقول : ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلمة الليلة ، فسمع صوت السلاح فقال رسول الله : من هذا ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : سعد يا رسول الله أتيتك أحرسك ، فقال : عليك هذه الثلمة فاحرسها ، ونام رسول الله حتى غط[٢٥] .

ومن حزمه أنه مع شره تعلق الناس به وطاعتهم له وحبهم إياه كان يحذر الناس ، ولا يأمن أن يغتاله أعداؤه ، ولذلك كان يمشي خلف أصحابه إذا مشى معهم ويأمرهم بالمشي أمامه ويقول : خلوا ظهري للملائكة . لأنه يعلم أن في المسلمين من هم منافقون لم يظهروا الإسلام إلا خوفا ، وأن هؤلاء المنافقين لو تمكن أحدهم من اغتياله لما وقف عنه ، ثم هو إذا مشى خلفهم كان رقيبا عليهم يرى كل ما يصدر منهم من حركة وإشارة وغير ذلك بخلاف ما إذا مشي أمامهم فإنه لا يرى ذلك منهم . ومن هذا القبيل أيضا ما روي أنه لا يأكل من هدية أهديت إليه حتى يأكل منها صاحبها ، ولكن هذا لم يكن منه إلا بعد أن أهديت إليه الشاة المسمومة التي أكل منها فكانت تلك الأكلة سببا لموته فيما بعد كما ذكر ذلك لعائشة في مرض موته ، فإنه قال لها وهو في بيتها تمرضه : يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أسممته بخيبر ، فهذا أوان انقطاع ابهري من ذلك السم[٢٦] .

ومما يدل على حزمه وحذره الشديد من الناس ما قاله للحلاق في حجة الوداع ، وذلك لمّا أكمل نحره في حجة الوداع استدعى بالحلاق ليحلق رأسه بالموسى ، جعل رسول الله ينظر في وجهه وقال له وهو يديم

النظر في وجهه : يا معمر أمكنك رسول الله من شحمة أذنه وفي يدك الموسى ، فقال معمر : أما والله يا رسول الله ، إن ذلك لمن نعمة الله عليّ ومنّه ، قال أجل[٢٧] . لا شك أن كل من كان مثل محمد رجل نهضة وانقلاب لا يخلو من وجود أعداء له في الناس ، فليس من الحزم أن يمد عنقه بين يدي حلاق لا يعرف من أمره شيئا ، فلذلك قال محمد لهذا الحلاق ما قال وهو ينظر في وجهه ليرى ما يبدو فيه من علامات يتفرس بها ما في ضميره ، كما تفرس ذلك عندما رأى فضالة لمّا حدث نفسه بقتله وهو يطوف بالكعبة ، وكما تفرس ذلك لمّا رأى الأعرابي الذي أرسله أبو سفيان إلى المدينة لاغتياله .

قوة خياله

كان محمد واسع الخيال جدا ، وكان تفكيره وخياله فرسي رهان يجري أحدهما مع الآخر ، فإذا تفكر في أمر تخيله وتصوره ، وأخذ يصوره للعيان حتى يكون كأنه يراه بعينه ويسمعه بأذنه ويلمسه بيده . فانظر إليه كيف تصور جعفر بن أبي طالب لمّا استشهد في غزوة مؤتة (موضع من الشام عند الكرك) وقد قطعت يداه إذ قال : (كما جاء في الطبراني عن ابن عباس) دخلت البارحة الجنة ، فرأيت فيها جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة له جناحان عوضه الله من يديه[٢٨] . وعن ابن عمر قال : كنا مع رسول الله فرفع رأسه إلى السماء فقال "وعليكم السلام ورحمة الله" فقال الناس : يا رسول الله ، ما كنت تصنع هذا ! قال : مرّ بي جعفر بن أبي طالب في ملأ من الملائكة فسلّم عليّ فرددت عليه السلام . فانظر كيف تخيل جعفرا قد مر به مع الملائكة حتى رآه وسمع كلامه فردّ عليه السلام ، وما هذا إلا من قوة خياله الذي يكاد يجعل الصورة الذهنية المخيلة مرئية في عينيه مسموعة في أذنيه . وفي الكشاف في تفسير قوله : "كلا إذا دُكت الأرضُ دكًا دكًا . وجاء ربك والملكُ صفًّا صفًّا . وجيئ يومئذ بجهنم"[٢٩] الآية ، قال : روي أنها لمّا نزلت تغير وجه رسول الله وعرق في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ، فأخبروا عليا فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه ثم قال : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ما الذي حدث اليوم ؟ وما الذي غيرك ؟ فتلى عليه الآية ، فقال علي : كيف يجاء بها ؟ قال : يجيئ بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام ، فتشرّد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع[٣٠] . فانظر كيف تجسّمت له جهنم فرضيا له وصار ينظر إليها تقاد بأزمة حتى تغير لهولها وجهه وتهيجت أعصابه ، وما ذلك إلا من قوة خياله .

وأعظم دليل على سعة خياله وقوته ما جاء في القرآن وفي الأحاديث النبوية من وصف الجنة وجهنم ، ولا حاجة إلى إيراده هنا لأنه معلوم مذكور في الكتب . ولا ريب أن الجنة التي وصفها محمد بأوصافها الباهرة المعلومة إنما هي من بنات خياله الواسع القوي ، لأنها بهذا الشكل المبهج العجيب غير مذكورة في التوراة ولا في الإنجيل ، فجنة محمد جديرة بأن تكون المثل الأعلى للسعادة المخيلة في الحياة . ومن الدليل على قوة خياله وأنه في طريق تفكيره إذا تخيل شيئا تجسم له في ذهنه حتى صار يراه بعينه ويسمعه بأذنه ما جاء في الأخبار عن بدء الوحي من رؤيته جبريل في أفق السماء ، فقد ذكر الرواة عنه أنه قال : فخرجت (أي من غار حراء) حتى إذا كنت في شط من الجبل (أي في جانب منه) سمعت صوتا من السماء يقول :

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فإذا جبريل على صورة رجل صاف قدميه ، وفي رواية : واضعا إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها

إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها ، وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة[٣١] . قبل الكلام على هذه الرواية يجب أن نصححها فنقول أن المفهوم / ١٣٧/ من قوله "حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها" أن خديجة كانت معه بغار حراء ، وهو يخالف ما روي أن خديجة صنعت طعاما ثم أرسلته إلى رسول الله فلم تجده بحراء ، فأرسلت في طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده ، فشقّ ذلك عليها فبينما هي كذلك إذ أتاها فحدثها بما رأى وسمع .

فإن هذا يدل على أنها لم تكن معه بحراء وهو الصحيح ، لأنه إنما كان يذهب إلى حراء للخلوة والانقطاع عن أهله وعن الناس .

هذا ولا شك أن محمدا قبل هذه الحادثة ، أعني رؤيته جبريل في أفق السماء ، كان يعرف اسم جبريل وأنه الواسطة بين الله وبين رسله أخذ ذلك عن اليهود والنصارى أو عن كتبهم ، ولا غرابة في معرفته ذلك فإن ورقة بن نوفل كان يعرف جبريل ويعرف أنه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى . ثم إن محمدا كان قبل هذه الحادثة أيضا قد حصلت عنده فكرة النبوة واختمرت في نفسه كما سنبين ذلك في موضعه ، فلا ريب فيه أنه في خلوته بغار حراء كان لا يفكر إلا في أمر النبوة , وأن تفكيره كان مقرونا بتخيل جبريل وتصوره كيف يأتيه وكيف يناديه ويوحي إليه ، ولا يستطيع طبعا أن يتخيله إلا بصورة إنسان ، فهذه العوامل كلها من خلوته وطول تفكيره وتخيله وانطباع الصورة المخيلة في نفسه هي التي أثرت في أعصابه حتى اعترته حالة رأى فيها جبريل في أفق السماء ، وهو في الحقيقة ليس في أفق السماء بل في ذهنه ونفسه ، وحتى سمع منه ما كان هو يفكر فيه : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) . وأيضا قد ذكرنا لك فيما تقدم أن العقل الباطني في كل إنسان إنما ينتبه ويكون فعالا إذا تعطلت الحواس الظاهرة بالنوم أو بما يشبه النوم من إغماء ونحوه . ونقول هنا أن محمدا كان من عقله الباطني الكامن في غرائزه على حالة فيها شذوذ عن غيره من سائر الناس ، فإن عقله الباطني كان لا يتوقف على انتباهه على تعطيل الحواس الظاهرة بالمرة بل قد يكون عقله الباطني في بعض الأحيان فعالا بأدنى فتور يعتريه أو بأقل سنة تأخذه ، وهو في اليقظة كما حصل له ذلك في غزوة بدر الكبرى فإنه لمّا التقى الجمعان قبل أن يلتحموا بنوا لرسول الله عريشا فوق تل مشرف على المعركة فدخله رسول الله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره[٣٢] ، وصار رسول الله يناشد ربه بما وعده من النصر ويقول : اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد ، وفي رواية : اللهم ان أظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك ولا يقوم لك دين . وما زال يدعو ربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه فأخذ أبو بكر رداءه وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك تناشد ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، وفي رواية : والله لينصرنك الله وليبيضن وجهك[٣٣] ، ثم أن رسول الله خفق خفقة (أي مال رأسه من النعاس) ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه على ثناياه النقع وهو يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته[٣٤] .

فانظر إلى هذه الخفقة التي خفقها وهو قائم في العريش كيف كانت كافية لأن ينتبه فيهاعقله الباطني ويكون فعالا حتى رأى جبريل على صورة تناسب حالة الحرب التي هو فيها وسمعه يقول ما يفكر هو فيه ويريده من النصر : أتاك النصر من الله إذ دعوته .

فيجوز أن تكون رؤيته جبريل في أفق السماء بعد خروجه من الغار قد حصلت لـه بأقل من هذه الخفقة التي خفقها وهو قائم في العريش ، وذلك بأن تكون قد حصلت لـه بمـا اعتراه من فتور شبيه بالنعاس سببه التعب الذي استولى على أعصابه المتهيجة من طول التفكير في الخلوة ، فكان هذا الفتور كافيا لأن يرى ما قد قام في ذهنه من الثورة المخيلة لجبريل ، وأن يسمع منه قولا يمثل ما كمن من نفسه من أمر النبوة والرسالة . والنتيجة هي أنه يجوز أن تكون هذه العوامل كلها من خلوته ومن طول تفكيره وقوة تخيله ومن انطباع الصورة المخيلة في نفسه ومن انتباه عقله الباطني بما اعتراه من شبه النوم قد اشتركت في حصول هذه الرؤية له ، فتكون رؤيته هذه من قبيل الرؤيا وإن لم يغب عن الحس ، لأن الرؤيا التي هي فعالية خياله ما قاله لسلمان الفارسي عند البرقات التي برقت لمّا ضرب الكدية بالمعول يوم الخندق .

ذلك أن سلمان الفارسي كان يحفر في ناحية من الخندق ورسول الله قريب منه فصادف كُدية (محل صلب) غلظت عليه ، فلمّا رأى رسول الله تلك الكدية اشتدت على سلمان أخذ المعول منه وقال : بسم الله ، وضرب ضربة فكسر ثلثها ، وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن فكبّر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح اليمن إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فخرج نور من قبل الروم فكبّر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها ، زاد في رواية الحمر ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة فكبّر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب في مكاني هذا ، وفي رواية : إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن . وجعل يصف لسلمان أماكن فارس ، ويقول سلمان : صدقت يا رسول الله ، هذه صفتها ، أشهد أنك رسول الله ثم قال رسول الله : هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان[٣٥] .

إن هذا الخبر يدل صراحة أولا على الغاية التي يقصدها محمد ، وقد تقدم الكلام على ذلك مفصلا ، ثانيا على قوة خياله ، وذلك أنه لمّا كان هذا العمل منه أي هذه الضربات التي أنزلها على الكدية إنما هو لأجل غايته وفي سبيل الوصول إليها ، أخذ يتصور حصول تلك الغاية ويتخيلها عند كل ضربة يضربها على الكدية حتى صار كأنه يراها بعينه من بعد ، ولذلك قال كأنها أنياب الكلاب ، وهذا يؤيد ما قلناه من أنه كان قوي الخيال بحيث إذا تخيل شيئا تجسم في نظره حتى يكون كأنه يراه بعينه ويسمعه بأذنه ، وليس قوله : "أعطيت مفاتيح اليمن ومفاتيح الشام ومفاتيح فارس" من قبيل الإخبار بالغيب بل هو إنما قال ذلك على طريق التفاؤل لأنه كان كثير التفاؤل ، شديد التشاؤم كما سنذكره في موضعه ، فإن أول ضربة أنزلها على الكدية لمّا كانت في جهتها المقابلة لليمن ، ورأى ضربته قد نجحت فكسرت ثلث الكدية تفاءل بهذا النجاح كما تفاءل بالنور الذي خرج من تحت المعول ، فقال أعطيت مفاتيح اليمن لأنه كان عند الضرب متخيلا غايته ومتصورا لها ، وقد جاء فيما روي عنه أنه قال : "تفاءلوا بالخير تجدوه"[٣٦] وكذلك فعل عند الضربة الثانية ، وكذلك عند الثالثة ، وأما ما جاء في هذا الحديث من وصفه لسلمان بلاد فارس ، ومن قول سلمان له : صدقت يا رسول الله هذه صفتها ، فالذي أراه أنه من تلفيق الرواة ، وأنه غير صحيح ، وإن صح كان دليلا إمّا على أنه سمع وصف بلاد فارس ممن رآها ، وإمّا على أنه سافر إلى بلاد فارس فرآها ، لأني أعتقد أن ما جاء في كتب السير من أسفاره ناقص ، وأنهم لم يستوفوا كل أسفاره التي سافرها في البلاد .

ومما يدل على أنه يجسم الخيال فيعامله معاملة الحقيقة ويبني عليه ما يبني على الحقيقة حديث الأسود الراعي الذي قتل في غزوة خيبر ، وذلك أنه لمّا كان رسول الله محاصرا خيبر جاء إليه الأسود الراعي

وكان عبدا حبشيا اسمه أسلم وقيل اسمه يسار وكان أجيرا لرجل من اليهود يرعى غنمه فقال له : يا رسول الله اعرض علي الإسلام ، فعرضه عليه فأسلم ، وفي رواية أنه قال : إن أسلمت فماذا لي ؟ قال : الجنة ، فأسلم ثم تقدم فقاتل مع المسلمين فأصابه حجر ، وفي رواية : سهم غَرْب (لا يعرف راميه) فقتله ولم يسجد لله سجدة ، فأتي به إلى رسول الله ومعه نفر من أصحابه ، فأعرض عنه ، فقالوا : يا رسول الله ، لِمَ أعرضت عنه ؟ فقال : إن معه زوجتيه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه وتقولان له : ترب الله وجه من ترك وجهك ، وقتل من قتلك(٣٧) .

فانظر إليه كيف جسم خياله له حتى أعرض عنه حياءَ كما يعرض عن الرجل إذا رآه مع زوجته ، ولا شك أنه أعرض عنه لعلمه أنهم سيسألونه عن هذا الإعراض ، فلمّا سألوه قال لهم ما قال ترغيبا لهم في الشهادة وتشويقا لهم إليها ، وكان يتحيّن الفرص إلى الترغيب فيها كما كان يعظم أمرها كل التعظيم .

عرض رسول الله نفسه على القبائل

جلس رسول الله إلى شيبان بن ثعلبة يعرض نفسه عليه فقال له شيبان :

إن أحببت أن نؤيدك وننصرك مما يلي مياه العرب دون ما يلي أنهار كسرى فعلنا ، فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ، أن لا نحدث حدثا وأن لا نؤوي محدثا ، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك . فقال رسول الله : ما أسأتم في الرد ، إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ، ويفرشك نساءهم ، تسبحون الله وتقدسونه . فقال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا ، فتلى رسول الله : "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. وبشر المؤمنين"(٣٨) . ثم نهض رسول الله(٣٩) . وفي السيرة الحلبية أيضا : لما قدمت بكر بن وائل مكة للحج ، قال رسول الله لأبي بكر : ائتهم فاعرضني عليهم ، فأتاهم فعرض ، فقال لهم : كيف العدد فيكم ؟ قالوا : كثير مثل الثرى ، قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة جاورنا فارس ، فنحن لا نمنع عنهم ولا نجير عليهم ، قال : أفتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم ، وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم ، أن تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين ، وتحمدون ثلاثا وثلاثين ، وتكبروه ثلاثا وثلاثين ، قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله ، ثم مرّ بهم أبو لهب ، فقالوا له : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، فأخبروه بما دعاهم إليه ، وأنه زعم أنه رسول اله ، فقال لهم : لا ترفعوا لقوله رأسا ، فإنه مجنون يهذي من أم رأسه ، فقالوا : لقد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر(٤٠) .

في هذين المجلسين اللذين جلس فيهما محمد إلى شيبان بن ثعلبة وإلى بكر بن وائل لما رأى القوم يخضعون لفارس ويهابونها ويعظمون أمرها ، استعمل في كلامه معهم المرغبات المعنوية كالجنة وما فيها من نعيم مقيم ، وأخذ بالمرغبات المادية ، فقال لهم ما أفهمهم به أنه إذا اتبعوه إلى ما يريد ورثوا أرض فارس وأموالهم ، ونزلوا منازلهم واستنكحوا نساءهم ، واستعبدوا أبناءهم . ففي كلامه ذلك إشارة إلى الغاية التي يسعى إليها من وراء الدعوة ، والتي صرح بها لقومه قبل ذلك ، إذ قال لهم: أعطوني يدا تملكون بها العرب وتدين لكم العجم .

بيعة العقبة

قال كعب : فما جلسوا كان العباس أول من تكلم ، فقال : يا معشر الخزرج ، إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ؛ فإن كنم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن تدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده . فقال البراء بن معرور : إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله . قال : وعندما تكلم العباس بما ذكر قالوا له : قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، وفي رواية : خذ لنفسك ما شئت ، واشترط لربك ما شئت . فقال النبي : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به ، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم . فقال ابن رواحة : فإذا فعلنا فما لنا ؟ قال : لكم الجنة ، فقالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (أي نساءنا وأنفسنا لأن العرب تكني بالإزار عن المرأة وعن النفس) فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة (أي السلاح) ورثناها كابرا عن كابر ، قال : وبينما البراء يكلم رسول الله قال أبو الهيثم بن التيهان : نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف ، فقال العباس (وكأنه قد أحس بشئ حولهم) : اخفوا جرسكم ، فإن علينا عيونا ، ثم قال أبو الهيثم : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا (أي عهودا) وإنا قاطعوها ، يعني اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال : فتبسم رسول الله ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . وعند ذلك قال لهم العباس : عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم ، لتجدن في نصرته ولتشدن من أزره . فقالوا جميعا : نعم ، قال العباس : اللهم أنت سامع شاهد ، وإن ابن أخي قد استرعاهم ذمته واستحفظهم .

لجوء رسول الله للغار في خروجه من مكة للمدينة

في الدر عن عائشة أنها قالت : ما كان أحد يعلم مكان ذلك الغار إلا عبد الله بن أبي بكر ، وأسماء بنت أبي بكر ، فإنهما كانا يختلفان إليهما ، وعامر بن فهرة ، فإنه كان إذا سرح غنمه مرّ بهما ، فحلب لهما . قال : وفي "الفصول المهمة" : وأقام رسول الله ثلاثة أيام بلياليها في الغار ، وقريش لا يدرون أين هو ، وأسماء بنت أبي بكر تأتيهما ليلا بطعامهما وشرابهما[٤١] .

هذه هي حياتهما التي قضياها في الغار وهي كما تراها حياة لا ضنك فيها ، فلا سغب ولا ظمأ ، وذلك بفضل أبي بكر وابنه عبد الله وابنته أسماء ومولاه عامر بن فهيرة ، وإن كان ثمة أمر مزعج فهو الخوف من الطلب ليس إلا . نعم هي ليست بحياة مدنية ، بل هي كحياة الإنسان يوم كان يعيش في المغاور والكهوف .

بقي هنا أن نذكر لك ما جاء في بعض الروايات من أمر الشجرة والعنكبوت والحمامتين ولم يذكر شيئا من ذلك ابن إسحاق .

قال الحلبي في سيرته : ولما دخل رسول الله وأبو بكر الغار أمر الله شجرة (قيل هي من السمر وقيل من العشر) ، فنبتت في وجه الغار فسترته بفروعها ، وقد روى بعضهم : كانت أمام الغار بعيدة عنه ، وأن رسول الله دعاها فأقبلت حتى وقفت على باب الغار وأنها كانت مثل قامة الإنسان(٤٢) .

أقول يفهم من قوله : "فنبتت في وجه الغار فسترته" أنها صارت له كالباب ، وأن فروعها كانت متكاثفة متشابكة بحيث صار الغار لا يرى من خلالها ، وإلا فكيف سترته ، وسيأتي ما يناقض هذا في حديث قريش لما جاؤوا إلى جبل ثور للطلب . وإن صح هذا الخبر ، وهو بعيد عن الصحة ، قلنا : يجوز أن تكون الشجرة نابتة من قبل لا بعد دخول الغار ، ولكن الرواة غيروا وبالغوا ، كما جاء في الرواية الثانية أنها كانت نابتة من قبل ، ولكنها بعيدة عن الغار ، وأن رسول الله دعاها فأقبلت حتى وقفت على باب الغار ، فصاحب الرواية الأولى بالغ في إنباتها، فقال : نبتت بعد الدخول في الغار ، وصاحب الرواية الثانية بالغ في قربها من الغار ، فقال : دعاها رسول الله فأقبلت ، كما بالغوا في مدة الاختفاء في الغار فجعلوها بضعة عشر يوما ، فقد جاء في بعض الروايات في حديث مرسل : قال : مكثت مع صاحبي في الغار بضعة عشر يوما ما لنا طعام إلا ثمر البربر (هو ثمر الأراك) .

قال ابن عبد البر وهذا أي القول بأنهما مكثا في الغار بضعة عشر يوما غير صحيح عند أهل العلم بالحديث(٤٣) .

قال الحلبي : وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها نسجا متراكما بعضه على بعض كنسيج أربع سنين(٤٤) .

أقول : أما نسج العنكبوت ما بين فروع الشجرة فممكن ، لأنها تستطيع أن تنسج في ساعة نسجا كثيرا ، وأما أنه متراكم كنسج أربع سنين فمبالغة . ثم إن نسج العنكبوت على غار اختفى فيه رجل لا يعد من خوارق الطبيعة ، فقد نسجت العنكبوت على عبد الله بن أنيس لما أرسله محمد ليقتل سفيان بن خالد ، فقتله غيلة ، وقطع رأسه ، وأخذها ودخل في غار في الجبل وكنّ فيه حتى انقطع عنه الطلب ، وقد جاءت العنكبوت فنسجت على الغار الذي هو فيه(٤٥) . قال : وأمر الله تعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ويروى أنهما باضتا وفرختا(٤٦) .

أقول : أما وقوف الحمامتين بفم الغار فممكن ، وليس بأمر غريب ، ولا من خوارق الطبيعة ، وأما أنهما باضتا وفرختا ، فمبالغة ، لأن مدة ثلاث ليال لا تحتمل ذلك ، وإلى قصة الحمامة والعنكبوت أشار صاحب الهمزية بقوله :

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء

فذكر الحمامة والعنكبوت ، ولم يذكر الشجرة ، فعلى هذا يكون نسج العنكبوت على فم الغار لا فروع الشجرة كما قالوا . واقتصر على ذكر حمامة واحدة لا حمامتين ، ولذا لم يذكر أنها باضت وفرخت ، والذي نراه هو أن هذه الأخبار من تلفيق الرواة ، ولم تذكر عن رواية ابن إسحاق في السيرة الهشامية .

ومن المناسب بعد هذا أن نذكر لك ما ذكروه من أمر قريش وخروجهم للطلب لما فقدوا محمد من مكة .

قال صاحب السيرة الحلبية : إن المشركين لما فقدوا رسول الله شق عليهم ذلك ، وخافوا ذلك ، فطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة (أي الذين يقصون الأثر) في كل وجه يقتفون أثره ، فوجدوا الذي ذهب إلى جبل ثور أثره . قال : وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم ، فلما كان فتيان قريش على أربعين ذراعا من الغار تعجل بعضهم ينظر في الغار ، فلم يرَ إلا حمامتين وحشيتين مع العنكبوت ، فقال : ليس فيه أحد ، فسمع النبي ما قاله فعرف أن الله عز وجل قد درأ عنه . وفي رواية : لما انتهوا إلى فم الغار قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما أربكم (أي حاجتكم) إلى الغار ، إن عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد . قال : ثم جاء قبالة فم الغار فبال ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنه يرانا ، فقال رسول الله : يا أبا بكر لو كان يرانا ما فعل هذا . وفي بعض الروايات : لو رآنا ما تكشف عن فرجه . وقال أبو جهل : أما والله إني لأحسبنه قريبا يرانا ، ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا فانصرفوا[٤٧] .

أما ابن إسحاق فلم يذكر من ذلك شيئا سوى ما حدث به عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله وأبو بكر ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي ، قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشا خبيثا ، فلطم خدي لطمة فطرح منها قرطي ، قالت ثم انصرفوا[٤٨] .

ملاحظة

يفهم من قول صاحب السيرة الحلبية : "فلما كان فتيان قريش على أربعين ذراعا من الغار ، تعجل بعضهم ينظر في الغار"[٤٩] : أن فتيان قريش قد رأوا الغار من مسافة أربعين ذراعا ، وهذا يناقض ما قاله في شأن الشجرة أنها نبتت في وجه الغار فسترته ، فإذا كان وجه الغار مستورا بفروع الشجرة المملوءة بنسيج العنكبوت المتراكم بعضه فوق بعض – كما قال – فكيف رأوه من مسافة أربعين ذراعا .

وأيضا يفهم من قول أمية بن خلف : "إن عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد"[٥٠] : أن أمية استدل بوجود نسج العنكبوت على أن الغار لم يدخله أحد ، إذ لو كان دخله أحد لتمزق النسج ، ولذلك قال لهم : "وما أربأكم إلى الغار"[٥١] . وهذا يناقض الأحاديث التي ذكرناها في الحياة التي قضاها محمد وأبو بكر في مدة الاختفاء في الغار ، فقد قلنا إن أسماء بنت أبي بكر كانت تأتيهما بطعامهما وشرابهما ، ولكي توصل إليهما طعامهما ، إما أن تدخل عليهما ، وإما أن يخرجا كلاهما أو أحدهما إليها ، فمع هذا كيف بقي نسج العنكبوت ولم يتمزق ؟ وأيضا : إن عبد الله بن أبي بكر كان يأتيهما بأخبار قريش إذا أمسى ، فيبيت عندهما ، ثم يغدو إلى مكة بغلس ، ولا شك أنه كان يبيت معهما في الغار فيدخل ويخرج . وأيضا : إن عامر بن فهيرة كان إذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر ، فاحتلبا وذبحا – كما مرّ في رواية ابن إسحاق – فكيف كانا

يحتلبان ويذبحان إذا لم يخرجا من الغار ، وإذا قلنا : إن عامرا هو الذي كان يحتلب ويذبح لهما ، فكيف كان يوصل ما يحتلبه إليهما ، وهل يكون ذلك إلا بدخوله عليهما أو بخروجهما إليه؟ فالدخول إلى الغار والخروج منه ، يقطع بالنظر إلى هذا مرارا في كل يوم ، فكيف يبقى نسج العنكبوت سالما غير ممزق بحيث يراه أمية بن خلف فيعرف منه أن الغار لم يدخله أحد قبل ميلاد محمد . إن هذا إلا اختلاق .

والذي نراه هو أن طلب قريش لمحمد – إن كان واقعا – فإنه لم يقع في جبل ثور بأسفل مكة ، وإنما وقع بأعلى مكة . وذلك لأن قريشا تعلم أن محمدا إذا فرّ ، فإنما يريد بفراره المدينة الكائنة في شمالي مكة ، والطريق إليها يكون من أعلى مكة لا من أسفلها ، وجبل ثور واقع خلف مكة في طريق اليمن ، أي في جهتها الجنوبية ، فمن البعيد أن تطلب قريش محمدا في تلك الجهة ، وما اختار محمد جبل ثور إلا لهذه الحكمة .

اقتران الدعوة بالسيف

كان محمد في مكة هو وأصحابه مستضعفين لا قوة لهم على خصومهم من كفار قريش ، ولذا كان يدعو الناس إلى الإسلام بالوعظ والإنذار من طريق المسالمة كما جاء في القرآن : "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"[٥٢] . فهذه الآية كانت شعارا للدعوة في مكة ، ولكنه لما هاجر إلى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى ، قويت شوكته واشتد جناحه بالأنصار الذين بايعوه ، والمهاجرين الذين تابعوه ، وعندئذ قرن دعوته بالسيف ليقاتل خصوم دعوته من الكافرين ، إلا أنه جرياً على ديدنه في جميع أمور الدعوة ، تدرج قرار القتال تدرجا منطبقا على مقدار ما عنده من قوة حربية .

فأول آية نزلت في القتال بالمدينة هي : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله"[٥٣] . فهذه الآية تضمنت أمرين : أحدهما الإذن بالقتال أي جعله مباحا لهم من غير أن يفرض عليهم فرضا ، والثاني أن الإذن لهم بالقتال إنما هو بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق . فسياق االآية يدل على أن المأذون لهم بالقتال هم المهاجرون لا الأنصار لأنهم لم يظلموا ولم يخرجوا من ديارهم" . على أنه لا حاجة هناك إلى الإذن بالقتال للأنصار ، لأنهم يقاتلون بحكم البيعة التي بايعوا بها محمدا على أن يحموه وينصروه ، ويجوز أن يكون الإذن عاما للمهاجرين والأنصار ، وإن كان سببه خاصا بالمهاجرين ، هذه أول خطوة خطاها محمد في أمر القتال . ثم إنه تقدم فيه خطوة أخرى ، فجعله فرضا على المسلمين ، ولكن لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، إذ قال : "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم"[٥٤] ، وهذه هي الحرب الدفاعية . واستمر الحال على ذلك إلى السنة الثامنة من الهجرة ، حتى حصل لمحمد من القوة والشوكة ما استطاع به أن يعلن الحرب الهجومية العامة ، بأن فرض على المسلمين قتال المشركين كافة من قاتلهم ومن لم يقاتلهم ، وبذلك نزلت سورة براءة التي نبذ فيها إلى المشركين عهودهم وبرئ منهم ، وأمهلهم أربعة أشهر ، وهي الأشهر الحرم ، وأعلمهم أنه وإياهم في حالة حرب مستمرة فيما عدا هذه الأشهر الأربعة . وكان ذلك سنة ثمان وقيل سنة تسع للهجرة .

ولا ريب أن محمدا صمم على الحرب وإعمال السيف في الدعوة منذ بيعة العقبة الكبرى ، كما ذكرناه لك هناك ، إلا أنه لم يظهر ذلك إلا في المدينة ، وقد أشار إليه يوم تحوله من قباء إلى المدينة ، إذ قال له أهل

قباء ، وهم بنو عمرو بن عوف : يا رسول الله ، أخرجت ملالا لنا أم تريد دارا خيرا من دارنا ؟ قال : إني أمرت بقرية تأكل القرى ، وفي رواية : أمرت بقرية تأكل القرى يثرب . قال الحلبي في سيرته : ومعنى تأكل القرى : تغلبها وتقهرها ، والمراد بالقرية أهلها أي أن أهلها يفتحون القرى بسيوفهم فيأكلون أموال تلك القرى ويسبون ذراريهم[٥٥] . وقد جاء عن عمر : بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري[٥٦] ، وهو حديث يؤيده القرآن ، وكذلك حديث : أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وفي لفظ : حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله[٥٧] .

ولا يخفى أن محمدا لما قدم المدينة لم يكن له من العرب أعداء يقاومونه غير كفار قريش ، ولما كانت قريش أهل تجارة ، وكانت قوافلهم وعيراتهم متتابعة بين مكة والشام ذهابا وإيابا ، وكانت المدينة على طريقهم ، وكان أول شئ يجب فعله للعدو هو أن تقطع عليه طرق المواصلة ، أخذ محمد يترصد قوافل قريش وعيراتهم ، فكلما سمع بعير لهم قادمة من مكة أو راجعة من الشام خرج إليها غازيا بنفسه ، أو أرسل إليها سرية من جيشه .

ولم يمر عليه بعد مقدمه المدينة سبعة أشهر إلا وأرسل سرية بقيادة عمه حمزة ليعترض عيرا لقريش جاءت من الشام تريد مكة[٥٨] ، وفي الشهر الثامن من الهجرة أرسل سريته بقيادة عبيدة بن الحارث ليعترض عيرا لقريش أيضا[٥٩] . وبعضهم يقدم سرية عبيدة على سرية حمزة . وهكذا أخذت السرايا تتوالى ، إلا أن محمدا لم يخرج بنفسه إلا في أوائل السنة الثانية من الهجرة ، وأول غزوة غزاها هي غزوة ودان (قرية كبيرة بين مكة والمدينة) وكانت في صيف من السنة الثانية للهجرة[٦٠] . وقد بلغت غزواته التي خرج فيها بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، كما بلغت سراياه سبعا وأربعين سرية وسنتكلم عن كل غزوة ، وسرية بما يخصها في ما سيأتي .

أما جيشه فكان في أول الأمر صغيرا ، ثم كبر وتكاثر بتكاثر المسلمين . فأول غزوة غزاها وهي غزوة ودان كان معه فيها سبعون رجلا[٦١] . ثم غزا بدرا في السنة الثانية بخمسة وثلاثمائة ليس فيهم إلا خمسة فوارس وقيل فارسان[٦٢] . ثم غزا خيبر سنة ست بألف وستمائة مقاتل فيهم مائتا فارس ، ثم غزا مكة سنة ثمان بعشرة آلاف مقاتل فيهم ألف فارس ، ثم غزا تبوك يريد الروم سنة تسع بثلاثين ألف مقاتل ، وقيل : بأربعين ألفا ، وقيل : بسبعين ألفا ، فيهم عشرة آلاف فارس ، وقيل : اثنا عشر ألف فارس وهذا أكبر جيش غزا به محمد[٦٣] .

ومما لا يستراب فيه أن الدعوة لما اقترنت بالسيف ، أخذ عدد الداخلين في الإسلام يزداد مطردا بازدياد سيوف الدعوة ، فكان كلما قويت الشوكة زاد المسلمون زيادة مناسبة لها ، وكثر المقاتلون في جيش الدعوة كثرة تناسب قوتها ، كما على ذلك عدد المقاتلين في جيوش الغزوات التي ذكرناها آنفا والتي زاد فيها عدد المحاربين من سبعين رجلا حتى بلغ ألفا في تسع سنين . ولو عاش محمد بعد غزوة تبوك بضع سنين أخر ، وظل جيشه فيها يزداد بهذه النسبة لبلغ مائتي ألف مقاتل بلا ريب .

ومن هذا نستطيع أن نستنتج أن الذين دخلوا في الإسلام مدة حياة محمد في المدينة كان أكثرهم يدخلون فيه خوفا من السيف ، وأن الذين اعتنقوه كمبدأ ذي غاية شريفة قليلون . ويؤيد هذه النتيجة ارتداد أكثرهم عقب وفاة محمد ، ولولا عزم أبي بكر الذي لا يقل في صدقه ومضائه عن عزم محمد ، ولولا إصابته في اتخاذ التدابير الناجرة لمناجزة المرتدين ، ولولا أن قيض الله له رجالا من القواد العظام كخالد بن الوليد وأضرابه ، فجلا بسيوفهم عماية أهل الردة ، لكنا اليوم نقرأ خبر صاحب الدعوة الإسلامية وأخبار الإسلام والمسلمين في الكتب ليس إلا .

المرغبات في الجهاد

كان محمد يرغب المسلمين في القتال والجهاد في سبيل الله بأمرين : أحدهما غائب ، والآخر حاضر ، وإن شئت فقل أحدهما معنوي والآخر مادي ، أما المعنوي فهو الجنة ونعيمها الخالد المقيم . والمفهوم من الأحاديث النبوية ، إنه ليس هناك طريق يؤدي إلى الجنة تأدية مضمونة بكل سلامة واطمئنان سوى الشهادة ، وهي أن يموت المرء قتيلا في سبيل الله ، فلذا كانت الشهادة أكبر مرغب في القتال .

وإليك بعض ما روي من الأحاديث في هذا الباب . قال : إن للشهيد عند الله خصالا: أن يغفر له من أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلية الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه[٦٤] .

وقال لجابر بن عبد الله وقد استشهد أبوه[٦٥] : ألا أخبرك ما قال الله لأبيك ؟ قال : بلى ، قال : ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب وكلّم أباك كفاحا (أي وجاها) ، فقال : يا عبدي تمنّ عليّ أعطك ، قال : يا رب أحيني فأقتل فيك ثانية ، قال : إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون ، قال : يا رب فابلغ من ورائي . فانزل إليه : "ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"[٦٦] .

وجاء مثل هذا في رواية أخرى أنه قال : يخاطب أصحابه بعد غزاة أحد : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم من أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن منقلبهم قالوا : يا ليت أخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا يتكلموا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله على رسوله : "ولا تحسبن الذين قتلوا ..." الآية[٦٧] .

وفي المسند أيضا : أفضل الشهداء الذين يلقوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون (أي يضطجعون) في الغرف العلى من الجنة ، ويضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه . والأحاديث في هذا كثيرة فمن أرادها ليرجع إلى كتب الحديث .

أم حارثة بن قيس الأنصاري جاءت إلى النبي بعدما قتل ابنها يوم بدر وهو غلام ، فقالت : يا رسول الله ، حدثني عن حارثة ، فإن يكن في الجنة لم أبك عليه ولكن أحزن ، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في

دار الدنيا . وفي رواية : إن يكن في الجنة صبرت وإن يكن غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، فقال لها : يا أم حارثة ، أنها ليست بجنة ولكنها جنات ، وحارثة في الفردوس الأعلى ، فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة(٦٨) .

ما أورده صاحب السيرة الحلبية في غزوة بدر ، وقال : ثم خرج رسول الله من العريش إلى الناس فحضّهم وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فقال عمير ابن الحمام (بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم) وبيده ثمرات يأكلهن : بخ بخ ما بين وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف الثمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل(٦٩) .

وقال عوف بن الحارث بن عفراء : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ (أي ما يرضيه غاية الرضا) قال : غمسه يده في العدو حاسرا (أي لا درع له ولا مغفر) ، فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل .

وأما المادي : فهو الغنائم والسبايا ، ومن المعلوم أن العرب في جاهليتهم كانوا يغتنمون الأموال ويستبون النساء والرجال في حروبهم .

فأقر محمد هذه العادة في الإسلام ، وأحل لجيوشه الغنائم ، وجعل ذلك من خصائصه التي اختص بها دون من كان قبله من الأنبياء ، كما جاء في ذلك أنه قال : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : أرسلت للناس كلهم عامة ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا ، والتراب طهورا"(٧٠) .

فكان يرغب أصحابه في الغزو بالغنيمة كما قال لعمرو بن العاص لما أرسله في غزوة ذات السلاسل ؛ فعن عمرو بن العاص قال : بعث إليّ رسول الله فأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي ، وقال : يا عمرو ، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك ، فقلت : إني لم أسلم رغبة في المال ، قال : نعم المال الصالح للرجل الصالح(٧١) .

ولما خرج إلى تبوك وتجهز الناس قال للجد بن قيس : يا جد ، هل لك في جلاد بني الأصفر ، وفي لفظ : يا أبا قيس ، هل لك أن تخرج معنا لعلك تحقب (أي تردف خلفك) من بنات بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي (أي في التخلف) ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله وقال له : أذنت له : فأنزل الله تعالى : "ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني" الآية(٧٢) .

وفي رواية أخرى أنه قال : اغزوا تبوك تغنموا بنات بني الأصفر نساء الروم . فقال قوم من المنافقين: ائذن لنا ولا تفتنا ، فأنزل الآية : "ألا في الفتنة سقطوا"(٧٣) .

فكانت الغنائم من حوافزهم إلى الغزو ، ومن مرغباتهم في الخروج للقتال . حتى أن حبيب بن يساف الخزرجي ، خرج مع المسلمين في غزوة بدر وهو مشرك غير مسلم طمعا في الغنيمة ، ففرح المسلمون بخروجه ، إلا أن رسول الله لم يقبله ، وقال له : ارجع فإنا لا نستعين بمشرك ، فراجع رسول الله وتكررت منه المراجعة ، فأبى رسول الله أن يخرج معهم إلا إذا أسلم ، فأسلم ومضى معه[٧٤] . ولا ريب أن إسلامه لم يكن إلا لأجل الغنيمة .

ولا يخفى أن الغنيمة وإن كانت ترغبهم في الخروج إلى الحرب إلا أنها ليست من المرغبات التي تجعلهم يصدقون في القتال كالجنة . فإن الجنة لا تنال إلا بالشهادة التي هي الموت بالقتل في صدمة الحرب ، فهي لذلك تجعلهم يصدقون في حملتهم على العدو ويصلون معمعان الحرب مستقتلين . وليست كذلك الغنيمة ، فإنها تحصل بدون ذلك ، فلذا كان محمد يكره أن يراهم إذا خرجوا طامعين في الغنيمة فقط ، ويسره منهم أن لا يخرجوا إلا راغبين في الجهاد ، كما قال ذلك يوم خيبر ، فإنه لما رجع من الحديبية وخرج إلى خيبر في أول سنة سبع ، جاء الذين كانوا قد تخلفوا عنه في غزوة الحديبية يريدون الخروج معه رجاء الغنيمة ، فقال لهم : لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا . ثم مر مناديا ينادي بذلك فنادى .

أما تقسيم الغنائم بينهم فإليك ما جاء عن ذلك في زاد المعاد لابن القيم قال : وكان إذا ظفر بعدوه أمر مناديا فجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها (سيأتي الكلام في الأسلاب قريبا) ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أمر الله به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش للفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه ، وللراجل سهم . قال : وكان يسوي بين الضعيف والقوي في القسمة ما عدا النفل ، وكان إذا أغار في أرض العدو بعث سرية بين يديه ، فما غنمت ، أخرج خمسه ونفلها ربع الباقي ، وقسم الباقي بينها وبين سائر الجيش . قال : وكان له سهم من الغنيمة يدعى الصفى ، إن شاء عبدا وإن شاء أمة ، وإن شاء فرسا يختاره قبل الخمس[٧٥] .

قال : وكانوا يستأجرون الأجراء للغزو على نوعين ، أحدهما أن يخرج الرجل ويستأجر من يخدمه في سفره ، والثاني أن يستأجر من ماله من يخرج في الجهاد ، ويسمون ذلك الجعائل ، وفيها قال النبي : للغازي أجره وأجر الغازي . وكانوا يتشاركون في الغنيمة على نوعين أيضا ، أحدهما شركة الأبدان ، والثاني أن يدفع الرجل بعيره إلى الرجل أو فرسه فيغزو عليه على النصف مما يغنم ، حتى ربما اقتسما السهم فأصاب أحدهما قدحه والآخر نصله وريشه ، قال : وكان لا يسهم لمن قدم من المدد بعد الفتح[٧٦] ، انتهى .

أما السبايا من الرجال والنساء فكانت كأموال الغنائم تقسم على الجيش أيضا من ضمن تقسيم الأموال . فتكون السبايا ملكا لهم إن شاءوا استرقوهم ، وإن شاءوا باعوهم ، وإن شاءوا كاتبوهم ، وإن شاءوا أخذوا فداءهم إذا افتداهم أهلوهم .

وربما وقعت المرأة في سهم رجلين منهم ، فتكون ملكا للاثنين كما وقع ذلك في غزوة بني المصطلق ، قال الحلبي في سياق حديث هذه الغزوة : وأمر رسول الله بالأسارى فكتفوا ، واستعمل عليهم بريدة ، ثم فرق

السبي فصار في أيدي الناس ، ووقعت برة بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة من حصته من برة ، وكاتبها على تسع أوراق من ذهب[٧٧] .

قال : فدخلت (أي برة) على رسول الله ، فقالت : يا رسول الله ، إني امرأة مسلمة (أي لأنها أسلمت) لأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأني برة بنت الحارث سيد قومه ، أصابنا من الأمر ما قد علمت ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصني ثابت من ابن عمه بنخلات في المدينة وكاتبني على ما لا طاقة لي به ، وإن رجوتك فأعني في مكاتبتي ، فقال رسول الله : أو خير من ذلك ، قالت: ما هو ؟ قال : أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت : نعم يا رسول الله ، بأبي أنت ، فأدى رسول الله ما كان كاتبها عليه ، وأعتقها وتزوجها وهي ابنة عشرين سنة ، وسماها جويرية . ويذكر أن عليا هو الذي أسرها، قال : ولا مانع أن يكون علي أسرها ثم وقعت في سهم ثابت وابن عمه عند القسمة ، لأنه لم يثبت في هذه الغزوة أن النبي جعل الأسرى لمن أسرهم كما وقع في بدر .

قال : وعن عائشة قالت : كانت جويرية امرأة حلوة ، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فبينما النبي عندي ونحن على الماء (أي الذي هو المريسيع) إذ دخلت جويرية تسأله في كتاب ، فوالله ما هو إلا ن رأيتها ، فكرهت دخولها على النبي ، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت . فقالت : يا رسول الله ، إني امرأة مسلمة . الحديث . قالوا : إنما كرهت عائشة دخولها على النبي لما جبلت عليه النساء من الغيرة[٧٨] .

ويفهم من قصة برة أو جويرية أن السبايا إذا أسلموا لا ينجيهم من الرق ، بل يبقون ملكا لمن سباهم ، وهذا عجيب جدا ، لأنهم إنما قوتلوا وسبوا لأجل الإسلام ، فإذا أسلموا يلزم أن يكونوا أحرارا كغيرهم من المسلمين . وكانوا يطأون النساء والسبايا إن شاءوا لأنهن ملك أيمانهم ، ففي السيرة الحلبية : قال : روى الشيخان ، عن أبي سعيد الخدري أنه قال : غزونا مع رسول الله غزوة بني المصطلق فسبينا كرائم العرب واقتسمناها وملكناها ، فطالت علينا العزبة ، وفي لفظ : فأصبنا سبايا ، وبنا شهوة للنساء واشتدت علينا العزوبة ، وأحببنا الفداء ، وأردنا أن نستمتع ونعزل (العزل هو الإنزال خارج الفرج) وقلنا نعزل ورسول الله بين أظهرنا ! فسألناه عن ذلك ، فقال : لا عليكم أن لا تفعلوا ، ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة . أي ما عليكم حرج في عدم فعل العزل أي في الإنزال من الفرج ، لأن العزل هو الإنزال خارج الفرج بأن يجامع حتى إذا قارب الإنزال نزع فأنزل خارج الفرج ، وقوله : فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة ، أي أعزلتم أم لا فلا فائدة من عزلكم لأن الماء قد يسبق العزل إلى الرحم فيجيئ الولد وقد ينزل في الفرج ولا يجيء الولد .

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري : إن رسول الله بعث جيشا إلى أوطاس فلقي عدوا فقاتلوهم فظهروا عليهم ، وأصابوا سبايا ، وكان ناس من أصحاب رسول الله تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل في ذلك : "والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم"[٧٩] أي فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن . قال : فتضمن هذا الحكم إباحة وطء المسبية وإن كان لها زوج من الكفار ، وهذا يدل على محل حقه ، وعلى رقبة زوجته ، وصار سابيها أحق بها منه . إلى آخر ما قال[٨٠] .

وقد تباع هذه السبايا صفقة واحدة كما يباع المتاع . كما وقع في غزوة بني قريظة ، فإنهم بعدما ضربت أعناق رجالهم ، وكانوا ستمائة وقيل : سبعمائة وخمسين ، أرسلت نساؤهم وذراريهم إلى نجد لبيعهم وشراء خيل وسلاح بثمنهم . قال الحلبي في سيرته : ثم بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري بسبايا بني قريظة إلى نجد ، فابتاع لهم بهم خيلا وسلاحا ، وقيل : بعث بجملة منهم لا بهم كلهم وكان عدد السبايا ألفا .

وقال ابن اسحاق : وكان رسول الله اصطفى لنفسه من نسائهم (أي نساء بني قريظة) ريحانة بنت عمرو بن خنافة ، إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، فكانت عند رسول الله حتى توفي عنها وهي في ملكه ، فكانت من سراريه لا من أزواجه[٨١] .

وبالنظر إلى ما ذكرناه آنفا من تقسيم الغنائم نقلا عن ابن القيم ، تكون الأسرى كسائر أموال الغنيمة في تقسيمها على الجيش بعد إخراج الخمس منها . ولكن هذا كان بعد غزوة بدر ، فأما في غزوة بدر فإن النبي جعل الأسرى كالأسلاب ، فكل من أسر أسيرا فهو له ، وكل من قتل قتيلا فله سلبه ، وإنما فعل ذلك تحريضا على القتال وترغيبا في أخذ أسلاب القتلى وفداء الأسرى . فعلى هذا تكون الغنيمة التي تقسم على الجيش ما بقي بعد إخراج الأسلاب وإخراج الأسرى .

ففي الكشاف للزمخشري ، أن النبي شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم (أي يوم بدر) ، أن ينفله أي يعطيه زيادة على سهمه ، قال فتسارع شبّانهم حتى قتلوا سبعين ، وأسروا سبعين ، فلما يسر الله الفتح اختلفوا في ما بينهم وتنازعوا ، فقال الشبان : نحن المقاتلون ، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : نحن كنا ردا لكم وفئة تنحازون إليها أن انهزمتم . وقالوا لرسول الله : المغنم قليل والناس كثير ، وأنك إن لم تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك[٨٢] .

ولم تكن إذ ذاك قاعدة متبعة في تقسيم الغنائم ، رأى محمد أنه أمام مشكلة يجب حلها عاجلا لئلا يتسع الخلاف ويتمادى النزاع ، فلم يجد لتلك المشكلة حلا سوى أن ينزع الغنائم من أيديهم ويجعلها لله ولرسوله ، وحينئذ يكون الحكم فيها له وحده ، وإذا كان الحكم له هان الأمر . فأنزل من السماء : "يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله وللرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين"[٨٣] . فبهذه الآية نزعها الله من أيديهم وجعلها لمحمد يضعها حيث يشاء . قال الحلبي في سيرته : فدلت الآية على أن الغنيمة لرسول الله خاصة ليس لأحد من المقاتلة شئ منها[٨٤] .

أما محمد فإنه ، بعد ما صار الحكم إليه ، لم يخرج عن الشرط الذي شرطه لمن كان له بلاء في ذلك اليوم ، فجعل الأسرى لمن أسروهم ، وجعل أسلاب القتلى لمن قتلوهم ، وقسم الباقي على المسلمين بالسوية ، وكان سهمه كسهم واحد منهم ، إلا أنه تنفل زيادة على سهمه سيفه ذا الفقار ، وكان لمنبه بن الحجاج ، وقيل : لابنه العاص ، وتنفل أيضا زيادة على سهمه جمل أبي جهل وكان مهريا[٨٥] ، لأن محمد كان له الصفى ، وهو يصطفيه ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، كما تقدم ذكره .

ومن هذا أي من جعل محمد سهمه من الغنيمة كسهم واحد منهم ، يتضح لنا جليا أنه لما نزع الغنائم من أيديهم وجعلها له وحده بحكم الآية ، لم يقصد بذلك أن يأخذ الغنيمة وحده ويستأثر بها دونهم ، وإنما قصد

إرضاءهم بما يعطيهم منها ، إذ لا يخفى أنها إذا كانت ملكا له وحده بحكم الآية النازلة من السماء ، كان له الحق أن يتصرف فيها كما يشاء ، وأن يعطي منها ما يشاء لمن يشاء ، وحينئذ يرضون بما يعطونه منها ، ويكون عندهم كعطية من عطاياه لا كغنيمة لهم فيها حق . وفي هذا ما فيه من الدلالة على حزمه وتحوطه في الأمور وحسن تدبيره في حل المشكلات .

ولا ريب أن آية الأنفال لم تكن إلا تدبيرا مؤقتا لحسم النزاع ، لأن جعل الغنائم لرسول الله يعطيها من يشاء ، كيفما يشاء ، ربما يؤدي إلى التقول من بعض ضعفة الإيمان . فالأحوط هو أن يوضع لتقسيم الغنائم حكم عام يكون معمولا به في كل وقت حتى يرضى كل واحد بنصيبه ، ولا يتكرر الخلاف والنزاع . فلا بد إذن من آية تنسخ آية الأنفال .

فنسخت بآية تقسيم الغنائم وهي : "واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى والأيامى والمساكين وابن السبيل"[٨٦] . فكان الحكم في تقسيمها هكذا : تقسم الغنيمة – (بعد الصفى الذي يختاره رسول الله لنفسه) – إلى خمسة أقسام : أربعة منها للمقاتلة ، وواحد وهو الخمس ؛ يقسم إلى خمسة أقسام أيضا ، فالقسم الأول وهو خمس الخمس لرسول الله يفعل فيه ما أحب ، والثاني لذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، والثالث لليتامى ، والرابع للمساكين ، والخامس لابن السبيل .

ومما كان محمد يرغب به المسلمين في القتال زيادة على الغنيمة الأسلاب ، فكان يقول لأصحابه إذا دخلوا في الحرب : من قتل قتيلا فله سلبه ؛ وسلب القتيل هو ما عليه من ثياب وسلاح . فلم يجعل الأسلاب من الغنيمة ، ولذلك لم يخمسها ، بل حكم بسلب كل قتيل لقاتله ، واكتفى فيه بشاهد واحد من دون يمين . وقد قتل أبو طلحة الأنصاري يوم حنين عشرين قتيلا فأخذ أسلابهم كلها .

وقد ادعى بعضهم أنه لم يقل من قتل قتيلا فله سلبه إلا يوم حنين . وهذا غير صحيح ، بل الصحيح ما قاله آخرون من أنه قال ذلك وفعله قبل حنين بستة أعوام ، وقد ذكر البخاري في صحيحه : إن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء الأنصاريين ، ضربا أبا جهل بن هشام يوم بدر بسيفيهما حتى قتلاه ، فانصرفا إلى رسول الله فأخبراه فقال : أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، فقال : هل مسحتما سيفكما ؟ قالا : لا ، فنظر إلى السيفين فقال : كلاكما قتله ، وسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموع . قال بعضهم : إنما قضى بسلبه لمعاذ بن الجموح لأنه أثخنه والآخر جرحه بعده ، وإنما قال : كلاكما قتله ملاطفة للثاني وتطييبا لقلبه . قال ابن القيم : وهذا يدل على أن كون السلب للقاتل أمر مقرر معلوم من أول الأمر ، وإنما تجدد يوم حنين للإعلام العام وللمنادة به لا شرعيته[٨٧] .

ويفهم مما تقدم أن الجنة من المرغبات العامة ، لأنها تصلح للترغيب في الإسلام وفي القتال ، بخلاف الغنيمة فإنها لا تصلح إلا للترغيب في القتال ، ولما كان محمد بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، لم تكن الغنيمة من المرغبات ، لأن الحرب لم تكن مشروعة بمكة ، وحيث لم تكن الحرب لم تكن الغنيمة ، ولكنه كان يرغب في الإسلام بالماديات أيضا كما رغب قومه في الإسلام بأن يكونوا ملوكا للعرب والعجم ، إذ قال لهم لما اجتمعوا له في بيت عمه أبي طالب : "أعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم"[٨٨] .

وكما قال لبني شيبان بن ثعلبة حين عرض عليهم نفسه في الموسم وقد ذكروا له ملوك فارس : "أرأيتم أن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ، ويفرشكم نساءهم ، تسبحون الله وتقدسونه" . وكذلك قال لبني بكر بن وائل حين عرض عليهم نفسه في الموسم إذ قالوا له : جاورنا فارس فنحن لا نمنع ولا نجير عليم . فقال لهم : أفتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم ، أن تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدون ثلاثا وثلاثين وتكبروه ثلاثا وثلاثين . وقد تقدم ذكر هذا مفصلا(٨٩) .

حروب الرسول

القسم الأول حروب استئصالية كالحروب التي وقعت مع يهود المدينة فإنها كانت نتيجتها استئصالهم ، أما بالقتل كحرب بني قريظة ، وأما بالجلاء كحرب بني النضير وبني قينقاع . والقسم الثاني حروب اغتنامية أي لم يكن لها نتيجة سوى الغنيمة ، وأكثر الحروب التي وقعت في عهده كانت من هذا القبيل . فإن السرايا التي كان يرسلها لتعترض عيرات قريش لم تكن إلا للإغتنام ، وكذلك حرب بني المصطلق ، وكذلك أكثر السرايا التي أرسلت لحرب الكفار فإنها لم تكن لها نتيجة سوى الغنيمة. حتى أن إحدى السرايا اغتنمت مرة أموال قوم مسلمين وهي سرية زيد بن حارثة إلى جذام(٩٠) .

وخلاصة القصة : أن دحية الكلبي أقبل من عند قيصر ملك الروم ، وقد أجازه بمال وكساه ، فلما وصل إلى محمل يقال له حسمى (بكسر فسكون موضع وراء وادي القرى) ، لقيه الهنيد وابنه في ناس من جذام ، فقطعوا عليه الطريق وسلبوه ما معه ولم يتركوا عليه إلا ثوبا خلقا ، فسمع بذلك نفر من جذام ممن كانوا أسلموا من بني الضبيب فنفروا إليهم واستنقذوا لدحية ما أخذ منه ، وقدم على رسول الله فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل ورد معه دحية . فخرج زيد يسير بالليل ويكمن بالنهار ومعه دليل من بني عذرة . فأقبل حتى هجم على القوم أي على الهنيد وابنه ومن كان معهم مع الصبح ، فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهم ، وأخذوا من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، ومن السبي مائة من النساء والصبيان .

ولما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد ، وهم الذين استنقذوا لدحية ما أخذ منه ، ركبوا وجاءوا إلى زيد ، فقال له رجل منهم : إنا قوم مسلمون ، فقال له زيد : اقرأ أم الكتاب فقرأها ، إلا أن زيدا لم يصدقه وأصرّ على أخذ الأموال والسبايا ، ثم قدم منهم جماعة على رسول الله وأخبروه الخبر وقال بعضهم : يا رسول لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما . فقال : كيف أصنع بالقتلى ؟ فقال : اطلق لنا من كان حيًّا ، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين ، فقال رسول الله : صدق ، فقالوا : ابعث معنا رجلا لزيد ، فبعث معهم عليًّا يأمر زيدا أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم . فقال علي : يا رسول اله ، أن زيدا لا يطيعني ، فقال : خذ سيفي هذا ، فأخذه وتوجه ، فلقي علي رجلا أرسله زيد مبشرا على ناقة من ابل القوم ، فردها علي على القوم وأردفه خلفه ، ولقي زيدا فأبلغه أمر رسول الله ، فقال له زيد : ما علامة ذلك ؟ فقال : هذا سيفه ، فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا ، فقال لهم : من كان معه شئ فليرده فهذا سيف رسول الله ، فرد الناس كافة كل ما أخذوه(٩١) .

أقول : إن الذين قطعوا الطريق على دحية وسلبوه ما معه هم نفر من جذام ، فهم الهنيد وابنه ، فالمجرمون هم هؤلاء لا قبيلة جذام كلها ، ثانيا : إن نتيجة الإجرام أعني سلب دحية ما معه قد زالت باستنفاذ

السلب من السالبين وإرجاعه إلى صاحبه دحية ، ولم يبق من هذا الجرم إلا معاقبة المجرمين باسم الحقوق العامة ، ثالثا : إن دحية كان يعلم أن الذين استنقذوا له ما أخذ منه كانوا مسلمين إذ لو لم يكونوا مسلمين لما جاءوا واستنقذوا له سلبه ، رابعا : إن محمدا لما أرسل زيدا رد معه دحية ، وهذا يدل على أنه لم يرسل زيدا إلا لمعاقبة المجرمين لا لقتال جذام كلها لأنه لم يرد معه دحيه إلا ليعرفه بالمجرمين لئلا يصيب بالعقوبة غيرهم من المسلمين ، وإلا لم يكن لرد دحية معه معنى ، خامسا : كان يجب على دحية أن يعرف زيدا بالذين استنقذوا له سلبه وبأنهم مسلمون ، ولكن دحية لم يفعل ذلك بدليل أن زيدا قد قتل رجالهم وغنم أموالهم وسبى نساءهم وذراريهم . سادسا : كان يجب على زيد أن يصدق قولهم له أنا مسلمون فيترك أموالهم ونساءهم خصوصا بعد أن طلب ممن قال له ذلك أن يقرأ أم الكتاب فقرأها ، ولكن زيدا لم يصدق قولهم إنا مسلمون ولم يكترث لقراءتهم أم الكتاب بل أصر على أخذ أموالهم ونسائهم ولم يتركها حتى جاءه علي ، ولم يكتف بعلي حتى أراه سيف رسول الله .

فهذا كله يدل على أن الهدف الأول عند أمير الجيش هو الغنيمة ، وليت شعري لو لم يأته علي بسيف رسول الله أما كان يتركهم ، وكيف اطمأن بسيف رسول الله ولم يطمئن بابن عمه الذي هو سيفه الناطق .

كان محمد إذا أرسل جيشا إلى قوم أمرهم أولا أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أجابوا فبها وإلا قاتلوهم . وكان يقول لهم : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، ويقول لهم : اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا شيخا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء[٩٢] .

إلا أنه هو نفسه خالف ذلك أحيانا فلما حاصر بني النضير أمر بقطع نخيلهم وتحريقها . قالوا واستعمل على قطع النخيل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللين وهو ما عدا العجوة . وكانت العجوة خير أموال بني النضير ، وهي أجود التمر على الإطلاق . وفي الكشاف أن رسول الله سأل من كان يقطع العجوة عن قطعها فقال : قطعتها غيظا للكفار ، وسأل الآخر عن تركها فقال : تركتها لرسول الله . وقد حرق بعض نخيلهم أيضا . ولما قطعت العجوة شق النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بالويل . وعند ذلك نادوه : يا محمد ، وفي رواية :يا أبا القاسم ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها . وقالوا للمؤمنين إنكم تكرهون النساء وأنتم تفسدون ، وحينئذ وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شئ . غير أن محمدا تدارك الأمر فأنزل من السماء : "ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله"[٩٤] والخطاب في الآية للمسلمين أي أن الله هو الذي أذن لكم بقطعها .

وكذلك فعل في غزوة خيبر لما حاصر فيها حصون النطاة ، فإنه أمر بقطع النخيل التي هي لأهل حصون النطاة ، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ، ثم نهاهم عن القطع فما قطع من نخيل خيبر غيرها[٩٥] .

ولا شك أن نهيه عن قتل النساء والصبيان إنما كان نهيا عن تعمد قتلهم ، وإلا فإنه لم يؤاخذ أصحابه على ما كانوا يصيبون من النساء والذراري في البيات ، لأن اجتناب ذلك في البيات غير ممكن ، فإن

جيوشه كانت في أكثر حملاتها تغير على العدو ليلا وتأتيه بياتا . وقد جاء في رواية عن الشيخين أنه سئل عن المشركين يبيتون فيصيب المسلمون من نسائهم وذراريهم فقال هو منهم(٩٦) .

ونحن إذا تتبعنا ما في كتب السير من أخبار البعوث والسرايا التي كان محمد يبعثها إلى الجهات لقتال المشركين علمنا أن المسلمين كانوا في أكثر حروبهم إذ ذاك يبيتون القوم وهم نزول في حاضرهم مع نسائهم وذراريهم ، فيصيبون منهم من نسائهم وذراريهم من يصيبون .

قتل النساء

أم قرفة امرأة اسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزاري ، وقرفة اسم أحد أولادها كانت تكنى به . وخلاصة قصتها أن رسول الله أرسل زيد بن حارثة في جيش إلى بني فزارة فخرجوا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أحاطوا بهم فقتلوهم ، وأسرت أم قرفة هي وابنة لها ذات حسن وجمال . فأمر زيد أن تقتل أم قرفة لأنها كانت تسب النبي . وكان المأمور بقتلها قيس بن المحسر ، فربط برجلها حبلين ثم ربطها إلى بعيرين وزجرهما ، وقيل فرسين فركضا فشقاها نصفين . قال الحلبي في سيرته وأم قرفة هذه كانت في شرف من قومها وكان يعلق في بيتها خمسون سيفا لخمسين رجلا كلهم لها محرم ، وكان لها اثنا عشر ولدا ، ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل في العزة والمنعة فتقول : لو كنت أعز من أم قرفة ، وتقول : أمنع من أم قرفة ، قال : وقرفة اسم لأحد أولادها وبه تكنى ، وقد قتل في إحدى غزوات الرسول . وبقية أولادها قتلوا في خلافة الصديق مع أهل الردة(٩٧) .

ومن هذا القبيل قتل عصماء بنت مروان اليهودية . قالوا : إنها كانت تسب الإسلام وتؤذي النبي في شعر لها وتحرض عليه . فبعث رسول الله عمير بن عدي الخطمي ليقتلها . فجاءها عمير في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام ، وعلى صدرها صبي ترضعه ، فمسها بيده ونحى الصبي عن صدرها ووضع السيف على صدرها وتحامل عليه حتى أنفذه من ظهرها . ثم صلى الصبح مع النبي بالمدينة . فقال له رسول الله أقتلتَ ابنة مروان ، فقال نعم فهل على ذلك من شئ ، فقال لا ينتطح فيها عنزان(٩٨) ، أي الأمر في قتلها هين لا يعارض فيه معارض .

وما أظنك متعجبا من هذا إذا علمت أن محمدا كان يريد قبل كل شئ أن يكون مقدسا مطاعا عند أتباعه المسلمين لأن غايته التي ينزع إليها لا تنال إلا بأن يقدسه أتباعه ويطيعوه طاعة أثيلة قعساء . وسنفرد للكلام في هذا الموضوع فصلا فيما سيأتي ، ولذلك كان يحتمل كل أذى في سبيل دعوته إلا المسبة بما خرج به عن القداسة ويجعله كآحاد الناس ، فإن ذلك كان يشق عليه مشقة عظيمة ، ولأجل ذلك أهدر دماء كثير من الشعراء الذين كانوا يؤذونه بالهجاء والمسبة ، فلم يكن جزاء من سبه إلا القتل . والمسبة ليست من الجنايات التي تستوجب القتل في الشرائع كلها لأنها لا تتضمن إلا هتك حرمة المسبوب ، والنص القرآني يقول : "والحرمات قصاص"(٩٩) ، فهتك الحرمة لا يكون جزاؤه إلا هتك الحرمة أيضا لا القتل . ولكن هذا الحكم هو بالنسبة إلى غير محمد ، فأما مسبة محمد فجزاؤها القتل . وقد قال علماء المسلمين : إن ذاك ، أي قتل من سبه ، كان من خصائصه ، يعنون بالخصائص ما يسميه أهل زماننا بالامتيازات .

إن محمدا نفسه لم يخل من حس الانتقام في حرب بدر ، فإنه لمّا بلغ دار بني الصفراء مرجعه من غزوة بدر ، أمر بقتل النضر بن الحارث ، فقتله علي بن أبي طالب . وفي السيرة الحلبية نقلا عن الإمتاع : أن النبي نظر إلى النضر بن الحارث وهو أسير ، فقال النضر للأسير الذي بجانبه : إن محمدا والله قاتلي ، فإنه نظر إليّ بعينين فيهما الموت . فقال له الأسير : والله ما هذا منك إلا رعب . وقال النضر لمصعب بن عمير : يا مصعب أنت أقرب من هذا إليّ رحما ، فكلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي (يعني المأسورين) ، هو والله قاتلي . فقال مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا ، وتقول في نبيه كذا وكذا . وكان المقداد هو الذي أسر النضر ، فلما أمر النبي بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري ، فقال له رسول الله : إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول(١٠٠) . وإنما قال المقداد ذلك لأن النبي كان قد جعل كل أسير لمن أسره يشرقه أو يأخذ فداءه ، كما ذكرنا فيما تقدم فإذا قتل النضر خسر المقداد ذلك .

إن النضر هذا كان من جملة من اشتهروا بعداوة محمد ، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا يحدث فيه قومه وينذرهم ما أصاب من قبلهم من الأمم من عذاب الله ، يخلفه في مجلسه ويقول لقريش : هلموا فإني والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس لأنه كان يعلم أحاديثهم ، ويقول : ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين ، ويقول : سأنزل مثل ما أنزل الله . ويقال : إنه ذهب إلى الحيرة واشترى منها أحاديث الأعاجم ، ثم قدم بها مكة فكان يحدث بها أحاديث رستم واسفنديار ، ويقول : هذه كأحاديث محمد عن عاد وثمود . ولما تلا عليهم النبي نبأ الأولين ، قال : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا "إن هذا إلا أساطير الأولين"(١٠١) . فهذه الآية القرآنية هي كلام النضر حكاه القرآن .

ثم إن محمدا لما ارتحل من الصفراء فبلغ عرق الظبية (موضع) أمر بقتل عقبة بن أبي معيط ، وكان من جملة الأسرى ، وقال حين قدم للقتل : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار . وجاء عن ابن عباس أن عقبة لما قدم للقتل نادى : يا معشر قريش ما لي أقتل من بينكم صبرا ، فقال له النبي : بكفرك وافترائك على رسول الله ، وفي لفظ : ببزاقك في وجهي(١٠٢) .

وذلك أن عقبة كان يكثر مجالسة محمد لما كان في مكة ، فقدم يوما من سفر فصنع طعاما ودعا إليه الناس من أشراف قريش ، ودعا محمدا فلما قرب إليهم الطعام ، أبى محمد أن يأكل ، وقال : ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فأكل من طعامه وانصرف الناس . وكان عقبة صديقا لأبي بن خلف ، فأخبر الناس أبيًا بمقالة عقبة ، فأتى إليه وقال : يا عقبة صبأت ؟! فقال: والله ما صبأت ، ولكن دخل منزلي رجل شريف ، فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له فطعم ، والشهادة ليست في نفسي . فقال له أبي : وجهي ووجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه . فقال له عقبة : لك ذلك . ثم إن عقبة لقي النبي ففعل به ذلك . ويقال : إن عقبة لما بزق لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله بل رجعت إلى وجهه(١٠٣) .

هذه هي قصة بزاق عقبة في وجه محمد ، ولا جرم أن هذه الفعلة من عقبة جديرة بأن يحقد عليه محمد من أجلها ، ولكني أرى أن المجرم الحقيقي فيها هو أبي بن خلف أكثر من عقبة فإنه هو الذي سببها ، وهو

الذي حمل عقبة عليها . وأبي بن خلف هذا كان في أسرى بدر أيضا ، فلماذا لم يقتل كما قتل عقبة ؟ إلا أن أبيًا قتله محمد بيده يوم أحد ، قالوا : ولم يقتل محمد في غزواته أحدا غيره .

ولا شك أن النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لم يقتلا لكفرهما ، وإلا لزم قتل جميع الأسرى من كفار قريش الذين أسروا يوم بدر ، وإنما قتلا انتقاما وتشفيا بقتلهما مما كانا فعلاه في مكة ، ولا تنسَ قول النضر المتقدم : "فإنه نظر إليّ بعينين فيهما الموت" ، فإن هذا النظر هو نظر المنتقمين كما لا يخفى .

ومما يدعو إلى التأمل والانتباه وقوف محمد على شفير القليب بعدما أمر أن تلقى فيه جثث القتلى من صناديد قريش ، فإنه لما وقف جعل يناديهم بأسمائهم ويقول : يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني وجدت ما وعدني الله حقا ، بئس عشيرة النبي كنتم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . فكلامه هذا صريح في أنه لم يقم على القليب ، ولم يخاطبهم بهذا الكلام إلا شماتا وتشفيا[١٠٤] .

الجزية

اختلف علماء الدين فيمن تضرب عليه الجزية ، فعند أبي حنيفة : تضرب على كل فرد من ذمي ومجوسي وصابئ وحربي إلا على مشركي العرب وحدهم . وروى الزهري أن رسول الله صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب ، وقال لأهل مكة : هل لكم في كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدت إليكم العجم الجزية . وعند الشافعي : لا تؤخذ الجزية من مشركي العجم أيضا ، وفنّد ذلك ابن القيم في زاد المعاد فارجع إليه إن شئت[١٠٥] .

أما مقدار الجزية فعند أبي حنيفة : يؤخذ في أول كل سنة من الفقير الذي له كسب اثنا عشر درهما ، ومن المتوسط في الغنى ضعفها ، ومن المكثر ضعف الضعف أي ثمانية وأربعون درهما ، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له . وعند الشافعي : يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيرا كان أو غنيا ، كان له كسب أو لم يكن .

وفي زاد المعاد لابن القيم قال : وأما حكمه يعني النبي في مقدارها فإنه بعث معاذا إلى اليمن وأمره أن يأخذ من كل حالم دينارا أو قيمته معافر ، وهي ثياب معروفة باليمن . قال : ثم زاد فيها عمر فجعلها أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعين درهما على أهل الورق في كل سنة . قال فرسول الله علم ضعف أهل اليمن ، وعمر علم غنى أهل الشام وقوتهم[١٠٦] . فمن هذا يفهم أن مقدار الجزية يختلف باختلاف حالتهم المالية قوة وضعفا .

بقيت هنا كلمة نسوقها فيما قاله علماء الدين في كيفية إعطائهم الجزية ، وفي هذه الكلمة عبرة وذكرى لمن نظر في أحوال أهل الأديان وما تنطوي عليه جوانحهم من البغضاء والشحناء .

إن آية الجزية في القرآن تقول : "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[١٠٧] ، فقالوا في تفسير : "عن يد" : إما أن يراد بها يد المعطي ، أو يد الآخذ ؛ فإن كان المراد بها يد المعطي ، فمعناه حتى يعطوها عن يد مواتية غير ممتنعة ، لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا أعطى بيده إذا انقاد . أو معناه حتى يعطوها عن يد إلى يد أي نقدا غير نسيئة ولا مبعوث بها على يد أحد ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ .

وإن كان المراد بها يد الآخذ فمنعناه : حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية ، أو عن إنعام عليهم على أن تكون اليد بمعنى النعمة لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم .

وقالوا في تفسير "وهم صاغرون" : أي تؤخذ منهم على الصغار والذل ، وذلك أولا : بأن يأتي بها بنفسه فلا يجوز أن يرسلها مع غيره ، ثانيا : بأن يأتي بها ماشيا غير راكب ، ثالثا : بأن يسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ، رابعا : وهذا أغربها بأن يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه ويقال له : أدّ الجزية وإن كان يؤديها وأن يزخ أي يدفع في قفاه .

هذا ، وآخر ما نقوله في الجزية ، هو أن ضربها على أهل الكفر والاكتفاء بها عن إسلامهم ، يدل دلالة صريحة على أن غاية محمد في الدعوة الإسلامية ليست بدينية محضة – كما ذكرناه فيما تقدم من الكلام على غايته – وإلا فإن الجزية لا تنقذهم مما هم عليه من الضلال ، ولا تنجيهم من عذاب النار . فلو كانت الغاية في الدعوة إلى الله هي إنقاذ الناس كلهم من الضلال وهدايتهم إلى دين الإسلام وعبادة الله وحده لا شريك له ، لما جاز إبقاؤهم على الكفر والضلال بسبب إعطائهم الجزية .

الصفي والفيئ

كانت بنو النضير من صفايا رسول الله ، جعلها حبسا لنوائبه وكان ينفق على أهله منها وكانت صدقاته منها . وفي زاد المعاد قال وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمين عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، وفي لفظ : يحبس لأهله قوت سنتهم ، ويجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله .

ومن أموال الفيئ الوطيح وسلالم وهما حصنان من حصون خيبر ، فإن حصون خيبر كلها فتحت عنوة إلا هذين الحصنين فإنهما أخذا صلحا فكانا فيئا لرسول الله[١٠٨] .

ومما كان يعد في الفيئ أيضا من جهة كونه خاصا برسول الله : أموال مخيريق اليهودي ، فإنه أسلم يوم أحد وأوصى بماله لرسول الله . قال ابن إسحاق : فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا إلى رسول الله فقاتل معه حتى قتل ، فقال رسول الله فيما بلغنا : مخيريق خير يهود[١٠٩] . قال الحلبي في سيرته : وكانت له سبعة حوائط في بني النضير . قال ابن الجوزي وهو أول وقف كان في الإسلام .

فجملة أموال الفيئ هو هذا الحصنان ، أعني الوطيح وسلالم ، وفدك ، وأرض بني النضير ، وحوائط مخيريق . قال الحلبي في سيرته : إن ذلك كله كان للنبي خاصة فكان ينفق من ذلك على أهل بيته سنة وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله .

الفرق بين حصته من الفيئ وحصته من الغنيمة هو أن حصته من الغنيمة معينة وهي خمس الخمس ، بخلاف حصته من الفيئ فإنها غير معينة . وكذلك حصة غيره من المسلمين غير معينة أيضا ، وإنما الأمر فيه له كما قلنا ، يضعه حيث شاء ويعطي منه من شاء ما شاء .

أما الصفى فقد قلنا : إنه كان لأمير الجيش في الجاهلية ربع الغنيمة ، ومن ثم قيل له المرباع . أما محمد فلم يجر على هذه العادة الجاهلية ، ولم يأخذ ربع الغنيمة ، بل جعل له خمس الخمس من شئ يختاره لنفسه من الغنيمة قبل أن تقسم ، فكان يصطفي لنفسه سيفا أو عبدا أو جارية أو نحو ذلك ، كما اصطفى لنفسه يوم بدر جملا مهريا كان لأبي جهل ، وكما اصطفى لنفسه يوم خيبر صفية وهي بنت حيي بن أخطب من سبط هارون .

ولا يخفى أن الأموال التي كانت تحصل لمحمد من هذه الموارد الأربعة ليست بالشئ القليل بل كانت تدر عليه أموالا كثيرة بحيث يصح أن نقول إنه كان من أغنياء زمانه . إلا أنه كان لا يكترث للمال ولا يهتم به ، وكان الذي بيده من المال ليس له ، ولم يكن محمد في شئ من حياته طالبا للمال ولا طامعا فيه ، بل لو كانت الدنيا كلها ملكا له لما تردد لحظة في بذلها كلها دفعة واحدة في سبيل غايته . فمن هذا الوجه يصح أن نعده في الفقراء . ولا مراء في أن نفسه كانت غنية كل الغنى وهو الذي يقول إنما الغنى غنى النفس لا بكثرة المال والعرض .

ونذكر لك ما كان له في حياته من المال مما ذكروه في كتبهم لتعلم منه أنه لم يكن فقيرا .

أما قبل الهجرة وقبل النبوة فمعلوم أنه كان في صغره يتيما لأن أباه مات وأمه حامل به ، ولم يترك له أبوه عبد الله سوى خمسة أجمال وقطعة من غنم وجارية حبشية اسمها بركة وتكنى بأم أيمن . هذا كل ما ورثه من أبيه . وقيل : ورث من أبيه عبدا آخر اسمه شقران وكان حبشيا أيضا فأعتقه بعد بدر ، وقيل : لم يرثه من أبيه بل اشتراه من عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : بل وهبه عبد الرحمن بن عوف له[١١٠] .

إن هذا الذي انتقل إليه من أبيه ليس بشئ . فكان وهو بمكة فقيرا ، ولذا كان يرعى الغنم لأهل مكة كل شاة بقيراط . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله : ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط . وفي رواية للبخاري كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة[١١١] . والقراريط هي أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج الحقيرة ، وليست القراريط اسم موضع بمكة كما توهم بعضهم . وفي الحديث : عليكم بالأسود من ثمر الآراك فإنه أطيبه ، فإني كنت أجتنيه إذ كنت أرعى الغنم ، قلنا : وكنت ترعى الغنم يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وما من نبي إلا وقد رعاها[١١٢] . وقد تقدم أن محمدا كان يتجر قبل النبوة وقبل أن يتجر لخديجة ، ثم إنه لمّا اتصل بخديجة

وتزوجها فحسنت حاله ، لأن خديجة كانت من أغنياء مكة ، حتى أنه أخذ عليًّا من أبي طالب وجعله عنده يعوله في بيته وينفق عليه لأن أبا طالب كان قليل المال كثير العيال .

وأما حالته المالية بعد الهجرة فإنها أخذت بالتحسن شيئا فشيئا بعدما بقي في المدينة ضيفا يعيش هو وأصحابه المهاجرون بمنائح الأنصار وفي بيوتهم كما تقدم ذكره . ولم يحصل على شئ من المال إلا بعد ما أخذ يشن الغارات ويبعث البعوث ويقود الجيوش ويغتنم الغنائم ، ولذا قال : جعل الله رزقي تحت ظل رمحي(١١٣) ، إلى أن كان بحيث صحّ أن يعد في المدينة من الأغنياء ، إلا أن ماله ليس له كما قلنا لأنه كان في حياته يطمح إلى الشرف الخالد ولا يلتفت إلى العرض الزائل .

دوابه ومواشيه

كان له من الخيل سبعة أفراس ، وكان له ست بغال ، وكان له من الحمر اثنان ، وكان له من الإبل المعدة للركوب ثلاثة .

فأما أفراسه : ففرس يقال له : السكب شبه بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه ، وهو أول فرس ملكه اشتراه من أعرابي بعشرة أواق ، وكان اسمه عند الأعرابي الضرس (بفتح فكسر) ، أي الصعب السيئ الخلق ، وكان أغر محجلا طلق اليمين كميتا .

وفرس يقال له : المرتجز ، سمي لحسن صهيله مأخوذ من الرجز الذي هو ضرب من الشعر ، وكان أبيض ، وهو الذي شهد له فيه خزيمة بأنه اشتراه من صاحبه بعد أن أنكر بيعه له ، وقال له : ائت بمن يشهد لك ، فجاء خزيمة فشهد له بأنه اشتراه منه ، فقال له النبي : كيف شهدت ولم تحضر ؟ فقال : لتصديقي إياك يا رسول الله ، وإن قولك كالمعاينة ، فقال له النبي : أنت ذو الشهادتين ، ثم قال النبي : من شهد له خزيمة أو شهد عليه فهو حسبه .

وفرس يقال له : اللحيف (بفتح اللام) فعيل بمعنى فاعل ، لأنه كان يلحف الأرض بذنبه لطوله ، أي يغطيها ، وقيل لأنه كان يلتحف معرفته ، وقيل : هو بضم اللام مصغرا . وهذا الفرس أهداه له فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام .

وفرس يقال له : اللزاز ، أهداه له المقوقس ، مأخوذ من قولهم لززته أي لاصقته ، فكان يلحق بالمطلوب لسرعته وقيل غير ذلك .

وفرس يقال له : الطرف ، (بكسر الطاء المهملة وسكون الراء في آخره فاء) معناه الكريم الجيد من الخيل .

وفرس يقال له : الورد ، وهو بين الكميت والأشقر ، أهداه له تميم الداري ، وأهداه النبي لعمر بن الخطاب .

وفرس يقال له : سبحة (بفتح السين وإسكان الموحدة) أي سريع الجري .

وهذه السبعة متفق عليها ، وعدّ بعضهم في خيله غير ذلك ، فأوصل جملتها إلى خمسة عشر بل إلى عشرين . وقد ذكر الحافظ الدمياطي أسماء الخمسة عشر في سيرته ، وقال فيها : وقد ذكرناها وشرحناها في كتابنا كتاب الخيل[١١٤] . وقال : ولم يكن شئ أحب إلى رسول الله بعد النساء من الخيل ، وجاء في أحاديثه أنه قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، فخذوا بنواصيها وادعوا بالبركة . وذكروا أنه في غزوة تبوك قام إلى فرسه الطرف فعلق عليه شعيره وجعل يمسح ظهره بردائه ، فقيل له : يا رسول الله ، تمسح ظهره بردائك ، فقال نعم وما يدريك لعل جبريل أمرني بذلك[١١٥] .

وقال الحلبي في سيرته : وأوقع رسول الله السباق بين الربل فسابق بلال على ناقته القصواء فسبقت غيرها من الإبل . وسابق أبو سعيد الساعدي على فرسه الذي يقال له الظراب فسبق غيره من الخيل . قال وكان يضمر الخيل للسباق فيأمر بإضمارها بالحشيش اليابس شيئا بعد شئ ، ويأمر بسقيها غدوة وعشيا ، ويأمر أن تقاد كل يوم مرتين ، ويؤخذ منها من الجري الشوط أو الشوطان[١١٦] .

وأما بغاله ، فكان له بغلة شهباء يقال لها دلدل ، أهداها له المقوقس ملك القبط ، والدلدل في الأصل القنفذ ، وقيل العظيم منه ، قال الحلبي ، وهذه أول بغلة ركبت في الإسلام ، وكان رسول الله يركبها في المدينة وفي الأسفار . وعاشت حتى ذهبت أسنانها فكان يدق لها الشعير . وقاتل عليها علي بن أبي طالب الخوارج بعد أن ركبها عثمان ، وركبها بعد علي ابنه الحسن ثم الحسين ثم محمد بن الحنفية ، وعميت . وسئل ابن الصلاح هل كانت أنثى أو ذكرا ، والتاء للوحدة ، فأجاب بالأول . وقال بعضهم : وإجماع أهل الحديث على أنها كانت ذكرا . ورماها رجل بسهم فقتلها . وعن ابن عباس : أن رسول الله بعثني إلى زوجته أم سلمة ، فأتيته بصوف وليف ، ثم فتلت أنا ورسول الله لدلدل رسنا وعذارا ، ثم دخل البيت فأخرج عباءة فثناها ، ثم ربعها على ظهرها ، ثم سمّى وركب ثم أردفني خلفه .

وكانت له بغلة يقال لها فضة ، أهداها له عمرو بن عمرو الجذامي ووهبها لأبي بكر . قال الحلبي في سيرته : وأوصل بعضهم بغاله إلى سبعة ، قال : وفي مزيل الخفاء ، وفي سيرة مغلطاي : كان له من البغال دلدل وفضة والتي أهداها له ابن العلماء (بفتح العين وإسكان اللام) في غزوة تبوك والأيلية ، وهي بغلة أهداها له صاحب أيلة وبغلة أهداها له كسرى ، وأخرى من صاحب دومة الجندل ، وأخرى من عند النجاشي . وكان عقبة بن عامر صاحب بغلة رسول الله يقود به في الأسفار[١١٧] .

أما حمره ، فكان له حمار يقال له يعفور ، وحمار يقال له عفير ، وكان أشهب أهداه له المقوقس وقيل فروة بن عمر الجذامي ، وفي السيرة الحلبية أن يعفورا وجده في خيبر[١١٨] .

وأما إبله التي كان يركبها فكان له منها : القصوى مقصورة وتمد فيقال القصواء ، وهي التي هاجر عليها . وكان له العضباء والجدعاء ، ولم يكن بها عضب ولا جدع وإنما سميت بذلك . وقيل : كان بأذنها عضب أي شق فسمنت به . وهل العضباء والجدعاء واحدة أو اثنتان فيه خلاف . والعضباء هذه هي التي كانت لا تسبق ، فجاء إعرابي على قعود وهي القلوص أو البكر من الإبل فسبقها ، فشقّ ذلك على المسلمين

فقال رسول الله : إن حقا على الله أن لا يرفع من الدنيا شيئا إلا وضعه ، وفي رواية : إن الناس لم يرفعوا شيئا من الدنيا إلا وضعه الله . وكانت العضباء يسبق بها صاحبها الذي كانت عنده الحاج ، ومن ثم قيل لها سابقة الحاج(١١٩) .

وكانت له خمسة وأربعون لقحة ، وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، وكانت ترعى في الغابة وفيها جرت قصة العرنيين الذين استاقوا اللقاح وقتلوا راعيها يسار مولى النبي(١٢٠) ، والغابة موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه شجر ملتف . وكانت له ناقة مهرية أرسل بها إليه سعد بن عبادة من نعم بني عقيل .

والمهرية نسبة إلى مهرة بن حيدان ، وهي حي من قضاعة من عرب اليمن . وقيل نسبة إلى مهرة وهي بلدة من عمان . وقال الأزهري : والأبل المهرية نجائب تسبق الخيل ، وزاد بعضهم في صفتها فقال لا يعدل بها شئ في سرعة جريانها . قالوا : من غريب ما ينسب إليها أنها تفهم ما يراد منها بأقل أدب في تعليمها . ولها أسماء إذا دعيت بها أجابت سريعا . وكانت له مائة شاة ، وكان لا يريد أن تزيد فكان كلما ولدت بهمة ذبح مكانها شاة ، وكانت له سبع أعنز منائح ترعاهن أم أيمن(١٢١) .

عبيده وإماؤه

وكان له عبيد وإماء ، فكان من عبيده : زيد بن حارثة وهبته له خديجة قبل النبوة فأعتقه ، وتبناه فكان يقال له ابن محمد ، فلما نزل : "ادعوهم لآبائهم"(١٢٢) ونزل : "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم"(١٢٣) قيل له : زيد بن حارثة ، وكان حب رسول الله . ومنهم أبو رافع ، وكان قبطيا وكان للعباس فوهبه للنبي ، ومنهم ثوبان وأبو كبشة وشقران ، واسمه صالح ، وهذا هو الذي ورثه من أبيه ، وقيل : لم يرثه بل اشتراه من عبد الرحمن بن عوف . ومنهم رباح ، وهو نوبي ، ويسار نوبي أيضا ، وهو الذي قتله العرنيون ، ومنهم كركرة ، وهو نوبي أيضا ، وكان على ثقله ، وكان يمسك راحلته عند القتال يوم خيبر . ومنهم مدعم ومنهم أنجشة اشتراه منصرفة من الحديبية وأعتقه ، وكان حسن الصوت يحدو له الإبل إذا سافر ، وكان أسود . ومنهم سفينة وكان لأم سلمة زوج النبي فأعتقه واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ما عاش ، وكان اسمه بهران وقيل رومان وقيل غير ذلك ، وإنما سماه رسول الله سفينة لأنه حمل مرة أمتعة للصحابة ثقلت عليهم ، فقال له رسول الله : احمل فإنما أنت سفينة . ومنهم : أنيسة ويكنى أبو مشروح ، ومنهم : أفلح وعبيدة وطهمان وذكوان ، ومنهم : حنين وسندر وفضالة يماني وأبو واقد وقسام وأبو عسيب وأبو مويهبة ومابور خصي(١٢٤) ، ومابور هذا قبطي أهداه إليه المقوقس مع مارية القبطية وأختها سيرين . وله قصة مع مارية ذكرها أصحاب السير ، وهي أنه كان يأوي إلى مارية ويأتي إليها بالماء والحطب ، فاتهمت به ، وقال المنافقون علج على علجة. فبلغ ذلك النبي ، فبعث عليا ليقتله ، فقال له علي : يا رسول الله ، أأقتله أو أرى فيه رأيي ؟ فقال : بل ترى رأيك فيه . فذهب إليه فإذا هو في ركي يتبرد ، فقال له علي اخرج فناوله يده فأخرجه ، فإذا هو مجبوب ، فكفّ عنه ورجع إلى النبي فأخبره ، فقال : أصبت إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . وفي رواية أخرى أن النبي دخل على مارية وهي حامل بولده إبراهيم ، فوجد عندها مابورا فوقع في نفسه شئ ، فخرج وهو متغير اللون ، فلقيه عمر فعرف الغيظ في وجه رسول الله فسأله فأخبره ، فأخذ عمر السيف ثم دخل على مارية وهو عندها فأهوى إليه بالسيف ، فلمّا رأى ذلك كشف عن نفسه فإذا هو مجبوب . فلما رآه عمر رجع إلى رسول الله فأخبره ، فقال ألا أخبرك يا عمر أن جبريل أتاني فأخبرني أن

الله برأها ونزهها ممّا وقع في نفسي ، وبشرني أن في بطنها غلاما مني ، وأنه أشبه الخلق بي ، وأمرني أن أسميه إبراهيم(١٢٥) .

ويظهر أن الرواية الثانية ملفقة ، وأن الأولى أقرب إلى المعقول ، إذ ليس من المعقول أن يكشف مابور عن نفسه عند رؤيته السيف بيد عمر لأنه لا يدري لماذا جاء عمر شاهرا السيف حتى يكشف له فيريه أنه مجبوب بخلاف الرواية الأولى فإن عليًّا لمّا جاءه رآه متجردا من ثيابه يتبرد في الركية ، أي في البئر ، فناوله يده وأخرجه فرآه مجبوبا . وأيضا أن النبي كان يعلم أن مابورا يدخل على مارية ويخدمها ويأتي إليها بالماء والحطب ولا يرتاب منه ، فكيف ارتاب منه لما رآه عند مارية . فالصحيح أن النبي إنما ارتاب لقول المنافقين واتهامهم إياه بها ولذا أرسل عليًّ لقتله .

وأما إماؤه فمنهم سلمى أم رافع وهي زوجة أبي رافع مولى النبي ، وميمونة بنت سعد ، وخضيرة ورضوى وديشحة وأم ضمير وميمونة بنت أبي عسيب وريحانة ، وأم أيمن وهي التي ورثها من أبيه وأميمة وسيرين التي أهديت له مع مارية وهي أختها ، وذكر بعضهم أن سيرين هذه وهبها رسول الله لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن(١٢٦) .

سلاحه وأثاثه

وكان له تسعة أسياف : منها سيف يقال له : مأثور وهو أول سيفه ملكه ، ورثه من أبيه وقدم به المدينة ، وسيف يقال له : العضب ، أرسل به إليه سعد بن عبادة عند توجهه إلى بدر ، وسيف يقال له : ذو الفقار (بكسر الفاء وفتحها) ، وكان لا يكاد يفارقه في حرب من الحروب ، وكان في وسطه مثل فقرات الظهر ، ولذا سمي بذي الفقار ، وكان صفيه الذي اختاره لنفسه من غنائم بدر ، وكان للعاص بن وائل الذي قتل يوم بدر كافرا ، ويقال : إن أصله من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة . وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة وقائمة السيف مقبضه ، وقبيعته ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد ، وذؤابته علاقته التي تكون في قائمته ، وبكراته الحلق التي في حليته ، ونعله ما يكون في أسفل غمده من حديد أو فضة . وسيف يقال له : الصمصامة ، وهو سيف عمرو بن معد يكرب . ومن سيوفه التي كانت له : القلعي نسبة إلى برج القلعة ، موضع بالبادية ، وسيف يقال له : الحتف وهو الموت ، وسيف يقال له : الرسوب ، سمي بذلك لأنه يرسب ويستقر في الضريبة ، وسيف يقال له : المحذم ، وهذا والذي قبله كانا معلقين على صنم طيئ الذي يقال له الفلس(١٢٧) . وقال ابن القيم في زاد المعاد(١٢٨) : ودخل يوم الفتح مكة وعلى سيفه ذهب وفضة .

وكانت له سبع أدرع : درع يقال لها : ذات الفضول ، سميت بذلك لطولها ، أرسل بها إليه سعد بن عبادة حين سار إلى بدر وكانت من حديد ، وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على ثلاثين صاعا من الشعير . ودرع يقال لها : ذات الوشاح ، ودرع يقال لها : ذات الحواشي ، ودرع يقال لها : السفرية بالفاء . قال صاحب السيرة الحلبية : والسفر موضع يصنع به الدروع ، وقال في النور : والذي أحفظه من هذه الدروع السغدية بضم السين المهملة وبالغين المعجمة الساكنة ثم دال مهملة ؛ أقول : ولعلها منسوبة إلى

السغد من بلاد الترك . ودرع يقال لها : الخرنق قيل لها ذلك لنعومتها ، والخرنق بالأصل الفتي من الأرانب(١٢٩) .

وكانت له ست قسي : وهي الزوراء والروحاء والصفراء ، وكانت هذه من نبع وهو شجر تتخذ منه القسي ومن أغصانه السهام ، والبيضاء ، وهذه من شوحط ، وهي سلاح بني قينقاع ، والداد ، والكتوم قيل لها ذلك لانخفاض صوتها إذا رمى عنها ، وهذه هي التي اندقت سيتها يوم أحد ، وقيل التي كسرت يوم أحد في الصفراء .

أما أتراسه ، فترس يقال لها : الزلوق لأن السلاح يزلق عنه ، وترس يقال لها : فتق (بضم ففتح) ، وترس آخر أهدي إليه فيه تمثال عقاب وقيل كبش فمحا صورته(١٣٠) .

وكانت له خمسة أرماح : رمح يقال له المثوى : (بضم الميم وإسكان الثاء) لأن المطعون به يقيم موضعه ولا ينتقل ، ورمح يقال له : المنثني وثلاثة رماح أصابها من سلاح بني قينقاع(١٣١) . وكانت له حربة يقال لها : النبعة ، وأخرى كبيرة تدعى البيضاء ، وأخرى صغيرة شبه العكاز يقال لها : الغمرة ، وكان يمشي بها أحيانا . وكان له مغفر من حديد يقال له الموشح لأنه وشح بشبه وهو النحاس الأصفر . ومغفر آخر يقال له : المسبوغ أو ذو المسبوغ . وكان له محجن قدر ذراع أو أطول يمشي به ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيره . وكانت له مخصرة (بكسر الميم وفتح الصاد) تسمى العرجون ويقال لها : العسيب أيضا . وكان له قضيب من الشوحط يسمى الممشوق ، قيل : وهذا القضيب هو الذي كانت تتداوله الخلفاء(١٣٢) . وكانت له جعبة تدعى الكافور ، ومنطقة من أديم منشور فيها ثلاث حلق من فضة والإبزيم من فضة والطرف من فضة . وكان له قدح يسمى الريان ، ويسمى مغنيا أيضا ، وقدح آخر مضبب بسلسلة من فضة . وكان له قدح من قوارير ، وقدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل . والعيدان بفتح العين ، ولعله القدح الذي يتخذ من جذوع النخل الطوال ، فإن العيدان النخل الطوال والواحدة عيدانة . وكانت له ركوة تسمى الصادر ، والركوة هي إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء . وكان له تور (إناء صغير) من حجارة يتوضأ منه ، وكان له مخضبب من شنة (جلد يابس) ، وقعب يسمى السعة ومغسل من صفر ، ومدهن ، وربعة يجعل فيها المرآة والمشط ؛ والربعة هي سليلة مغشاة بالأدم ، قيل وكان مشطه من عاج ، وكانت له مكحلة يكتحل منها عند النوم ثلاثا في كل عين بالإثمد . وكان له في الربعة المقراضان والسواك ، وكانت له قصعة تسمى الغراء لها أربعة حلق يحملها أربعة / ٥١٦/ رجال بينهم . وكانت له قطيفة ، وهي نسيج له خمل . وكان له سرير قوائمه من ساج أهداه له أسعد بن زرارة . وكان له فراش من أدم حشوه ليف . وكانت مخدته من أدم حشوها ليف . وكان له مسح (كساء من شعر) ينام عليه يثنى بثنيتين ؛ وثني له يوما أربع ثنيات فنهاهم عن ذلك ، وقال ردوه إلى حاله الأول فإنه منعني صلاتي الليلة ، أي أنه لوثارته كان سببا لنومه فلم يستيقظ للصلاة . وكان ينام على الفراش ويتغطى باللحاف ، وكان ينام على الفراش تارة وعلى النطع تارة (بساط من الأديم) وعلى الحصير تارة وعلى السرير تارة(١٣٣) .

ملابسه

كانت له عمامة تسمى السحاب كساها عليّا ، وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة . وكان يلبس القلنسوة اللاطئة أي اللاصقة بالرأس . أما القلانس الطوال فإنما حدثت في أيام الخليفة المنصور . وكان في الحروب يلبس القلنسوة ذات الآذان .. وذات الآذان هذه هي شبيهة بما يسمونه اليوم بالشبقة من ملابس أهل الغرب ، وكان أحيانا يلبس القلنسوة بغير عمامة ويلبس العمامة بغير قلنسوة(١٣٤) .

وكان إذا اعتمّ أرخى عمامته بين كتفيه كما رواه مسلم في صحيحه عن عمرو بن حريث ، قال رأيت رسول الله على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه(١٣٥) . وفي مسلم أيضا عن جابر بن عبد الله أن رسول الله دخل مكة وعليه عمامة سوداء(١٣٦) ، ولم يذكر في حديث جابر ذؤابة ، فدلّ على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه .

وكان يلبس القميص ، وكان أحب الثياب إليه ، ومعلوم أن القميص كان لا يلبسه إلا ذوو السعة . أما ملابس سائر الناس من الفقراء فإزار ورداء . وكان قميصه من القطن قصير الكمين ، كمه إلى الرسغ وطوقه مطلق من غير أزرار .

وكان له جبة ضيقة الكمين . والجبة ثوب طويل يلبس فوق الثياب . وكان له رداء وبرد . قال الواقدي كان رداؤه وبرده طول ستة أذرع في ثلاثة وشبر ، وكان يلبسهما يوم الجمعة والعيدين ثم يطويان . وكان إزاره من نسج عمان طول أربعة أذرع وشبر في عرض ذراعين وشبر . وكان له رداء أخضر طوله أربع أذرع وعرضه ذراعان وشبر ، وهذا هو الذي تداولته الخلفاء . وكانت له ملحفة مورسة إذا أراد أن يدور على نسائه رشّها بالماء ، أي لتظهر رائحتها . وكان يصبغ قميصه ورداءه وعمامته بالزعفران . وعن أبي هريرة قال خرج علينا رسول الله وعليه قميص أصفر ورداء أصفر وعمامة صفراء .

وقد صحّ أنه اشترى السراويل وأنه لبسها ، ففي الأوسط للطبراني ومسند أبي يعلى عن أبي هريرة قال دخلت يوما السوق مع رسول الله فجلس إلى بزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم وأخذ رسول الله السراويل ، فذهبت لأحمله عنه فقال : صاحب الشئ أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفا يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم ، قلت : يا رسول الله ، إنك لتلبس السراويل ، قال : أجل في السفر والحضر وبالليل والنهار ، فإني أمرت بالستر فلم أجد شيئا أستر منه(١٣٧) .

وكانت له حلة حمراء ، والحلة إزار ورداء ، ولا تكون الحلة إلا اسما للثوبين معا . قال ابن القيم وغلط من ظنّ أنها كانت حمراء بحتا لا يخالطها غيرها . قال : وإنما الحلة الحمراء هذه هي بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البرد اليمنية ، وهي معروفة بهذا الاسم أي بالحمراء باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر(١٣٨) .

وفي زاد المعاد : وروى الإمام أحمد وأبو داود بإسنادهما عن أنس بن مالك : أن ملك الروم أهدى للنبي مستقة من سندس فلبسها ، فكأني أنظر إلى يديه باديتان . قال الأصمعي : المساتق فرى طوال الأكمام . قال الخطابي ويشبه أن تكون هذه المستقة مكفوفة بالسندس لأن الفروة لا تكون سندسا .

وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت هذه جبة رسول الله ، فأخرجت جبة طيالسية خسروانية لها لبنة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج ، فقالت هذه كانت عند عائشة حتى قبضت ، فما قبضت قبضتها ، وكان النبي يلبسها فنحن نغسلها للمريض نستشفي بها[١٣٩] . واللبنة في قولها "لها لبنة ديباج" هي زيقها الذي ينفتح على النحر .

وفي زاد المعاد ، وكان له بردان أخضران وكساء أسود وكساء أحمر ملبد وكساء من شعر[١٤٠] . وفي الصحيح عن عائشة أنها أخرجت كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت نزع روح رسول الله في هذين[١٤١] . وفي سنن أبي داود[١٤٢] عن عبد الله بن عباس ، قال رأيت على رسول الله حسن ما يكون من الحلل ، وعن أبي رمثة قال رأيت رسول الله يخطب وعليه بردان أخضران ، والبرد الأخضر هو الذي فيه خطوط خضر لا أخضر بحت ، كذا قال ابن القيم[١٤٣] .

وكان يلبس الخفين ويلبس النعل الذي يسمى التاسومة ، ولبس الخاتم . قال ابن القيم ، واختلفت الأحاديث هل كان في يمناه أو في يسراه ، قال وكلها صحيحة السند ، أي فيكون تارة لبسه في يمناه وتارة في يسراه . وفي زاد المعاد قال ولبس خاتما من ذهب ، ثم رمى به ونهى عن التختم بالذهب ثم اتخذ خاتما من فضة ولم ينه عنه . وكان يجعل فصّ خاتمه مما يلي باطن كفه[١٤٤] .

النتيجة

إن هذا الذي ذكرناه لك هو كل ما كان محمد يملكه من دواب ومواشي وعبيد وإماء وسلاح وأثاث ولباس ، عدا ما كان في تصرفه من أرض وعقار من أموال الفيئ في خيبر وفدك وبني النضير . ومنه يتضح لك حقيقة ما قلناه من أن محمداً لم يكن فقيرا في المدينة بل كان جديرا بأن يعد من الأغنياء ، ولا نعلم غنيا من أهل المدينة في عهد محمد كان يملك أكثر من هذا . وبما أن الحياة كانت ساذجة بسيطة في ذلك الزمان ، كان الرجل إذا ملك هجمة من إبل وثلة من غنم عد غنيًّا , وإذا عدم ذلك عدّ فقيرا . على أننا نرى أغنياء القرى والأرياف من أهل السواد في زماننا لا يملك أحدهم أكثر مما كان لمحمد .

فإن قيل : إن هناك ما يدل على أنه كان فقيرا ، فقد جاء عن أبي هريرة أنه قال : كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد في بيت من بيوت رسول الله نار لا لخبز ولا لطبيخ[١٤٥] . فقيل له : بأي شئ كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟ فقال : بالأسودين ، الماء والتمر . وعن ابن عباس قال: والله لقد كان يأتي على آل محمد الليالي ما يجدون فيها عشاء . وعن عائشة : أهدانا أبو بكر شاة ؛ قالت : إني لأقطعها مع رسول الله في ظلمة البيت . فقال لها قائل : أما كان لكم سراج ؟ فقالت : لو كان لنا ما نسرج به أكلناه . وقد قيل : إنه ربط الحجر على بطنه من الجوع[١٤٦] .

قلنا في الجواب على ذلك : أولا : إن هذه الأحاديث لا تخلو من مبالغة ، أو هي على ما رأى الراوي في الظاهر دون أن يتعمق بالنظر في داخلة الأمر . ثانيا : إن محمدا مع كونه غنيا كان يعيش عيش الفقراء راغبا عمّا في يده من المال زاهداً فيه غير حريص عليه ، وكان يقول : الفقر فخري وما ذلك إلا ليتأسى به الفقراء[١٤٧] .

وكيف يكون محمد فقيرا وعنده تلك الموارد المالية الأربعة التي مرّ ذكرها . ولكنه كان زاهدًا في المال غير حريص عليه ، وكان الذي بيده منه ليس له .

وأما ربط الحجر على بطنه من الجوع فهذا لم يقع إلا مرة واحدة , وذلك / ٥٢١/ لما كانوا محصورين في حرب الخندق وقد أصابتهم مجاعة . قال بعض الصحابة لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق زادا وربط النبي الحجر على بطنه من الجوع . على أن ابن حبان قال ببطلان هذا وادعى أن في الحديث تصحيفا ، قال وإنما لفظ الحديث : الحجز بالزاي وهو طرف الإزار ، فصحفوا وزادوا لفظ من الجوع كما ذكره صاحب السيرة الحلبية[١٤٨] .

مقدّس ومُطاع

إن الغاية التي يرمي إليها محمد هي من الأمور التي لا يسعها عمر الإنسان . إذن ، فلأجل الوصول إلى تلك الغاية يلزم أولا إحداث نهضة عالمية كبرى ، ثانيا استمرار تلك النهضة من بعده حتى تتم بها الغاية وكلا الأمرين لا يكون إلا بكون محمد مقدسا ومطاعا عند أتباعه المسلمين ، إذ لو لم يكن هو في نظر أتباعه مقدسا ولا أمره سماويا مطاعا لتعذر حصول تلك النهضة ، ولو حصلت لاستحال استمرارها من بعده .

ولو أننا نزعنا القداسة من شخص محمد والطاعة من أمره لانطفأ من بعده سراج الدعوة وانقطعت حركة النهضة ، ولانمحت آثاره من بعده كما انمحت آثار غيره من عظماء التاريخ ، أو لبقيت لنا من آثاره طلول غير ناطقة وشخوص غير متحركة . ولكننا نرى النهضة العالمية التي أحدثها في حياته قد استمرت بعد مماته حتى بلغت الغاية ، ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا ، وإن تغير جوهرها وتبدّل شكلها وتقلص ظلها ، وما ذلك إلا لأن محمدا مقدس شخصه واجب الاحترام ، ومطاع أمره واجب الامتثال .

ولولا أن محمدا أراد أن يكون مقدسا ومطاعا عند أتباعه المسلمين لما رأيناه يتغاضى عنهم إذا رآهم يتبركون بنعليه ، أو يبتدرون وضوءه ، أو يتلقفون بصاقه ، أو نحو ذلك مما يدل على أنه عندهم مقدس ومطاع . فمثلا كان ابن مسعود يخدمه وكان صاحب نعليه ، فكان إذا قام النبي ألبسه إياهما ، فإذا جلس جعلهما في ذراعيه أي أدخل كل واحدة منهما في إحدى ذراعيه وبقي هكذا حتى يقوم النبي من مجلسه[١٤٩] . ومعنى هذا أن ابن مسعود كان يلبس نعليه في يديه للتبرك بهما .

ولنذكر ما شاهده عروة بن مسعود يوم الحديبية ، فإن قريشا أرسلته إلى محمد ليكلمه في أنهم لا يريدون أن يدخل عليهم مكة في هذا العام ، فكلمه عروة في ذلك وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوأه وكادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه يدلك به من وقع في يده وجهه وجلده ، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر إليه تعظيما له .

فلمّا رجع عروة إلى قريش قال لهم : يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشئ أبدا فروا رأيكم[١٥٠] . وفي السيرة الحلبية قال في سياق الكلام على فتح مكة : ثم انصرف رسول الله إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب على وظيفتهم لنزعت منها دلواً ، أي لأن الناس يقتدون به في ذلك مع أن النزع من زمزم من وظيفة بني عبد المطلب ، قال : وانتزع له العباس دلوا فشرب منه توضأ فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم ، وفي لفظ : لا تسقط قطرة إلا في يد إنسان إن كان قدر ما يشربها شربها وإلا مسح بها جلده ، والمشركون يقولون : ما رأينا ولا سمعنا ملكاً قط بلغ هذا[١٥١] .

وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد حديث عروة يوم الحديبية على وجه غير ما تقدم فقال : ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ، فوالله ما تنخم النبي نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ مادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها[١٥٢] .

وفي يوم الحديبية أيضا تقاسموا شعر رأسه ، ففي السيرة الحلبية قال : ثم دخل رسول الله قبة له من أدم أحمر ودعا بخراش فحلق رأسه ورمى شعره على شجرة فأخذ الناس وتحاصوه (أي تقاسموه حصصا بينهم) وأخذت أم عمارة طاقات منه فكانت تغسلها للمريض وتسقيه فيبرأ ، وعن أنس قال : رأيت رسول الله والحلاق يحلقه وقد طاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[١٥٣] .

وفي زاد المعاد لابن القيم قال في سياق حديث حجة الوداع : فلما أكمل رسول الله نحره استدعى بالحلاق فحلق رأسه ، فقال للحلاق ، وهو معمر بن عبد الله : خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ، فلمّا فرغ منه قسم شعره بين من يليه ثم أشار إلى الحلاق فحلق جانبه الأيسر ، ثم قال : ههنا أبو طلحة فدفعه إليه ، وهنا أخذ ابن القيم يتكلم عن اختلاف الروايات فيما أخذه أبو طلحة هل هو شعر الجانب الأيمن أو الجانب الأيسر ، وليس هذا مما يهمنا ، قال ثم قلّم أظفاره وقسمها بين الناس[١٥٤] . ومن أغرب ما نراه في حياة محمد النبوية في المدينة بصاقه فإنه لم يكن طاهرا مباركا فحسب بل كان مع ذلك دواءً لكل داء ، فقد استعمله للشجاج والجراحات كما يستعمل الناس اليوم صبغة اليود ، واستعمله للعيون الرمدة كما يستعمل الناس اليوم قطرة ابن سيناء ، واستعمله لقلع الصخور والكرى كما يستعمل الناس اليوم الديناميت ، إلى غير ذلك من الأمور .

إن محمدا لم يمتهن بصاقه كما يفعل سائر الناس إلا مرة واحدة ، وذلك لمّا تفل في وجه وحشي قاتل حمزة تحقيرا له ، وذلك أن وحشيا هذا هو الذي قتل حمزة يوم أحد فجزع رسول الله لقتله وحزن عليه حزنا شديدا ، حتى قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله باكيا أشد من بكائه على حمزة ، وبعد فتح مكة وفد وحشي مع أهل الطائف لمّا وفدوا ليسلموا ، قال وحشي : فلم يرعه إلا إني قائم على رأسه أشهد شهادة الحق ، فقال:

أنت وحشي؟ وسألني كيف قتلت حمزة ، فأخبرته ، فقال : ويحك غيب عن وجهك فلا أراك ، وفي رواية : فتفل في وجهي ثلاث تفلات ، وقيل : تفل في الأرض وهو جد مغضب[١٥٥] .

لا ريب أنه تفل في وجه وحشي تحقيراً له فأمنه بصاقه باستعماله للتحقير كما يستعمله سائر الناس ، ولم يستعمله لذلك إلا هذه المرة ، وإلا فإن بصاقه كان الناس يتلقفونه للبركة وكان هو يستعمله للمداواة .

وفي السيرة الهشامية : أن عبد الله بن أنيس لمّا قتل البُسير بن دارام اليهودي ضربه البُسير بمخراش في يده من شوحط (المخراش عصاً معوجة الرأس كالصولجان) فأمه أي شجّه آمة ، والآمة من الشجاج هي التي تبلغ أم الرأس ، وأم الرأس الجلدة التي تجمع الدماغ ، فلما قدم عبد الله بن أنيس على رسول الله تفل في شجته فلم تقح ولم تؤذه[١٥٦] . وفي السيرة الحلبية ، وكذا في زاد المعاد ، أن رسول الله أرسل محمد بن مسلمة في نفر من أصحابه لقتل كعب بن الأشرف اليهودي فلما قتلوه أصيب الحارث بن أوس ببعض سيوف أصحابه ، فتفل عليه رسول الله فبرأ[١٥٧].

وفي السيرة الحلبية أيضا : أن معاذ بن عمرو بن الجموح ضرب أبا جهل يوم بدر ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، قال معاذ : فضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جسمي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها ، وفي رواية : أنه جاء بها إلى رسول الله فبصق عليها وألصقها فلصقت[١٥٨] . وهذه الرواية تنافي ما حدّث به معاذ عن نفسه من أنه وضع قدمه عليها ثم تمطى عليها حتى طرحها ، ولعل رسول الله بصق على جرحها بعدما قطعها معاذ فبرأت أما رواية "ألصقها فلصقت" فهي من زيادة الرواة وتلفيقهم .

وفي السيرة الحلبية أيضا عند الكلام على غزوة أحد قال : ورمي كلثوم بن الحصين بسهم في نحره فجاء إلى رسول الله فبصق عليه فبرأ[١٥٩] .

وفي السيرة الحلبية أيضا : لمّا أغار عيينة بن حصن على لقاح رسول الله خرجوا في طلب القوم وتقدمهم أبو قتادة ، قال : فسرت حتى هجمت على القوم فرميت بسهم في جبهتي فنزعت قدحه وأنا أظن إني نزعت الحديدة ، فلما رآه النبي قال له : ما هذا الذي في وجهك؟ قال : قلت: سهم أصابني ، فقال : ادنِ مني ، فنزع السهم نزعا رفيقا ثم بزق فيه ووضع راحته عليه ، فوالذي أكرمه بالنبوة ما ضرب عليّ ساعة قط ولا قرح عليّ[١٦٠] ، ومعنى قوله : ما ضرب عليّ ما اشتد وجعه عليّ .

وأصابت خالد بن الوليد يوم حنين جراحة ، فعن بعض الصحابة قال : رأيت النبي بعدما هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشي في المسلمين ويقول : من يدلني على رحل خالد بن الوليد ، حتى دل عليه ، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة فتفل النبي في جرحه فبرأ[١٦١] .

وفي السيرة الهشامية في حديث غزوة خيبر : قال رسول الله : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ليس بفرار ، قال : يقول سلمة : فدعا رسول الله عليًّا ، وهو أرمد ، فتفل في

عينه ، ثم قال : خذ هذه الراية ، فامض بها حتى يفتح الله عليك . وفي زاد المعاد : فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية .

وفي زاد المعاد : قال رفاعة بن رافع : رميت بسهم يوم بدر ففقئت عيني ، فبصق فيها رسول الله ودعا لي فما آذاني منها شئ[١٦٣] . وفي السيرة الحلبية عن خبيب بن عبد الرحمن قال : ضرب خبيب جدي يوم بدر فمال شقه فتفل عليه رسول الله ولأمه ورده فأطبق .

وفي السيرة الحلبية عن قتادة بن النعمان قال : أصيبت عيناي فسقطتا على وجنتي فأتيت رسول الله فأعادهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان[١٦٤] ، وذلك في غزوة أحد .

وفي السيرة الحلبية في حديث غزوة ذات الرقاع قال : وفي هذه الغزوة جاءته امرأة بدوية بابن لها فقالت : يا رسول الله ، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه وقال : اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله ، ثم شأنك بابنك ، لن يعود إليه شئ مما كان يصيبه ، فكان كذلك[١٦٥] . أقول : إن صحّ هذا الحديث كان أصلاً لما يفعله بعض المشايخ في زماننا من التعزيم على المجانين وضربهم بالسياط ، وقولهم للجني : اخرج بإذن الله ، مع أن علماء المسلمين المتمسّكين بالكتاب والسنة ينكرون على هؤلاء المشايخ فعلهم هذا .

وفي السيرة الحلبية أيضا : أن أسماء زوج الزبير لمّا ولدت عبد الله بن الزبير بقباء أتت به النبي فبصق في فيه ، قال الحلبي نقلا عن البخاري عن أسماء قالت : فنزلت بقباء فولدته ، تعني ولدها عبد الله بن الزبير ، ثم أتيت النبي فوضعته في حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغتها ثم تفل في فيه ، فكان أول شئ في جوفه ريق رسول الله ، ثم حنّكه بتلك التمرة ثم دعا له وبرك عليه[١٦٦] .

وفي السيرة الحلبية أيضا : أن علي بن أبي طالب أول من أسلم بعد خديجة قال : وفي خصائص العشرة للزمخشري أن النبي هو الذي تولى تسميته بعلي ، وتغذيته أياما من ريقه المبارك يمصه لسانه ، فعن فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب أنها قالت : لما ولدته سمّاه عليًّا وبصق في فيه ، ثم إنه ألقمه لسانه ، فما زال يمصه حتى نام ، قالت : فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد ، فدعونا له محمدا فألقمه لسانه فنام ، فكان كذلك ما شاء الله عز وجل[١٦٧] .

أقول : إن عليًّا ولد قبل أن يتنبأ محمد بثمان سنين ، لأنهم ذكروا أن عليّا لمّا أسلم كان عمره ثمان سنين ، فإن صحّ هذا الحديث دلّ على أن محمدا قبل النبوة أيضا قد استعمل بصاقه مقدسا مباركا كما استعمله بعد النبوة ، ولعل فكرة النبوة لما ولد علي كانت حاصلة لمحمد إلا أنه لم يظهرها بعد ، والأظهر فيما نراه هو أن الحديث لا أصل له وإنما هو ملفق ، إذ من البعيد أن عليًّا يأبى وهو رضيع ثدي المرضعات قاطبة ويبقى مدة من الزمن لا يرضع إلا لسان محمد ولا يتغذّى إلا بريقه .

ومما جرى يوم الخندق حديث الكدية ، بوزن دمية وهي أرض غليظة صلبة ، ففي ابن هشام وكذا في السيرة الحلبية : واشتد على الصحابة في حفر الخندق كدية فشكوا ذلك لرسول الله فأخذ المعول وضرب

فصارت كثيبا أهيل[١٦٨] . وفي رواية : أنه دعا بماء ثم تفل عليه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، قال بعض الحاضرين : فوالذي بعثه بالحق لانهالت حتى عادت كالكثيب ما ترد فأسا ولا مسحاة[١٦٩] . ومما جرى يوم الخندق أنه بصق في العجين ، ففي السيرة الحلبية قال : إن أهل الخندق أصابتهم مجاعة ، قال بعض الصحابة : لبثنا ثلاثة أيام وربط النبي الحجر على بطنه من الجوع ، وجاء في رواية : أن جابر بن عبد الله لمّا رأى ما بالنبي من الجوع استأذنه في الانصراف إلى بيته فأذن له ، قال جابر : فجئت لامرأتي وقلت لها : إني رأيت رسول الله خمصا شديدا ، أفعندك شئ؟ قالت : عندي صاع من شعير وعناق ، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير ، وجللت اللحم في برمة ، فلمّا أمسينا جئت إلى رسول الله فساررته وقلت : له طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ، ورجل أو رجلان ، فشبك أصابعه في أصابعي وقال : كم هو ؟ فذكرت له ، قال : كثير طيب لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجئ ، وصاح رسول الله : يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سؤارا (أي ضيافة) فحيهلا بكم (أي سيروا مسريعين) ، قال : وسار رسول الله يقدم الناس . قال جابر : فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ، والله إنها لفضيحة فقال رسول الله : ادخلوا عشرة عشرة ، وذلك بعد أن أخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا وبصق فيها وبارك ، ثم سمّى الله تعالى ، ثم أكل وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا وجاء آخرون حتى صدر أهل الخندق عنها ، وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا لينخبز كما هو[١٧٠] .

أقول : إن بين هذا الحديث عن جابر وبين ما قاله بعض الصحابة : "لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق زادا ، وربط النبي الحجر على بطنه من الجوع" تناقضا ظاهرا[١٧١] . وفي كتب السير نظائر وأمثال لهذه الحادثة التي ذكرها جابر حتى لا تخلو غزوة من غزواته عن مثلها ، وربما كان لها أصل معقول فأخرجه الرواة إلى حد لا يعقل ، ومما يدعو إلى الريب ما قاله جابر في حديث من أن أهل الخندق ألف ، والذي في السيرة الهشامية والسيرة الحلبية أنهم كانوا ثلاثة آلاف ، ولعلهم لم يجيئوا كلهم إلى طعام جابر ، وإنما جاء بعضهم ، فلذا قال : وهم ألف ، ولكن يبعد أن يكون الجيش كله في مجاعة ، ويدعى بعضه إلى الطعام ويترك أكثره ، مع أن الطعام كان من الممكن (على ما رواه جابر) أن يكفي أكثر من ثلاثة آلاف .

وفي السيرة الحلبية : أن قوما شكوا إلى النبي ملوحة في ماء بئرهم فجاءه نفر من أصحابه حتى وقف على ذلك البئر فتفل فيه فتفجر بالماء العذب المعين[١٧٢] . وفيها أيضا قال عند الكلام على بئر رومة التي اشتراها عثمان وجعلها وقفا للمسلمين : وكانت هذه البئر ركية ليهودي يقال له رومة يقال إنه أسلم وكان يبيع المسلمين ماءها ، كانت بالعقيق وتفل فيها النبي فعذب ماؤها[١٧٣] .

وأغرب من ذلك أن بعض الصحابة امتص دمه لما شج يوم أحد ، ففي زاد المعاد : ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعضّ عليهما حتى سقطت ثناياه من شدة غوصهما في وجهه ، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته . قال : ولمّا مصّ مالك جرح رسول الله حتى أنقاه قال له : مجّه ، وقال : والله لا أمجه أبدا ثم أدبر ، فقال النبي : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . وفي السيرة الحلبية : ولمّا مصّ مالك جرح رسول الله حتى أنقاه قال له : مجّه ، قال : والله لا أمجه أبدا ثم أدبر ، فقال النبي : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا[١٧٤] . وفي السيرة الحلبية : ولمّا جرح وجه رسول الله صار الدم يسيل على وجهه الشريف وجعل

يمسح الدم ، وفي لفظ : ينشف دمه وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ، قال: وامتص مالك بن سنان الخدري وهو والد أبي سعيد الخدري دم رسول الله ثم ازدرده ، فقال رسول الله: من مسّ دمي دمه لم تصبه النار ، وفي رواية : أنه قال : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا وأشار إليه ، وفي لفظ : من سرّه أن ينظر إلى من لا تمسه النار فلينظر إلى مالك بن سنان ، قال : ولم ينقل أنه أمر هذا الذي امتص دمه بغسل فمه ولا أنه غسل فمه من ذلك ، كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية بغسل فمها ولا هي غسلته من ذلك لمّا شربت بوله . فعن أم أيمن قالت : قام رسول الله من الليل إلى فخارة كانت تحت سريرها فبال فيها ، فقمت وأنا عطشى فشربت ما في الفخارة وأنا لا أشعر ، فلمّا أصبح النبي قال : يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة فاهريقي ما فيها ، فقلت : والله لقد شربت ما فيها ، فضحك رسول الله حتى بدت نواجده ، ثم قال : لا يجفر (أي لا يستكرش ويتسع) بطنك بعده أبدا ، وفي رواية : لا تلج النار بطنك ، وجاء في رواية بدل فخارة إناء من عيدان (بالفتح الطوال من النخل) ، قال : فإن صحا حملا على التعدد لأم أيمن ولا مانع(١٧٥) .

قال : وقد شربت بوله أيضا امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة كانت تخدم أم حبيبة ، جاءت معها من الحبشة ، وكانت تكنى بأم يوسف ، فقال لها النبي حين علم أنها شربت بوله : صحة يا أم يوسف ، وفي رواية أنه قال لها : احتظرت من النار بحظار ، والحظار الحاجز بين شيئين أي احتميت واحتجزت من النار بحجاز .

قال : وقد شرب دمه أيضا أبو طيبة الحجام ، وعلي ، وكذا عبد الله بن الزبير . فعن عبد الله بن الزبير قال : أتيت النبي وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهريقه حتى لا يراك أحد ، قال : فشربته ، فلما رجعت قال : يا عبد الله ما صنعت ؟ قلت : جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ، قال : لعلك شربته ؟ قلت : نعم ، وقال : ويل للناس منك ، وويل لك من الناس ، وكان بسبب ذلك على غاية من الشجاعة .

قال الحلبي بعدما أورد ما تقدم : وأخذ من ذلك بعض أئمتنا طهارة فضلاته حيث لم يأمره بغسل فمه ، ولم يغسل هو فمه ، وإن شربه جائز حيث أقره على شربه .

وأغرب من هذا كله ما ذكروه من أن النبي امتص دم أسامة بن زيد بن حارثة ، قال الحلبي في سيرته : وكان أسامة حب رسول الله وابن حبه وابن حاضنته ، قال : وعن عائشة أن أسامة عثر يوما في أسكفة الباب فشجّ وجهه ، فقال لي رسول الله : أميطي عنه ، قالت عائشة : فكأني تقذرته (أي لأنه كان أسود أفطس) فجعل رسول الله يمصه يعني الدم ثم يمجه(١٧٧) .

الغلو في محمد

قلنا فيما تقدم : إن محمدا كان يريد من قومه أن يكون عندهم مقدسا مطاعا لأن النهضة التي يريد إحداثها للوصول إلى غايته لا تتم ولا تستمر بعده إلا بذلك ، ولذا كان يحرص كل الحرص على أن يتبعوه فيكون قدوتهم المقدسة ومرجعهم الوحيد في كل شئ .

يدل على ذلك ما أخرجه أحمد وغيره عن عبد الله بن ثابت ، قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إني مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ فتغير وجه رسول الله ، فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، فسري عن رسول الله وقال : والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين[١٧٨] .

فانظر كيف تغير وجهه لمّا رأى عمر معجبا بالجوامع التي كتبت له من التوراة ، لأنه يريد أن لا يراه إلا معجبا بالقرآن وحده ، ولا متبعا إلا إياه ، ولا معتمدا إلا عليه . وكان من طبعه أن يتغير وجهه إذا سمع شيئا يكرهه أو كلاما يزعجه ويؤلمه ، ولكن عمر عرف لماذا تغير وجهه ، ولذا بادره بما ينفي إعجابه بالتوراة ويثبت أن لا يتبع إلا محمدا إذ قال له : "رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا" ، ثم انظر كيف سري عنه وانكشف ما بوجهه من تغير لمّا رأى عمر قد رجع عمّا قاله ، وترك ما جاء به من جوامع التوراة ، وكيف قال له إنه لا نجاح ولا هداية لهم إلا باتباعه ، وأنهم لو كان موسى حاضرا واتبعوه لضلوا ، وأكد له بعد ذلك بما مضمونه "أنتم لي وأنا لكم" ، ولهذا السبب ، أي لكونه يريد أن يكون مرجعهم المقدس ومتبوعهم المطاع في الأمور كلها ، كان يتغاضى عمّا يفعلونه أحيانا من ابتدارهم وضوءه ، وتبركهم ببصاقه ، وأخذهم شعر رأسه ، وشربهم دم حجامته ونحو ذلك من الأمور ، ولا ريب أن هذه الأفعال منهم كانت جديرة بأن تعد من غلوهم فيه ، غير أن غلوهم هذا كان ، والنبي حي بين أظهرهم ، قد وقف عند هذا الحد ولم يتجاوزه إلى ما هو أعظم .

ونحن هنا نريد أن نتكلم عن الغلو الذي حصل بعد وفاة محمد ، وقبل ذلك نقول : إن محمدا لم يرد لنفسه من كل ما جاء به إلا أمرا واحدا وهو الذكر الخالد مع التقديس ، ولذا قرن اسمه باسم الله ، وجعل الدخول في الإسلام لا يتم إلا بشهادتين ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمدا رسول الله ، مع أن الشهادة الأولى تتم بها الدعوة إلى الله ، فهي وحدها كافية لهدم الوثنية وإقامة دين التوحيد ، ولكنه لم يكتف بها بل جعل الإسلام لا يتم إلا بالشهادة الثانية معها كما يدل على ذلك قصة إسلام أبي سفيان يوم الفتح .

ذلك أن محمدا خرج من المدينة في عشرة آلاف يريد مكة ، فلما بلغ مر الظهران (موضع على مرحلة من مكة) ، نزل به فجاءه عمّه العباس بأبي سفيان بن حرب حتى أدخله على رسول الله ، فقال له رسول الله: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي وأمي أنت ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئا بعد[١٧٩] .

إن أبا سفيان في كلامه هذا قد اعترف بأنه لا إله إلا الله ولكن محمدا لم يكتف منه بذلك بل قال له : ويحك يا أبا سفيان أم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، أما والله هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا[١٨٠] .

وفي رواية : أن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام كانا مع أبي سفيان لما جاء به العباس ، وأن العباس قال : يا رسول الله ، أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرتهم ، وهم يدخلون عليك ، فقال رسول الله : أدخلهم ، فدخلوا ، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم عن أهل مكة ، ودعاهم إلى الإسلام فقالوا:

نشهد أن لا إله إلا الله ، فقال رسول الله : اشهدوا أني رسول الله ، فشهد بذلك بديل وحكيم بن حزام ، وقال أبو سفيان : ما أعلم ذلك والله ، إن في النفس من هذا شيئا فأرجئها (أي أخرها إلى وقت آخر) ، فقال العباس لأبي سفيان : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق وأسلم[١٨١] .

لا ريب أن إقرار أبي سفيان بالشهادة الثانية لم يكن إلا من الخوف حيث هدده العباس بضرب عنه ÷ ومهما يكن فإن هذه القصة تدل على أن الإسلام لا يتم بشهداة لا إله إلا الله بل لا بد من ذلك من شهادة أن محمدا رسول الله .

وبذلك صار المسلمون يذكرون محمدا ويتعبدون بذكره في في صلواتهم وعلى مآذنهم في كل يوم خمس مرات ، وكفى بذلك ذكرا خالدا مقدسا يدوم إلى ما شاء الله .

وفي السيرة الحلبية : قال رسول الله : سألت ربي مسألة وودت إني لم أكن سألته ، سألت ربي : اتخذ ابراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، فقال : يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك ، وضالا فهديتك ، وعائلا فأغنيتك وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك فلا أذكر إلا وتذكر معي[١٨٢] .

وفي السيرة الحلبية أيضا عن الزهري قال : نهى رسول الله عن أكل ما يذبح للجن وعلى اسمهم . وأما ما قيل عند ذبحه بسم الله واسم محمد فحلال أكله ، وإن كان القول المذكور حراما لإيهامه التشريك ، وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى : "لا أذكر إلا وتذكر معي" ، فقد جاء : أتاني جبريل فقال : إن ربي وربك بقول لك : أتدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله أعلم ، قال : لا أذكر إلا وتذكر معي . أقول : إن كان ذكر اسم محمد عند الذبح حراما لأنه يوهم التشريك ، فإن ذكر محمد مع الله في قوله : "لا أذكر إلا وتذكر معي" يلزم أن يكون حراما لأنه يوهم التشريك أيضا ، غاية ما هناك أنه في الأول تشريك في الذبح ، وفي الثاني تشريك في الذكر .

ولا ريب أن الذكر الخالد مع التقديس الذي أراده محمد لنفسه قد تم له على أحسن ما يرام ، إذ صار المسلمون من بعده يذكرونه كما قلنا آنفا في صلواتهم الخمس وفي الشهادتين وفي سائر أوقاتهم مقرونا بالصلاة والتسليم .

ومن غلوهم فيه أنه ليس لشخصه ظل ، قال الحلبي في سيرته : إن ظل شخصه الشريف كان لا يظهر في شمس ولا قمر لئلا يوطأ بالأقدام ، وإنه كان لا يقع عليه الذباب[١٨٣] .

ومن ذلك أنهم اختلفوا بين مكة والمدينة في أيهما أفضل ، فمنهم من فضل مكة على المدينة ، ومنهم من فضل المدينة على مكة ، واتفقوا على استثناء المحل الذي دفن فيه ، فإن الحلبي في سيرته بعدما ذكر الخلاف قال : والكلام في غير ما ضمّ أعضاءه الشريفة من أرض المدينة ، وإلا فذاك أفضل بقاع الأرض بالإجماع ، بل حتى من العرش والكرسي[١٨٤] . ومعلوم أن العرش مقر الله كما في القرآن : "الرحمن على العرش استوى"[١٨٥] ، فقد جعلوا المحل الذي دفن فيه محمد أفضل من عرش الرحمن بأي معنى كان .

وقد جاء في القرآن في سورة الإسراء : "ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا"[١٨٦] ، ومعلوم أن المقام المحمود هو المقام الذي يحمده القائم فيه ، ويحمده كل من رآه وعرفه ، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، ولكن المسلمين اختلفوا فيه وغلوا فيه غلوا حتى حدثت فتنة كبيرة في بغداد بسبب هذه الآية ، فقالت الحنابلة : معناه يجلسه الله على عرشه ، وقال غيرهم : بل المقام المحمود هو الشفاعة العظمى في فصل القضاء ، فدام الخصام بين الفريقين إلى أن اقتتلوا فقتل منهم خلق كثير كما في السيرة الحلبية[١٨٧] .

ومن غلوهم فيه أن عورته إذا انكشفت لا ترى . قال الحلبي في سيرته وفي الخصائص الصغرى : إنه لم ترَ عورته قط ، ولو رآها أحد طمست عيناه ، قال : لأنه لا يلزم من كشف عورته رؤيتها[١٨٨] .

* * * * * *

إن تاريخ الدعوة المحمدية ليشهد لشخصية الرسول – ص – الفذة الفريدة بأنه عبقرية نادرة قل أن يجود الزمان بمثلها .

لقد عرف محمد – ص – الغرض من حياته وعاش من أجله وحققه حرفيا بعزم لا يلين وشجاعة لا ترجف وصبر لا ينفذ .

المراجع

(١) النساء ٤٨ و ١١٦
(٢) آل عمران ١٦٩
(٣) سيرة ابن هشام ٢١٧/٢
(٤) ابن هشام ٣٤٩/٢ والسيرة الحلبية ٤٣/٢ـ٤٦
(٥) السيرة الحلبية ٣١٣/٢
(٦) ابن هشام ٢١٩/٣
(٧) السيرة الحلبية ٣١٣/٢ـ٣١٤
(٨) آل عمران ٢٦
(٩) تاريخ الطبري ٥٦/٣ـ٥٨
(١٠) السيرة الحلبية ٢١٣/٣
(١١) ابن هشام ٢١٧/٢ ، تاريخ الطبري ٤٧٩/٢
(١٢) طه ١٤
(١٣) الشورى ٢٣
(١٤) سيرة ابن هشام ٢٦٢/٢ـ٣٢١ و ٤١٥/٣ـ٤٤٢
(١٥) سيرة ابن هشام ٤٣٠/٢
(١٦) سيرة ابن هشام ٤٣١/٢
(١٧) سيرة ابن هشام ٤٣٨/٢
(١٨) السيرة الحلبية ٦/٢
(١٩) البقرة ٨٩
(٢٠) تفسير الزمخشري للآية ٨٩ من سورة البقرة
(٢١) السيرة الحلبية ١٤٦/٢
(٢٢) السيرة الحلبية ١٤٣/٢
(٢٣) المائدة ٢٤
(٢٤) السيرة الحلبية ١٤٩/٢ـ١٥٠
(٢٥) السيرة الحلبية ٣٢٤/٢
(٢٦) السيرة الحلبية ٣٤٥/٢
(٢٧) السيرة الحلبية ٢٦١/٣
(٢٨) السيرة الحلبية ٦٩/٢
(٢٩) الفجر ٢١ـ٢٣
(٣٠) تفسير الكشاف سورة الفجر
(٣١) السيرة الحلبية ٢٣٩/١
(٣٢) السيرة الحلبية ١٥٦/٢
(٣٣) السيرة الحلبية ١٦٣/٢

(٣٤) السيرة الحلبية ١٦٦/٢
(٣٥) السيرة الحلبية ٣١٣/٢
(٣٦) حديث متواتر
(٣٧) السيرة الحلبية ٣٩/٣
(٣٨) الأحزاب ٤٥-٤٧
(٣٩) السيرة الحلبية ٤/٢-٥
(٤٠) السيرة الحلبية ٥/٢
(٤١) السيرة الحلبية ٤٠/٢
(٤٢) السيرة الحلبية ٣٦/٢
(٤٣) السيرة الحلبية ٤٠/٢
(٤٤) السيرة الحلبية ٣٦/٢
(٤٥) السيرة الحلبية ٣٦/٢
(٤٦) السيرة الحلبية ٣٧/٢
(٤٧) السيرة الحلبية ٣٧/٢
(٤٨) سيرة ابن هشام ٤٨٧/٢
(٤٩) السيرة الحلبية ٣٧/٢
(٥٠) المصدر السابق
(٥١) سيرة ابن هشام ٤٨٦/٢
(٥٢) النحل ١٢٥
(٥٣) الحج ٣٩-٤٠
(٥٤) البقرة ١٩٠
(٥٥) السيرة الحلبية ٥٨/٢
(٥٦) مسند أحمد ٤٨٦٩ ، ٥٤٠٩
(٥٧) صحيح البخاري كتاب الإيمان حديث رقم ٢٠ ، كتاب الجهاد حديث رقم ٢٧٢٧
صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٣٠ و ٣١
(٥٨) ابن هشام ٥٩٥/٢
(٥٩) ابن هشام ٥٩١/٢
(٦٠) المصدر السابق
(٦١) ابن هشام ٧٠٦/٢
(٦٢) ابن هشام ٦٦٢/٢
(٦٣) السيرة الحلبية ٧١/٣
(٦٤) سنن الترمذي ١٥٨٦ ، سنن ابن ماجة ٢٧٨٩
(٦٥) سنن ابن ماجة ٢٧٩٠
(٦٦) آل عمران ١٦٩
(٦٧) مسند أحمد ٢٢٦٧
(٦٨) السيرة الحلبية ١٦٢/٢

(٦٩) السيرة الحلبية ١٦٦/٢
(٧٠) صحيح البخاري ٣٢٣ و ٤١٩، صحيح مسلم ٨١٠ ، مسند أحمد ٢٦٤٤، سنن النسائي ٤٢٩
(٧١) السيرة الحلبية ١٩١/٢
(٧٢) التوبة ٤٩
(٧٣) السيرة الحلبية ١٣٢/٣
(٧٤) السيرة الحلبية ١٤٨/٢
(٧٥) زاد المعاد ٢١٦/٣
(٧٦) السيرة الحلبية ٢٨٠/٢
(٧٧) المصدر السابق
(٧٨) المصدر السابق
(٧٩) سورة النساء ٢٤
(٨٠) زاد المعاد ١٢/٤-١٣
(٨١) ابن هشام ٣٤٦/٢
(٨٢) الكشاف – تفسير سورة الأنفال الآية ١
(٨٣) سورة الأنفال ١٠
(٨٤) السيرة الحلبية ١٨٤/٢
(٨٥) السيرة الحلبية ١٨٥/٢
(٨٦) سورة الأنفال ٤١
(٨٧) زاد المعاد ٢١٨/٣
(٨٨) السيرة الحلبية ٣٠٤/١
(٨٩) السيرة الحلبية ٥/٢
(٩٠) السيرة الحلبية ١٧٩/٣
(٩١) السيرة الحلبية ١٧٨/٣
(٩٢) حديث متواتر
(٩٣) السيرة الحلبية ٢٦٦/٢
(٩٤) سورة الحشر الآية ٥
(٩٥) السيرة الحلبية ٣٤/٣
(٩٦) صحيح مسلم كتاب الجهاد حديث ٣٢٨١ ، سنن أبي داود كتاب الجهاد حديث ٢٢٩٨
(٩٧) السيرة الحلبية ١٨٠/٣
(٩٨) ابن هشام ٦٣٧/٤
(٩٩) سورة البقرة الآية ١٩٤
(١٠٠) السيرة الحلبية ١٨٦/٢
(١٠١) سورة الأنعام ٢٥ ، السيرة الحلبية ٣٢٣/١
(١٠٢) السيرة الحلبية ١٨٦/٢
(١٠٣) المصدر السابق
(١٠٤) السيرة الحلبية ١٧٩/٢

(١٠٥) زاد المعاد ٢٢٣/٣
(١٠٦) زاد المعاد ٢٢٤/٣
(١٠٧) سورة التوبة الآية ٢٩
(١٠٨) السيرة الحلبية ٤١/٣
(١٠٩) السيرة الحلبية ٥١٨/٢
(١١٠) السيرة الحلبية ٣٢٦/٣
(١١١) صحيح البخاري كتاب الإجارة حديث ٢١٠٢
(١١٢) مسند أحمد حديث ١٣٩٧٣
(١١٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب ما قيل في الرماح حديث ٤٨٦٨ ، مسند أحمد حديث ٤٨٦٩
(١١٤) السيرة الحلبية ٣٣٠/٣
(١١٥) السيرة الحلبية ٣٣١/٣
(١١٦) المصدر السابق
(١١٧) المصدر السابق
(١١٨) المصدر السابق
(١١٩) السيرة الحلبية ٣٣٢/٣
(١٢٠) السيرة الحلبية ١٥٨/٣
(١٢١) السيرة الحلبية ٣٣٢/٣
(١٢٢) سورة الأحزاب الآية ٥
(١٢٣) سورة الأحزاب الآية ٤٠
(١٢٤) السيرة الحلبية ٣٣٦/٣
(١٢٥) السيرة الحلبية ٢٥٠/٣
(١٢٦) السيرة الحلبية ٣٢٦/٣
(١٢٧) السيرة الحلبية ٣٢٩/٣
(١٢٨) زاد المعاد ١٣٩/٢
(١٢٩) السيرة الحلبية ٣٢٩/٣
(١٣٠) المصدر السابق
(١٣١) السيرة الحلبية ٣٣٠/٣
(١٣٢) المصدر السابق
(١٣٣) السيرة الحلبية ٣٣٥/٣
(١٣٤) السيرة الحلبية ٣٤٣/٣
(١٣٥) صحيح مسلم كتاب الحج حديث ٢٤٢١
(١٣٦) صحيح مسلم كتاب اللباس حديث ١٦٥٧
(١٣٧) السيرة الحلبية ٣٤٣/٣
(١٣٨) زاد المعاد ١٤١/٣
(١٣٩) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة حديث ٣٨٥٥
(١٤٠) زاد المعاد ١٤٢/٣

(١٤١) صحيح البخاري كتاب فرض الخمس حديث ٢٨٧٧
(١٤٢) سنن الترمذي كتاب الأدب ٢٧٣٧
(١٤٣) زاد المعاد ١٤٢/٣
(١٤٤) زاد المعاد ١٣٣/٢
(١٤٥) السيرة الحلبية ٣٤١/٣
(١٤٦) المصدر السابق
(١٤٧) المصدر السابق
(١٤٨) السيرة الحلبية ٣٢٩/٣
(١٤٩) السيرة الحلبية ٣٢٥/٣
(١٥٠) السيرة الحلبية ١٥/٣
(١٥١) السيرة الحلبية ٨٨/٣
(١٥٢) زاد المعاد ١ فصل في غزوة الحديبية
(١٥٣) السيرة الحلبية ٢٣/٣
(١٥٤) زاد المعاد ٢٦٨/٢
(١٥٥) السيرة الحلبية ٩٤/٣
(١٥٦) السيرة الحلبية ٦١٨/٤
(١٥٧) السيرة الحلبية ١٦١/٣
(١٥٨) السيرة الحلبية ١٧١/٢
(١٥٩) السيرة الحلبية ٢٣١/٢
(١٦٠) السيرة الحلبية ٦/٣
(١٦١) السيرة الحلبية ١١٤/٣
(١٦٢) زاد المعاد ١١٠/١
(١٦٣) السيرة الحلبية ١٧٨/٢
(١٦٤) السيرة الحلبية ٢٥٢/٢
(١٦٥) السيرة الحلبية ٢٧٤/٢
(١٦٦) السيرة الحلبية ٧٩/٢
(١٦٧) السيرة الحلبية ٢٦٨/١
(١٦٨) ابن هشام ٢١٧/٣
(١٦٩) السيرة الحلبية ٣٣٠/٢
(١٧٠) السيرة الحلبية ٣٢٩/٢
(١٧١) السيرة الحلبية ٣٢٩/٢
(١٧٢) السيرة الحلبية ٢٩٤/٣
(١٧٣) السيرة الحلبية ٧٥/٢
(١٧٤) زاد المعاد /١ غزوة أحد
(١٧٥) السيرة الحلبية ٢٣٤/٢
(١٧٦) المصدر السابق

(١٧٧) سنن ابن ماجة كتاب النكاح حديث رقم ١٩٦٦
(١٧٨) مسند أحمد
(١٧٩) السيرة الحلبية ٧٩/٣
(١٨٠) المصدر السابق
(١٨١) السيرة الحلبية ٧٩/٣
(١٨٢) السيرة الحلبية ٩٧/٣
(١٨٣) السيرة الحلبية ٣٠٢/٣
(١٨٤) السيرة الحلبية ٣٦٦/٣
(١٨٥) سورة طه الآية ٢٠
(١٨٦) سورة الإسراء الآية ٧٩
(١٨٧) السيرة الحلبية ٤٠٠/١
(١٨٨) السيرة الحلبية ٣٠٢/٣

الباب الثاني

الحزب الهاشمي

د. سيد محمود القمني

كان اليهود الذين يعيشون بين ظهرائي العرب يترفعون عليهم ويفاخرون بأن لهم من الأخيار عددا وعدة وكانوا يتباهون بدولتهم الغابرة التي أنشأها الملك النبي داود وورثها عنه ابنه سليمان من بعده .

أثار هذا خيال سراة العرب وأشرافهم ؛ حتى بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة ، مشرقا في الخيال ، تدعمه ما بدأت تشهده الجزيرة في مناطق متعددة من محاولات لتوحيد القبائل سياسيا ؛ سواء عن طريق التحالفات الجانبية التي شكلت نويات مرجوة لوحدة أكبر ، أو عن طريق إخضاع قبيلة لأخرى ، أو التحالفات التي تتفق ومنطق البداوة ، والتي كانت تتم بين القبائل المنتمية إلى سلف واحد ، مما يجعل انتظامها تحت إمرة زعيم واحد أمرا أيسر ، خاصة عند حدوث جلل طارئ أو خطر مشترك ، ولا ننسى المحاولات الأخرى المباشرة التي اتخذت صيغة الملك وصبغته ؛ كمحاولة (زهير الجنابي) زعيم قضاعة تمليك نفسه على بكر وتغلب[1] ، أو الممالك التي قامت فعلا من زمن سابق لكن في ظروف مختلفة على حدود الامبراطوريات الكبرى – مثل مملكة الحيرة ، ومملكة الغساسنة .

لكن بقية الناس – حتى داخل مكة – ممن كانوا يعتبرون أنفسهم عقلاء لم يكونوا مع هذا التفاؤل ، ولا مع هذا الجموح في الآمال ، فهذا الأسود بن عبد العزى يقدم الاعتراض البديهي والواضح والمباشر ؛ قائلا : "ألا إن مكة لقاح لا تدين لملك" ، وهو اعتراض يستند إلى قراءة أخرى ؛ فالعرب أيًّا كان الظرف الاجتماعي – لا تقبل بفرد يملك عليهم ويسود ؛ لأن معنى ذلك سيادة عشيرة على بقية العشائر ، وقبيلة على بقية القبائل ، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلي وتنفر منه .

وإزاء كل هذه العوائق الواضحة ، والمحبطات السافرة للحلم ، وللأمل ، وللتوقع ، لم يجد الآخرون سوى الاهتداء إلى أنه لا حل سوى أن يكون منشئ الدولة المرتقبة نبيا مثل داود ، وعندما وصلوا إلى هذا ؛ فشى الأمر بسرعة هائلة بين العرب ؛ حتى اشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة ، وآمن هؤلاء بذلك ، وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم الآتي ؛ وإن ظلت المشاعر القبلية داخل النفوس التي تهفو للوحدة ؛ وظن كل منهم أن الآتي سيكون منهم ؛ مثل (أمية بن عبد الله) الذي راودته نفسه بالنبوة والملك ؛ فقام ينادي :

ألا نبي منا فيخبرنا ما   بعد غايتنا في رأس محيانا؟

لكن العجيب فعلا ألا يمضي من السنين غير قليل ، حتى تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة ، تطوى تحت جناحيها – وفي زمن قياسي – ممالك الروم والعجم ؛ بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن هاشم محمد بن عبد الله أنه النبي المنتظر!

مع تعدد القبائل تعددت المشيخات وكثر الشيوخ وأبطال الغزو ؛ أولئك الذين تحولوا بعد موتهم إلى أسلاف مقدسين ، وأقام لهم أخلافهم التماثيل والمحاريب ، ليلتمسوا عندهم العون كلما حزّ بهم أمر أو حلّ بهم جلل ، ومن أجل هؤلاء الصالحين السالفين ؛ أقيمت بيوت العبادة ، وشرعت طرق التقرب إلى الأرباب أو الأسلاف (الرب لغة هو سيد الأسرة أو القبيلة وهو بعلها) ؛ ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد الأبطال والصالحين الراحلين ، وبتعدد الأرباب تعددت الكعبات ؛ حيث كانت الكعبة (البناء المكعب) هي الصيغة المعمارية المفضلة لبيوت أرباب الجاهلية ، وأحيانا أخرى كانت هذه الكعبات تقام تقديسا للأحجار الغريبة والنادرة ؛ مثل الأحجار البركانية أو النيزكية ، وكليهما كان يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الاحتراق ، ونظن هذا التقديس ناتجا – إضافة لغرابة شكل الحجر – من كونه قادما من عالم غيبي مجهول ؛ فالحجر البركاني مقذوف ناري – من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات ، واحتسبته عالما لأرواح السالفين المقدسين – كذلك الحجر النيزكي ، وربما كان أكثر جلالا ، لكونه كان يصل الأرض وسط مظاهرة احتفالية سماوية تخلب لب البدوي المبهور ؛ فهو يهبط بسرعة فائقة محتكا بغلاف الأرض الغازي ؛ فيشتعل مضيئا ومخلفا وراءه ذيلا هائلا ، لذلك ؛ كان هول رؤيته في التصور الجاهلي دافعا لحسبانه ساقطا من عرش الآلهة في السماء ؛ حاملا معه ضياء هذا المكان النوراني ؛ ثم كان طبيعيا أن يحاط بالتكريم والتبجيل .

ومع كثرة الأحجار القادمة من عند الأسلاف ، أو الهابطة من السماء ؛ كثرت أيضا الكعبات . وعن الكعبات ومحجّات العرب يقول الباحث محمود سليم الحوت ؛ "يجب ألا يخطر على بال أحد أن مكة – وإن ارتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة – هي القبلة الوحيدة في الجزيرة ؛ فقد كان للعرب كعبات عديدة أخرى تحج إليها في مواسم معينة وغير معينة ، تعتبر (تذبح) عندها ، وتقدم لها النذور والهدايا ، وتطوف بها ، ثم ترحل عنها بعد أن تكون قد قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة"[٢] .

وقد اشتهر من بيوت الآلهة أو الكعبات ما وجدنا ذكره عند الهمداني (بيت اللات ، وكعبة نجران ، وكعبة شداد الإيادي ، وكعبة غطفان)[٣] . وما ذكره الزبيدي (بيت ذي الخلصة المعروف بالكعبة اليمانية)[٤] . وما جاء عند بن الكلبي (بيت ثقيف)[٥] ، إضافة إلى ما أحصاه جواد علي (كعبة ذي الشرى ، وكعبة ذي غابة الملقب بالقدس)، ومحجات أخرى لآلهة مثل (اللات ، وديان ، وصالح ، ورضا ، ورحيم ، وكعبة مكة ، وبيت العزى قرب عرفات ، وبيت مناة)[٦] ، هذا مع ما جاء في قول الأستاذ العقاد عن ".. البيوت التي تعرف ببيوت الله أو البيوت الحرام ، ويقصدها الحجيج في مواسم معلومة تشترك فيها القبائل .. وكان منها في الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهي بيت الأقيصر ، وبيت ذي الخلصة ، وبيت رضاء ، وبيت نجران ، وبيت مكة .. وكان بيت الأقيصر في مشارف مقصد القبائل ؛ من قضاعة ولخم وجذام وعاملة . يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده .. فالأمر الذي لا يجوز الشك فيه أن البيوت الحرام وجدت في الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت لازمة .. وقد اجتمع لبيت مكة من البيوت الحرام ما لم يجمع لبيت آخر في أنحاء الجزيرة ؛ لأن مكة كانت ملتقى القوافل ؛ بين الجنوب والشمال ، وبين الشرق والغرب". ويفهم من

العقاد أن هذه البيوت كانت محرمة ولها أيامها الحرام ، لكن بيت مكة بالتحديد أخذ في التمايز ؛ لموقع مكة العظيم على طرق القوافل التجارية جميعا ؛ حتى جاء وقت أصبحت فيه مكة ملتقى تجارة العالم ، وأصبح أهلها أهم تجار الدنيا .

ويمكننا هنا التمييز بين مفهوم العربي الجاهلي لمعنى الألوهية ومعنى الربوبية ؛ فالألوهية تعني إلها غير منظور يسكن السماء ، ومن هناك يتساقط مِلاطُ بيته الإلهي من آن لآخر ؛ على هيئة أحجار سوداء ، في حين أن الربوبية تشير إلى تقديس للأسلاف يتفق حجمه مع أهمية رابطة الدم عند العربي البدوي . وعلى هذا النحو ؛ عبد النبطيون حجرا أسود يرمز إلى الشمس كإله للسماء ، وعبد الهذليون حجرا أسود يرمز لمناة ، وكان ذو الشرى حجرا أسود ، وكذلك كانت الكعبة المكية إطارا لحجر أسود[٧]، كما كانت باقي الكعبات تتسم بذات السمة ؛ فهي أطر لأحجار سود . وسميت هذه الكعبات بيوت الله ؛ لأن كل بيت منها فيه حجر من بيت الإله الذي في السماء ؛ تمييزا له عن الأرباب التي لم تكن سوى مجرد تماثيل أو أحجار بركانية توضع في أفنية الكعبات ؛ انتفاعا ببركات الأسلاف الصالحين ، وتشفعا بهم عند إله السماء .

كان موقع مكة الجغرافي بعيدا عن يد البطش الامبراطوري (فارسية أو رومانية) ، إضافة إلى حالة الضعف والانهيار التي أصابت هذه الإمبراطوريات ؛ مع الفشل الذريع الذي مُنيت به المحاولة اليتيمة من روما لضرب مكة كمركز تجاري قوي بواسطة جيش أبرهة الحبشي في عام الفيل ، عوامل مجتمعة ساعدت على صعود النجم المكي واتساع السطوة المكية ؛ مما أعطى القرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخي الذي حتمته الظروف عليهم ؛ خاصة بعد أن تدهورت اليمن مرة أخرى ، وأصبحت قاصرة عن القيام بهذا الدور ، وانتهت كتابع للدولة الفارسية .

وإن ارتفاع النجم المكي وصعوده بعد حملة الفيل ، أمر يحتاج إلى الوقوف معه وقفة سريعة ؛ توضح لنا إلى أي مدى بلغ أمر قريش في نفوس القوم ، إلى الحد الذي دفع العرب جميعا إلى رجم قبر أبي رغال ؛ دليل الجيش الغازي ، وإلى الاعتقاد الواثق برب الكعبة المكية الذي صد عن بيته جيشا ما كان ممكنا أن يصده العرب ؛ تلك الثقة التي تجلت في الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوي فريد في نوعه ، إذ أرسل الله على الجيش طيورا ترميه بالأحجار . وينقل السهيلي عن النقاش "أن الطير كانت أنيابها كالسباع ، وأكفها كأكف الكلاب ، وذكر البرقي آن ابن عباس قال : أصغر الحجارة كرأس الإنسان ، وكبارها كالإبل" وهذا الذي ذكره البرقي ذكره ابن إسحق في رواية يونس عنه ، وفي تفسير النقاش أن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر[٨] .

وبهذا الاعتقاد أرسل (رؤية بن العجاج) رجزه قائلا :

ومسهم ما مس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل

ولعبت بهم طير أبابيل فصيروا مثل عصف مأكول[٩]

ويروي ابن هشام في متن شرح السهيلي للسيرة ، ".. وكان اسم الفيل محمودا ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال : أبرك يا محمود ، أو ارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه ؛ فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم مراقة فبزغوه بها فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول . فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والعبسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ؛ حجر في منقاره وحجران في رجليه ؛ أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك"(١٠) .

أما ابن هشام فيتابع سرد الأحداث قائلا: ".. وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون ، قال ابن إسحق : حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في أرض العرب ذلك العام" وأما الأستاذ عباس العقاد فكان يبدو على قناعة تامة بدور الجدري في هزيمة جيش الفيل ، فيقول مؤكدا جازما قاطعا "وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك ، وهو فتك الجدري بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت .. إن حديث الجدري الذي فشا سنة ٥٦٩ مثبت .. في تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطي المعروف"(١١) .

ثم يختم ابن هشام الأمر بإعلان نتيجة حدث الفيل العظيم بقوله ".. فلما رد الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم ما أصابهم من النقمة ، أعظمت العرب قريشا ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم"(١٢) .

أما كيف دخلت مكة هذا الدور ؛ فهو ما سيعود بنا إلى عهد استفاضت في ذكره كتب التراث ؛ ذلك العهد الذي استطاعت فيه قريش أن تستولي على مكة قبل زمن الفيل بزمان ، تحت قيادة قصي بن كلاب ؛ ذلك القرشي الذي استطاع بعبقرية من نوع نادر أن يكون في مكة سيدا مطلقا .

تنبئنا كتب الأخبار أن محاولات السيطرة على مكة مسألة قديمة ، تعود في قدمها إلى قبيلة جرهم وهي من أصل يمني قحطاني ، وكيف أنه قد اصطرع حول مكة عرب الجنوب القحطاني وعرب الشمال العدناني ، فتنتقل من جرهم إلى سيطرة إياد بن نزار ، ليغلبه عليها بعد ذلك مضر ، ومن مضر تنتزعها خزاعة اليمنية مرة أخرى ، لينتهي بها الأمر إلى الاستقرار في يد قريش ؛ في قبضة قصي بن كلاب .

ومن البداية كان واضحا مدى دهاء قصي ووعيه السياسي ، وإدراكه لما يحدث على المستوى الاجتماعي من جدل وتغير مطرد ؛ إبان سعيه العبقري للاستيلاء على السلطة ، وانتزاعها لقريش من خزاعة ؛ فقام يتردد إلى خليل ؛ سيد خزاعة ، وأدى الود إلى وداد المصاهرة ، فتزوج قصي بنت خُليل . وهنا يروي ابن هشام ؛ فيقول : "إنه لما هلك خُليل .. رأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة .. فكلّم رجالا من قريش وبني كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة من مكة ، وبخدعة استطاع أن يشتري من أبي غبشان الخزاعي – وكان عجوزا خرفا – مفاتيح الكعبة . مقابل زق من الخمر في ليلة سامرة ، ويقول الحافظ بن كثير : "فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق من الخمر وبعود ؛ فكان يقال : أخسر من صفقة أبي

غبشان ، ويزيد بن هشام بقوله : "فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا ؛ أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة ، فحاز شرف مكة كلها"[١٣]

ونفهم من كتب التراث أن خزاعة لم تستطع استعادة أمرها على مكة ، بعد أن تحالف مع قصي القرشيون والكنانيون وغيرهم ، حتى انتهى الأمر بطرد الخزاعيين من مكة ، وتلى قصي أمر الكعبة ، وبدأ بفرض الضرائب والعشور على القوافل التجارية المارة بمكة ؛ مقابل تأمينهم ، وتأمين السقاية والرفادة لهم .. ويقول المسعودي : "واستقام أمر قصي ، وعشر على مَن دخل مكة من غير قريش ، وبنى الكعبة . ورتب قريشا على منازلها في النسب بمكة" [١٤] وهو قول يشير إلى تطور في خطط قصي لرفع شأن دولته المكية ؛ عن طريق الكعبة واستضافتها أرباب القبائل الأخرى . ثم إن المسعودي يربط بين خطط قصي ومعنى التقريش (من قريش) والإيلاف (بمعنى الأمن) ؛ وهو أمر يظهر وعيا سياسيا واضحا تمثل بعد استيلائه على السلطة في إيفاد الرسل إلى الممالك على أطراف الجزيرة ؛ لإقامة علاقات مع هذه الممالك ؛ ليعطي مكة بذلك دور الدولة ، ويهدف طمأنة هذه الممالك على تجارتها ؛ ليستمر النشاط المار بمكة ، فيقول المسعودي "وأخذت قريش الإيلاف من الملوك ، وتفسير ذلك الأمن ، وتقرشت ، والتقريش الجمع"[١٥] .

قال البيهقي .. إن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قريش قريشا؟ فقال : لدابة تكون في البحر تكون أعزم دوابه يقال لها القرش ، لا تمر بشئ من الغث والسمين إلا أكلته .. فأنشده شعر الجمحي إذ يقول :

وقريش هي التي تسكن البحـــر   بها سميت قريــش قريشـــا

تأكــل الغــث والسميـــــن ولا   تتركن لذي الجناحين ريشا

هكـذا في البـلاد هـــي قريـــش   يأكلـون البـلاد أكـلا كميشا

ولهــم آخــر الزمـــان نبـــــي   يكثر القتـل فيهم والخموشا[١٦]

وكان أبرز مؤسسات قصي السياسية هو دار الندوة التي بناها ، والتي ربما كانت ذات الكعبة أو فناءها ، فكانوا يجتمعون إليه ليقضي بينهم ويدير أمور دولته الصغيرة ، ومن بعده كانت قريش تجتمع فيها لتتشاور في حربها وسلمها ، ومن هناك تعقد ألويتها[١٧] ؛ مما يعني دخول قريش مرحلة متحضرة وشوط بعيد ، ابتعد عن النظام المشيخي القبلي الذي حلت محله دار الندوة ، ومَثّل القبائل فيه كبراؤهم أو (الملأ) ، وهو مما سيفرز – بالضرورة – بداية الصراع حول امتلاك وسائل الإنتاج والسلطة السياسية كما سيأتي بيانه ؛ فبالندوة ابتعد قصي بقريش وبمكة عن القبلية باتجاه الحضارة ، وحل الملأ محل الشيوخ ، وحلت الندوة محل الديمقراطية البدوية .

ثم يقول ابن كثير : ".. فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكا ، أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة أرباعا بين قومه ؛ فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة .. فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة ، من حجابة البيت وسدانته ، واللواء ، وبنى دارا

لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة" . ولعله من الواضح أن اللواء أو قيادة الجيش ، كان الإفراز الأخطر لجدل الأحداث ، لبناء جيش قوي يمكنه الوفاء للملوك بالعهود ، وتأمين التجارة التي استبدلت ببحر الرمال في الجزيرة بحار الدنيا بحروبها وويلها .

ولا يغيب عن فطن أن امتلاك قصي السيادة على مكة ، قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة ؛ قامت على وعي سياسي نافذ هادف نحو غاية ؛ وسائلها هي :

الدين ؛ ممثلا في الكعبة المكية ؛ حتى قال ابن الأثير "كان أمر قصي فيهم شرعا متبعا ، معرفة منهم لفضله وتيمنا بأمره"[١٨]. وقال الطبري : "فكان أمره في قومه في حياته وبعد موته كالدين المتبع"[١٩] .

والمال ؛ وقد تيسر من عشور التجارة ، وتأليف القلوب حولنه ؛ بالبذل والعطاء كالملوك ؛ من خلال السقاية والرفادة .

وهكذا ؛ استطاع أن يجمع بين يديه كل الوظائف الرئيسية والدينية والتشريعية ؛ فكان أول سيد مطلق النفوذ في دولته الصغيرة ؛ مكة .

ننتقل الآن من قصي إلى حفيده عبد المطلب .

بينما كان عبد المطلب نائما في الحجر بالكعبة أتاه رئى ، وغتّه ثلاث مرات ، وأوحى إليه الأمر بحفر البئر المعروفة باسم زمزم ، وتقول كتب الأخبار الإسلامية ، إنها كانت بئرا لجرهم بين صنمي إساف ونائلة دفنتها حين تركت مكة[٢٠]. نعم لقد تمثل تنافس بني العمومة من قبل في احتفار الآبار ، جذبا للقبائل وقوافل التجارة ، فقديما حفر عبد الدار (أم جراد) ، ولما حفر عبد شمس (الطوى) ؛ رد عليه هاشم بحفر (زمزم)[٢١] ، لكن زمزم ليست ككل الآبار ؛ فهي البئر الوحيدة التي قيل فيها إنها حفرت بأمر غيبي – في حلم عبد المطلب – إضافة إلى ما شاع يتردد حول أمرها ، فهي فعل إلهي لا إنساني ، فجرها الله قديما تحت خد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) ؛ ليشرب وأمه منها ، وفي ذلك يقول ابن هشام في السيرة "فضل زمزم على سائر المياه : .. فعفت زمزم على المياه التي كانت قبلها يسقى عليها الحجاج ، وانصرف الناس إليها لمكانها في المسجد الحرام ، ولفضلها عما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .."[٢٢] .

ويقدم لنا ابن كثير نص هذا الأمر أو الوحي بحفر زمزم ؛ وهو :

"احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لن تندم ، هي تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تزم ، تسقي الحجيج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم ، ينذر فيها ناذر بمنعم ، تكون ميراثا وعقدا محكما ، ليست لبعض ما قد تعلم ، وهي بين الفرث والدم" [٢٣] .

ويبدو أن أخطر شأن في عبد المطلب ؛ هو إدراكه للنسب وخطورته بين الأعراب ؛ بحسبانه العامل الجوهري في تفككهم السياسي ؛ لاعتزاز كل قبيلة بنسبها القبلي – والذي ظل مستبطنا في بطن التحول الجديد للبنية الاجتماعية المكية – ومن هنا كان إعلانه أن العرب جميعا وقريش خصوصا ، يعودون بجذورهم إلى نسب واحد ؛ فهم برغم تحزبهم وتفرقهم ، أبناء لإسماعيل بن إبراهيم ، لذلك : ولأنه ينتمي إلى هذه السلالة الشريفة ؛ فقد أعلن في الناس تبرؤه من أرجاس الجاهلية ، وعودته إلى دين جده إبراهيم ، ودين إبراهيم . هو الفطرة الحنيفية التي ترفض أي توسط بين العبد والرب ، فإذ أهّل رمضان صعد إلى غار حراء متحنفا ، ثم عاد ينادي قومه أنه قد حرم على نفسه الخمر ، وكل ضروب الفسق ؛ حاثا على مكارم الأخلاق ؛ داعيا الناس لاتباعه ؛ مؤمنا بالبعث والحساب والخلود ؛ هاتفا : "والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسيئ بسيئاته"!! ثم لا يلبث أن يبشر قومه بقرب قيام الوحدة السياسية ، فيشير إلى أبنائه وحفدته الذين أصبحوا له عزوة وشد أزر ، ويقول :"إذا أحب الله إنشاء دولة ، خلق لها أمثال هؤلاء" .

جاء عن بن عباس (رضي) قال : قال رسول الله: "يبعث جدي عبد المطلب في زي الملوك وأبهة الأشراف ..." وكان أبو طالب ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية كأبيه عبد المطلب .

وعن اليقين بعلم عبد المطلب بأمر حفيده ؛ يتحدث كتبة التراث مسلّمين بالأمر ، ثم يقصون أقاصيص تعبر عن هذا التسليم وذاك اليقين ؛ فيذكرون عن ولده العباس (رضي) قوله : "قال عبد المطلب : قدمت من اليمن في رحلة الشتاء ، فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور ، فقال : من الرجل ؟ قلت : من قريش ، قال : من أيهم؟ قلت : من بني هاشم ، قال : أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك ، قلت نعم ما لم يكن عورة ، قال : ففتح إحدى منخري فنظر فيها ثم نظر في الأخرى ، فقال : أنا أشهد أن في إحدى يديك ملكا وفي الأخرى نبوة ، وإنما نجد ذلك (أي كلا الملك والنبوة) في بني زهرة ، فكيف ذاك ؟ قلت لا أدري ... فقال : إذا تزوجت فتزوج منهم . فلما رجع عبد المطلب إلى مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف ! فولدت له حمزة وصفية ، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب أخي وهيب ، فولدت له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكانت قريش تقول ، فلح عبد الله على أبيه ، أي فاز وظفر .. ثم رأيت في أسد الغابة ... أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد .. وجاز أن يكون الملك والنبوة اللذان عنهما أخبر ، هما نبوته وملكه (صلى الله عليه وسلم) لأنه أعطيهما"[٢٥] .

ويقول عنه البيهقي : "كان يوضع لعبد المطلب جد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فراش في ظل الكعبة ؛ فكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ؛ وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) – يأتي حتى يجلس عليه ؛ فيذهب أعمامه يؤخرونه ؛ فيقول جده عبد المطلب : دعوا ابني ، فيمسح على ظهره ويقول : إن لبني هذا لشأنا"[٢٦] ، أو بتعبير السيرة الحلبية ".. دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا" ، أو قولها "... دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس في نفسه بشرف ، أي يتيقن من نفسه شرفا ، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده"[٢٧] . أو بتعبير ابن كثير ".. دعوا ابني ؛ فو الله إن له لشأنا ، .. دعوا ابني أنه يؤسس ملكا"[٢٨] . ثم كان يشتد وجد الجد بالحفيد: ".. فقال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا بابن أخيكم" ، أو قوله لأم أيمن حاضنته : "يا بركة .. لا تغفلي عن ابني ؛ فإن أهل الكتاب – أي ومنهم سيف بن ذي يزن – يزعمون أنه نبي هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم"[٢٩] .

وبمـا أن لكـل مجتهـد نـصيبا ؛ فقـد أتـت مـساعي عبـد المطلـب وجهـوده التـي لـم تكـل بثمارهـا ، واتبعـه كثيرون على ملته الإبراهيمية وعقيدته الحنفية ، التـي لـم يـستنكف المؤرخـون والبـاحثون مـن نعتهـا ب "ديـن عبد المطلب"(٣٠) ، ومن هؤلاء التابعين (وفيهم السابقون الممهدون) : قس بن ساعدة الأيادي ، وأمية بن أبي الصلت ، وأرباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقي ، ووكيع بن سلمة بـن زهيـر الأيـادي ، وعميـر بـن جندب الجهني ، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس ، وعامر بن الظرب العدواني ، وعلاف بن شهاب التميمـي ، والمتلمس بن أمية الكناني ، وزهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان بن غيث العبسي ، وعبد الله القضاعي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، وعبد لطائجة بن ثعلب ، وزيد الفوارس بـن حصين ، وزيـد بـن عمـرو بـن نفيـل، وأكـثم بـن صـيفي ، وأبـو قـيس بـن الأسـلت ، وحنظلـة بـن صـفوان ، وغيـرهم كثيـر ، وبانتـشار الأيـديولوجيا الحنفية بدأ أتباعها يتنافسون في التقوى والتسامي الخلقي ؛ على أحدهم يكون نبي الأمة وموحد كلمتها ، حتى شكلوا "تيارا قويا ، خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة"(٣١) .

ويبدو أن التوحيد بمعناه الحنفي يعود إلى زمن بعيد ، فحوالي القرن الأول قبـل المـيلاد كـان بعـض أهـل اليمن يعبدون إلها باسم (ذوى سموى) أو إله السماء ، كإله واحد ، وقد ذكـرت نقـوش المـسند اليمنيـة عبـادة إلـه واحد يدعى (رحمن) ، ويرى الباحثون أنهما كانا مسميين لواحد ، وتؤكد (ثريا منقوش) : "أن عُبّاد هذا الإله كانوا يعرفون بالأحناف"(٣٢) . ويذهب الدكتور جواد علي إلى افتراض أن تكون عقيدة حنفاء مكة التي نـادى بها عبد المطلب بن هاشم ، بعد سبعة قرون ؛ امتدادا لحنيفة رحمن اليمن ؛ رب السماء ذوى سموى ، ويلمـح إلى ذلك في قوله عن أحناف مكة : "لا تستطيع أن تقول إنهم نصارى أو يهودا ، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء ذوى سموى ، أو عبادة الرحمن في اليمن"(٣٣) .

ويذكر الفخر الرازي أن عقيدة أحناف اليمن ، كانت أركانا أربعة هي : حج البيت ، واتباع الحق ، وملة ابراهيم ، والإخلاص لله وحده . ثم يضيف قوله : إن عدم معرفة هؤلاء لتـاريخ نـشوء عقيـدتهم ؛ فقـد نـسبوها إلى إبراهيم النبي العبري!!

ويذهب الألوسي إلى أن الصائبة هم قوم النبي إبراهيم (عليه السلام) وأهل دعوتـه(٣٤)؛ ممـا دفـع بعـض العلمـاء إلـى حـسبان الحنفـاء صـنفا مـن الـصابئة ، وبالتحديـد – الـصنف المـؤمن أو مـن بقـي علـى الإيمـان منهم(٣٥) ، وكان منهم بالجزيرة العربية نفر غير قليل ، وكانوا يقيمون الصلاة عدة مرات فـي اليوم كفرض إجبـاري للإيمـان ، يقومـون فيهـا ويركعـون ، ويتوضـئون قبلهـا ، ويغتـسلون مـن الجنابـة ، ولهـم قواعـد فـي نواقض الوضوء(٣٦) . (ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أطلق أهل مكة على من يتبع دعوة الإسلام : أنه صبأ) !!

ولا بـأس هنـا مـن التعريـف الـسريع بـأهم حنفـاء الجزيـرة ، أو مـن شـاء حظهـم أن يـذكرهم التـاريخ ولـو بكلمات ، ومنهم – كما أشرنـا – قـس بـن سـاعدة الأيـادي الـذي يكـاد يجمـع المؤرخـون علـى موتـه قبـل البعثـة بقليل ، وقد ورد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يسمع إليه فـي سـوق عكـاظ . ونقل الألوسـي بعـض مـا نسب إلى قس فقال : "ومن خطباء أياد قس بن ساعدة . وهو الذي قال فيه النبي لجارود : يـا جـارود ، فلـست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق ، وهـو يـتكلم بكـلام مـا أظـن أنـي حفظتـه ، فقـال أبـو بكـر : يـا رسـول الله فإني أحفظه ، كنت حاضرا ذلك اليوم ، فقال في خطبته : أيها الناس ؛ اسمعوا وعـوا ؛ فـإذا وعيـتم فـانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل مـا هـو آت آت ، إن فـي الـسماء لخبـرا ، وإن فـي الأرض لعبـرا ،

جهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قس قسما حتما ، لئن كان في الأرض رضى ليكونن بعده سخطا، وإن لله دينا هو أحب إليه من دينكم"[٣٧] .

ثم يعلن توحيده الخالص النقي ؛ مناديا "كلا ، بل هو الله المعبود الواحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وإليه المآب غدا[٣٨] .
حتى قال رسول الله " والذي بعثني بالحق ، لقد آمن قس بالبعث"[٣٩] .

ومن الحنفاء (سويد بن عامر المصطلقى) . ذكرت المصادر أنه كان على دين الحنيفية وملة إبراهيم ، وقد جاء في شعره ذكر المنايا وحتمها ، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي ، وأنه ليس للمرء يد فيما يصيبه القدر ، فكل شئ محتوم مقدور .

ومنهم المتلمس بن أمية الكناني الذي كان يخطب في فناء الكعبة مناديا بنبذ الفرقة القبلية عن سبيل نبذ الأوثان ، والاتجاه إلى رب كعبة مكة ، وكان يقول لهم : "إنكم تفردتم بآلهة شتى ، وإني لأعلم ما الله راض به ، وإن الله رب هذه الآلهة ، وإنه ليحب أن يعبد وحده"[٤٠] .

ومن الحنفاء أيضا من حاز بعض الشهرة ، مثل زهير بن أبي سلمى ، وذُكر أنه كان يتأله ويؤمن بالبعث والحساب ، ويُروى أنه كان يمر بالعضاه قد أورقت بعد يبس فيقول : "لولا أن تسبني العرب ، لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم" ، وقد سلكه ابن حبيب ضمن من حرموا على أنفسهم الخمر والسكر والأزلام ، وهو القائل مقسما بالكعبة :

أقسمت بالبيت الذي طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم[٤١]

إن الفكر السليم ليعزو انتشار الحنيفية في الجزيرة والحجاز ؛ إلى تمهيد هؤلاء وتوطئتهم ، حتى تحولت إلى تيار قوي قبل الإسلام ، وإن أهم رجالات الحنيفية وأساتذتها – وربما كان أولهم من حيث الأهمية والأثر – هو عبد المطلب بن هاشم ، إضافة إلى اثنين من تلامذة الحنيفية الكبار هما : زيد بن عمرو بن نفيل بن حبيب ، ذاك الذي استطاع جده إقناع الفيل محمود بالعودة إلى اليمن راشدا ، وكان حليفا لعبد المطلب ، والثاني أمية بن عبد الله بن أبي الصلت ؛ وكان جده حليفا بدوره لعبد المطلب ، ورفيقه في رحلته لتهنئة بن ذي يزن باستقلال اليمن .

ويؤكد الدكتور جواد علي أن أهم العلاقات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن غيرهم ، هي : الاختتان ، وحج مكة ، والاغتسال من الجنابة ، واعتزال الأوثان ، والإيمان بإله واحد بيده الخير والشر ، وأن كل ما في الكون محتوم مكتوب[٤٢] .

كانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد لأنها بيئة لها وحدتها المتميزة من الناحية اللغوية ومن ناحية الجنس .. وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب في أحد الدينين ، لولا أنهم بدأوا نهضة قومية .. لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها رمزا لقوميتهم .. ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنوانا لها ، لذلك ؛ بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذي كانوا يعدونه أبًا لهم .. وقد ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة ، وكانت رمزا إلى أن الروح العربي كان يتلمس يومئذ دينا آخر غير الوثنية ، والإسلام حين جاء .. كان دليلا على نضوج ديني فلسفي ، استعد له العرب في القرون المتطاولة السابقة .. وكذلك كانوا يحسون بأن عدم وجود دولة تجمعهم ، أمر فيه ذلة وعار .

وقفات مع رواد الأحناف

الوقفة الأولى : مع زيد بن عمرو بن نفيل الذي تعود أرومته إلى قصي بن كلاب ، وأمه هي أمية بنت عبد المطلب !! ويعد ثاني الرواد الحنفيين أثرا وأكثرهم خطرا بعد عبد المطلب بن هاشم ، وعنه يقول ابن كثير : "إنه اعتزل الأوثان ، وفارق الأديان ؛ من اليهود والنصارى والملل كلها ، إلا دين الحنيفية دين إبراهيم ، يوحد الله ويخلع من دونه .. وذكر شأنه للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : هو أمة وحده يوم القيامة .. يبعث يوم القيامة أمة وحده .. وكان يحيي الموءودة ؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيك مئونتها ، فيأخذها ..، وكان يقول : يا معشر قريش إياكم والزنا ، فإنه يورث الفقر .. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحشر ذاك أمة وحده ، بيني وبين عيسى بن مريم – إسناده جيد - .. وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل ؛ فقال : غفر الله له ورحمه ، فإنه مات على دين إبراهيم .. مات زيد بمكة ، ودفن بأصل حراء، .. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين" [٤٣]

ويقول البيهقي في دلائل النبوة : إنه التقى برجل من أهل الكتاب فقال له عليك بالدين الحنيف ؛ "قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، ومن ثم عاد مؤمنا بدين إبراهيم وحنيفيته الإسلامية" [٤٤] . ولكلام البيهقي هنا مصداقية خاصة يدلل عليها شعر زيد ذاته الذي أفصح فيه عن "إعلان حنيفيته تحت اسم الإسلام ، وعندما تنبأ المصطفى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كان يترحم على زيد ويقول : قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا" [٤٥] . وعرف عنه الجاهليون دأبه الذي لا يكل ولا يمل ؛ منتقلا دوما ، يدعو لنبذ الأسلاف المتفرقة في أرباب شفيعة ، والعودة إلى أب واحد يجمع العرب هو إسماعيل بن إبراهيم ، وإلى رب واحد هو رب إبراهيم ؛ مباشرة ومن دون وسيط ، نبذا للفرقة القبلية ، وتهيئة للوحدة ، ثم لا يأتي شهر رمضان إلا ويصعد إلى غار حراء متحنفا متحنثا معتكفا يتأمل ويتعبد [٤٦] .

وفي (البداية والنهاية) ، يطالعنا زيد بشعره قائلا :

أسلمت؟!

أسلمـــت وجهـــي لمـــن أسلمـــت   لـــه الأرض تحمـل صخـرا ثقـــالا

دحـاها فلمـــا رآهـــا استــــوت   علــى المــاء أرسـى عليهــا الجبــالا

وأسلمـت وجهـــي لمـن أسلمــت   لـــه المــزن تحمــل عذبـــا زلالا

إذا هـــي سيقـــت إلـــى بلـــــدة   أطاعــت فصبــت عليهــا سجــالا[٤٧]

وفي (السيرة النبوية) لابن هشام ؛ نجد زيدا إذا دخل الكعبة قال : "اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك به ، ولكنني لا أعلمه ، ثم يسجد على الأرض" . ويؤكد (ابن هشام) أنه حرم على نفسه أمورا – نقلها الناس عنه من بعد كتشريعات ؛ لانبهارهم بشدة ورعه وعلمه وتقواه – مثل : تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله من ذبائح تذبح على النصب . نعم ! لقد أصبحت هذه تشريعات لمجرد امتناع زيد عنها ، وربما كان امتناعه عن بعضها لا لعيب فيها . وإنما لأنه كان لا يسيغها ، ومع ذلك كان لإعجاب الناس به دور كبير في تحولها إلى قوانين متعالية .

وتروي لنا الأخبار أن زيدا قد عاصر النبي محمد ، وأنه التقاه : عن عبد الله بن عمر : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لقى زيدا بأسفل بلدح ، فدعاه إلى تناول طعام مما يذبح للأرباب ، فقال زيد للنبي : "إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم"؟! ويعلل بن هشام أكل النبي قبل بعثه نبيا ، لأضحيات أوقر بين الأصنام بقوله : "إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يأكل مما ذبح على النصب ، فإنما فعل أمرا مباحا ، وإن كان لا يأكل فلا إشكال"[٤٨] !!

وكان يحج فيقف ماشيا وهو يقول : لبيك متعبدا لك مرقوقا"[٤٩].

الوقفة الثانية : مع أمية بن عبد الله بن أبي الصلت الذي تصله أمه رقية بنت عبد شمس بنت عبد مناف ببيت عبد مناف ابن قصي[٥٠] وهو صاحب القول المأثور :

كـل ديـن يـوم القيامـــة – إلا   ديــن الحنيفيـــة – زورا !

وكان يحاور أبا سفيان ويقول له : ".. والله يا أبا سفيان ، لنبعثن ثم لنحسابن ، وليدخل فريق الجنة ، وفريق النار"[٥١] .

ويقول جواد علي : إن أمية حرم على نفسه الخمر ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر إبراهيم وإسماعيل ، وكان أول من أشاع بين القرشيين افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بعبارة : باسمك اللهم (استعملها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم تركها واستعمل بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد روى الإخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان ، وتوسمهم فيه إمارات النبوة ، وعن هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهيئة لمنحه النبوة[٥٢] .

حضر أمية البعثة ولم يسلم ، ولم يرض بالدخول في الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة ، ويكون مختار الأمة وموحدها ، ولذلك ، برز كنموذج للاستقامة والإيمان والتطهر والزهد والتعبد ، وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف كافرا بالأوثان وبالإسلام[٥٣]!!

ومن أشعاره عن عيسى وأمه يقول :

وفـي دينكـم مـن رب مريـم آيـة	منبئـة بالعبـد عيسـى بن مريـم
تدلـى عليهـا بعدمـا نـام أهلهـا	رسولا فلـم يحصـر ولـم يترمـرم
فقال: ألا لا تجـزعـي وتكذبـي	ملائكـة مـن رب عـاد وجرهـم
أنبـي وأعطـى ما سئلـت فإننـي	رسـول مـن الرحمـن يأتيك بابنم
فقالت: أنـى يكـون ولـم أكـن	بغيـا ولا حبلـى ولا ذات قيـم
فسبـح ثـم اغترهـا فالتقـت بـه	غلامـا سـوى الخلقـة ليـس بتوأم
فقال لها: إنـي مـن اللـه آيـة	وعلمـني ، واللـه خيـر معلـم
وأرسلت ولـم أرسل غويـا ولم أكن	شقيـا ، ولـم أبعـث بفحـش ومأثم

ويقول جواد على ما نصه : "وفي أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات ، ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ؛ تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلا ، لما ورد عنها في القرآن الكريم ، بل نجد في شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله والحديث النبوي قبل المبعث ، فلا يمكن – بالطبع – أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن ؛ لأنه لم يكن منزلا يومئذ ، وأما بعد السنة التاسعة الهجرية ؛ فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا ؛ لأنه لم يكن حيا ؛ فلم يشهد بقية الوحي !! ولن يكون هذا الفرض مقبولا في هذه الحال .. ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معاني القرآن وينسبها لنفسه ، ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك ، ولكان الرسول أول الفاضحين له" [٥٤] . وهذا – بالطبع – مع رفض فكرة أن يكون شعره منحولا أو موضوعا من قبل المسلمين المتأخرين ؛ لأن في ذلك تكريما لأمية وارتفاعا بشأنه ، وهو ما لا يقبل مع رجل كان يهجو نبي الإسلام بشعره .

بعد هاتين الوقفتين ننتقل إلى الحديث عن مفجر ثورة الإسلام وقائد دولته ، ونبدأ بذكر وقائع زواجه من السيدة خديجة بنت خويلد .

يقول عمار بن ياسر : إني خرجت مع رسول الله ذات يوم ؛ حتى إذا كنا بالحزورة ؛ أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعه ، فنادتني ؛ فانصرفت إليها ، ووقف لي رسول الله فقالت : أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار : فرجعت إليه فأخبرته ، فقال : بلى لعمري ؛ فذكرت لها قول رسول الله ؛ فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا ؛ فغدونا عليهم ، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة ، وألبسوا أبا خديجة حلة ، وصُفرت لحيته (أي صبغت بالحناء) ، وكلمت أخاها ؛ فكلم أباه وقد سقى خمرا ، فذكر له رسول الله ومكانه ، وسأله أن يزوجه ؛ فزوجه خديجة ، وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنا منه ، ونام أبوها ، ثم استيقظ صاحيا فقال : ما هذه الحلة ؟ وما هذه الصفرة ؟ وهذا الطعام ؟؛ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمار بن ياسر : هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة : فأنكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر ، وخرج بنو هاشم برسول الله فكلموه ؛ فقال : أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة ؟ فبرز له رسول الله فلما نظر إليه قال : إن كنت زوجته فسبيل ذاك ، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته"[٥٥]!!

أما عمه أبو طالب فألقى في العرس خطبة ؛ منها قوله ".. فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم .. ورغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم ..." وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف ، وفرح أبو طالب فرحا شديدا"[٥٦].

بعد زواج النبي بخمسة عشرة عاما جاءت دعوة محمد إلى الإسلام .

بعدما أعلن محمد دعوته : مطالبا أهل مكة باتباعه ؛ فكان حتما أن يتساءل الناس ، لكن تساؤل الوليد بن المغيرة (الملقب بالوحيد لمكانته بين سادات مكة) ، والأخنس بن شريق (كبير من رؤوس ثقيف) – كان تساؤلا مهينا لشخص النبي ؛ فقد قالا : أمفتون محمد أم مجنون؟[٥٧] ، فكان أن ردت لهما الآيات الكريمة الصاع صاعين "بأيكم المفتون؟ ... هماز مشاء بنميم ، منّاع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم –١٢:٥ القلم" ، - والزنيم هو ابن الزانية – ثم يخاطب الله نبيه في شأن الوحيد قائلا له : "ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبيني شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر – ١١:٢٠ المدثر" ، وفعلا مات الوليد قتيلا بسهم مسموم ، قتله الله . ثم قامت الآيات تشبه رؤوس القوم الذين لم يدركوا أبعاد تلك الدعوة العظمى ومراميها الكبرى ؛ بالحمير ؛ فتقول : "فمالهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة – ٤٩:٥١ – المدثر" .

حتى ذلك الحين ؛ كانت قريش لا تزال في هدوء وترقب ، لكن محمدا الذي صمم على إتمام الأمر مهما تكلف من مشقة ، قام يؤلب العبيد على أسيادهم يناديهم : "اتبعوني أجعلكم أنسابا ، .. والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر" ، وهنا بدأ القوم يشعرون بحجم الخطر الآتي ؛ فالأرستقراطية القرشية حتمت مصالحها وجود العبيد ، بل أن يتكون جيشهم الذي يحمي التجارة من هؤلاء العبيد في أغلبه ، وبات الأمر أمر حياتهم ومعاشهم ، ثم إن دعوة النبي إلى جعلهم أنسابا التي تمثلت في عتقه لعبده زيد بن حارثة ثم إعطائه أفضل النسب وأشرفه ، بتبنيه إياه ؛ كان يعني لبقية الدهماء من الأعراب أملا عظيما ؛ لما كان للنسب من خطورة وأهمية ؛ تعطي صاحبها حماية عشائرية وقبلية ، ثم إنه يعدهم بأموال أعظم ؛ بأموال

كسرى وقيصر ؛ إن هم تبعوه ، وعندما وصلت قريش إلى ذلك الفهم ؛ أصبح النبي في نظرهم ، وحسب منطقهم المصلحي ؛ مجرد مغامر طموح يهدف لغرض سياسي يبدأ بضرب قريش في مقتل ؛ في مصالحها التجارية ، حتى إذا تهيأ له الأمر امتلك أمر الحجاز ، وزحف على ممالك الروم والعجم ، وما يتبع ذلك بالضرورة في منطق العشائر من رفع شأن بيت هاشم ، وخفض شأن بيت عبد الدار وعبد شمس ونوفل ؛ هكذا تصوروا الأمر العظيم !!

ثم ها هو ينزع عنهم صفة أخرى ترتبط تماما بمصالحهم التجارية ؛ تلك الصفة التي أكسبها لهم انكسار حملة الفيل على حدود مكة ؛ صفة أنهم (أهل الله) ، وينادي أهل مكة : "قل يا أيها الكافرون .. لكم دينكم ولي دين – سورة الكافرون" ، نعم ؛ ما زالت الآيات تبرز التسامح الديني (لكم دينكم ولي ديني) ، لكنها نعتت أهل مكة بأنهم الكافرون برغم تأكيدها من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله رب العرش خالق السماوات والأرض :
:

"ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ، فأنى يؤفكون" (العنكبوت ٦١) .

"قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون الله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون الله ، قل فأنى تسحرون" (المؤمنون ٨٦:٨٩).

"ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم" (الزخرف ٩) .

وسعيا وراء تعليل ؛ اكتشفت قريش أن إيمانها بالشفعاء هو الكفر ؛ خاصة عندما بدأ رسول الله يعيب أربابهم ؛ فاستنتجوا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قد جعل شرط الإيمان الصحيح يمر عبر الإيمان به كرسول لإله واحد ؛ انطلاقا من قرن الشهادة له مع الشهادة لله ؛ في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فهو في فهمهم العنيد ، إنما يطلب منهم الاعتراف بسيادته عليهم بهذه الشهادة ، ويطلب توحدهم جميعا تحت راية قيادته وحده ، بسلخ كل الشفاعات إلا شفاعته . ويذكر لنا الطبري أن النبي حينما دعا قومه لما بعثه الله .. لم يبعدوا منه أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم وهو ذات ما أوضحته رواية عن لقاء وفد قريش وفيه أبو الحكم ، بأبي طالب وابن أخيه ؛ ليطلب من محمد الكف عن سب أربابهم ويتركونه لإلهه ، فكان رد رسول الله عليهم: "أي عم ، أو أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها ؟ قال : وإلام تدعوهم ، قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين بها لهم العرب ، ويملكون بها العجم !! فقال أبو جهل (التسمية الإسلامية لأبي الحكم) من بين القوم : ما هي ؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها" ، وكانت الكلمة هي الشهادة الإسلامية ؛ فنفروا منه وتفرقوا[٥٨] .

وهنا تحول أرق الحزب المناوئ وترقبه ، إلى تحفز واستنفار ، خاصة عندما أخذت الآيات الكريمة في فواصل قصيرة مؤثرة ، تؤجج الحمية القتالية ، وما يحمله ذلك من احتمال وقوع المجابهة العسكرية ، وتقول : "والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا" (العاديات ١:٤) . هذا مع التحول الذي بدأ يطرأ في سلوك النبي تجاههم ، وتحوله عن الصبر الجميل إلى الهجوم ، وما جاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاصي ، عندما غمز أشراف قريش من قناة النبي وهو يطوف بالكعبة ، فكان

أن التفت إليهم هاتفا : "أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح"[٥٩] ، وبر النبي بقسمه في بدر الكبرى !

عتبة بن ربيعة التقى النبي ، وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة ؛ فقام يقول لقريش : "يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به"[٦٠] .

بينما توعد محمد أهل قريش بالذبح لكي يرهبهم ويبعث الرعب في قلوبهم والى اليهود لكي يأمن شرهم ولا يفتح على نفسه أكثر من جبهة في بداية دعوته ، ولهذا نرى الآيات المكية التي تشيد باليهود وبأنبيائهم .

كان اليهود في تمام الرضا عن هذا التوجه والآيات الكريمة تكرم أنبياء بني إسرائيل وتفضل النسل الإسرائيلي على العالمين ، ثم إن هذا النبي الآتي يصلي إلى الشام قبله اليهود ، وأتباعه في المدينة يصلون إلى الشام ، بل ويصومون الغفران ، كما الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة ٦٣) ، وأن الله يقول لنبيه في آياته الكريمة : "وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله" (المائدة ٤٣) و "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور" (المائدة ٤٤) ، وأن النبي محمد هو "الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة ..." (الأعراف ١٥٧) ، وأنه يخاطبهم بالموحى إليه "... إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ..." (الصف ٦) . ويلقي الدكتور أحمد الشريف الضوء على الأحداث الآتية بعد سنوات : فيقول : "ولقد عالج النبي موقف اليهود في براعة وقدرة .. تغلب عليه حساسية الموقف التي كانت قائمة ، بمحالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج ، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر في نفوس هذه البطون ، فكان لا بد أن يعمل النبي حسابا لهذا الشعور ، فنرى النبي يصافع اليهود مرة ، ويجادلهم مرة أخرى ، ويصبر عليهم حتى تحين الفرصة ، فيقلم أظفارهم ، ثم يرى نفسه آخر الأمر مضطرا إلى التخلص منهم نهائيا" [٦١] . أما الأهم لأهل يثرب جميعا فهو أن الرسول اتخذ من يثرب مركزا وعاصمة ، وقوى قدرتها على المنافسة مع مكة ؛ فساوى بينها وبين مكة من ناحية القدسية ، فأعلنها مدينة محرمة حرمة مكة ، أو كما قال : "إن لكل نبي حرما ، وإني حرمت المدينة ، كما حرم إبراهيم مكة" .

المهم إن الأحداث تتابعت في مكة ، واستمرت المنعة الهاشمية للنبي الذي اتبع خطى جده – كما اتبع خطواته إلى حراء من قبل – وأعلن أنه نبي الفطرة الحنفية التي نادى بها الأولون السابقون ، ونادى بها عبد المطلب . ومثلما أتى جده الرئى وغتّه ثلاثا ليحفر زمزم فقد أتاه جبريل وغتّه ثلاثا ، وكما اهتم عبد المطلب بتأكيد التحالف مع الأخوال من أهل الحرب في يثرب اهتم حفيده أيضا بالأمر ؛ فكان يلقي أهل الحرب اليثاربة عند العقبة ، إلى أن هيئوا مدينتهم لاستقباله ؛ بعد أن مات عمه أبو طالب ، واشتد ضغط الأحلاف على الهاشميين ، وكان الحل أن يغادر إلى الأخوال ليرفع الضغط عن الأعمام ، في الوقت الذي كان فيه لجده عبد المطلب مكانة خاصة ، وأثر لا يمحى من نفسه ؛ تبرره حميته القتالية عند المعارك التي كانت تدعوه لأن يهتف : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، كأنى به ينادى طيف جده : أي جدي ، هأنذا أحقق حلمك !!

وقد ظل دور بني هاشم قائما إلى ما بعد خروج النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى يثرب ، بل إنهم لم يتركوه يغادر إلا بعد أن استوثقوا لمنعه أخواله اليثاربة واطمأنوا إليها ، ويظهر ذلك من ذهاب عمه العباس معه – وهو بعد على دين قومه – للقاء أهل الحرب ؛ في بيعة العقبة الكبرى ، ولم يذهب – فيما يقول الطبري – إلا لأنه "أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له" ، وكان هو أول المتكلمين في هذا الاجتماع هائل الخطورة الذي شكل على وجه الزمان منعطفا حادا ، غير وجه التاريخ تماما ؛ فقال :

"يا معشر الخزرج : إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ؛ ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزة في قومه ، ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ؛ فأنتم وما تحملتم ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه ، بعد خروجه إليكم ، فمن الآن دعوه ، فإنه في عزة في قومه ومنعة في بلده" (٦٢) .

ويخبرنا البيهقي أن هذا الوفد العظيم الذي يتكون من سبعين رجلا ؛ ممثلين لأهل المدينة ؛ لم يكن بينهم سوى ثلاثة نقباء من الأوس ، وهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، وأبو الهيثم ابن التيهان ، وأنه عندما انتهى النبي من كلامه ، ووصل إلى القول : "أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم" ؛ تناول البراء ابن معرور – كبير القوم – يده وقال : "نعم والذي بعثك بالحق ، نمنعك مما نمنع منه أرزنا ؛ فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب والحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر" ، وهنا اعترض أبو الهيثم ابن التيهان الأوسي الأمر ؛ قائلا : "يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالا ، وإنا قاطعوها ؛ فهل عسيت إن أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؛ فقال رسول الله "بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم ... فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله فضرب عليها ، وكان أول من بايع ، وتتابع الناس فبايعوا" ، ثم "أخذ عليهم العباس بن عبد المطلب المواثيق لرسول الله بالوفاء ، وعظم العباس الذي بينهم وبين رسول الله وذكر أن أم عبد المطلب ، سلمى بنت عمر بن زيد بن عدي بن النجار" . وقبل أن ينصرفوا ، أراد أهل الحرب والحلقة استعراض قدراتهم القتالية وفنونهم الحربية للنبي ؛ فقال له ابن عبادة : "إن شئت لنميلن غدا على أهل منى بأسيافنا" ، فأجّل النبي الإمالة بالسيف إلى ما بعد الخروج من مكة بقوله :"لم نؤمر بعد"(٦٣) .

وكانت أهم المهام بعد الهجرة إلى يثرب هي تحريم المدينة ، وعقد المعاهدة مع اليهود ، ثم الخروج إلى طريق التجارة لقطعه تماما على أهل مكة ، حتى إن عبد الله ابن جحش استحل فيه الشهر الحرام ؛ إعلانا لمكة بانهيار مقبل في هيكلها الاقتصادي ، واستولى على تجارة لها ، وأخذ أسيرين ، وقتل عمرو بن الحضرمي ؛ فقالت قريش : لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا الرجال ، وأكثر الناس في ذلك ، فأنزل الله تعالى على رسوله : "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ..." (البقرة ٢١٧)(٦٤)

أما المهمة الجليلة والعظمى فكانت قيام النبي بإنشاء نواة دولة عربية إسلامية في الجزيرة ، محققا نبوءة جده :"إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء" ، وبهجرته خفت أثقال الاضطهاد عن كاهل الهاشميين ، مما سمح لهم بالتظاهر بالحياد ، ومجاملة بني عمومتهم أحيانا ، كخروج بعضهم مع قريش إلى بدر ، في الوقت الذي كان فيه العباس يسرب لابن أخيه أخبار مكة أولا بأول ، لذلك ؛ كان الوفاء النبوي

يجلجل في نداء النبي لرجاله ، في غزوة بدر الكبرى ، قبل هنيهة من الهجوم على أهل مكة :"إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكرها – وإنما نهى الرسول عن قتل أبي البختري بن هشام ؛ لأنه كان أكف الناس عن رسول الله وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شئ يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت على بني هاشم وبني المطلب – فقال أبو حذيفة : أتقتل أباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألحمنه السيف ، فبلغت رسول الله مقالته فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص : أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق أبي حذيفة ، والله لقد نافق !! فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ"[٦٥].

ويقول الأستاذ أحمد أمين : إن النبي ؛ بعد النصر في بدر ارتحل حتى إذا كان بالروحاء ، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى من معه من المسلمين ؛ فقال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهنئوننا به؟! فوالله ما لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة ، فنحرناها !! فتبسم رسول الله ثم قال : يا ابن أخي أولئك الملأ[٦٦] .

نعم ، هكذا انتهى أمر الملأ ، ارستقراطية قريش ، ورجال الندوة وحملة اللواء !! وتهيأت الدولة لنشر جناحيها على أرض العرب ، وعلى مكة ذاتها ، الأمر الذي دفع العقاد للقول :

"نكاد نقول : إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجا ، حين صارت الكعبة إلى يديه ، وأصبحت عاصمة العروبة ، عاصمة الدين الجديد ، ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية ، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز"[٦٧] .

وهكذا ؛ قامت الدولة الإسلامية ، بجهود البيت الهاشمي ، وفضل لا ينكر لأهل الحرب والحلقة اليثاربة وخؤلتهم ، لكن ذلك كله لم يفت في عضد الحزب الأموي ، فظل هؤلاء يترقبون الفرص ، حتى ما بعد اتساع الدولة بالفتوحات ، وعندما سنحت الفرصة اقتنصوها ، واستولوا على الحكم ، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بني عمومتهم في المجازر الدموية التي راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمي ؛ حتى امتدت يد الانتقام الحمقاء إلى حفدة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) استئصالا لهذا البيت وأهله ، ووصل بهم حد الهوس إلى ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق ؛ مشاعر عبر عنها لسان يزيد بن معاوية الأموي (منسوبا إليه عن قصيدة طويلة لابن الزبعري) :

لعبت هاشم بالمُلك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

أو كما أورده ابن كثير :

لعبت هاشم بالمُلك فلا   مَلَكٌ جاء ولا وحي نزل[٦٨]

المراجع

(١) الكامل في التاريخ – ابن الأثير ج ١ ص ٢٠٦
(٢) في طريق الميثولوجيا عند العرب ص ١٣٣
(٣) الإكليل – الهمداني ج ٣ ص ٤٨
(٤) تاج العروس – الزبيدي ج ٢ ص ٢٧١
(٥) الأصنام – الكلبي – دار الكتب المصرية ص ١٦
(٦) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي
(٧) في طريق الميثولوجيا عند العرب – ص ٥٩
(٨) الروض الأنف – السهيلي ج ١ ص ٧٧
(٩) السيرة النبوية – ابن هشام ج ١ ص ٤٧-٥١
(١٠) الروض الأنف – السهيلي ج ١ ص ٧١
(١١) طوالع البعثة المحمدية – عباس محمود العقاد ص ١٤٥-١٤٦
(١٢) الروض الأنف – السهيلي ج ١ ص ٧٧
(١٣) البداية والنهاية – ابن كثير – دار الكتب العلمية – بيروت ج ٢ ص ١٩٤
(١٤) مروج الذهب – المسعودي ج ٢ ص ٥٨
(١٥) المصدر السابق ص ٩٥
(١٦) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ١٨٧
(١٧) فتوح البلدان – البلاذري ص ٦٠
(١٨) الكامل – ابن الأثير ج ١ ص ١٨٣
(١٩) تاريخ الرسل والملوك – ابن جرير الطبري ج ٢ ص ٢٥٩
(٢٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٠١
(٢١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٦-١٣٩
(٢٢) السيرة النبوية – ابن هشام ج ١ ص ١٢٩
(٢٣) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٨
(٢٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٨٤
(٢٥) المصدر السابق ج ١ ص ٧٠
(٢٦) دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ٢٢
(٢٧) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٧
(٢٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ١ ص ٢٦١
(٢٩) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٨٠
(٣٠) الشعراء الحنفاء – أحمد جمال العمري ص ١٠٢
(٣١) التوحيد في تطوره التاريخي – دار الطليعة ص ١٥٩
(٣٢) المصدر السابق ص ١٥٩
(٣٣) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٥ ص ٥٩

(٣٤) بلوغ الإرب – الألوسي ج ٢ ص ٢٢٥
(٣٥) تلبيس إبليس – ابن الجوزي ص ٧٤
(٣٦) ابراهيم أبو الأنبياء – العقاد ص ١٤٤
(٣٧) بلوغ الإرب – الألوسي ج ٢ ص ٢٤٤
(٣٨) الملل والنحل – الشهرستاني ج ١ ص ٩٦
(٣٩) البيان والتبيين – الجاحظ ج ١ ص ٣٠٩
(٤٠) بلوغ الإرب – الألوسي ج ٢ ص ٣٧٥
(٤١) الشعراء الحنفاء – د. جمال العمري ص ١٦٤
(٤٢) المفصل في تاريخ العرب ج ٥ ص ٢٩٠
(٤٣) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ٢٢١، ٢٢٤
(٤٤) دلائل النبوة - البيهقي
(٤٥) تاريخ الطبري - ج ٢ ص ٢٩٦
(٤٦) مروج الذهب – المسعودي ج ١ ص ٢٩٦
(٤٧) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٥
(٤٨) السيرة النبوية – ابن هشام ج ١ ص ٢٠٧
(٤٩) الطبقات – ابن سعد ج ٣ ص ٢٧٦
(٥٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٥
(٥١) المصدر السابق ص ٢٠٦
(٥٢) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٥ ص ٢٨٠
البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٦
(٥٣) المفصل في تاريخ العرب – ص ٣٧٧
(٥٤) المفصل في تاريخ العرب - ج ٥ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥
(٥٥) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٤
(٥٦) السيرة الحلبية – ج ١ ص ٢٢٧
(٥٧) سيرة ابن هشام - ج ١ ص ٢٤٣
(٥٨) تاريخ الطبري – ج ٢ ص ٢٤١
(٥٩) المصدر نفسه – ج ٢ ص ٣٣٢
(٦٠) سيرة ابن هشام – ج ١ ص ٢٣٨-٢٤١
(٦١) مكة والمدينة – أحمد الشريف ص ٤١٥
(٦٢) تاريخ الطبري – ج ٢ ص ٣٦٥
(٦٣) المصدر السابق – ج ٢ ص ٣٦٥
(٦٤) فجر الإسلام – أحمد أمين ص ٨
(٦٥) المصدر السابق - ص ٢٢
(٦٦) المصدر السابق – ص ٢٥
(٦٧) طوالع البعثة المحمدية – العقاد ص ٦٤
(٦٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٨ ص ٢٢٨

الباب الثالث

قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية

الشيخ خليل عبد الكريم

قصي بن كلاب

مائة وخمسون عاما انقضت ، بين وضع البذرة في الأرض ، وبين حصاد الزرع وجني الثمار ، بين الحلم والحقيقة ، بين رمي أحجار الأساس ، وبين استكمال البناء والانتفاع به وسكناه . هذه المدة هي التي تفصل بين وفاة قسي بن كلاب في الحجون في مكة عام ٤٨٠ ميلادية ، وبين قيام دولة قريش في يثرب ، على يد حفيده محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – صلى الله عليه وسلم – بدءا من عام ٦٢٢ ميلادية ، فقصي هو المؤسس الأول لتلك الدولة ، فهو الذي وضع اللبنات الأولى في صرحها ثم تابع أولاده وأحفاده من بعده ، على الأخص هاشم وعبد المطلب تعلية البنيان حتى اكتمل بمعرفة حفيده محمد – صلى الله عليه وسلم .

نشر قصي التماسك بين قبائل العرب عن طريق شعيرة الحج ، باعتبارها الشعيرة المجمع عليها من القبائل كافة بخلاف الأصنام التي كانت تتعدد فيها ، ثم الانتقال من وتيرة التماسك ، إلى مرحلة التوحيد تحت هيمنة قريش .

وظف الدين كرافعة شديدة الفعالية ، وذات أثر سحري في النفوس في يد السلطة ، والإلحاح على هذه الدعوى حتى ترسخت ، وأصبح القرشيون ذاتهم شخوصا مقدسة ، أو – على أقل القليل – تخالطهم قداسة ملموسة ، ومن ثم أطلق عليهم "أهل الحرم" . ومن البديهي أن شيخهم أو رئيسهم يتمتع بقدر أوفر من القداسة ، ولذلك ليس اعتباطا ما قاله المؤرخون عن قصي "كان أمره في قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع ، فلا يعمل بغيره" ، وصار توظيف الدين سنة من بعده ، اتبعها أبناؤه وأحفاده بذكاء بالغ .

جمع بطون أفخاذ قبيلة قريش التي كانت مستضعفة ومشتتة تسكن الشعاب ورؤوس الجبال وأطراف مكة ، وأتاح لها سكنى أشرف بقعة في البلد الحرام "الأبطح" ، ومن ثم سمي "مجمعا" ، وبعد ذلك خطا خطوة جريئة ؛ وهي أنه أمرهم أن يبنوا بيوتهم في الحرم ، وحول البيت ، وعلله بجملة وردت على لسانه كشفت عما كان يخطط له ؛ وهي قوله "فو الله لا تستحل العرب ، قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم فتسودوا العرب أبدا" ، فأجابوه لذلك ، وسيادة قريش لكل العرب كان هو الهاجس الأقوى الذي ملك على قصي لبه وعقله وكل تفكيره ، والهدف الذي نذر حياته له ، ومن ثم أخذ يحكم التدبير له ، ثم أكمل الخطة من بعده ، أولاده وأحفاده ، والسيادة على عرب الجزيرة لا تتم إلا بإنشاء دولة مركزية في مكة على غرار الروم والفرس .

بنى قصي دار الندوة وفيها كانت تتم المشاورات ، لا بين شيوخ قريش فحسب ، بل بين شيوخ القبائل الأخرى (فكان بيته عبارة عن "ناد للعرب" ، بل ملجؤهم في جميع المشكلات ، سواء كانت هذه المشكلات قومية أو شخصية[١] ، ولم تكن دار الندوة للشورى فقط ، بل كانت جميع الأمور الهامة تتم بين جدرانها : عقد ألوية الحرب ، خروج قوافل التجارة ، إبرام عقود النكاح ، وبذلك عدت دار الندوة مقرا للحكم المركزي الوليد ، إذ لم يحدثنا التاريخ العربي عن دار مثلها في أي بقعة في جزيرة العرب ، وهذا كله يفسر لنا المقولة التي كررها الإخباريون كثيرا عن قصي أنه "أول من أصاب ملكا أطاع له به قومه" .

وهذا ما أجمع عليه الإخباريون بلا خوف .

فكان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكا وأطاع له قومه فكانت له الحجابة والرفادة والسقاية والثروة واللواء والقيادة فلما جمع قصي قريشا بمكة سمي مجمعا .[٢]

هاشم

كذلك كان هاشم إذا بلغه خبر عن وقوع خلاف بين قبيلتين يؤذن بشر مستطير ، عمل جاهدا ولعل أشهر واقعة في هذا الصدد تلك التي خطب فيها خطبته المعروفة ب (الحكيمة) والتي ملخصها أنه (لما وقع بين عذرة وخزاعة هنة في سبب غلام لامرأة من خزاعة يحطب لها ويعود بكسبه عليها ، فأصابه رجل من بني عذرة فقتله فحملت عذرة قيمته إلى خزاعة فأبوا أن يقبلوها وقالوا : لا يكون ذلك حتى نقتل غلام عمرة بنت قبيضة من سليك ، فتفاقم الأمر بينهم حتى تداعوا بالأحلاف ، فخشى هاشم ابن عبد مناف فساد الحرم وأن تنتهك حرمته فدعا بمنبره المركن ووعد الناس بئر بني قصي بن كلاب الحرد التي بملتقى الرفاق ، فلما اجتمع الناس قام فيهم خطيبا فخطب خطبته التي تسمى (الحكيمة) اختص فيها بني نزار دون قحطان ، ومضر دون ربيعة وقريشا دون سائر القبائل فقال :

معاشر الناس نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وولد النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب وأرباب مكة وسلطان الحرم ، لنا ذروة الشرف ولباب الحسب ومعدن المجد وغاية العز . ونحن جبال الأرض ودعائم الحق وسادات الأمم . ودعا الفريقين إلى تحكيم العقل ونبذ الحرب ورأب الشعب وجمع الفرقة (ثم سكت فقال بنو عذرة وبنو خزاعة : قد رضينا بحكمك يا أبا نضلة وانصرف القوم عن صلح .

من هذه الخطبة أيضا نخرج بالحقائق التالية :-

أ - أن هاشما عندما جمع القبيلتين المتنازعتين بني عذرة وخزاعة لفض خلافهما كان دافعه لذلك (خشية فساد الحرم وانتهاك حرمته) أي زعزعة استقرار الدولة التي يسهر على شئونها .

ب- أنهم استجابوا لدعوته فورا وهذا لمقامه كسيد لمكة وحاكم للبلد الحرام .

ج- كان له (منبر مركن) شأن الملوك .

د - أنهم رضوا بحكمه دون تردد .

هـ - وصف قريشا بأوصاف لا تدع مجالا لأدنى شك بإيمانه بأنها سيدة العرب ومالكة أمرهم عبارات بالغة الدلالة ، ناطقة بذاتها ، ليست في حاجة إلى تفسير وغنية عن أي تأويل . ولقد ورث أبناؤه وأحفاده عنه هذا الإيمان وغدا في نفوسهم عقيدة راسخة رسوخ الجبال ؛ أن قريشا لم تعد قبيلة كسائر قبائل شبه الجزيرة العربية ، بل هي دولة حاكمة على أقدس مدينة ، وحائزة على شرف الهيمنة على أقدس كعبة فيها ، وأنها بصدد التحول إلى دولة مركزية سوف تسيطر على بلاد العرب من أدناها إلى أقصاها .

و - أن من حضر من القبائل وسمع تلك الخطبة (الحكيمة) لم يجرؤ على أن يعارض كلمة واحدة منها ؛ لأنهم يوقنون في مستقر نفوسهم أن ما صرح به هاشم حق لا مرية فيه ، وأن "قريش الدولة" غدت واقعا ملموسا ، وأنها اليوم تمسك بيديها زمام الأمور في مكة ، وفي الغد القريب سوف تسيطر على الجزيرة العربية كلها .

عبد المطلب

كان بمكة تجار من الروم ، وكان بعضهم يتخذ من التجارة ستارا يغطي به مهمته الأساسية وهي التجسس لحساب قيصر أو هرقل ، وهؤلاء من المحتم أن صلات ربطتهم بتجار مكة وكبرائها وأثريائها ، مما يستدعي الحوار فيما بينهم ، وتبادل الآراء والأفكار والحديث في الشئون العامة ، وهكذا من المنطقي أن يكون عبد المطلب وغيره من زعماء قريش قد أطلعوا على ما يجري لدى الروم من أحوال السياسة والاقتصاد والدين . ويلتقط عبد المطلب فكرة إلباس الدولة ثوب الدين لتدعيمها ، نحن لا نزعم أن عبد المطلب أخذ النظرية البيزنطية بحذافيرها ولكنه استخلص منها جوهرها وهو فاعلية الدين في ترسيخ الحكم إذا رفع شعاره ، وتثبيت أعمدة الدولة إذا تسربلت بردائه .

إن أهل مكة كانوا على اتصال بغيرهم من الأمم أو من حولهم منها ، ولهذا فإن انتقال الأفكار أمر طبيعي لا يمارى فيه أحد ، وعبد المطلب في الذؤابة العليا من أهل مكة (قريش) إذن هو لا بد أن يكون على علم بما كان يجري من أمور في الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ، ويعرف كيف كانت تحكم وماذا كان يدعيه حكامها ، وسمع عن نظرية القيصرية البابوية وأن الامبراطور أو قيصر أو هرقل كان يعلن على الملأ أنه نائب الله على الأرض ، فأدرك وهو من صفوة قريش لماحية بل وألمعية مدى أثر الدين في تدعيم الدولة ، وتوثيق أركانها وترسيخ قوائمها ، فأعجبه ذلك أيما إعجاب فطبقه بطريقة فذة واقتدار بالغ بكيفية تتوافق مع موجبات بيئته ومقتضيات مجتمعه ، وكان موفقا في ذلك غاية التوفيق ، إذ أثبت التاريخ فيما بعد أن الدين كان له أثر لا يباريه فيه أي عنصر آخر في نجاح دولة قريش التي استمرت بعد عبد المطلب ما يناهز تسعة قرون .

استوعب عبد المطلب الدرس جيدا واستثمر الدين بكل وظائفه : الرؤى والأحلام والأساطير والرموز والنبوءات (سوف يجيئ الكلام على كل واحد منها على حدة) وهي الأدوات عينها التي يستعملها الدين

لإيقاع الهيبة ، ولغرس القداسة في النفوس ، جمع بين الدين والحكم ؛ فكان يلقب ب "سادن الكعبة" و "سيد البطحاء" في الوقت نفسه تماما مثل القيصر البابا .

أي أنه جمع بين القداسة الدينية والإمارة الدنيوية ، وأكد الإخباريون القدامى أنه (كان يتأله ويعظم الفجور ... وكان سيد قريش حتى هلك)(٣) . هنا نجد أن ابن سعد وهو من أقدم وأوثق المؤرخين يجزم بأن عبد المطلب كان يجمع بين التأله والسيادة ، (والتأله هو التنسك والتعبد) ، وفي الخطبة التي ألقاها عبد المطلب بين يدي سيف بن ذي يزن عندما ذهب على رأس وفد قريش يهنئه على ظفره بالحبشة ذكر عبد المطلب أنه واحد من سدنه البيت الحرام الذي بمكة أي الكعبة .

وبلغ من تألهه في رواية ابن سعد أن الكنز الذهبي الذي وجده عند حفر زمزم أمر به فضرب صفائح في وجه الكعبة وجعل قفل بابها ومفتاحه من الذهب ، ومعلوم أن كعبة مكة هي قدس الأقداس عند العرب حتى اليوم (وكانت جرهم حين أحسوا بالخروج من مكة دفنوا الغزالين وسبعة أسياف قلعية وخمسة أدراع سوابغ فاستخرجها عبد المطلب ... فضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة وكانا من ذهب وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة وجعل المفتاح والقفل من ذهب)(٤) .

وساهمت القداسة في نشر سلطان الدولة لا على مكة وحدها ؛ بل على الجزيرة بأسرها وأثبتت الوقائع أنه كان حصيفا بعيد النظر إذ ساعد الدين على استمرار دولة قريش قرونا عديدة ، ولا يهم تغيير نوعية الدين فهذا مبحث يند عن موضوع كتابنا ، ولكن المهم هو جوهر الفكرة ولبابها ، حتى لو قيل إن الفكرة استعارها عبد المطلب من حكام بيزنطة في القرن السادس الميلادي كما أسلفنا ، يبقى له الفضل في "تعريبها" أي تطبيقها بكفاءة نادرة على المجتمع العربي ، وهو فضل كبير ظلت قريش لآماد طويلة تعترف له به ، وتقدره من أجله أعظم تقدير .

استخدم عبد المطلب أدوات الدين التي ذكرناها آنفا لتأكيد مكانة قريش عامة لدى جميع العرب ولأهل مكة خاصة ، فبدأ عبد المطلب بالرؤى والهواتف التي تجيئه في منامه (قال عبد المطلب : إني نائم في "الحجر" إذا أتاني آت فقال : احفر طيبة ، قال : قلت : ما طيبة ، قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال : احفر برة ، قال : فقلت : وما برة ، قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال : احفر زمزم ، قال : قلت : وما زمزم ، قال : لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل)(٥) .
ولكن لماذا اقترن حفر بئر زمزم بحلم يراه عبد المطلب في منامه ؟ ولماذا أصر على أن الأمر بالحفر جاء عن طريق هاتف أو بتعبيره آت أتاه في المنام يتكلم أو ينطق ب "سجع الكهان" المليء بالرموز والألغاز والإشارات ؟! في حين أن غيره كثير من قريش وغير قريش حفروا آبارا ، منهم أبوه هاشم ولم يقرنوا فعلهم بهاتف أو آت في منامهم ؟ إن عبد المطلب كان من جانب رجلا متألها ، ومن ناحية أخرى تلعب الأحلام دورا بارزا في المجال الديني والقرآن الكريم فيه العديد من القصص عن أحلام رآها أنبياء مباركون مثل إبراهيم ويوسف ، وهي نفسها وردت مع غيرها في التوراة كتاب اليهود المقدس ، واليهود جيران الخزرج في يثرب التي قضى عبد المطلب فيها صباه ولا بد أنه سمعها هناك مع أخواله من بني النجار ، ومن ناحية ثالثة فإن الرؤى والأحلام تضفي قدرا وفيرا من القداسة على الموضوعات المتعلقة بها ، إذا

حايثتها ملابسات ورموز لها قداستها مثل ما حدث في حلم حفر زمزم مع عبد المطلب ، الذي تلقى الحلم وهو نائم في الحجر (حجر إسماعيل) والهاتف الذي أتاه تحدث بلغة الكهان : الكلام المسجوع والألغاز والرموز والإشارات .

فحلم عبد المطلب أو رؤياه يعتبر من الأحلام المعبرة عن النمط الثقافي السائد ، وهي الثقافة التي تلقاها في صباه في يثرب عندما كان يعيش مع أمه سلمى وأخواله من بني النجار والتي انتقلت إليه وإليهم من أثر احتكاكهم باليهود وفي الرؤيا أتاه "آت" وهو من الكائنات فوق الطبيعية ، وهو الذي أمده بالمعلومات التي حددت له موضع حفر "زمزم" وسوف نرى أنه في حلم آخر جاءه هذا "الآتي" ودلّه على الأضحية التي يجب عليه تقديمها شكرا لله وهي ذبح أحد أبنائه الذكور بعد أن بلغوا عشرة .

ولقد نجح عبد المطلب أيما نجاح فيما استهدفه من الرؤيا الخاصة بحفر زمزم وما لابسها من قداسة ، إذ غدت زمزم بئرا مقدسة بل إنها ما زالت كذلك بعد مضي ما يقرب من خمسة عشر قرنا .

وتقديس زمزم هو في الوقت نفسه إعلاء لشأن عبد المطلب وبني مناف وقريش (افتخرت بنو عبد مناف ب "زمزم" على قريش وعلى سائر العرب ، قال مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد مناف :

وزمـــزم فـــي أرومتنـــا   ونفقـــا عيـــن مـــن حســـدا[٦]

وينقل إلينا الإخباريون حلما آخر رآه عبد المطلب في منامه أيضا في "الحجر" ، ولكنه في هذه المرة يتعلق مستقبل "دولة قريش" وكيف أن واحدا من شبابها يخرج من صلبه وهو الذي سوف يقوم بأمرها ويتولى شئونها حتى يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس . (قال عبد المطلب : بينما أنا نائم في "الحجر" رأيت رؤيا هالتني ففزعت منها فزعا شديدا فأتيت كاهنة قريش وعليَّ مطرف خز على منكبي ، فلما نظرت إليَّ عرفت في وجهي التغير وأنا يومئذ "سيد قومي" فقالت : ما بال "سيدنا" قد أتانا متغير اللون هل رابه من حَدثان الدهر شئ؟ فقلت لها : بلى ، وكان لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى ثم يضع يدها على أم رأسه ثم يبدو بحاجته ، ولم أفعل لأني كنت "كبير قومي" فجلست فقلت : إني "رأيت الليلة وأنا نائم كأن شجرة نبتت وقد نال رأسها السماء فضرب بأغصانها المشرق والمغرب وما رأيت نورا أزهر منها ، أعظم من نور الشمس بتسعين ضعفا ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهي تزداد كل ساعة بروقا ، ورأيت رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها . ورأيت قوما من قريش يريدون قطعها فإذا دنوا منها أخّرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجها ولا أطيب منه ريحا ، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم ، فرفعت يدي لأتناول منها قسما فقال لي : لا نصيب لك منها ، فقلت : ومن له نصيب ؟ فقال : النصيب لها وللذين تعلقوا بها وسبقوك إليها ، فانتبهت فزعا مرعوبا . فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس)[٧] .

في هذه الواقعة التي رواها لنا الإمام الجوزي نرى أن عبد المطلب استخدم الرؤيا لتأكيد هدفه ، وللإيحاء بأن دولة قريش رسالة علوية لا بد من تحقيقها على أرض الواقع ووظفت الكاهنة التي يعظمها أهل مكة لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى والتي هي في نظرهم شخصية مباركة ثم يضع يدها على

أم رأسه ثم يبدو بحاجته كما أن لها في نظرهم صلة وثيقة بالقوى العلوية ، وتوظيف الكاهنة هنا من قبل عبد المطلب هو لتوثيق الهدف بخروجه من ضمن من له اتصال بالعوالم الغيبية التي يتقبل الناس كلامها بالتسليم المطلق ؛ لأنه نوع من الإلهام السماوي فقد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق "من إدراك غيبهم" ، فلما تقول كاهنة قريش لسيد قريش عبد المطلب "ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس" يصير هذا القول حقيقة مؤكدة لأنها لم تقل ذلك من تلقاء نفسها ولكن عن إلهام أتاها من قوى علوية هي على اتصال بها وأن هذا "من إدراك الغيب" على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون ويصبح التشكيك فيه نوعا من التجديف والإلحاد ويتولى عبد المطلب وبنو عبد مناف إذاعة هذه النبوءة وإشاعتها بين الناس حتى تؤتى ثمارها .

يجدر بالذكر أن أبا عبد المطلب تزوج سلمى إبنة أحد سادات بني النجار من الخزرج في يثرب فولدت له هناك عبد المطلب وظل فيها حتى ناهز البلوغ إلى أن حضر عمه المطلب وأخذه معه إلى مكة ، واليهود في ذلك كانوا يعيشون في يثرب ويختلطون بأهلها من الأوس والخزرج الذين لا بد أنهم سمعوا منهم العديد عن ديانتهم التوحيدية وعن قصصهم التي تحفل بها التوراة كتابهم الأقدس ؛ وبداهة أن عبد المطلب سمعها معهم أثناء مقامه بين ظهرانيهم وترسب بعضها في ذهنه مثل "المسطورة" التي تحكي عن شروع النبي إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه إسحق عند اليهود "ثم افتدى بكبش (فناداه ملاك الرب من السماء وقال : إبراهيم إبراهيم ، فقال : هأنذا ، فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا ، لأني علمت الآن أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني ، فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه ، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه)[٩] ، واستيعاب عبد المطلب لهذه (المسطورة) على وجه التحديد مرجعه أنها تتعلق ب "إبراهيم" عليه السلام جد العرب المستعربة فهو أبو إسماعيل أبوهم ، وظلت مختمرة في ذهنه وتعيش في وجدانه حتى بعد أن كبر وغدا (سيد البطحاء) فنراه يعيد تشخيصها سواء عن وعي أو عن طريق اللاشعور فهو ينذر لله ذبح أحد أولاده الذكور إذا تكامل عددهم إلى عشرة رجال ، ولكنه فيما يبدو شغلته المشاغل الرئاسية عن الوفاء بهذا النذر الذي لم يسبق إليه أحد من العرب كما قال له "ملأ قريش" وهو الذي يؤكد ما نذهب إليه أن ذلك النذر كان من تأثير تلك (المسطورة) عليه إذ لو أن هذا النذر كان معروفا أو شائعا لدى العرب أو حتى عند قريش لقلنا إن عبد المطلب كان يتأسى فيه بمن سبقوه ، فلما أبطأ في وفاء ما نذره لله (نام ليلة عند الكعبة فرأى في المنام قائلا يقول : يا عبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت ، فاستيقظ فزعا وأمر بذبح كبش ، وأطعم الفقراء والمساكين ، ثم نام فرأى قائلا يقول : هو أكبر من ذلك فانتبه ، وقرب جملا وأطعمه المساكين ثم نام ، فنودي : أن قرب ما هو أكبر من ذلك فقال : وما هو أكبر من ذلك ؟ فقيل له : أحد أولادك الذي نذرته فاغتم غما شديدا)[١٠] ، ولكنه لا يجد مفرا من تنفيذ أوامر "الهاتف" أو "الآتي" ويهم بذبح أصغر أبنائه وأحبهم إليه وتنتهي الحكاية بفداء الابن ، لا بكبش واحد كما افتدى إسحق "عند اليهود" وإسماعيل ":عند المسلمين" ولكن بمائة من الإبل .

ونجحت هذه الواقعة في تحقيق الهدف الذي تغياه منها عبد المطلب ، إذ منذ حدوثها صارت تتم مقارنة بين إبراهيم عليه السلام وعبد المطلب وإسحق أو إسماعيل عليهما السلام وابن عبد المطلب الذي قدمه للنحر وأصبح يقال لإسماعيل ولابن عبد المطلب (الذبيحان) .

والذي يلفت النظر أن عبد المطلب عندما أراد أن يوفي بنذره لله تعالى لم يقم بذلك سرا في داره أو في أحد جبال مكة بعيدا عن الأعين ولكنه فعل ذلك في فناء الكعبة وعلى مرأى ومسمع من ملأ قريش الذي سارع فحال بين عبد المطلب وبين ما كان يريد – قد يقال ردا على هذا التساؤل إن عبد المطلب أراد ذبح الابن عند قدمي (إساف ونائلة) وهما صنمان لقريش كانا في فناء الكعبة كما ورد في بعض كتب السيرة ، ولكن هذا مردود عليه بالآتي :-

أ - أن النذر كان لله لا لـ (إساف ونائلة) .

ب- أن عبد المطلب كان من المتحنفين بشهادة عدد من المؤرخين القدامى "والباحثين المحدثين" والمتحنفون هم موحدون في المقام الأول وعلى (ملة إبراهيم) ونبذوا الأصنام وسفهوا الذبح لها ذبح الأنعام "الحيوانات" لا ذبح إنسان .

أغلب الظن أن عبد المطلب اختار مكان الذبح وهو نادى قريش عن عمد لأنه كان موقنا أنهم سوف يمنعونه ، والذي جاء ب "الكبش" في "مسطورة" إبراهيم عليه السلام هو ملاك الرب جبريل عليه السلام قيل إنه أحضره من الجنة ، أما الذي أفتى بذبح مائة من الإبل فداء لابن عبد المطلب فهي عرَّافة الحجاز المقيمة ب "يثرب" حيث قضى عبد المطلب صباه أو "خيبر" واسمها "قطبة" أو "سجاح"[١١] .

ونلاحظ أن الرؤى لا تأتي لعبد المطلب إلا وهو نائم في أماكن تتسم بالقداسة فحلم عبد المطلب بحفر زمزم أتاه الآتي وهو نائم في (الحجر) أي حجر إسماعيل كذلك رؤيا "الشجرة المباركة" أما رؤيا ذبح الابن فقد وردت عليه وهو نائم عند الكعبة وهذا أمر له دلالة ، لأن الرؤى في هذه الأماكن المقدسة تستمد منها بالضرورة القداسة .

ومما سمعه عبد المطلب أيضا وهو بين أخواله بني النجار "فكرة ظهور نبي منتظر" أطل أو أظل زمانه وهي فكرة شاعت في يثرب ثم بعد ذلك في مكة لاختلاط أهلها باليهود والنصارى[١٢] ، وطمع أكثر من متحنف أن يكون هو النبي المنتظر مثل أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور وأحد الأحناف المعروفين ، وعبد المطلب كما ذكرنا كان أحدهم أو أستاذهم وزعيمهم في رأي د. سيد القمني ، فضلا عن عراقة محتده وسمو مكانته في قومه ، إذن لا بد أن يكون الأمل قد راوده في أن يكون هو النبي المنتظر أو على الأقل أحد ذريته ، ومما زاد هذا الأمل شعشعة في دماغه حتى سيطر على فكره أن بعض العرافين رشحه أو خليفة من صلبه لتلك الرسالة المجيدة (أخبرنا اليزيدي قال : أخبرنا سليم بن عبد العزير بن أبي نائب من ولد عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن بن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال : خرج عبد المطلب إلى اليمن في رحلة الشتاء ، فلقيه رجل من أهل "الزبور" فنسبه فانتسب له ، فقال : أتأمرني أن أنظر إلى شئ منك ؟ قال : نعم ما لم تكن عورتي ، فجعل يقلب وترة أنفه فقال : أني لأرى سحرا فيه نور النبوة ولكنا لا نجد النور يكون إلا في بني زهرة فهل لك من شاعة ؟ قال : وما الشاعة ؟ قال الزوجة ، قال : أما اليوم فلا ، قال فارجع فتزوج في بني زهرة فتزوج هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وتزوج عبد الله ابنه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فقال قريش : فلح عبد الله على أبيه عبد المطلب فولدت له حمزة والمقدم وصفية بني عبد المطلب، وولدت آمنة لعبد الله محمدا صلى الله عليه وسلم)[١٣] ، وروى ابن

سعد هذه القصة بصورة قريبة (عن جعفر بن عبيد الرحمن بن المسور بن مخرمة الزهري عن أبيه عن جده قال : كان عبد المطلب إذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير فنزل عليه مرة من المر (المرات) فوجد رجلا من أهل اليمن قد أمهل له في العمر وقد قرأ الكتب فقال : يا عبد المطلب تأذن لي أن أفتش مكانا منك .؟ قال : ليس كل مكان مني آذن في تفتيشه ، قال : إنما هو منخراك ؟ قال : فدونك ، قال فنظر إلى بار – وهو الشعر في منخريه – فقال : أرى "نبوءة" وأرى "ملكا" وأرى أحدهما في بني زهرة ، فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت محمدا صلى الله عليه وسلم ، فجعل الله من بني عبد المطلب النبوة والخلافة والله أعلم حيث وضع ذلك)[١٤] .

هنا نجد أن عبد المطلب قد ارتكن إلى كهانة الكهان أو عرافة العرافين في مسألة توقع ظهور النبوة في قريش وعلى الأخص في أولاده (من صلبه) ولا يكتفي بتقبل هذه النبوءات باحتفال واستبشار بل هو يعمل على نشرها بين الناس الذين ظلوا يتناقلونها حتى دوّنها أصحاب الأخبار في كتبهم ، ولا شك أن هذه المقولات أو النبوءات عندما تشيع وتذيع بين المكيين والعرب تؤتى ثمارها المرجوة من تقديس قريش أولا ثم بني عبد مناف فعبد المطلب وأولاده وبذلك تتعاضد القداسة مع الحكومة وتشد من أزرها . ولم يكن الكهان أو أصحاب العرافة وحدهم هم الذين بشروا عبد المطلب بظهور النبي المنتظر من صلبه بل إن "سيف بن ذي يزن" فعل ذلك ، عندما ذهب إليه عبد المطلب على رأس وفد من أشراف قريش لتهنئته بظهوره على الحبشة [١٥].

ومن اللافت للنظر أن "سيف بن ذي يزن" أسرَّ لعبد المطلب بهذه البشارة في خلوة بينهما لم يشهدها أحد ، فيغدو من البديهي أن من نقلها إلى الناس هو عبد المطلب نفسه وهو لم يفعل ذلك اعتباطا أو دون هدف أو غاية ؛ هكذا وظف عبد المطلب الأحلام والرؤى والكهانة والعرافة وهي من أدوات الدين بذكاء واضح في تأكيد قيام دولة قريش .

إضفاء هالة القداسة على دولة قريش ورئيسها كان عملا فذا من جانب عبد المطلب ، باشره بذكاء وسعة أفق ، ومعرفة بموجبات عصره في سياسة الحكم ، ولكنه لم يقتصر على ذلك أي أن يظل مجرد "سادن الكعبة" بحسب تعبير شيخ الإسلام فضيلة الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمود ، بل أولى جانب "السيادة الدنيوية" اهتماما ملحوظا ، حقيقة أن أباه هاشما وطأ له الأكناف وذلل له الصعاب وعبّد له الطرق وبذلك وفر عليه الكثير ، ولكنه سار في إكمال الشوط .

فكانت صلاته الخارجية بمن حوله من الملوك ممتازة استمرارا لخط أبيه ، فقد قرأنا سابقا وفوده على رأس ركب من سادات قريش لتهنئة سيف بن ذي يزن لظهوره (انتصاره) على الحبشة ، وفي الوقت نفسه كان على علاقة طيبة ب "النجاشي" ملك الحبشة إذ يحدثنا الإخباريون (أن عبد المطلب وحرب بن أمية تنافرا إلى النجاشي فأبى أن ينفر بينهما فجعلا بينهما جد عمر بن الخطاب)[١٦] ، ولا شك أن تحكيم النجاشي بين عبد المطلب وحرب بن أمية دليل على المكانة التي بلغها عبد المطلب لدى ملك الحبش . كذا رأينا فيما سلف أن عبد المطلب كان ينزل على "أقيال" اليمن عند وصوله إليه وفي إحدى المرات قابل لدى أحدهم العرّاف الذي تنبأ له بظهور نبي من صلبه .

اليهودية

اليهودية كان لها تأثير على التفكير الديني لدى عرب منطقة الحجاز على وجه التخصيص وقد تمثل ذلك في عدة أمور منها :

الأول : إذاعة عقيدة التوحيد وهي الإيمان بوجود إله واحد ونبذ التعددية الإلهية المتمثلة في عبادة الأصنام ، وقد يكون الحنفاء أو المتحنفون أكثر من غيرهم تأثرا بهذه العقيدة وقبولا لها ، ولكن هذا لا يمنع من انتشارها في غيرهم من أبناء القبائل (وعن طريق اليهود في الجزيرة تسربت الأفكار التوحيدية والتعاليم اليهودية)(١٧) . ويرى كارل بروكلمان (ولقد ساعدت الأديان السماوية اليهودية والمسيحية التي كان لها منذ زمن طويل أنصار وأتباع في بلاد العرب على استعجال تفسخ الوثنية العربية)(١٨) ، ويؤكد ذلك حسين مروة فيقول (إن وجود الديانتين أي اليهودية والنصرانية كان عاملا مساعدا في تغيير الوعي الديني هناك باتجاه النظر التجريدي نحو مشكلة الوجود متجاوزا النظرة الوثنية الحسية)(١٩) . ومن رأي أندريه مايكل ، أن الوثنية العربية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قد (تغيرت باتصالها بالديانتين التوحيديتين القائمتين آنذاك)(٢٠) ، ويذهب د. حسن إبراهيم حسن إلى (إن اليهود عندما نشروا تعاليم التوراة بين عرب الجزيرة والحجاز كان لذلك أثره في الوثنية الحجازية)(٢١) .

هكذا نرى أن عقيدة التوحيد كانت معروفة لدى عدد من قبائل جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام ، ومتفشية بينهم بسبب اتصالهم باليهود .

الثاني : ترسيخ عقيدة أو فكرة النبوة ، ثم إشاعة مقولة قرب ظهور نبي يخلص الناس مما يعانونه من جور واضطهاد ، يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما ويتحقق ملكوت الله على الأرض وهي عقيدة (المشيحانية) المستقرة في طوايا الديانة اليهودية وهي تعني (ظهور المخلص الذي يحرر اليهود من العبودية لمضطهديهم ويعيدهم من المنفى ويحكمهم بالشريعة فيعم العدل ، ويسود ، السلم وتخصب الأرض)(٢٢) . ويطلق عليه في اللغة العبرية (مشيحوت) و (تعني الاعتقاد في مجيئ مسيح يهودي وبطل قومي يتميز بصفات القدرة القتالية التي تمكن بني إسرائيل من الخروج من حالة الهزيمة العسكرية والفشل السياسي والانحلال الديني والخلقي ، وتمنيهم بمجيئ عالم مثالي تتحقق لهم فيه ما يعتقدون من السيادة على سائر الشعوب ، فتأتيهم طائعة عابدة)(٢٣) ، عقيدة النبوة وفكرة قرب ظهور نبي انتشرتا لدى الأوس والخزرج بيثرب كأثر مباشر لاحتكاكهم باليهود واختلاطهم بهم ، ومعاملتهم معهم وجوارهم لهم ، ويحدثنا مؤرخو السيرة النبوية أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم (لقى رهطا من الخزرج فوقف عليه ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن وكانوا يسمعون أمره وذكره وصفاته)(٢٤) . فالأنصار (الخزرج) هنا لم يفاجأوا ، بل كان لديهم علم مسبق استقوه من اليهود :

النبي يدعو إلى التوحيد ونبذ الأوثان وبيده كتاب مقدس هو القرآن ، الصورة نفسها التي كانوا يرونها لدى اليهود ولكنها في هذه المرة تتحقق على يد عربي ينطق بلسان عربي مبين ، فلم تأخذهم دهشة ولم يتولهم عجب ومن ثم سارعوا إلى الإيمان به وبدينه . ويسرد الكلاعي الواقعة بقدر أوسع من التفصيل فيقول : (فجلسوا وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهودا كانوا

معهم في بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقكم إليه أحد ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا ما عرض عليهم من الإسلام)[٢٥] . وأنت عندما تقرأ كتب السيرة النبوية وخاصة التراثية تجد أن القبائل تعنتت مع محمد عليه السلام ، ولم تقبل ما كان يدعوها إليه ، وردّ كثير منها عليه ردّا غير كريم فيما عدا الأوس والخزرج الذين آمنوا بسرعة مذهلة من أثر وجود خلفية لديهم لاتصالهم باليهود . ويواصل كتاب السيرة النبوية حكاية ذلك الوفد الذي قابل الرسول محمدا في "منى" عند العقبة (فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٢٦] . فإذا وضعنا بجانب هذه الواقعة التاريخية أن الرسول عليه الصلاة والسلام ظل في مكة يدعو إلى دين الإسلام طوال ثلاثة عشر عاما ، ولم يؤمن به سوى بضع عشرات ، شطر كبير منهم من الأرقاء والمستضعفين الذين جذبتهم مبادئ العدالة الاجتماعية التي كان ينادي بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم أدركنا على الفور أن الاستجابة السريعة التي أبداها الأوس والخزرج مردها أن عقيدة النبي المخلص كانت شائعة بينهم من أثر احتكاكهم وجوارهم يهود يثرب ، فضلا عما يكونون قد استشعروه من أن الإيمان بنبوة هذا النبي العربي سوف (يخلّصهم) من السيطرة الاقتصادية والاجتماعية لليهود .

الثالث : التأثير على الخطاب الديني لدى العرب إذ تغيرت بنيته تغيرا نوعيا وتحول من السذاجة إلى التجريد ، ودخلته مصطلحات ومفاهيم لم تكن معروفة عندهم قبل ذلك مثل : البعث والحساب والميزان والجحيم وإبليس ... إلخ .

ويرى برهان الدين دلو أنه عن طريق الديانة اليهودية وتعاليمها تسربت إلى العرب جميعهم (ما جاء فيها من : خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان ونار وجهنم والشيطان وإبليس)[٢٧] . وأوضح ما كان ذلك التأثير على الحنفاء أو المتحنفين ولهم مبحث خاص مستقل ، وعلى الشعراء والخطباء منهم على الخصوص مثل أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور ، الذي قال عنه محمد عليه السلام : آمن لفظه أو شعره وكفر قلبه ذلك لأنه رفض الدخول في دينه ومثل قس بن ساعدة الإيادي أحد خطباء العرب المعدودين ، وقد ورد في دواوين السيرة المعتمدة والتي تلقتها الأمة بالقبول والتجلة أن النبي محمدا عليه السلام كان يستمع إلى خطبه ومواعظه في سوق عكاظ – ولم يدّع أحد من أولئك المتحنفين أن ملكا من السماء نزل عليه فأوحى إليه تلك القيم الدينية والمفاهيم والمصطلحات ، إذن هي بلا ريب من أثر اختلاطهم بأهل الكتاب : اليهود أولا ثم النصارى فيما بعد ، ودراستهم لكتبهم المقدسة وتعاليمهم ويذكر لنا د. صالح أحمد العلي أن اليهود كان لهم (بيت مدراس واحد ويبدو أنه كان المركز الرئيسي إن لم يكن الوحيد)[٢٨] . ويصفه عباس محمود العقاد أنه (المدرسة العبرية التي ظلت إلى عهد الدعوة المحمدية) ، وبداهة أن هذه المدارس اليهودية أو هذه المدرسة العبرانية كانت أبوابها مفتوحة لمن يقصدها من طالبي العلم الديني من الحنفاء وغيرهم ، خاصة وأن أولئك الحنفاء كانوا على قدر متميز من الثقافة وكان بعضهم يعرف لغة أخرى خلاف العربية ، بل واللغة العبرية على وجه الخصوص . وقد ذكر الإخباريون أن ورقة بن نوفل ابن عم أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها وهي أولى زوجات محمد عليه السلام ، كان يقرأ العبرانية وفي رواية كان يعرف اللسان العبراني وهذا ثابت في أكثر من كتاب من كتب السيرة المحمدية ، ورقة هذا كان من أكابر الحنفاء في مكة وهو الذي بشر محمدا عليه السلام أنه نبي هذه الأمة .

وتنص بعض الروايات على أن ورقة كان ينقل أجزاء من التوراة إلى اللسان العربي أي إلى اللغة العربية ، وكونه ابن عم لخديجة يعني أن محمدا عليه السلام كان على اتصال حميم به والفترة من زواج محمد بخديجة إلى إعلانه رسالته وهي خمسة عشر عاما فترة معتمة في كتب السيرة أي لا يُسلط عليها الضوء والذي نرجحه أن محمدا وقد كفته ثروة خديجة شظف العيش وعناء السعي على الرزق كراعي غنم وأخرى يتاجر بمال الغير خارجا بها إلى أطراف الجزيرة ... الخ . لا شك أنه في تلك الفترة اتصل بأصحاب الملل والنحل وأتباع الأديان والمذاهب الذين كانت تعج بهم مكة إما كمقيمين بها أو وافدين للحج والتجارة ، وممن اتصل بهم الصابئة والأحناف أو الحنيفية وعلى رأسهم ورقة بن نوفل بسبب قرابته القريبة لزوجه خديجة ولا ريب أنه دارت بينهما حوارات ومساجلات وأن الأوراق أو الأجزاء التي قام بترجمتها ورقة من العبرانية إلى العربية حاضرة في تلك الجلسات .

بل إن بعض الباحثين يرى أنه قد تمت ترجمة لبعض أجزاء منه التوراة (العهد القديم) واستدل على ذلك بآيات من القرآن الكريم وبمحاولة الحبر اليهودي إخفاء آية الرجم عن النبي محمد عليه السلام ووضع يده عليها كما ورد في البخاري وأنها لو لم تكن مكتوبة بالعربية لما شرع في سترها لأن محمدا عليه السلام لم يكن يعرف العبرانية ولا الآرامية[٢٩] .

هذه التأثيرات كان لها فعاليات بالغة الخطورة في المساهمة في قيام دولة بني قريش في يثرب على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي عليه الصلاة والسلام .

النصرانية

ممن اعتنق المسيحية من مشاهير العرب : أرباب بن عبد القيس ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس ابن أبي دانس من بني النجار ، وورقة بن نوفل ، وعبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر ، وبحيرى الراهب وورقة بن نوفل هو أحد أبناء عم أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها أولى زوجات النبي محمد[٣٠] عليه الصلاة والسلام ، وأول من آمن به ، كما أن ورقة هو الذي قال له أنه سوف يكون نبي الأمة ، أما بحيرى الراهب فهو الذي تقابل معه محمد عندما كان غلاما متوجها بصحبة عمه أبي طالب إلى الشام للمتاجرة ، ويقال إن (أول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان بن المنذر ، قيل على يد الجاثليق عبد يشوع ، وقيل على يد عدي بن زيد العبادي ، ودان بالنصرانية كثير من قبائل العرب النازلين بالحيرة أو بالمنطقة المحيطة بها من بينهم : تغلب من بطون من بكر بن وائل في ديار بكر ، وكانت هند بنت النعمان زوجة المنذر بن امرئ القيس مسيحية ، فنشأ ابنها عمرو بن المنذر الذي تولى حكم الحيرة فيما بين عامي ٥٥٤/٥٦٩م مسيحيا ، وإلى هند هذه ينسب دير هند الكبرى بالحيرة)[٣١] ، وكانت تنقلات القبائل أو بطونها أو أفخاذها مستمرة بين أطراف الجزيرة ووسطها ؛ ولذا فإن قبيلة تغلب هذه لم تكن هي الوحيدة التي فشت فيها النصرانية بل الكثير غيرها مثل : إياد قبيلة قس بن ساعدة وتميم وحنيفة وقضاعة وغيرها ، بل إن النصرانية ، اخترقت قبيلة قريش ذاتها ، فقد سبق أن كعب بن عبيد التنوخي وهو من سراة الحيرة النصارى ، وكان أبوه أسقفا لها ، تعاطى التجارة وشارك فيها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قبل ظهور الإسلام (وقال اليعقوبي : وأما من تنصر من أنحاء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزي منهم

عثمان بن الحويرث بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل من أسد)[٣٢] ، وقد ساق هذه الحقيقة التاريخية برهان الدين دلو[٣٣] .

وبذلك يمكن القول إن النصرانية كانت متغلغلة في مكة ، واخترقت بعض بطون قريش بل إن البعض يذهب إلى أن المسيحية وجدت داخل الكعبة ذاتها ، فكان عدَّي بن زيد وهو من أشهر شعراء العرب النصارى في الجاهلية يقول :

سعى الأعداء لا يألون شرا   عليك ورب مكة والصليب

واتخذه الأب شيخو دليلا على انتشار النصرانية في مكة وعلى تنصر أحياء منها وعلى أن النصرانية قديمة فيها ... وأضاف أن : صور الأنبياء وصور عيسى وأمه التي أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هي دليل على أثر النصرانية في مكة ولهذا أقسم عدي بها كما أقسم الاعشى بها كذلك :

حلفت بثوبي راهب الدير والتي   بناها قصي والمضاض بن جرهم

والأعشى عاش في الجاهلية وأدرك الرسول ومدحه[٣٤] .

وأيا كان الأمر فإن النصرانية كان لها وجود في جوف الكعبة – ذلك أن محو صورتي عيسى وأمه مريم بأمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد ورد ذكره في كتب السيرة .

ويؤكد الأستاذ محمد كرد على وجود صور وتماثيل لكل من عيسى وأمه في جوف الكعبة فيقول (ومن جملة ما كان فيها يعني الكعبة صور عيسى وأمه عليهما السلام ، بقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسّان وكان على أحد عمد الكعبة تمثال مريم وفي حجرها ابنها مزوقا) [٣٥]

عن ابن شهاب أن النبي ص دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة فرأى صورة ابراهيم فقال : قاتلهم الله جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام ثم رأى صورة مريم فوضع يده عليها وقال : امحوا ما فيها من الصور إلا صورة مريم .

أخبرني محمد بن يحيى عن الثقة عنده عن ابن اسحق عن حكيم بن عباد بن حنيف وغيره من أهل العلم أن قريشا كانت قد جعلت في الكعبة صورا فيها عيسى بن مريم ومريم عليهما السلام .

قال ابن شهاب : قالت أسماء بنت شقر : إن امرأة من غسان حجت في حجاج العرب فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت : بأبي وأمي إنك لعربية ، فأمر رسول الله ص أن يمحو تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم[٣٦] .

من هذا كله يبين أن المسيحية كانت منتشرة في وسط الجزيرة وأطرافها وذلك للأسباب التي أوردناها وكان حظها من الذيوع والانتشار أوفر من الديانة السامية التوحيدية الأولى (اليهودية) لعلل لا تخفى ، في مقدمتها أن النصرانية ديانة تبشير فضلا عن استنادها إلى مرجعيات سياسية متنفذة : دولتي الروم والحبشة ودويلتي ، أو إمارتي ، الغساسنة والمناذرة ، والنصرانية كما اليهودية تركت آثارا عميقة الغور في عرب شبه الجزيرة على الأخص في الناحية الاعتقادية ، نذكر :

أولا : ترسيخ عقيدة التوحيد التي وضعت بذرتها اليهودية ، أي الإيمان بإله واحد ونبذ ما عداه ، وترك التعددية الإلهية المتمثلة في عبادة الأصنام والأوثان ، وسبق أن ذكرنا في المبحث الخاص باليهودية والذي أفردناه لها ، وعلى وجه الخصوص في الفقرة الأخيرة ، آراء باحثين انتهوا فيها إلى أن الديانتين الساميتين التوحيديتين بانتشارهما في القبائل العربية كانتا من أوائل العوامل التي دفعت إلى تفسيخ الوثنية العربية لصالح عقيدة التوحيد ، وإلى إقناع العرب وخاصة عقلائهم وحكمائهم بسخف الإيمان بالتعددية الإلهية . ولا شك أنه كان للنصرانية النصيب الأوفر في ذلك ؛ لأنها كانت أشد ذيوعا وأكثر انتشارا من الموسوية (اليهودية) لما سقناه من أسباب ، حتى إن الأمر بلغ بالنصرانية أنها اخترقت قبيلة قريش ذاتها بل إنها دخلت قدس أقداسها ونعني به الكعبة .

ثانيا : تكريس عقيدة أو فكرة النبوة والتبشير بظهور نبي أطل أو أظل زمانه ؛ ففي الخطبة التي ألقاها قس بن ساعدة في عكاظ وسمعها محمد عليه الصلاة والسلام (وإله قس بن ساعدة ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظل زمانه وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه واتبعه ، وويل لمن خالفه)[٣٧] ، (وعن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه قال : خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجارا إلى الشام ، فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سفرا يقرؤه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى)[٣٨] ، (وقد روى الإخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان وتوسمهم فيه إمارات النبوة وعن هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهيئة لمنحه النبوة)[٣٩] ، وأمية هذا (حضر البعثة المحمدية ولم يسلم ولم يرض بالدخول في الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة ، ويكون مختار الأمة وموحدها فقد برز نموذجا للتطهر والزهد والتعبد ، وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف كافرا بالأوثان وبالإسلام)[٤٠] .

ثالثا : في الخطاب الديني تركت النصرانية أثرا في عرب الجزيرة لا يقل عن أثر الموسوية فيه ، ويذهب د. السيد عبد العزيز سالم إلى (أن الشعر الجاهلي يشهد على ذلك)[٤١] ، ويؤكد أحمد أمين أن (المسيحية نشرت تعاليمها بين العرب)[٤٢] ، كما يرى أحمد أمين أيضا أن شعراء النصارى ، مثل قس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد ، لهم مسحة خاصة في شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه)[٤٣] .

ويظهر من أدبيات بعض الإخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والإنجيل ، وأنهم وقعوا على ترجمات عربية للكتابين منهم ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت[٤٤] ، وقد أكد البعض ترجمة الإنجيل للعربية آنذاك ، واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري في كتاب "بدء الخلق" وفي كتاب "التفسير" عن أنه كان يقرأ الإنجيل بالعربية ويكتب منه ما شاء الله أن يكتب . كما يؤكد د. جواد على أن الشعر الجاهلي – يقصد السابق على الإسلام – قد حفل بالعديد من الألفاظ والعبارات والأفكار المستمدة من

عقيدة النصارى مثل الإقرار بإله واحد ، والنهي عن عبادة الأوثان ، والتقرب إليها والرب يكفي الإنسان ويرعاه ويساعده في حله وترحاله والفناء على كل امرئ وليس أحد من هذه الدنيا بخالد ، والصلوات والقيام والركوع والسجود والتسابيح ، وتقديس اسم الله ، والتسبيح بعد الصلاة لا سيما الضحى والعشى ، والحواريون ورسم المسيح وتلامذته[٤٦] .

هذه الآثار الواسعة التي بصمت بها اليهودية والنصرانية الذهنية العربية آنذاك خاصة في المجال الديني ، كانت من العوامل البالغة الخطر في التمهيد لقيام دولة قريش على يد محمد النبي عليه الصلاة والسلام إذ ساعدت عقيدة التوحيد التي قامت تلك الديانات بنشرها بين عرب الجزيرة قبل الإسلام على تفكيك عرى الوثنية والتعددية الإلهية التي كانت مسيطرة وقتذاك وساهمت في تفسيخها وفضحها والكشف عن زيفها ومنافاتها للعقل ومجافاتها للمنطق والحس السليم ، بحيث أن الإسلام الذي نادى به محمد عليه السلام فيما بعد ، جاء وقد عبّدت أمامه الطرق وحرثت من تحته الأرض لتتلقى البذور التي ألقاها وهي أيضا بذرة توحيدية . وتكمن أهمية المناداة بالإسلام ضمن مكونات الدولة الوليدة لا في كونه عقيدة خاصة بالعرب ومتميزة عما سبقها في بعض المناحي فحسب ، بل لأنه كان أحد الأعمدة الركينة التي ارتكز عليها بناء تلك الدولة ، وكان استعمال الدين كمدماك لشد أزر بنية الدولة بدأ قديما بمبادرة المؤسس الأول ومجمع قريش قصي الجد الأعلى لمحمد عليه السلام ؛ لأنه لما كان يتمتع به من ملكات عقلية فذة ونادرة أدرك بثاقب نظره أهمية عنصر الدين في تعضيد الدولة ومؤازرتها فسار الأحفاد من بعده على هداه ، ومترسمين خطاه .

وفائدة أخرى جليلة انطوت عليها عقيدة التوحيد ؛ وهي ترسيخ فكرة دولة مركزية يسوس أمورها حاكم فرد ؛ ذلك أن التعددية الوثنية ، أو بعبارة أخرى وجود إله لكل قبيلة أو مجموعة محدودة من القبائل ، يفضي إلى معنى مماثل وهو وجود رئيس لكل قبيلة – أما عقيدة التوحيد التي تنادي بإله أوحد لا شريك له تنتهي إلى وجود حاكم واحد تخضع له كل القبائل ، ويذعن له جميع الناس ، لهذا وجد محمد بن عبد الله القرشي صلى الله عليه وسلم التربة صالحة لتولي مقاليد الدولة التي شاءت الظروف التاريخية أن تكون عاصمتها مدينة يثرب بدلا من مدينة مكة ، حقيقة أن بعد وفاته لقي خليفته أبو بكر قدراً من المقاومة من بعض القبائل ، ولكن القبائل التي كانت قد مُهِّدت لديها فكرة الدولة المركزية المنبثقة من عقيدة التوحيد والإيمان بالإله الوحيد وقفت إلى جانبه ، حتى تمت له السيطرة على الجزيرة العربية كافة ثم بدأ يمد السلطان العربي خارجها .

كذلك كان للديانتين الإبراهيميتين أو الساميتين جانب آخر ساعد في التمهيد لقيام دولة قريش في يثرب ، هو ترسيخ فكرة مسئولية الإنسان عن أفعاله من خلال الثواب والعقاب لا في الحياة الآخرة ، فحسب بل أيضا في الحياة الدنيا بوجود سلطة تتولى توقيع العقاب على المخالفين وهو ما عرف ب "الحدود" وهذا أمر لم تكن تعهده بهذا المعنى المنتظم القبيلة العربية ، وخاصة تلك التي لم تكن مستقرة في المدن والقرى والواحات وأقصى ما كانت تعرفه هو الخلع ، أي خلع الفرد الذي يقارف أفعالا منكرة تجر على القبيلة أو الفخذ المتاعب التي قد تؤدي إلى الحروب والغزوات ، ولعل اقتباس المتحنفين من الديانة اليهودية فكرة المسئولية الجزائية وتوقيع حدود الزنا والسرقة وشرب الخمر على المقترفين لها ، ومثال ذلك ما قام به عبد المطلب أستاذ الحنيفية وسيد مكة في زمانه والذي يقرب المعنى الذي نهدف إلى توضيحه ، ومن ثم لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم ونادى بكل تلك القيم والتعاليم ، كانت الأذهان مهيأة لها ، ولم تكن غريبة أو

مستهجنة ، وكانت تلك من الركائز التي توطدت بها أركان الدولة التي قامت على يديه في يثرب ؛ لأنه لا يتصور قيام أي دولة دون وجود مبدأ المسئولية والثواب والعقاب عن الأفعال .

ليس معنى ما سطرناه في هذه الفقرة أن الجانب العقيدي هو وحده الذي قام بعبء التمهيد لدولة قريش في يثرب ، فهذه نظرة أحادية الجانب لا نظن أننا قد رمينا إليها ، ولكن ما قصدنا إليه هو أن هذا العامل كان أحد أخطر العوامل الممهدة لنشأة تلك الدولة القرشية ، ولكنه لم يكن هو الفاعل الفرد ، بل لعبت إلى جواره عوامل أخرى أدت أدوارا بالغة الخطر .

تكلم القرآن بإسهاب وافر عن اليهود في عديد من سوره حتى أدق التفاصيل لم يغفلها بينما طرح المسيحية طرحا موجوزا مقتضبا أشد ما يكون الإيجاز وأبغ ما يكون الاقتضاب .

العلة في رأينا ترجع إلى أن الفرقة (أو الفرق) التي وصلت إلى وسط الجزيرة وغربها ... إلى منطقة الحجاز كانت هي فرقة (اليهود المتنصرين) أو (اليهود الناصريين) نسبة إلى الناصرة مسقط رأس المسيح أو (النصارى الموحدين) أو (الخوارج) كما تصفهم بعض الكتابات المسيحية .

هذه الفرق أو (الفرقة) هي التي آمنت بالمسيح رسولا وليس إلهًا ولا هو ابن الله ولا هو ثالث ثلاثة وأنه مخلوق وبشر وليس ربا معبودا وأنه نبي مثل غيره من الأنبياء وهو كأحدهم أرسله الله تعالى للناس وأن الله جل جلاله خلقه في بطن أمه مريم العذراء البتول من غير أن يلامسها ذكر وأنه روح القدس وكلمة الله تباركت أسماؤه وأن روح القدس والكلمة مخلوقان خلقهما الله بقدرته .

ولعل القارئ قد لاحظ أن هذه المعاني أو الاعتقادات التي كانت تؤمن بها تلك الفرقة أو (الفرق) تكاد تكون مطابقة لما جاء بشأنها في القرآن الكريم مع بعض الفروق التي مردها إلى التزام القرآن الصارم بـ (التوحيد الخالص) النقي من آية شائبة وإلى ميل القرآن إلى تنزيه السيدة مريم تنزيها كاملا لأن بعض تلك الفرق أو شيعة منها كانت تذهب إلى أن عيسى بن مريم من يوسف النجار .

وكانت تلك الفرقة أو (الفرق) أيضا لا تعترف إلا بـ (انجيل) واحد انجيلها هي والمعروف بـ (انجيل الأبيونيين) أي انجيل (اليهود المتنصرين) أو (اليهود الناصريين) أو (النصارى الموحدين) وكانوا يعتبرون ما عداه تحريفا للانجيل الصحيح الذي بشر به يسوع . ولقد تحدث القرآن عن تحريف أهل الكتاب لكتبهم المنزلة وحصرا عن نسيان النصارى حظا مما ذكروا به (سورة المائدة/١٤) . الخلاصة أن هذه الفرقة أو (الفرق) في صميم اعتقادهم أنه (انجيل) واحد ومن ثم لم تذكر الأناجيل الأربعة لأنها في نظرها باطلة .

والفرقة المعنية في الفقرة السابقة هي فرقة (الأبيونيين) وهي من أشهر فرق اليهود المتنصرين أو الناصريين أو الموحدين وهي تقطع بأن (انجيل متى) قد حرف خاصة في البابين الأولين وهما اللذان يتناولان قصة ميلاد عيسى وعذراوية أمه مريم[٤٧] .

الصابئون

فرقة دينية قديمة ذات معتقدات يشوبها الغموض والتعقيد . أما عن قومها فيزعم بعض أتباعها أنهم يعتنقون ملة النبي نوح عليه السلام وتعاليم النبي ادريس عليه السلام وغيرهم يرى أن اسمهم يرجع إلى اسم صابئ بن لامك أخي نوح .

وللإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رأي جرئ في خصوصية عبادة الصابئة للكواكب لا يسعنا إلا إيراده : (أما الصابئات فقد قال أبو حنيفة يجوز للمسلم أن يتزوج بهن وقال أبو يوسف ومحمد (الصاحبان) لا يجوز وسبب هذا الخلاف أن أبا حنيفة يرى أنهم قوم يؤمنون بكتاب ويقرون بنبي ولا يعبدون الكواكب بل يعظمونها كتعظيم المسلمين الكعبة في أنهم يستقبلونها عند صلاتهم وهذا لا يمنع التزاوج من نسائهم)[٤٨] .

ومعلوم أن أبا حنيفة عاش في العراق حيث كانت هناك فرقة من الصابئة فرأيه إذن على قدر من الأهمية لأنه نفى عنهم عبادة الكواكب وأكد أنهم يعظمونها وقارن بين تعظيمها للكواكب وتعظيم المسلمين الكعبة وهي لفتة ذكية ولا غرو فقد اشتهر شيخ الأحناف بالذكاء وسرعة البديهة .

وعن قتادة أنهم قوم يعبدون الملائكة ويصلون للشمس كل يوم خمس مرات . والمعلومة التي ذكرها قتادة أنهم يصلون كل يوم خمس مرات للشمس على درجة كبيرة من الأهمية ويكاد يكون قتادة قد انفرد بها .

ونذهب إلى أن علة ذلك ترجع إلى أن الصابئة كانوا يعبدون الكواكب أو يعظمونها وإذ أن الكواكب السيارات هي خمس : المشترى والزهرة وزحل وعطارد والمريخ فيغدو المجموع خمس صلوات لأنهم يتوجهون لكل واحد منهم بصلاة .

وبعيدا عن الأساطير فإن تأثر الصابئة بأحد أسلافهم سواء أكان اسمه ادريس أو أخنوخ أو هرمس عاش في مصر وتعلم من كهنتها الحكمة والطب . وسر الفلك أمر يقوم شاهدا على احتواء عقائد الصابئة على وشائج حميمة بالكواكب بلغت درجة العبادة (أو التعظيم) وعلم القدماء المصريين في الفلك والطب .

والصابئة يقرون بأن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن الحدوث ويعجز البشر عن الوصول إليه وإنما يكون التقرب إليه بالوساطات المقربين وهم (الروحانيون) المقدسون ومنهم شيث بن آدم وإدريس . [٤٩]

ومن طقوسهم التعبدية التضرع والابتهال بالدعوات وإقامة الصلوات وكذلك الزكوات والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح يضاف إلى ذلك أنهم عرفوا الوضوء فقد كانوا يطهرون أنفسهم بالوضوء عند الاتصال الجنسي وأنهم كانوا يحرمون لحوم الخنازير والكلاب والطيور ذات المخالب ... وأنهم كانوا يبيحون الطلاق أو يجيزونه .

وهذه الفروض العبادية قد تسربت فيما بعد إلى الأديان الأخرى ، ولعل فريضة الصيام هي أشدها لفتا للانتباه لأنها امتناع عن المطعومات والمشروبات في حين أنها في اليهودية والمسيحية امتناع عن أنواع مخصوصة من الطعام في أوقات معينة .

ولقد ذكر ابن النديم الحرانيين باسم (الحرنانية الكدانيين المعروفين بالصابئة) وأورد طرفا من عبادتهم وطقوسهم العبادية فقال : في صلاتهم ركعات وسجدات . وفي صلواتهم : فروض ونوافل . ولا صلاة لهم إلا على طهور . المفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوما ولهم أعياد منها : عيد يسمى (فطر السبعة) و (فطر الشهر) و (عيد الميلاد) وهو في ثلاثة وعشرين من كانون .

ولهم قربان (ضحية) يتقربون به وإنما يذبحون للكواكب ويذبحون للقربان (الأضحية) : الذكور منهم المعز والضان وسائر ذوات الأربع مما ليس له أسنان في اللحيين جميعا ومن الطير : غير الحمام ، مما لا مخلب له . والذبيحة عندهم مع قطع الأوداج والحلقوم والتذكيه متصلة بالذبيحة لا انفصال بينهما . ولا ذبيحة إلا لما له رئة ودم . وقد نهوا عن أكل الجزور وما لم يذك وكل ما له أسنان في اللحيين جميعا : كالخنزير والكلب والحمار . ومن الطير غير الحمام وما له مخلب . ومن النبات غير الباقلي والثوم ويتركون الاختتان . ويتزوجون بشهود . (الفهرست لابن النديم – دار المعرفة – بيروت)

وقد ذكر القرآن الكريم الصابئين في ثلاثة مواضع :

الآية ٦٢/من سورة البقرة
الآية ٦٩/من سورة المائدة
الآية ١٧/من سورة الحج .

وفي المرات الثلاث قرنهم باليهود والنصارى ، وهناك ملحظ لا يخفى على المتأمل الذي يقرأ بعين مفتوحة وعقل يقظ وهي أنه في آيتي المائدة والحج قدم الصابئين على النصارى وهما تاليتان في المصحف لسورة البقرة فهل هذا مرجعه إلى تقييم أو وزن العقائد في كلتا الديانتين أم مرده لمدى الانفتاح على كل منهما . وسبق أن ذكرنا أن الصابئين يصلون خمس صلوات في اليوم وأن صيامهم كف عن تناول المطعومات والمشروبات وأنه لمدة ثلاثين يوما وأنهم يتوضأون ويتضرعون ويقدمون الأضاحي ويؤدون الزكاة ويحرمون الخنزير ويجيزون الطلاق ... إلخ . فهل كان لذلك كله أثر في تقديم ذكر الصابئين على النصارى في السورتين التاليتين (في ترتيب المصحف) لسورة البقرة ... ومن نافلة القول أن نذكر أن ما يجئ في الذكر الحكيم محسوب بدقة بالغة وبعناية شديدة فلا يقال أن تقديم الصابئة على النصارى في السورتين المتأخرتين قد جاء اعتباطا – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا .

وقد اختلف شيخ الأحناف أبو حنيفه مع تلميذيه الآثيرين أبي سيف ومحمد الصاحبين في شأن الصابئين فالإمام الأعظم ذهب إلى حليّة نكاح نسوانهم أي معاملتهم معاملة أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين في حين أن الصاحبين يحرمان على المسلمين التزوج من الصابئات ... إلخ .

ومرد الخلاف هو تفسير موقف الصابئة من مسألة الألوهية فإن كانوا يعترفون بالصانع المبدع فيعاملون كاليهود والنصارى أما إذا كانوا يعبدون الكواكب فيعاملون معاملة المشركين.

وذهب رأس الحنيفية إلى أبعد من هذا فقد قال إنهم يؤمنون بكتاب ويقرون بنبي[٥٠] ، ونحن نميل إلى ترجيح رأي الإمام الأعظم ودليلنا على ذلك أن القرآن المجيد في الآيات الثلاث قرن الصابئين باليهود والنصارى بل إنه في آيتي المائدة والحج قدم الصابئين على النصارى كما ذكرنا ويستحيل عقلا أن يفعل ذلك لو كانوا وثنيين ولا يؤمنون بالصانع المبدع ومعلوم أن الخلاف أو الاختلاف على صفاته ليس إنكارا له . ولسنا في حاجة إلى التذكير بالخلاف على صفات البارى بين فرق أهل الكلام في الإسلام .

ولو أمعن الدارس النظر في الآيات الثلاث التي جاء بها ذكر (الصابئين) وخاصة في السياق الذي شمل هؤلاء والنظم الذي سلكهم لاستبان له كنه فريق الصابئة الذي عناه القرآن – هذا بالإضافة إلى منهج القرآن ذاته يحيل عقلا تمجيد المشركين وحشرهم في زمرة المؤمنين بل وتفضيلهم على بعض أهل الكتاب .

وإذا كان دور اليهودية والمسيحية تمثل في إثراء الخطاب الديني لدى عرب ما قبل الإسلام والتعريف بمفردات ومصطلحات كانت مجهولة لديهم وفي غرس فكرة النبي المنتظر في وجدانهم قبل عقولهم – فإن دور الصابئة تمثل في تصوير التوحيد كمعنى شامل لا يتقيد بألفاظ أو تراكيب أو صيغ ضيقة فما دام القصد هو الإيمان بالصانع المبدع فإن الوسائط تغدو ثانوية وهو ما يساعد على لم الشمل الذي كان خطوة واسعة في طريق التوحيد .

الحنيفية

من هم الأحناف ؟

إنهم مجموعة من الحكماء (سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان ولم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية وإنما قالوا بوحدانية الله)[٥١] ؛ كذلك تميزوا بجانب سلوكي أخلاقي راق فرفضوا الرذائل التي تفشت في مجتمعهم مثل الزنا والمخادنة وشرب الخمر والتعامل بالربا ووأد البنات ، كان ذلك من قبائل محدودة ، ولم يكتفوا بنبذ عبادة الأوثان فحسب بل امتنعوا عن الذبح لها وعن أكل ما يذبح لها ، وعن أكل الميتة والدم ، وكانوا على ثقافة عالية نسبيا ذلك أن كثيرا منهم كان يقرأ كتب الديانتين الساميتين : اليهودية والمسيحية وبعضهم كان يعرف لغة أخرى غير العربية مثل العبرية والسريانية وكانوا في الغالب على درجة من اليسر المالي الذي مكنهم من السياحة في البلاد وخاصة فلسطين والشام بحثا عن دين النبي إبراهيم عليه السلام الذي يصفه القرآن الكريم أنه كان "حنيفا" ؛ ولم يكتفوا بالالتزام الذاتي بل كانوا يدعون قومهم إليها مما عرَّض بعضهم إلى الأذى والعنت منهم "زيد بن عمرو بن نفيل العدوي" عم "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه (وقد كان الخطاب "أبو عمر" آذى زيدا حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل "حراء" مقابل مكة ... وأغرى به شباب قريش وسفهاءها فأخرجوه وآذوه ، كراهة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ما هم عليه)[٥٢] .

ضمت حركة "الحنيفية" شخصيات تميزت بالسمو العقلي والأخلاقي أو بالحنكة السياسية أو الثقافية العالية نسبيا ، ولما كان الشعراء يمثلون في مجتمع ما قبل البعثة المحمدية "الفئة المثقفة" لذا كان عدد من كبار الشعراء آنذاك من الأحناف منهم : "أمية بن أبي الصلت" و "زهير بن أبي سلمى" و "النابغة الذبياني" و "عامر بن الظرب" ، ولهم قصائد في الإيمان بوحدانية الله والبعث والنشور والحساب ، وفي الناحية السلوكية الأخلاقية : الترفع عن الدنايا وتحريم شرب الخمر ، ويخرج عن نطاق بحثنا إيراد أمثلة منها . ويرى د. جواد علي أن في أكثر ما نسب إلى أمية ابن أبي الصلت من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلا لما ورد عنها في القرآن الكريم ، بل ونجد في شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي(٥٣) .

ومما يلفت النظر أن قبيلة قريش ضمت عددا من "الأحناف" ؛ ويؤكد بعض الإخباريين أن "الحنيفية" بدأت فيها مبكرة مع "قصي" الجد الأعلى لمحمد صلى الله عليه وسلم مؤسس دولة قريش في يثرب . يقول "الشهرستاني" عنه ، وكان قصي بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله تعالى من الأصنام وهو القائل :

أربـــا واحـدا أم ألــف رب أديـن إذا تقسّمــت الأمـــورُ
تركـت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل البصيـــرُ

وقيل هي لزيد بن عمرو بن نفيل ، وفي رأينا أنه لا مانع أن يكون قصي هو الذي أنشأ هذا الشعر ثم ردده من بعده زيد بن عمرو بن نفيل خاصة وأنهما من قبيلة واحدة ، والتمثل بمقولات الأجداد أمر طبيعي خاصة في مثل ذلك المجتمع الأمي "غير الكتابي" الذي كان يعتمد على الذاكرة في حفظ تراث السلف ؛ ويصف الشيخ أحمد فهمي وهو محقق كتاب "الملل والنحل" ، قصيا بأنه عالم قريش وأقومها للحق وكان يجمع قومه يوم العروبة ، ويذكرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم بأنه سيبعث فيه نبي ، وكان ينهى عن عبادة الأصنام . ثم جاء عبد المطلب الجد المباشر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ويكاد يجمع الإخباريون على أنه من المتحنفين .

وهناك رأي أن محمدا عليه الصلاة والسلام مؤسس دولة القرشيين في يثرب كان قبل تبليغه رسالة الإسلام من "الأحناف" (... يمكن الإستنتاج من رواية السهيلي إذا صحت أن الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته الأولى ونشاطه الديني كان حنيفيا وعلى صلة بـ "مسيلمة الكذاب" وغيره من الأحناف)(٥٤) . (برهان الدين دلو - جزيرة العرب قبل الإسلام - ص ٢٢٤) . ولعل مما يؤيده ما جاء في دواوين السنة النبوية : أنه عندما عرض عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه يقرأ أشياء في التوراة تتفق مع ما جاء به الرسول غضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : يا ابن الخطاب والله لقد جئتكم بـ "الحنيفية" السمحة ، ولو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعي ، ولما ورد في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "إن الدين عند الله الحنيفية" بدلا من "إن الدين عند الله الإسلام" الآية رقم ١٩ من سورة آل عمران . وكذلك أيضا لما ورد في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من ترفع عن الدنايا والاتصاف بالأخلاق الحميدة والنفور من عبادة الأصنام ، والاعتكاف في غار "حراء" لـ "التحنث" في شهر رمضان ، و"حراء" هو الغار نفسه الذي كان يلجأ إليه "المتحنف" المجمع على تحنفه : زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، و"التحنث" في شهر رمضان في غار "حراء" هو ما كان يفعله الجد المباشر عبد المطلب وزعيم الحنيفية . ولو أننا لا

نرى مانعا من أنه اختلط بـ"الصائبة" الذين كانوا موجودين في مكة خاصة ومنطقة الحجاز على العموم واطلع على عقائدهم وطقوسهم العبادية التي ظهرت بصماتها جلية واضحة بعد ذلك . كما أن إجماع قريش والعرب على تلقيبه بـ(الصابئ) أمر له دراسته . أما العليل الذي أورده الإخباريون والمفسرون واللغويون من أن ذلك مرجعه هو خروجه عن دين قومه فهو غير كاف ذلك أنهم لم يلقبوا زيد بن عمر بن نفيل أو ورقه ابن نوفل أو غيرهما بالصابئ" !!!

ولم يقتصر أمر الحنيفية في قبيلة قريش على هؤلاء بل كان منها :

"ورقة بن نوفل" أحد بني عمومة السيدة خديجة رضي الله عنها أولى زوجات محمد عليه الصلاة والسلام ، و"عثمان بن الحويرث" و"زيد بن عمرو بن نفيل" وهو من أشهر المتحنفين وقد أوردنا خبر معاملة الخطاب أبى عمر له بعد إعلان تحنفه .

وبذلك يجيئ محصول قريش من الحنيفية والأحناف وفيرا بالنسبة لغيرها من القبائل ، ولعل سكناها في مكة العاصمة الدينية الهامة وملتقى القوافل المحلية والعالمية بما يحمله تجارها من أفكار ومبادئ وعقائد بجانب ما يحملونه من عروض التجارة وثراء كبرائها مما أتاح لبعضهم السفر إلى الخارج والاختلاط بالشعوب الأخرى ولقاء عدد من رجال الدين ، بالإضافة إلى رياح التغيير اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا التي أدت إلى ذلك ، تكون حظوة قريش بهذا العدد من "المتحنفين" دون غيرها من قبائل الجزيرة أمرا كانت تحتمه طبائع الأمور في تلك الحقبة .

"الحنيفية" إذن كانت قديمة نسبيا ، وكان وجودها الغالب في المراكز الحضرية أو المدينية مثل اليمن واليمامة ومنها ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي المشهور بـ "رحمان اليمامة" ثم أطلق عليه محمد صلى الله عليه وسلم لقب "مسيلمة الكذاب" والطائف (ومنها أمية بن أبي الصلت) ويثرب (ومنها أبو قيس صرمة بن أبي أنس من بني النجار ، وأبو عامر بن عبد عمر بن صيفى وكان قومه يسمونه "الراهب" ولما عادى محمدا صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين أن يسموه بـ "الفاسق" .

لم يكن هدف "الحنيفية" شن الحرب على الرذائل الاجتماعية والأدواء أو المنكرات السلوكية الخلقية فحسب ، بل نبذ عبادة الأصنام والدعوة إلى عبادة إله واحد ، تأثرا بالديانتين التوحيديتين اللتين عرفهما عرب الجزيرة آنذاك وهما : اليهودية والمسيحية ، ولأن عبادة الأصنام كانت من عوامل الفرقة بين القبائل إذ كان لكل قبيلة أو مجموعة قبائل صنم تعبده وتذبح له وتنتظر منه النفع وكشف الضر وتستشيره عن طريق القداح في حالة السفر والحروب ... إلخ والدعوة إلى عبادة إله واحد مدعاة إلى التوحيد المادي ، هذا بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي ساهمت في عملية التوحيد ، ومن ثم يصح القول بأن "الحنيفية": قد (واكبت تطور المجتمع المكي وحاجاته وتطورت معه إلى أن دخلت معه مرحلة جديدة هي التي مهدت لظهور الإسلام)(٥٥) .

لم يكن تحول "الحنيفية" إلى "حركة" قاصرا على اعتناق عدد كبير من المتنورين العرب إياها ، بل في البصمات العميقة الغور التي تركتها على الفكر الديني الخالف لها في جزيرة العرب .

فبادئ ذي بدء كان "للحنيفية" الفضل في نشر عقيدة التوحيد وتجذرها واستهجان عبادة الأوثان والسخرية منها ومن عُبّادها والكشف عن زيف ما كانوا ينسبونه إليها من قدرات وتهيئة الأذهان إلى الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار ... الخ .

أما في نطاق التعبديات والسلوكيات والأخلاقيات فقد تركت من ورائها سننا ترسخت ؛ منها (تحريم الربا ، تحريم شرب الخمر وحد شاربها ، تحريم الزنا وحد مرتكبيه ، الاعتكاف في غار "حراء" في شهر رمضان والإكثار من عمل البر وإطعام المساكين والفقراء ... وقطع يد السارق ... تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ... والنهي عن وأد البنات وتحمل تكاليف تربيتهن ... والصوم والاختتان والغسل من الجنابة)[٥٦] .

وإذ كانت الحنيفية كما قلنا في مفتتح هذا المبحث هي إرهاص لـ "الإسلام" ، وإذ أن الدين منذ عهد الجد عبد المطلب قد ظاهر الدولة القرشية وساندها ودعمها فإنها بذلك قد شكلت بلا ريب إحدى المقدمات الهامة لتلك الدولة التي أقامها الحفيد محمد عليه السلام في يثرب .

الأنصار "الأوس والخزرج"

البراهين على إفتقار الأوس والخزرج للحنكة السياسية كثيرة ومتعددة تعج بها دواوين السنة الصحيحة وموسوعات التاريخ الإسلامي . ولكن هناك ملمح بارز لا يخفى بل أنه شديد الوضوح وهو عدم تنبههم إلى أن الدولة التي كانت تتخلق في يثرب بلدهم كانت هي دولة القرشيين وحدهم بلا منازع أو شريك ، وهي نقطة بالغة الأهمية ، إذ أنها خدمت تلك الدولة خدمة لا تقدر ، إذ لو فطن الأنصار لذلك لكان الوضع سيختلف عما سار إليه أو صار إليه – وكان ذلك من حسن طالع الدولة الناشئة خاصة في سنواتها الأولى وهي تخطو خطواتها الوانية .

أما عن الأدلة والقرائن التي تقطع بذلك فهي عديدة ولكننا سنكتفي هنا بواقعتين :

الأولى :-في الطريق إلى "فتح مكة" نادى زعيم الأنصار "سعد بن عبادة" رضي الله تعالى عنه ، نادى أبا سفيان قائلا "يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا" وفزع أبو سفيان من قالته فزعا شديدا وأسرع إلى محمد عليه السلام ونقل إليه وعيد سعد بن عبادة إلى قريش ثم أضاف : "يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ .... إني أنشدك فيهم فأنت أبرّ الناس وأوصل الناس" ولم يكن أبو سفيان هو الوحيد في ذلك بل اضطرب لتهديد ابن معاذ قرشيان آخران هما عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان – رضي الله عنهما – فقالا للرسول صلى الله عليه وسلم "ما نأمن سعدا أن يكون منه في قريش صولة" فقال محمد صلى الله عليه وسلم "يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشا" وأرسل إلى سعد فعزله ودفع الراية إلى ابنه قيس[٥٧] ، ولقد صدق الرسول فقد كان "فتح مكة" فعلا عزا لقريش أبد الدهر ، إذ بعده دانت الجزيرة العربية كلها لدولتها في يثرب بالسيادة .

وظل سعد بن عبادة – رضي الله عنه – على وهمه أن الدولة التي قامت في موطنه ليست لقريش وحدها ، لذا لم يبايع أبا بكر – رضي الله عنه – بالخلافة ولا عمر رضي الله عنه من بعده ولم يُصلِّ بصلاتهما ولم يحج بحجهما وبعد أن تولى عمر رضي الله عنه الخلافة ولم يستوزر كلاهما أحدا من الأنصار ، أدرك سعد بن عبادة الحقيقة التي لم يتنبه لها عن دولة يثرب ، فلم يطق البقاء فيها وشد رحاله وسافر إلى الشام ؛ وهناك اغتيل بطريقة غامضة – والتصفية الجسدية للخصوم والمعارضين خاصة إذا كانوا من ذوي المكانة والخطر أمر عرفته البشرية منذ قديم وفي كل العهود والبقاع – وحتى لا يثير قتل سعد بن عبادة رحمه الله تعالى أي شكوك لدى قومه من الأنصار أو يسبب أي متاعب ، أشيعت عنه اسطورة – واستخدام الأسطورة كان عرفا مستقرا آنذاك – مفادها أن الجن هي التي اغتالته وأن البعض سمع هاتفا من الجن يصيح :

نحـــن قتلنــــا سيــــد	الخزرج سعـد بـن عبــادة
إذا رمينـــاه بسهــــم	نافــــذ أدمــــى فـــــؤاده

رحم الله سعد بن عبادة فقد كان كما وصفته كتب السير والتواريخ سخيا جوادا شجاعا ومن خيرة صحابة رسول الله ص ولكنه لم يكن سياسيا حصيفا.

الأخرى : لم يدرك الأوس والخزرج أيضا أن أنصار الدولة – أي دولة الذين آزروهم في البداية سوف ينتهي دورهم – مهما كانت أهميته وخطورته – وستكون أمام الدولة مهام أخطر لا بد من مواجهتها والعثور على حلول لها ، ومن بينها معالجة أعداء الأمس إما بالترغيب أو بالترهيب والنظر إلى الحلفاء الجدد .

في غزوة "حنين" أفاء الله تعالى على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مغانم وفيرة (كان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة)[٥٨] . وإذ كانت غزوة "حنين" بعد فتح مكة بدأت الآفاق تتفتح أمام دولة قريش في يثرب للسيطرة على الجزيرة العربية ، وكانت البراعة السياسية وسعة الأفق تحتمان تأليف قلوب الخصوم السابقين واسترضاءهم ، ومد البصر إلى الأمام باستمالة شيوخ القبائل الأخرى وهم أنصار المستقبل حتى يتوافقوا مع طموحات دولة قريش الفتية في يثرب وبأ الرسول ص بالأموال فقسمها وأعطى "المؤلفة قلوبهم" أول الناس : فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال : إبني يزيد ، قال : إعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال إبني معاوية قال : إعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل)[٥٩] . وأعطى غيرهم من القريشيين منهم صفوان بن أمية وآخرين عطايا أقل ، ثم ثنى برؤوس القبائل الأخرى مثل أسيد بن حارثة الثقفي ، والأفرع بن حابس التميمي ، عيينة بن حصن الفزارى ، ومالك بن عوف وغيرهم ما بين مائة وأربعين من الإبل ، وكل هؤلاء سيد مطاع من قومه ؛ ولم يعط الرسول صلى الله عليه وسلم "الأنصار" شيئا ولكنهم لم يفطنوا إلى أنه في أمور السياسة وشئون الحكم ، لكل فريق دوره المحدد الذي يجب أن يقف عنده ولا يتعداه ، وأن الدور آنذاك كان لـ "المؤلفة قلوبهم" سواء من أعداء الأمس أو من مؤيدي الغد ، أو من يرجح أن يصبحوا كذلك فأنشد أحد الشعراء معبرا عن عدم الرضى بما حدث مقرونا بضيق الأفق :

وأصبح نهبي ونهب الحصين   بين عيينة والأقرع

والحصين تصغير لحصان الشاعر الذي شارك معه في الغزوة وعيينة والأقرع كانا من بين الذين تألفهم الرسول محمد ص .

(وقال أناس من الأنصار ، حين أفاء الله على رسوله ما أفاء من أموال "هوازن" وهي القبيلة التي هزمت في غزوة حنين – فطفق النبي ص يعطي رجالا المائة من الإبل فقالوا أي الأنصار : يغفر الله لرسول الله ص يعطى لقريش ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم)[٦٠] . هكذا أثبت الأنصار بهذه المقولة إفتقارهم للنظرة السياسية الصائبة ولم يتبينوا الغرض من وراء تأليف قلوب أبي سفيان وصفوان بن أمية والأقرع وعيينة وابن مرادس وأضرابهم وأهميته القصوى للدولة القرشية ؛ ووصلت إلى أسماع محمد ص إحتجاجاتهم ، فجمعهم وخاطبهم بما يتفق ومزاجهم النفسي الذي كان هو أدرى الناس به ، ولا غرو فهو – عليه السلام – القائل (خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، فلما اجتمعوا قام النبي صلى الله عليه وسلم فجمعهم في قبة من أدم – جلد – ولم يدع معهم غيرهم وقال : ما حديث بلغني عنكم ... إني لأعطى رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم فوالله لما تنقلبون به خير مما يتقلبون به قالوا : يا رسول الله لقد رضينا)[٦١] ، وفي رواية أخرى (...أنتم الشعار والناس الدثار أما ترضون أن يذهب الناس بالشاه والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دياركم ؟ قالوا : بلى ، قال : الأنصار كرشي وعيبتي (أي بطانتي وموضع سري وأمانتي) ، لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعبهم ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار)[٦٢] ، وأثمر خطاب الرسول ص ثمرته الطيبة المرجوة فجاشت منهم العواطف ورضوا بعد سخط (...ثم بكوا فكثر بكاؤهم وبكى النبي ص معهم)[٦٣] .

وهكذا في لحظة تاريخية نادرة إلتقى محمد ص الأوس والخزرج (الأنصار) بما لديهم من مزاج نفسي وظروف موضوعية ، لتتكامل شروط النماء والإزدهار لدولة قريش في يثرب .

إن الفقراء والعبيد والمستضعفين هم العمد التي قامت عليها الدولة الإسلامية في فترة التكوين الأولى ويورد لنا الإخباريون أسماء أولئك المستضعفين وقصصهم التي تبين مقاومتهم العنيدة لأعداء محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته نذكر منهم : الأرقم ابن أبي الأرقم وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت ، وصهيب وسلمان وعمار وبلال وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة وغيرهم – رضوان الله عليهم ، ولذلك ظل محمد ص حتى آخر لحظة من حياته يقدرهم ويعرف لهم فضلهم فيما قدموه مبكرا ، إن موسوعات السيرة النبوية حافلة بالعديد من الأمثلة على ذلك (روى أن خالد بن الوليد أغلظ لعمار بن ياسر وانطلق عمار يشكو إلى الرسول ، وجاء خالد يشكو وأغلظ له القول والرسول ساكت لا يتكلم ، فبكى عمار وقال : يا رسول الله ألا تراه ؟ فرفع الرسول رأسه وقال : من عادى عمارا عاداه الله ومن أبغض عمارا أبغضه الله)[٦٤] ؛ خالد بن الوليد أحد رجالات قريش المعدودين ومن بني مخزوم أحد فروعها البارزة ومن أغنيائها وكان شريكا للعباس بن عبد المطلب – عم النبي عليه السلام – ويتمتع بمواهب عسكرية فذة إذ قيل عنه أن لم يهزم قط لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، بيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعبأ بذلك والتفت إلى ما قدمه عمار في الأيام الصعبة الأولى ، هؤلاء المستضعفون عندما ترسخت أقدام الدولة في يثرب كان محمد يقدمهم على صناديد

قريش من أمثال أبي سفيان فكان يأذن لهم بالدخول عليه قبلهم ذلك وفاءً منه لما أسدوه من خدمات عظيمة تجل عن الوصف في البدايات المبكرة للمسيرة .

لقد كانت طبقة الفقراء أصدق حسا تجاه نداء محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفت بفطرتها الطبيعية أنه النداء الذي تكاملت له الشروط وآذنت بانبعاثه ، ولا غرو فإن تلك الطبقة ذاتها كانت نتاجا شرعيا أو مولودا شرعيا للمجتمع الحضري – خاصة في مكة – فنحن بسهولة ويسر (نستطيع أن نتلمس حركة صيرورة تاريخية كانت علاماتها تبرز متوالية ومتداخلة في مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية ...)[٦٥] . ويرى د. حمود العودي أن الدعوة وصاحبها كانت محكومة إلى حد كبير بطبيعة المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية السائدة ... ولم تكن مجرد تعبير عن مفاهيم دينية وغيبية مثالية بحتة منبثقة عن مفاهيم مجردة ومنفصلة عن الواقع الاقتصادي والإجتماعي السائد .

لقد كانت هي التعبير المباشر إلى حد وبشكل ما عن طبقة اجتماعية مسحوقة من عبيد وفقراء وصعاليك .. فلم يكن الخلاف والعداء والمقاومة الشرسة التي لقيها محمد وأتباعه من قبل الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية في المجتمع المكي القديم هو عداء وخلاف ديني بقدر ما أنه كان خلافا وتناقضا اجتماعيا وطبقيا في الأساس . ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية انتشار مبادئ الدعوة في أوساط الفئات والطبقات المقهورة من العبيد والموالي وفقراء وصعاليك المجتمع المكي[٦٦] . والذي يؤكد ما ذهبنا إليه وأيّدنا فيه حسين مروة وحمود العودي أن الغالبية الساحقة من الذين استجابوا لمحمد صلى الله عليه وسلم هم من طبقة المسحوقين من المجتمع المكي والذين كانوا موضع سخرية وهزء صناديد قريش ويحدثنا القرآن الكريم أن خصوم الرسل وهم الملأ كانوا يطلقون على المستضعفين الذين يتبعون الرسل لقب الأراذل .

ويؤكد علم اجتماع المعرفة حقيقة علمية هي أن الأفكار والآراء والعقائد والمعتقدات والقيم ما هي إلا إفراز أو نتاج للواقع المادي ، والمقصود بهذا الواقع تركيبة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية وتبرز (أهمية المصالح الاقتصادية في تكوين المعتقدات والآراء والقيم الإنسانية)[٦٧] ، ويرى إميل دوركهايم – عالم الاجتماع المشهور – أنها (وليدة التركيب الاجتماعي لمجتمعنا فهي جزء منه وغالبا ما تؤيده وتسنده وتعكس الظواهر الأساسية للحياة الاجتماعية)[٦٨] ، ويصدق هذا التوصيف على المجتمع المكي آنذاك – بصفة خاصة – ونذكر هنا بما سبق أن سطرناه وهو أن عاملا آخر قد امتاز به ذلك المجتمع وهو تسرب أفكار إليه من الديانتين الساميتين الإبراهيميتين : الموسوية والعيسوية اللتين كانتا تتمتعان بحضور ثابت الأركان في منطقة الحجاز ومنها مكة – من بين تلك الأفكار فكرة ظهور نبي منتظر أطل أو أظل زمانه .

بالإضافة إلى العبيد والفقراء والمستضعفين والصعاليك كان هناك سادة أماجد استطاعوا برجاحة عقولهم أن يقيّموا دعوة محمد ص التقييم الصحيح ويعرفوا أنها تتفق ومسيرة التاريخ وتطابقت مع ظروف المجتمع العربي آنذاك وأنها في نهاية المطاف وبطريق الحتم واللزوم سوف تحقق مجد قبيلة قريش وعزها وتجعلها سيدة جزيرة العرب دون منازع ، منهم على سبيل المثال :

أبو بكر وعمر ، وعثمان ، وحمزة بن عبد المطلب ، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبيدة بن أبي الجراح ، وسعيد بن زيد بن نفيل ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، وأبو

حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وإخوة السيدة زينب بنت جحش زوجة محمد صلى الله عليه وسلم وهم : عبد الله وعبد ، وعبيد الله من بني أسد ، وهناك رواية مفادها أن عبيد الله اعتنق النصرانية في الحبشة عندما هاجر إليها ، وقيس بن عبد الله وهو ظئر عبيد الله بن جحش من بني أسد ، وعتبة بن غزوان بن مازن من بني نوفل بن عبد مناف ، وطليب بن عمير بن وهب من بني عبد قصي ، ومصعب بن عمير أو مصعب الخير وأخوه أبو الروم وكان يسمى عبد مناف وفراس بن النضر بن الحارث ، وجهم بن قيس وابناه عمرو خزيمة وهم من بني عبد الدار بن قصي ، وعمرو بن أمية بن الحارث وخالد ابن حزام ويزيد بن معاوية بن الأسود وهم من بني أسد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والمطلب وطليب إبنا أزهر بن عبد عوف ، وعبد الجان (سماه الرسول عليه السلام عبد الله بن شهاب وهم من بني زهرة ، وطليب ابن عمير بن وهب من بني عبد قصي وعمر بن عثمان بن عمر ، والحارث بن صخر بن عمر من بني تيم بن مرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وشماس بن الشريد ، وهبار بن سفيان بن عبد الأسد وأخوه عبيد الله ، وهاشم بن أبي حذيفة بن المغيرة وسلمة بن هشام بن المغيرة وعياش ابن أبي ربيعة بن المغيرة من بني مخزوم وعثمان بن مظعون بن حبيب وقدامة بن مظعون ، والسائب عثمان بن مظعون ، ومعمر بن الحارث بن حبيب وابناه : حاطب وحطاب وشرحبيل بن حسنة مولاهم من بني جمح ، وعبد الله بن حذافة وأخواه : خنيس وقيس ، وهشام بن العاصي بن وائل أخو عمرو بن العاصي وأبو قيس بن الحارث وأخوه عبيد الله وعمير بن رئاب من بني سهم ومعمر بن عبد الله بن نضلة ، وعروة بن أبي أثاثة وعدي بن نضلة من بني عدي ، وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى ، حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود ، وأخوه السكران بن عمرو ، ومالك بن عبد قيس بن عبد شمس ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي بن غالب – رضى الله عنهم أجمعين .

ونكتفي بهم ، ولعل القارى قد لاحظ أنهم يغطون جميع فصائل قريش ، وفيهم أغنياء أصحاب ثروات ، ووجهاء لهم مكانة مرموقة بين عشائرهم .

فإذا أضفنا إليهم المستضعفين الذين سارعوا إلى مبايعة محمد عليه السلام ومتوسطي الحال لأدركنا تماما أن الذين أحجموا عن الدخول في دعوة محمد عليه السلام هم المستكبرون من المرابين والنخاسين وكبار التجار الذين خافوا الكساد على مصالحهم وتجاراتهم .

ولم ينفرد أولئك وحدهم بالبصيرة النافذة وسعة الأفق وسلامة الحس في تقدير الدعوة المحمدية ووزنها الوزن الصحيح وكيف أنها ستغدو الطريق الأمثل لتحقيق سيادة قريش وهيمنتها لا على منطقة الحجاز فحسب بل على الجزيرة بأسرها ، بل كان بجانبهم من لم يؤمن بالدعوة أو أظهر لها البغض وبادأها بالعداء وشن عليها الحرب :-

١- (عن هشام الكلبي أنه قال : لما احتضر أبو طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : "يا معشر قريش أنتم صفوة الله في خلقه ... وإني أوصيكم خيرا بمحمد فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب ... كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وأعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا

ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا وإذا أعظمهم إليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت إليه فؤادها وأعطته قيادها ، يا معشر قريش كونوا له ولاة ولحزبه حماة)[٦٩].

ومن المعلوم أن أبا طالب عم محمد صلى الله عليه وسلم قد دافع عنه رغم عدم دخوله في دعوته ولكن وصيته لقريش هذه ، تكشف لنا صدق فراسته .

٢- (أخرج أبو نعيم في "دلائل النبوة" عن ابن عمر رضي الله عنه أن قريشا اجتمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد فقال عتبة بن ربيعة دعوني حتى أقوم إليه أكلمه ... ثم ذهب إليه وجلس إليه يكلمه ثم عاد يقول :

يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني فيما بعده ، اتركوا الرجل واعتزلوه فوالله ما هو بتارك ما عليه وخلوا بينه وبين سائر العرب ، فإن يظهر عليهم يكون شرفه شرفكم وعزه عزكم)[٧٠] وعتبة بن ربيعة هذا كان من صناديد قريش المستكبرين وفي مقدم من عاداه وكان محمد صلى الله عليه وسلم يطمع في إدخاله دعوته وهو الذي كان يكلمه عندما أتاه ابن أم مكتوم فشغل عنه وهي القصة التي سجلتها سورة "عبس" وفيها وصف القرآن (عتبة) بأن استغنى وقد قتل يوم بدر كافرا ، قتله حمزة بن عبد المطلب – رضي الله عنه – كما قتل علي بن أبي طالب كرم وجهه ابنه الوليد بن عتبة في الغزوة نفسها ، وهو عتبة أبو هند زوج أبي سفيان بن حرب وأم معاوية ، وقد تعمدنا أن نعرف به هذا التعريف الكامل لنتبيَّن مدى عراقته في الاستكبار واللدد في العداء للدعوة المحمدية ولكن كل ذلك لم يمنعه من تقييمها تقييما سديدا وأن صاحبها عليه السلام سوف يظهر على العرب وفي ذلك الشرف والعز لقريش .

٣- (أتى النبي عليه الصلاة والسلام إلى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم ، يقال له بحيرة بن فراس : "والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب)[٧١] .

في هذه الواقعة نجد أن بحيرة أخا بني عامر بن صعصعة أو زعيمهم أدرك بفراسته أنه لو وضع يده في يد محمد عليه السلام لأكل به العرب أي ساد العرب لأن ما يدعو إليه محمد يتوافق مع موجبات ذلك الوقت ومع مقتضيات المجتمع .

٤- كما نقرأ لبعض من آمن بدعوة محمد عليه السلام سواء على الفور أم على التراخي أخبارا تقطع بأن نظرتهم إليها كانت نظرة ثاقبة (جاء عمير بن وهب رضى الله عنه إلى صفوان بن أمية في طلبه للمرة الثانية – لأن صفوان فرّ من مكة بعد فتحها – فقال له : يا أبا وهب جئتك من عند خير الناس أي من عند محمد صلى الله عليه وسلم وأوصل الناس وأبر الناس وأحلم الناس "مجده مجدك ، وعزه عزك ، وملكه ملكك")[٧٢] ، وهي عبارة ليست محتاجة إلى شرح أو تبيين .

وخارج نطاق مدافعة أساطين قريش عن ثرواتهم ومكاسبهم ومكانتهم الأدبية كانت نظرتهم إلى محمد عليه السلام ملؤها التقدير والاحترام والإعجاب بما يسعى إليه :

(خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفا هندا زوجه وخرجت ومعاوية راوي الحديث أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لي إذ سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو سفيان : انزل يا معاوية حتى يركب محمدا ، فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبي سفيان وقالت ألهذا الساحر أنزلت ابني ، قال : لا والله ما هو بساحر ولا كذاب)(٧٣) .

فهنا نجد أبا سفيان يجادل امرأته هندا وينفي عن محمد عليه السلام الوصفين البشعين اللذين حاولت إلصاقهما به ، أي أنه يقر بصدق محمد عليه السلام في دعوته ، ولكن مصالحه ومكاسبه – إذ كان من كبار تجار قريش – ومكانته الأدبية هي التي منعته من الدخول في الدعوة المحمدية ، وصفوان بن أمية الذي ذكرناه آنفا – وكان ما زال على شركه – أعار محمدا مائة درع وكفاه مؤونة حملها – وذلك عند عزمه على غزو قبيلة هوازن في الوقعة المعروفة بـ "يوم حنين" (٧٤) فما الذي دعا صفوان إلى ذلك ، وهو آنذاك لم يكن قد دخل في الدعوة المحمدية ، إلى مد محمد صلى الله عليه وسلم بالسلاح ؟ نرجح أن الإجابة ليست في حاجة إلى توضيح .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يُكف لحظة واحدة عن النظر إلى قريش بعين المودة والتقدير ؛ بل إنه في أحلك الساعات التي مرت به وبدعوته ، أو أوقات نصره وغلبته لم تصدر منه كلمة واحدة تنال من قريش القبيلة العربية الوحيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم إذ حملت سورة اسمها – وهنا نذكر بضرورة التفرقة بين قريش والصناديد الذين حاربوه وماتوا على الكفر بدعوته . نذكر على سبيل المثال ، الوقائع التي تؤكد ما نذهب إليه من هذا الصدد :

١- (ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من غزوة بدر وتقسيم النفل الذي أفاء الله به على المسلمين من المشركين – حتى إذا كان بـ "الروحاء" لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة – كما حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة ويزيد بن رومان : ما الذي تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبُدُن المعقلة فنحرناها ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أي ابن أخي : أولئك الملأ ، قال ابن هشام : الملأ : الأشراف والرؤساء)(٧٥) .

هنا نجد أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يسكت على السخرية التي صدرت من أحد أصحابه وهو سلمة بن سلامة بن وقش الأشهلي الأنصاري ، في حق سادة قريش ووصفه إياهم بـ "البُدن المعقلة" أي البهائم المربوطة من أرجلها ، ورد عليه بأدب جم أن أولئك هم أشراف قريش ورؤساؤها .

٢- العشرة الذين بشرهم محمد صلى الله عليه وسلم بالجنة كلهم من قريش ، ولم تنل قبيلة أخرى هذا الحظ العظيم ولا حتى الأوس والخزرج رغم ما قدمتاه للدعوة المحمدية .

٣- في المبحث الذي خصصناه للأنصار ذكرنا أن الصحابي الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنه كان له موقف من قريش إذ قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا ، الأمر الذي أفزع أبا سفيان وعددا من القرشيين المسلمين فلجأوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمر بنزع راية

الأنصار من سعد وأعطاها لابنه قيس وروى الإمام ابن كثير أنـه (أعطاها للزبير بـن العوام فدخل بهـا من أعلى مكة وغرزها بالحجون)[٧٦] ، وقال عليه السلام كذب سعد اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشا ، ولقد صدق فيما قال إذ استمر سؤدد قريش لما يزيد على سبعة عشر قرنا .

٤- في فتح مكة قال محمد صلى الله عليه وسلم : "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، وأبو سفيان وحكيم من كبار وجوه قريش"[٧٧] .

٥- بعد فتح مكة دخل محمد صلى الله عليه وسلم الكعبة وخاطب قريشا قائلا ("يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء")[٧٨] وشمل هذا العفو الكريم والصفح الجميل الصناديد الذين آذوه أشد الأذى وعذبوا المستضعفين الذين آمنوا بدعوته أقصى ما يكون العذاب ، ويضيف ابن سيد الناس أنه لا خلاف أنه لم يجر فيها قسم ولا غنيمة ، ولا سُبِّى من أهلها أحد)[٧٩] .

٦- رغم انتصاره على مستكبري قريش ، فقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم ، بما عرف عنه من خلق عظيم وأدب جم يعاملهم بتقدير يليق بمكانتهم بين قومهم ، ولعل أبلغ مثل نطرحه هو معاملته لرأس أعدائه وكبير مناوئيه أبي سفيان بن حرب (كان أبو سفيان سيدا من سادات قريش في الجاهلية ، ذكر أنه بعد إسلامه سُمع يمازح النبي صلى الله عليه وسلم في بيت ابنته أم حبيبة ويقول : إن هو إلا أن تركتك فتركتك العرب ، فما انتطحت جماء ولا ذات قرن ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول له أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة)[٨٠] ، إن تبسط محمد ص مع أبي سفيان الذي فعل الأفاعيل مع دعوته ومزاحه معه فوق أن يدل على أدبه وكياسته ، فإنه من جانب آخر يقطع بتقديره له لأنه سيد من سادات قريش .

لما تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد أبي بكر وعمر ، دخل عليه أبو سفيان فقال : صارت إليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار ، فهنا نجد شيخ قريش وحكيمها يعلن صراحة أن الدولة القرشية مرت على بني تيم ثم على بني عدي ولم ينكر من ذلك شيئا – على الأقل في هذا النص ثم انتقلت إلى بني أمية ويطلب من الخليفة الأموي تثبيت ملكها في الأمويين .

وهناك رواية أخرى تقول (وقف أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة – رضي الله عنه – فقال :

"رحمك الله يا أبا عمارة لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا) ، وهي عبارة واضحة لا تحتاج إلى تفسير ؛ علما بأن الأمر في لغة العرب يعني الحكم أمّا الحكم عندهم فهو القضاء في الخصومات" .

إنه الحكم والملك الذي سعى إليه نبي الإسلام محمد وكان فيه موفقا غاية التوفيق .

المراجع

(١) محمد رسول الله – محمد رضا ص ١٢
(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من آثار – أبو الوليد محمد الأزرقي ص ٧٠١
(٣) الطبقات الكبرى – ابن سعد ج ١ ص ٦٥
(٤) المصدر السابق ص ٦٥
(٥) السيرة النبوية – ابن هشام ج ١ ص ١٦٧
(٦) السيرة النبوية – ابن هشام الجزء الأول ص ١٧٤
(٧) الوفاء بأحوال المصطفى – الإمام الجوزي ج ١ ص ٧٩
(٨) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٧٣
(٩) تكوين ٢٢:١١-١٤
(١٠) سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية ج ٤ ص ٣٢
(١١) الروض الأنف – السهيلي ج ١ ص ١٧٧
(١٢) الفلكلور في العهد القديم – شفيق مقار ص ٢٣٦
(١٣) أخبار أبي القاسم الزجاجي – د. عبد الحسين المبارك ص ١٢٥
(١٤) الطبقات الكبرى – ابن سعد ج ١ ص ٦٦
(١٥) الإكتفاء – الكلاعي ص ١٧٨ وأخبار مكة – الأزرقي ج ١ ص ٢٥١
(١٦) الطبقات الكبرى – ابن سعد ج ١ ص ٦٨
(١٧) جزيرة العرب قبل الإسلام – برهان الدين دلو ص ٢٢١
(١٨) تاريخ الشعوبد الإسلامية – كارل بروكلمان ص ٢٨
(١٩) المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – حسين مروة ج ١ ص ٣٠٩
(٢٠) الإسلام وحضارته ص ٥١
(٢١) تاريخ الإسلام السياسي ص ٧٢
(٢٢) الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية – د. عبد المنعم حنفي
(٢٣) المسيح اليهودي ومفهوم السيادة الإسرائيلية – د. منى كاظم
(٢٤) أنساب الأشراف – البلاذري ج ١ ص ٢٣٩
(٢٥) الإكتفاء في مغازي رسول الله – الأندلسي ج ٢ ص ٤١٣
(٢٦) السيرة النبوية – ابن هشام ج ٢ ص ٣٠
(٢٧) جزيرة العرب قبل الإسلام – برهان الدين دلو ص ٢٢٢
(٢٨) الدولة في عهد الرسول – د. صالح أحمد العلي ج ١ ص ٩٦٨
(٢٩) البدايات الأولى للإسرائيليات في الإسلام – حسني يوسف الأطير ص ١٣
(٣٠) تاريخ العرب قبل الإسلام – د. السيد عبد العزيز سالم ص ٤٣٣
(٣١) المرجع السابق ص ٤٣٣
(٣٢) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٦ ص ٥٩٠
(٣٣) جزيرة العرب قبل الإسلام – برهان الدين دلو ج ٢ ص ٢٢٤

(٣٤) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٦ ص ٦٦٦
(٣٥) الإسلام والحضارة ص ١٢٣ الجزء الأول
(٣٦) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار – الأزرقي ج ١ ص ١٦٩
(٣٧) في منزل الوحي – محمد حسين هيكل ص ٣٩٥
(٣٨) الإسلام والحضارة العربية – محمد كرد علي ص ١٢٥
(٣٩) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٦ ص ٣٠٣
(٤٠) الحزب الهاشمي – د. سيد محمود القمني
(٤١) تاريخ العرب قبل الإسلام – د. سيد عبد العزيز سالم ص ٤٢٩
(٤٢) فجر الإسلام – أحمد أمين ص ٢٧
(٤٣) المرجع السابق
(٤٤) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٦ ص ٦٨٠
(٤٥) البدايات الأولى للإسرائيليات في الإسلام – حسني يوسف الأطير ص ٢٠
(٤٦) المرجع السابق
(٤٧) عقائد النصارى الموحدين ص ٣٠
(٤٨) أحكام الزواج والطلاق في الإسلام - الشيخ بدران أبو العينين
(٤٩) الملل والنحل - الشهرستاني ج ٢ ص ١٠٨
(٥٠) أحكام الزواج والطلاق في الإسلام – الشيخ بدران
(٥١) دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام – د. السيد عبد العزيز سالم ص ٤٣٤
(٥٢) الملل والنحل – الشهرستاني ج ٣
(٥٣) المفصل في تاريخ العرب – د. جواد علي ج ٦ ص ٤٩٠)
(٥٤) جزيرة العرب قبل الإسلام – برهان الدين دلو ص ٢٢٤
(٥٥) العرب والإسلام والخلافة – برهان الدين دلو ص ١٤٣
(٥٦) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية – خليل عبد الكريم – دار سينا للنشر طبعة أولى ١٩٩٠
(٥٧) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن رباح
(٥٨) عيون الأثر – ابن سيد الناس ج ٢ ص ١٩٣
(٥٩) المصدر السابق
(٦٠) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك
(٦١) تكملة للحديث السابق
(٦٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك
(٦٣) أخرجه الطبراني من حديث السائب بن يزيد
(٦٤) زعماء الإسلام – د. حسن ابراهيم حسن ص ٩٠
(٦٥) النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – حسين مروة ج ١ ص ٢١٨
(٦٦) المدخل الإجتماعي في دراسة التاريخ والتراث العربي – د. حمودة العودي ص ١٦٣
(٦٧) معجم علم الإجتماع – دنكن ميشيل ص ٢٤٣
(٦٨) المرجع السابق
(٦٩) سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية – رفاعة رافع الطهطاوي ج ٤ ص ٢٦

(٧٠) حياة الصحابة – الكائد هلوي ج ١ ص ٣٩
(٧١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦٤
(٧٢) أخرجه ابن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن أم المؤمنين عائشة
(٧٣) أخرجه ابن عساكر عن معاوية
(٧٤) السيرة النبوية – ابن هشام ج ٤ ص ١٢٣
(٧٥) المرجع نفسه ج ٣ ص ٥٣
(٧٦) السيرة النبوية – ابن كثير ج ٣ ص ٥٥٠
(٧٧) المرجع نفسه ص ٥٤٩
(٧٨) المرجع نفسه ص ٥٧٠
(٧٩) عيون الأثر – ابن سيد الناس ج ٢ ص ١٧١
(٨٠) تهذيب الأغاني – أبي فرج الأصفهاني ص ٧٨٦
(٨١) العهد السري للدولة العباسية – د. أحمد علي ص ٧٩

الباب الرابع

الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية

الشيخ خليل عبد الكريم

١- **الشعائر الموروثة من القبائل العربية**

(١) تعظيم البيت الحرام (الكعبة) والبلد الحرام :

على الرغم من وجود إحدى وعشرين كعبة – قبل الإسلام – في جزيرة العرب فإن القبائل العربية قاطبة أجمعت على تقديس كعبة مكة وحرصت أشد الحرص على الحج إليها .

ومن شدة تقديسهم لها أن الرجل منهم كان يرى قاتل أبيه في البيت الحرام فلا يمسه بسوء . وقال ابن الكلبي في كتابه (الأصنام) كان العرب يعظمون الكعبة ومكة ويسيرون على إرث أبيهم اسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار .

وكان العرب يجلون أهل مكة (قريشا) ويكبرونهم ويسمونهم (أهل الحرم) وكان الإصهار إليهم يعتبر شرفا لا يتطاول إليه إلا بعض شيوخ القبائل وأهل الرفعة فيهم .

وجاء الإسلام فأبقى على تقديس الكعبة ومكة وأطلق عليهما القرآن الكريم العديد من ألقاب التشريف المعروفة والتي لا نرى موجبا لذكرها وجعلها كما كانت أمنا وأمانا ، "ومن دخله كان آمنا"[١] ، كذلك اعتبر الانتساب إلى قريش هو الذؤابة العليا في المكانة والشرف حتى إن بعض المذاهب الفقهية تبيح طلاق القرشية وخاصة الهاشمية إذا تزوجت من غير قرشي (هاشمي) لعدم الكفاءة .

[ولا تكون العرب كفؤا لقريش والموالي لا يكونون كفؤا للعرب كما قال صلى الله عليه وسلم][٢] و[خطب سلمان بنت عمر رضي الله عنه فهم أن يزوجها منه ثم لم يتفق ذلك][٣] ، وسلمان المذكور هو سلمان الفارسي (رضي الله عنه) أحد كبار الصحابة وموضع رضي الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان يقول : [سلمان منا آل البيت] ولكن ذلك كله لم يشفع له و[لم يتفق] له أن تزوج بنت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأنه ليس عربيا وليس قرشيا .

(٢) الحج والعمرة :

كان العرب – قبل الإسلام – يحجون في شهر ذي الحجة من كل عام [يرحلون إليها إلى مكة من كل مكان من الجزيرة في موسم الحج من كل عام لتأدية فريضة الحج][٤]

وكانوا يقومون بالمناسك عينها التي يقوم بها المسلمون حتى اليوم :

التلبية ، مع وجود بعض عبارات فيها شرك بالله تبارك وتعالى والإحرام وارتداء ملابس الإحرام وسوق الهدى وإشعاره والوقوف بعرفة والدفع إلى مزدلفة والتوجه إلى منى لرمي الجمرات ونحر الهدى والطواف حول الكعبة أيضا سبعة أشواط لم تزد أو تنقص في الإسلام وتقبيل الحجر الأسود تعظيما له والسعي بين الصفا والمروة ، وكانوا أيضا يسمون اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية ، ويقفون بعرفات في التاسع وتبدأ من العاشر أيام منى ورمي الجمار وكانوا أيضا يسمونها أيام التشريق كما كانوا يعتمرون في غير أشهر الحج .

وجاء الإسلام وورث من العرب قبله هذه الفريضة بالمناسك عينها والتسميات نفسها ، ولكنه طهرها من مظاهر الشرك مثل العبارات التي كانت تتضمنها التلبية عندهم – ونهى الإسلام عن طواف العرايا وكان بعض العرب يفعل ذلك لا من باب الانحلال الخلقي كما يحاول أن يوهم بعض الدعاة ، ولكنهم لشدة تقديسهم للكعبة ولحجرها الأسود يهابون أن يطوفوا بالكعبة أو يقبلوا الحجر الأسود بالثياب التي قارفوا فيها ذنوبا أو أفعالا لا تناسب مقامهما وكان بعضهم يشتري من القرشيين ثيابا يطوف بها باعتبار أنهم أبناء قريش من الحمس – بضم الحاء وسكون الميم أي المتطهرين والمتشددين في العبادة .

(٣) تقديس شهر رمضان :

آيات الذكر الحكيم التي ترفع من شأن شهر رمضان وتعلي من قدره مشهورة ومعروفة "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس"[٥] ، وفيه "ليلة القدر خير من ألف شهر"[٦] – وتقديس هذا الشهر الفضيل مما ورثه الإسلام عن العرب – معدن الإسلام ومادته – فقد كان المتحنفون – سوف نتحدث عنهم فيما بعد – يفعلون ذلك ومنهم عبد المطلب جد النبي العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) إذ نقل إلينا الإخباريون أنه إذا جاء رمضان شد مئزره وطلع إلى غار حراء وتحنث فيه وأمر بإطعام المساكين طوال الشهر ، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل (عم الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله عنه) وهو أيضا أحد الحنفاء .

(٤) تحريم الأشهر الحرام :

كانت العرب قاطبة تعتبر أشهر ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب أشهرا حرما لأنها الأشهر التي يقع فيها موسم الحج إلى أكبر الكعبات وأقدسها كعبة مكة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، أما رجب فهو شهر العمرة فهي (ثلاثة سرد وواحد فرد) وقيل إن سبب التسمية أن العرب كانت لا تستحل القتال فيها إلا حيَّان خثعم وطيئ فإنهما كانا يستحلانه في الشهور كلها .

وكان القتال كثيرا ما ينشب بين القبائل لأسباب عديدة منها إعتباره كمورد رزق وكان يسمى الغزو أو الغارة وهو من العلامات المميزة للحياة القبلية – فاتخذت الأشهر الأربعة المذكورة فرصة لوقف القتال ولأداء الحج والعمرة – ولما جاء الإسلام أبقى على شعيرة تحريم هذه الأشهر بذاتها وحرم القتال فيها "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير"[٧] و "يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا

الشهر الحرام"[٨] ، وما زلنا حتى الآن نسمع عن الرجبية وهي العمرة التي تتم في شهر رجب ، الذي كان يسميه العرب (الفرد) وهذه التسمية أيضا ما زالت معروفة .

(٥) تعظيم إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) :

يحكى العرب أن أول من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم هو إسماعيل حين أتى مكة ونزل بجرهم فأنطقه الله بكلامهم وكان كلامهم العربية و[قال هشام وسمت العرب إسماعيل "عرق الثرى" يريدون أنه راسخ ممتد وقال قوم سمي بذلك لأن أباه لم تضره النار كما لا تضر الثرى][٩] .

لما جاء الإسلام أقر تعظيم إسماعيل (عليه السلام) ؛ ففي سنن إبن ماجة في كتاب الجهاد (رميا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا) ؛ وفي القرآن الكريم "واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد"[١٠] .

كذلك كان العرب الأقدمون يعتقدون أن ابراهيم واسماعيل – عليهما السلام – هما اللذان أقاما بناء الكعبة في مكة المكرمة وفرضا لهم الحج [وهم بعد يعظمون الكعبة ويسيرون على إرث إبراهيم وإسماعيل][١١] أي العرب الأقدمون السابقون على ظهور الإسلام ، وسبق أن ذكرنا أن الكلبي في كتابه (الأصنام) أخبر أنهم كانوا يعظمون الكعبة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل (عليه السلام) فلما جاء الإسلام تبني اعتقاد بناء إبراهيم واسماعيل (عليهما السلام) لكعبة مكة "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"[١٢] ، بل إن مقام إبراهيم الذي يحتوي على قدم إبراهيم التي انطبعت في الحجر أثناء بناء الكعبة – هذا المقام – موضوع تقديس من المسلمين ، إذ يسن للحاج أن يصلي عنده ركعتين بعد فراغه من طواف القدوم "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى"[١٣] ، وهذه الآية إحدى آيات ثلاث نزلت بموافقة ، أي باقتراح من عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . عن أنس قال : قال عمر وافقت ربي في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث ، قلت يا رسول الله "لو اتخذنا مقام إبراهيم مصلى"[١٤] فأنزل الله "وإتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" ، والذي لا نشك فيه أن إقتراح [يسميه الإمام أبو الفرج الجوزي موافقة] عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نابع مما ورثه قبل الإسلام من العرب من تعظيم الجد إبراهيم (عليه السلام) ومن تقديس البيت الحرام والكعبة .

(٦) الإجتماع العام ..... يوم الجمعة :

[قال أبو سلمة : أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة : جمعة ، وكان يقال لـ (يوم الجمعة) (يوم العروبة)][١٥] ، ولما جاء الإسلام أخذ الأنصار في يثرب – المدينة فيما بعد – بهذا التقليد ، وقيل إن أول من جمَّع بالمسلمين في المدينة هو أسعد بن زرارة (رضي الله عنه) وقيل إنه مصعب بن عمير (رضي الله عنه) ولما هاجر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم إتخذوا في موضع منه مسجدا فجمَّع به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخطب أول خطبة له بالمدينة[١٦] ، ثم نزل قول الله تبارك وتعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع إن كنتم تعلمون" .

٢- الشعائر التعبدية الموروثة عن الحنيفية

لم تكن الحنيفية محصورة في الحجاز فحسب بل انتشرت في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية إذ نقرأ ضمن أسماء المتحنفين :

أسعد أبو كرب الحميري ، وزهير بن أبي سلمى الشاعر المشهور وصاحب إحدى المعلقات السبع ، وعثمان بن الحارث وغيرهم ، وواضح أنها ضمت شعراء كبارا مثل أمية وزهيراً ، والشاعر في ذلك العهد كان يمثل قمة الوعي وذروة الثقافة ، ويذهب الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد إلى أن المتحنفين هم من الحكماء وطلاب هداية ، وخلاصة رأيه فيهم : [أنهم كانوا يعرفون أن الإيمان بالإله الواحد أهدى وأحكم من الإيمان بالنصب والأوثان][١٧].

وفي معتقدهم أن الوحدانية هي دين الخليل إبراهيم – عليه السلام – وعلى الرغم من ضعف هذه الحركة وضيق حيزها فإنها كانت بلا ريب ذات وجود ، أما وجودها فهو أوضح ما يكون في الآثار التي خلفها والسنن التي استنّها أولئك الحنفاء نذكر منها على سبيل المثال :

أ - النفور من عبادة الأصنام والتخلف عن المشاركة في أعيادها ومواسمها .
ب- تحريم الأضاحي التي تذبح للأصنام وعدم أكل لحومها .
جـ- تحريم الربا .
د - تحريم شرب الخمر وحد شاربها .
هـ- تحريم الزنا وحد مرتكبيه .
و - الإعتكاف في غار حراء [للتحنث] في شهر رمضان والإكثار من عمل البر وإطعام المساكين طواله ، فعل ذلك على الأخص عبد المطلب [الجد المباشر للرسول] وزيد بن عمرو بن نفيل [عم عمر بن الخطاب] .
ز - قطع يد السارق وأمر به عبد المطلب [جد النبي] وهو زعيم المتحنفين .
ح - تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .
ط - النهي عن وأد البنات وتحمل تكاليف تربيتهن .

[حدثنا إبن سعد في الطبقات الكبرى (ح ٣ ص ٣٨١) :
أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (ابن عم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه) ، كان يحيى الموؤودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل إبنته : مهلا لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها][١٨] .

وكان سعيد ابن أحد أبرز المتحنفين وكان يفعل ذلك بتأثير من تعاليم أبيه زيد بن عمرو وسيرا على نهجه .

ى - الصوم .
ك - الاختتان .
ل - الغسل من الجنابة .
م - الإيمان بالبعث والنشور والحساب وأن من يعمل صالحا يدخل الجنة ومن يعمل سوءا فإلى السعير.

ن - كل هذا يوصل إلى الشعيرة الرئيسية التي أجمع عليها الحنفاء وهي الإيمان بإله واحد والدعوة إلى عبادته ، كما يمكن أن يقال إن التوحيد الذي اهتدى إليه المتحنفون هو الذي حملهم إلى تشريع تلك السنن .

ويبين بيسر وسهولة أن الإسلام تبنى تلك السنن والعقائد والشعائر أو بتعبير الإمام الحافظ أبي الفرج الجوزي وافقهم الإسلام عليها فيما بعد وبشر بها ودعا إليها من بين ما بشر به ودعا إليه .

٣- الرقى والتعاويذ

كانت عرب ما قبل الإسلام تؤمن بالحسد وتأثير الحاسد في المحسود وجاء الإسلام وأقر ذلك "قل أعوذ برب الفلق ... ومن شر حاسد إذا حسد"(١٩) . كما كان العرب في تلك الفترة يعتقدون في العين وهي بخلاف الحسد ، ويرى ابن قيم الجوزية أن [كل عائن حاسد وليس كل حاسد عائن](٢٠) ، وكانوا يسترقون من الحسد ومن العين كليهما ، وفي معتقداتهم أن كلا من الحاسد والعائن يصيب المحسود والمعيون بأذى كبير . وفي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) في الصحيحين وأبي داوود وابن ماجة وأحمد (العين حق) وورد في الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) : وأمرني النبي (صلى الله عليه وسلم) أو أمر أن نسترقي من العين ، وأخرج البزار بسند حسن رفعه عن جابر أن [العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر] ، وأورد الإمام إبن قيم الجوزية في كتابه الطب النبوي عدة طرق رسمها محمد (صلى الله عليه وسلم) للوقاية من العين .

وقبل ظهور الإسلام كان النفث – وهو أشد من النفخ وأقل من التفل – في العقد أحد ضروب السحر الذي تمارسه السواحر لقاء جعل معين يعطيه الرجل إياها للإضرار بخصمه في نفسه أو ولده أو ماله ، وأكثر ما يكون طلب الإضرار في البدن وهو قريب مما تسميه العامة في مصر [العمل] ، كان هذا الإعتقاد شائعا ومستقرا لدى السوقة والملأ على السواء في عرب الجزيرة سابقي الإسلام ، قال متمم بن نويرة :

نفثت في الخيط شبيه الرقى   من خشية الجنة والحاسد

وجاء الإسلام وأقر [النفث من العقد] واعتبره حقيقة ، بل وطلب من المسلمين أن يتعوذوا بالله تعالى منه :

"قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد"(٢١).

و[عن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمه النبي – صلى الله عليه وسلم – فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام زعم أنه لم يحفظه] .

و[قال محمد بن الأشعث : ذهب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء فرقتني ونفثت](٢٢) .

٤- دونية المرأة

إستعار الإسلام لفظ [البعل] للدلالة على الزوج وهو اللفظ عينه الشائع على ألسنة عرب ما قبل الديانة الإسلامية :

"وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا"(٢٣)
"ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن"(٢٤)
في الوقت نفسه الذي قرر القرآن الكريم فيه أن بعلا كان أحد الآلهة التي كانت تعبد من دون الله تعالى "أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين"(٢٥) ، وفي تفسير [بعل] يقول القرطبي :

[قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : البعل بلغة اليمن الرب وسمع إبن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هذه ؟ أي من ربها ومنه سمي الزوج بعلا](٢٦).

إذن استبقاء القرآن الكريم للفظ [بعل] كناية أو دلالة على الزوج هو إمتداد للنظرة العربية التي كانت تسود قبل ظهور الإسلام ، وهناك نصوص مقدسة أخرى كثيرة تقطع بذلك بأن الإسلام وافق عرب الجزيرة السابقين عليه – بتعبير الإمام الجوزي – على سيادة مركز الزوج ، وارتفاعه إلى مكانة المالك والرب والسيد :

[لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها](٢٧) ، وفي الأثر أن خير ما تقدم الزوجات لأزواجهن حسن [تبعلهن] لهم أي طاعتهم وتقديم ما يرضيهم في جميع النواحي وفي كل الأوقات ، حتى العبادة [النافلة] لا تجوز إلا برضى الزوج ، فالزوجة التي زوجها حاضر لا يصح صيامها في غير رمضان بغير إذنه .

ومن لديه ذرة من شك في أن الإسلام تبني الموقف نفسه السابق له ، فليفسر لنا تفسيرا علميا موضوعيا [النصوص المقدسة] الآتية : [لن يفلح قوم ولّوا امرأة عليهم] ، [النساء ناقصات عقل ودين] ، "فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون ممن الشهداء"(٢٨) . فشهادة المرأة بنص هذه الآية الشريفة نصف شهادة الرجل .

"يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين"(٢٩) ، فنصيب البنت في التركة نصف نصيب الابن ، "وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين"(٣٠) ، أيضا ما يخص الأخت نصف ما يخص الأخ في التركة ، "ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين"(٣١) ، فالزوج له نصف تركة زوجته إن لم يكن لها ولد وإلا فله الربع والزوجة لها ربع تركة زوجها إن لم يكن له ولد وإلا فلها الثمن فهذه الآيات قاطعة على أن نصيب الابن والأخ والزوج ضعف نصيب البنت والأخت والزوجة – كما أقر الإسلام قوامة الرجل على المرأة : "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض"(٣٢) ، فالله جل شأنه فضل الرجال على النساء في

الميراث والشهادة ثم أعطاهم حق القوامة عليهن وللزوج حق تأديب زوجته : التوبيخ والتأنيب فإن لم يأت بالنتيجة التي يتغياها البعل فليهجر المبعولة في المضجع وإذا لم يصل إلى هدفه فليضربها "فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن"[٣٣] . والأمثلة من النصوص المقدسة في هذا الأمر كثيرة .

إن موقف الإسلام من المرأة بعامة (زوجة أو بنتا أو أختا ... الخ) وكما حددته بدقة صارمة النصوص المقدسة جاء متوافقا تمام الموافقة مع موقف العربي سابق الإسلام من المرأة .

يتضح مما سبق أن نبي الإسلام لم يأتي بالكثير من التشريعات التي تخالف ما عهده عرب الجزيرة قبل الإسلام .. وإن الشريعة الإسلامية في مجملها كانت ترسيخا لما كان قائما في عهود سابقة للدعوة المحمدية .

المراجع

(١) آل عمران ٩٧
(٢) المبسوط للسرخسي – دار المعرفة بيروت – ج ٣ ص ٢٤
(٣) المرجع نفسه ص ٢٢
(٤) الكعبة على مر العصور – د. علي حسني الخربوطلي – دار المعارف ص ٢٤
(٥) البقرة ١٨٥
(٦) القدر ٣
(٧) البقرة ١٩٤
(٨) المائدة ٥
(٩) أنساب الأشراف – البلاذري – ج ١ ص ٦
(١٠) مريم ٥٤
(١١) الفكر الديني الجاهلي – د. محمد ابراهيم الفيومي – دار المعارف ص ٢٢
(١٢) البقرة ١٢٧
(١٣) البقرة ١٢٥
(١٤) تاريخ عمر بن الخطاب – أبو الفرج الجوزي ص ٣٢
(١٥) القرطبي في تفسير سورة الجمعة
(١٦) المرجع السابق
(١٧) طوالع البعثة المحمدية – العقاد ص ١٠٤
(١٨) القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة – د. راشد البراوي – هامش ص ٢٥٥
(١٩) سورة الفلق
(٢٠) كتاب الطب النبوي
(٢١) سورة الفلق
(٢٢) القرطبي في تفسير سورة الفلق
(٢٣) النساء ١٢٨
(٢٤) النور ٣١
(٢٥) الصافات ١٢٥
(٢٦) القرطبي في تفسير سورة الصافات
(٢٧) أخرجه الترمذي والنسائي
(٢٨) البقرة ٢٨٢
(٢٩) النساء ١١
(٣٠) النساء ١٧٦
(٣١) النساء ٣٤
(٣٢) النساء ٣٤
(٣٣) النساء ٣٤

الباب الخامس

حروب دولة الرسول

د. سيد محمود القمني

مشورة الأنصار

بقيادة النبي – عليه الصلاة والسلام – خرج المسلمون لضرب الأرستقراطية المكية اقتصاديا ، بقطع طريق الإيلاف الشامي ، على كبرى القوافل القافلة من الشام إلى مكة بقيادة أبي سفيان ، والتي أسهم فيها البيت الأموي بما ينوف على الأربعة أخماس .

وحتى وصول المسلمين إلى الصفراء ، لم يكن النبي قد علم بعد أيًّا من أخبار القافلة ، سوى إجراء حسابات تنبؤية لموعد عودتها من الشام ، قياسا على موعد مغادرتها مكة ، لهذا ، وبالتصرف البشري والممكنات الإنسانية ، أرسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (بسبس بن عمرو الجهني) ومعه (عدي بن أبي الزغباء الجهني) ، يتحسسان له الأخبار ويتسقطان الأنباء عن قافلة أبي سفيان فأتاه الخبر أن أبا سفيان قد علم بدوره بخروج النبي وأصحابه إليه ، وأنه أرسل إلى قريش يستنفرها أموالها .

وكان الموقف الجديد دقيقا ، يحتاج إلى حكمة في المعالجة ، فقد تحول الأمر ، عن مواجهة ثلاثين فردا يحرسون القافلة ، إلى مواجهة عدد غفير من أهل مكة ، خرجوا ليمنعوا أموالهم من النهب ، وربما كان موقف المهاجرين محسوما ، بما يتأجج في صدورهم من ذكرى الهوان في مكة ، وخروجهم من ديارهم وأبنائهم إلى يثرب ، إلا أن وضع الأنصار كان يقتصر حتى الآن على حسن الضيافة ، وصدق الإيمان ، بينما الموقف الجديد يحتاج – ليس فقط – إلى عدد كبير من الرجال ، بل وإلى قدر كبير من الفدائية ، بينما الأنصار – فيما يروى ابن هشام – عندما بايعوه بالعقبة ، قالوا : يا رسول الله : إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره ، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو يبعد من بلادهم .

وهنا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

"أشيروا عليَّ أيها الناس ..."

فلما قال ذلك ، قال له سعد بن معاذ : "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، قال : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ،

فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ... فسر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال :

سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين – إما العير وإما قريش – والله ، لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم(١) .

وهكذا ، تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المضمرة ، وأدرك الأنصار أنه قد آن أوان الإفصاح عن كامل بنود ذلك الحلف ، التي وعوها مبكرا في قولهم للنبي آنذاك : "إن شئت لنميلن غدا على أهل مني بأسيافنا ، فأجل النبي الإمالة بالسيف إلى فيما بعد ، وقد جاء أوان الما بعد ، الذي طور البنود المعلنة ، من ميثاق دفاعي لتسفر عن البند المرجأ الذي يجعل الميثاق حلفا هجوميا محاربا ، فتحولت عناصر الجماعة الإسلامية كلها ، مهاجرين وأنصار ، إلى دولة محاربة هجومية ، دولة عسكر ومغانم متكاملة مقاتلة ، كالقبيلة تماما ، وبذات منطقها ، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ممثلة في رجال الحرب والدم والحلقة ، الذين تحولوا عن الإجارة إلى الإغارة .

وهنا نقطة التحول المادية الخطيرة ، التي لعبت دورا عظيما في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم ، بعد أن ظل النبي في مكة ثلاثة عشر عاما يدعو دون إجابة العدد الكافي من المستضعفين إلى دعوته ، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة والرفاه إلى الآجل في رغد جنة الخلد ، وهو ما ظهر كما لو كان تأجيلا ميتافيزيقيا لحل قضيتهم ، وإرجاء رفع الشقاء المادي عن حياتهم الآنية ، في مجتمع تجاري مادي بحت ، ولهذا عندما تم الإعلان عن مغانم أحلها الله لرسوله والمؤمنين من أموال المشركين ، أصبح الحل حقيقة مادية دنيوية ملموسة ، ومكاسب عينية ماثلة أمام المستضعفين ، تدعوهم إلى دخول جيش الدولة الجديدة ، وهو الهدف الذي سيفصح عن نفسه عمليا في المكاسب التي ستحققها الغزوة البدرية لجماعة المسلمين ، لتحول حالهم الشظف إلى حال آخر ، وفي تحالف القبائل المحيطة بالمدينة مع القوة الإسلامية .

ولم يترك القائد شيئا للصدفة ، فأي خطأ – مع الفارق العددي – يمكن أن يؤدي إلى كارثة ، ومن ثم ، وقبل أن يصل بدرا ، امر رجاله فتوقفوا صامتين ، ثم ركب ومعه أبو بكر ليتسقط بنفسه أخبار عدوه ..

حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابه ، ما بلغه عنهم . فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال أذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإذا كان الذي أخبرني صدقني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، المكان الذي به رجال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قريش ، فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟

فقال رسول الله – عليه الصلاة والسلام - : نحن من ماء .

وفي الإمتاع أنه قال "نحن من ماء وأشار بيده إلى العراق" ثم يتفق رواة السيرة على رد الشيخ المندهش على نفسه – وهو يغمغم – "ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟!"[٢].

وينزعج الحلبي راوي السيرة من رد النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا يدرك الحذر المفترض في قائد عسكري مقبل على معركة ، ولا يرى في ذلك القائد سوى الجانب النبوي المتعالي ، وأن للنبوة صفات تتناقض مع رد الرسول على الأعرابي ، فيقول في تساؤل استنكاري ، أو في استنكار متسائل :

وقد تقدم في أوائل الهجرة ، أنه لا ينبغي لنبي أن يكذب ، ولو صورة ، ومنه التورية .

ومن ثم يبحث الحلبي عما يطمئن قلبه ، فيكشف أنه لا بأس من كذب النبي ، ليس لضرورات يقتضيها الظرف الموضوعي ، ولكن لأنه وجد في كلام القاضي البيضاوي حديثا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن النبي إبراهيم سبق وكذب ثلاث كذبات[٣] ، ويقصد الحلبي هذا الحديث : "كذب إبراهيم ثلاث كذبات كلها في الله ، قوله : إني سقيم وقوله : فعله كبيرهم هذا ، وقوله للرجل الذي عرض لسارة : إنها أختي" ، وهنا يطمئن الحلبي ويكتفي بذلك تبريرا لنفسه وتطمينا لها ، إزاء رد قول النبي للشيخ الأعرابي ، ولم ير إطلاقا في ذلك الرد ، غرضا عسكريا وحذرا مباحا ، يصرف البدوي عن معرفة قائد المسلمين ، ويشككه في معلوماته عن موقع الجيش الإسلامي ، ويصرفه عن تقصي أمرهم ، احتياطا لسرية وأمان مسيره .

كان الوحي يتحول بالأمر من الصبر الجميل ، والدفاع الهادئ إلى الهجوم والقتال بعد أن أتى الله بأمره
:

"يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" (الأنفال ٦٥) ... عن عبد الله بن عباس قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على المسلمين ، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ، ومائة ألفا ، فخفف الله عليهم ، فنسخها بالآية الأخرى : "الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين" (الأنفال ٦٦)[٤] .

ولو أخذنا الأمر بظاهره ، لكان المعنى أن الله جل وعلا لم يكن يعلم بضعف المسلمين ، ثم علمه متأخرا (الآن ... علم أن فيكم ضعفا) ، وحاشا لله أن يقصر علمه عما يليق بكماله ، ومن ثم لا يكون هناك معنى لنسخ الآية الأولى بالثانية ، سوى تفاعل الوحي الكريم مع ظرف الواقع ، حيث تتناسب الآية الأولى مع خبر أول بعدد أفراد قريش ، وهو ما كان يعادل عشرة إلى واحد بالنسبة إلى عدد المسلمين ، بينما تتناسب الآية الثانية مع الخبر التالي الذي جاء يحمل نسبة أخرى هي اثنين إلى واحد ، وهو ما يطابق العدد المقبول لقريش بالنسبة لعدد المسلمين ، بعد انحزال بنو زهرة عنها بثلث الناس ، وكذب سراقة بن مالك أو إبليس بشأن مجئ كنانة مع قريش ، فكان النسخ ، وجاء صدق الوحي مطابقا للواقع ، وإعلاما للمسلمين المحاربين بعدد عدوهم النهائي .

وإعمالا لكل ما تم الحصول عليه من معلومات استخبارية ، تقرر أن يسبق المسلمون قريشا إلى بدر ، فيروى ابن كثير :

فخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبادرهم إلى الماء ، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به ... فذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح – محارب أنصاري – قال : يا رسول الله ؛ أرأيت هذا المنزل ؛ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فامض حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضا ونملؤه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : لقد أشرت بالرأي[٥] .

وهنا يأتي خبر السماء مصدّقا على الخطة البشرية ومشورة الأنصار ، ورجلهم المقاتل (الحباب) المشهود له بالدربة والحنكة والخبرة القتالية ، فيأتي جبريل إلى أخيه المصطفى – عليهما السلام – ليقول :

يا محمد ؛
ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك :
إن الرأي ما أشار به الحباب[٦] .

وحتى نتمكن من وضع تصور لخريطة المواقع في بدر ، وموقع كل من الطرفين فيها ، نقف مع القائد وموقعه بين أتباعه المسلمين ، وهو ما أوضحه قول سعد بن معاذ له :

"يا نبي الله ؛ ألا نبني لك عريشا تكون فيه ، ونعد عنك ركائبك ، حتى نلقي عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ... فأثنى عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خيرا ، ودعا له بخير ، ثم بنى للرسول عريشا كان فيه"[٧] .

وتتفق كل كتب السير على موقع ذلك العريش ، بأنه كان "فوق تل مشرف على المعركة" ، وبعد بناء العريش ، دخل إليه النبي ومعه أبو بكر ، واتفق على أن تحيطه حراسة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ .

خوفا عليه من أن يدهمه العدو من المشركين ، والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن احتاج ركبها ورجع إلى المدينة[٨] .

ومرة أخرى وليست أخيرة نجد الإعداد الجيد ، والتخطيط البشري ، والحرص على حماية صاحب الدعوة والحفاظ على حياته ، بإيقاف الحراس عليه في تل بعيد عن متناول المشركين ، تحت حراسة مسلحة من رجال الحرب اليثاربة ، وركائبه معدة للعودة السريعة إلى يثرب إن حدثت الهزيمة ، هذا رغم حراسة السماء ، لحبيبها ورغم الوعد الإلهي بالمدد العلوي من مقاتلي الملائكة المقدمين .

وقد جاء الوعد بالملائكة ، دافعا لمزيد من الطمأنينة لصحابة الرسول الأمين ، ومدعاة لهدوئهم النفسي والعصبي ، وإخلادهم للنوم في ظل تلك الحراسة السماوية ، لأخذ قسط مناسب من الراحة ، انتظارا لوصول قريش في الغد عطشى مجهدة متعبة ، وهو ما وعته كتب الأخبار والسير ، وساقته على عجالة تقول :

وبشرهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بنزول الملائكة ، فحصل لهم الطمأنينة والسكون ، وقد حصل لهم النعاس الذي هو دليل الطمأنينة[٩] .

وعند الصباح ، عدل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صفوف رجاله ، وألويتهم ، ثم دخل عريشه يناجي ربه :

اللهم إن تَهلِك هذه العصابة اليوم ، لا تعبد بعد في الأرض أبداً[١٠] .

ثم عاد فخرج إلى رجاله يحرضهم على القتال مناديا :

والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا إلا دخل الجنة ..

فقال عوف بن الحارث : يا رسول الله ؛ ما يضحك الرب من عبده ، قال : غمسة يده في العدو حاسرا[١١] .

أما الجزاء الدنيوي لمن سيبقى حيا ، فهو ما جاء في نداء آخر ، يمنح المقاتلين ما يحصلون عليه من غنائم ، ومن فداء أسراهم :

من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له[١٢] .

أحداث في بدر الكبرى

وبينما المسلمون يسحبون قتلى المشركين إلى القليب ، وقف (أبو حذيفة بن عتبة) يتطلع إلى أبيه وهم يجرجرونه ، وهو من سبق واحتج قبل الوقعة على أمر النبي بعدم قتل بني هاشم ، حيث قال :

أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف ، فبلغت مقالته رسول الله – عليه الصلاة والسلام – فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول : والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت[١٣] .

ويروي ابن هشام مستكملا المشهد :

وأخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القليب ، فنظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك في شأن أبيك شئ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام(١٤) .

أما النبي الذي أجمعت الروايات الصادقة على أنه كان بعريشه فوق التل طول المعركة ، يدعو ربه ويصلي طالبا الأزر والنصرة ، فإن روايات أخرى تضعه في مقدمة الصفوف محاربا ، فيما نسب إلى (حارثة بن مضرب) وهو يقول :

لما كان يوم بدر ، اتقينا المشركين برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان أشد الناس بأسا .

وهو ما أخرجه (الإمام أحمد) في مسنده (١/٢١٦) ، وحدثنا إسرائيل بنحوه ، وزاد :

ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه(١٥) .

وعن قتادة بن النعمان يروى أنه أصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : لا ، فدعاه ، فغمز حدقته براحته ، فكان لا يدري أي عينيه أصيب ، وفي رواية : فكانت أحسن عينيه ... وعن رافع بن مالك : رُميت يوم بدر بسهم ، ففقئت عيني ، فبصق فيها رسول الله ودعا لي ، فما آذاني منها شئ(١٦) .

ويروى أن خبيب بن عدي ضرب يوم بدر ، فمال شقه ، فتفل عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولأمه ورده ، فانطبق ، ثم يتقدم صاحب دلائل النبوة بمجموعة من الروايات يراها من تلك الدلائل ، ومنها "وعكاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله فأعطاه جذلا من حطب وقال : قاتل بها يا عكاشة ، فلما أخذه من يد رسول الله هزه فعاد سيفا ، طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ... وكان ذلك السيف يسمى القوي ... وانكسر سيف سلمة ابن أسلم بن حريش يوم بدر ، فبقي أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله قضيبا كان في يده ، من عراجين بن طاب ، فقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيدة"(١٧) .

وهكذا احتشدت كتب السير والأخبار بالمزايدات ، والروايات التي تنزع نحو الأسطورة ، بمجرد أن فتح لها الباب ، وبات بالإمكان سلخ أي حدث عن واقعه ، ونقله إلى مستوى آخر ، يكسر الواقع ويدعم الأسطورة بالشهادات ، وهو ما تمثل في قصة حدثت عند بدء وقعة بدر ، عندما أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بحفنة من الحصباء ، ورمى بها قريشا ثم قال : شُدُّوا .

ولأن إلقاء الحصباء على العدو لا يحمل أية دلالة عسكرية بعينها ، ولأن ذلك التصرف النبوي لا بد له معنى محدد يؤدي دوره في المعركة ، فقد انتقلت المزايدة بإلقاء الحصباء إلى المستوى السحري ، لتؤدي

دورا عسكريا كاملا ، وكثيرا ما وردت تلك المزايدات على لسان مشركين أسلموا متأخرين ، ومنهم الطلقاء الذين أرادوا التحبب للإسلام والمسلمين ونبي الإسلام ، ببعض المجاملات والملاطفات ، ومنهم المؤلفة قلوبهم بالطبع الذين أرادوا أن يردوا التحية بأحسن منها ، ومن تلك المزايدات رواية تقول : "سمعت نوفل بن معاوية الديلي يقول : انهزمنا يوم بدر ، ونحن نسمع صوتا كوقع الحصى في الطاس في أفئدتنا ، ومن خلفنا ، فكان ذلك من أشد الرعب علينا"(١٨) .

ومثله قول حكيم بن حزام : "التقينا فاقتتلنا ، فسمعت صوتا وقع من السماء إلى الأرض ، مثل وقع الحصى في الطست ، وقبض النبي القبضة فرمى بها ، فانهزمنا ، ... وسمعنا صوتا من السماء وقع إلى الأرض كأنه صوت حصاة في طست ، فرمى رسول الله تلك الحصاة يوم بدر ، فما بقي منا أحد"(١٩) .

الحصوات هنا لم تعد قبضة من حصى تل بدر ، إنما حصوات سماوية تقوم بفعل عسكري ، لكنه إعجازي ، ما أن رمى بها النبي المشركين حتى قتلهم جميعا ، أما دور تلك الحصى كإحدى أدوات الجيش الإسلامي ، بل وأكثر الأدوات فاعلية ، فهو ما توضحه رواية لا تخرج عن الاعتقاد في الأثر السحري للفعل النبوي ، فتقول : "لم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينيه"(٢٠) .

وإذا كان يوم بدر ، هو يوم هبوط الملأ الأعلى من الملائكة على خيولها ، تحمل سيوفها ، فلا بأس على مؤمن إن زاد فقال : "ويقال : إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمني الجن سبعون" ، وحتى يحبك الراوي روايته التي تفرد بها يستدرك قائلا : "لكن لم يثبت أنهم قاتلوا ، فكانوا مجرد مدد"(٢١) .

ملائكة بدر

في أول مشهد تقدمه كتب السير لمقدم الملأ السماوي إلى بدر ، يروي ابن إسحق :

وقد خفق رسول الله خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع(٢٢) .

وفي رواية أخرى ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -:

أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء ، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض ، فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ، ثم طلع على ثناياه النقع يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته(٢٣) .

ثم تتوالى الروايات ، عن بعض رجال من بني مازن لا نعرف من هم تحديدا ، عن أبي داود المازني ، أنه قال :

إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أنه قد قتله غيري(٢٤) .

فهذا رجل يقتل في المعمعة ، وسط سيوف عديدة متشابكة ورماح تطير ونبال تئز وغبار وسنابك خيول ، ورؤوس تغطيها الخوذ ، وأجساد مدرعة بالدروع ، ويقول المازني أن غيره قد قتل القتيل ، لكن هذا الغير القاتل بمجهوليته في المعمعة يتم التقاطه ليصبح أحد الملائكة ، ليؤكده قول أبي إمامة لولده :

يا بنيّ لقد رأيتنا يوم بدر ، وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك ، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف(٢٦) .

وتتتالى الروايات التي عادة ما يشار إلى روايتها بالقول : قال رجل كذا وكذا ، أو عن رجل من بني كذا ، ومثلها قول ابن عباس :

بينما رجل من المسلمين يومئذ ، يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم (وحيزوم هو فرس الملاك جبريل) ، إذ نظر المشرك أمامه فخر مستلقيا ، فنظرنا إليه فإذا هو خطم من أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضر ذلك جميعا ، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : صدقت ، ذلك مدد من السماء الثالثة(٢٦) .

ويروي بعض بني ساعدة ، عن أسيد مالك بن ربيعة ، بعد أن ذهب بصره ، "لو كنت اليوم معي ببدر ومعي بصرى ، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك في ولا أتمارى"(٢٧) . وهكذا ، فالرجل الوحيد الذي رأى الملائكة رؤى العين ، ورأى الشعب الذي انسلت منه صفوفهم إلى جبال بدر وواديه ، قد ذهب بصره ، حتى لا يتمكن من تحديد المكان ، ويظل القص هلاميا ، وقفا على رواية عن بعض بني ساعدة .

ومثل تلك الروايات ، روايات أخرى ، منها رواية أبي بردة بن نيار حيث قال : "جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس ، فوضعتها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله : أما رأسان فقتلتهما ، أما الثالث فإني رأيت رجلا أبيض طويلا ضربه ، فأخذت رأسه ، فقال رسول الله : ذاك فلان من الملائكة"(٢٨) . أما عن أبي جهل الذي بات معلوما عدد من اشتركوا في قتله بالاسم ، فإن هناك من روى عن النبي قوله : "قتله ابنا عفراء والملائكة ، وابن مسعود قد شرك في قتله"(٢٩) .

هذا ناهيك عن روايات أخرى مجهولة المصدر ، مثل رواية ابن عباس إذ قال :

حدثني رجل من بني غفار ، قال : أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف على بدر ، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة ، فننهب مع من ينتهب ، قال : فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم ، قال : فأما ابن عمي فانقشع قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت(٣٠) .

أما المشركون (والرواة أسلموا بعد ذلك عند الفتح) ، فوجد بعضهم – فيما يبدو – في هبوط الملائكة ، تبريرا لهزيمتهم المخجلة أمام المسلمين ، فحاك بعضهم على ذات النول ، فهذا المغيرة ابن الحارث يذكر أنه

كان قال زمن بدر ، لأبي لهب "وأيم الله ما لمت الناس ، لقينا رجالا بيضا على خيل بلق ، بين السماء والأرض ، والله ما تليق شيئا ، ولا يقوم لها شئ"[٣١] .

وهكذا تقدم الطلقاء بدلائهم إلى مائدة المزايدات ، ومنها رواية ابن حجر في الإصابة (٩/٢) ، عن السائب بن أبي حبيش الذي أسم يوم الفتح الإسلامي لمكة ، ونال من الرسول نصيبه من الأعطيات ، ثلاثين وسقا في خيبر ، فكان يحدث الناس زمن عمر بن الخطاب عندما قرر عمر قطع أنصبة المؤلفة قلوبهم عنهم ، بقوله :

والله ما أسرني أحد من الناس ، فيقال : فمن ؟ فيقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فأدركني رجل طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض ، فأوثقني رباطا ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطا ، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر : من أسر هذا ؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني ، حتى انتهى بي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رسول الله : يا ابن أبي حبيش ، من أسرك ؟ فقلت : لا أعرفه ، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت ، فقال رسول الله : أسرك ملك من الملائكة ، اذهب يا ابن عوف بأسيرك فذهب بي عبد الرحمن بن عوف ، فقال السائب : ما زلت تلك الكلمات أحفظها ، وتأخر إسلامي ، حتى كان من أمري ما كان .

أما البيهقي ، فيعقب على رواية السائب بقوله الكاشف :

ولا أعلمه روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – شيئا[٣٢] .

ثم يجد المطالع لسيرة ابن هشام ، كشفا رصده (ابن هشام) راوى السيرة عبر عدد من الصفحات على استطالتها ، بأسماء قتلى قريش في بدر ، وأسماء الذين قتلوهم من المسلمين ، كل قتيل ، وكل قاتل ، دون إسقاط لاسم مقتول أو لاسم قاتل من الطرفين[٣٣] .

وربما كانت مثل تلك المزايدات التي أوردناها ، مدعاة لتهكم رجل ملحد مثل ابن الراوندي ، وهو يتساءل :

من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه ؟ إنهم كانوا مفلولي الشوكة قليلي البطش ، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين معهم ، لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلا ؟ وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبي بين القتلى ولم ينصره أحد؟[٣٤] .

وإذا كنا نورد كلام ذلك الملحد ، فلكي نرى إلى أي حد يمكن أن تبلبل تلك الروايات الفؤاد ، ولا شك أن موقفه كملحد مرفوض بالقطع من جانبنا ، لكنا ربما تساءلنا تساؤلا مشروعا من مسلم يريد الاطمئنان لطوية فؤاده ، حرصا على صيانة إيمانه ونقائه ، مع تساؤل من سأل (أبي الحسن السبكي) ، وهو يقول :

سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ببدر ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ، فأجبت : وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي وأصحابه ... وكان يكفي ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة(٣٥) .

أما الأهم برأينا في خبر الملائكة ، فهو أن إعلام النبي للمسلمين قبل القتال بالمدد السماوي ، كان كفيلا بتقوية روحهم المعنوية ، وإنزال السكينة على قلوبهم ، وهو ما أدى بالفعل إلى نومهم ليلة القتال نوما أخذوا به راحتهم ، استعدادا لاستقبال قريش في الصباح ، كما كان وجود الملائكة – في حالة أخرى – حلا مثاليا لمشكلة توزيع الأنفال ، عندما اختلف المسلمون حول أنصبتهم في أنفال بدر ، فنزعت من أيديهم ووضعت بيد رسول الله – عليه الصلاة والسلام – ليقرر ما يراه لشأنها ، باعتبار الله وملائكته هم أصحاب ذلك النصر ، وهو ما قالت بشأنه الآيات :

"يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم" (الأنفال ١) .

وهي الآيات التي كان سببها ما يرويه أبو إمامة الباهلي :

سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله ، فقسمه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين المسلمين عن بواء ، أي على السواء(٣٦) .

والعجيب بشأن ما روي عن الملائكة البدريين ، قصصا أخرى ، كان واضحا أن أصحابها لم يجدوا أية دلائل ظاهرة يمكن تأويلها ونسبتها إلى الملائكة ، فالتقطت نمل الوادي الذي ربما سال من جحوره بفعل المعركة ، وما سكب من ماء القلب المغورة ، لترى في ذلك النمل ملائكة السماء ، وهو ما جاء في قول جبير بن مطعم ، "رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون ، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء مثل النمل الأسود ، فلم أشك أنها الملائكة ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ... وعن حكيم ابن حزام قال : لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادي خلص بجاد من السماء قد سد الأفق ، وإذا الوادي يسيل نملا ، فوقع في نفسي أن هذا شئ من السماء أيّد به محمد – عليه الصلاة والسلام – فما كانت إلا الهزيمة ، وهي الملائكة" . لكن الملاحظ هنا أن الرواية خرجت بنمل الوادي إلى فضاء الأسطورة ، لتضع جملة تقول : إنه نمل سماوي ، سقط من السماء على الأرض .

والحاسم في أمر تلك الروايات جميعا ، والذي يضع أمر الملائكة في موضعه الصحيح ، ولا يسمح بسلب الرواة للعقلانية المعهودة عن دين الإسلام ، فهو ما جاء بين الروايات هادئا رصينا يقول :

لولا أن الله تعالى حال بيننا وبين الملائكة التي نزلت يوم بدر ، لمات أهل الأرض خوفا من شدة صعقاتهم وارتفاع أصواتهم(٣٧) .

أما القاطع في المسألة فهو:

أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه ... وكان الملك يتصور في صورة من يعرفون[٣٨] .

تخميس الغنائم

تخميس الغنائم يعود إلى أمر الوحي :

"واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول" (الأنفال ٤١) .

وهي الحصة التي سبق واشترعها لأول مرة ، ابن عمة الرسول (عبد الله بن جحش) في سريته إلى نخلة ، والتي خرق فيها الأشهر الحرم ، واستولى على مغانم القافلة ، وكانت أول غنم للمسلمين ، ثم قال لرفاقه :

إن لرسول الله مما غنمناه الخمس ، ثم فرق الباقي بينه وبين أصحابه . وهو ما جاء الوحي بعد ذلك مصدقا عليه في الآية السالفة[٣٩] .

قتال اليهود

من الجدير بالذكر أنه في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ذكر قتل (كعب بن الأشرف) عنده ، فقال (ابن يامين) وكان يهوديا أسلم في غزو النبي للنضير : لقد كان قتله غدرا ، وسكت معاوية ولم يعقب كما لو كان راضيا عما يقال ، أو سامعا للقصة كما تروى بموضوعية لا مجال فيها للمجاملة ، وكان (محمد بن مسلمة) قاتل (كعب) حاضرا رواية (ابن يامين) لمعاوية ، فنهض ثائرا يقول : يا معاوية ، أيُغدر عندك رسول الله ثم لا تنكر ، والله لا يظلني وإياك سقف بيت أبدا ، ولا يخلو لي دم هذا إلا قتلته .

وبعد مقتل (كعب) ، وعودة الرجال ، قام النبي ينادي ورجع الصدى منه يسري مجلجلا :

من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه .

ومن ثم يروي ابن هشام :

فوثب محيصة بن مسعود من الخزرج ، على ابن سنينة ، رجل من تجار يهود ، كان يلابسهم ويبايعهم ، فقتله ، وكان حويصة بن مسعود (أخو محيصة) إذ ذاك لم يسلم ، وكان أسن من محيصة ، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول : أي عدو الله قتلته ، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ، قال محيصة : والله لقد أمرني بقتله ، من لو أمرني بقتلك ، لضربت عنقك ، قال : أو الله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني ؟ قال نعم ... فأسلم حويصة[٤١] .

وعليه ؛ آذن فجر الأيام البدرية ، بمغرب مرحلة آن غروبها ، وأخذت آيات القرآن تتتالى تحمل روح السياسة الجديدة ، تنسخ ما قد سلف من آيات المرحلة السابقة ، بآيات تنبئ بما هو آت ، توطئة لخلاص يثرب الكامل لسادتها الجدد .

نعم ، قالت الآيات في المرحلة السابقة يقينا :

- "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (البقرة ٦٢) .
- "وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله" (المائدة ٤٣) .
- "إنا أنزلنا التوراة فيهما هدى ونور" (المائدة ٤٤) .

لكن السياسة الجديدة ، جاءت بقرارات جديدة وحاسمة تقول :

- "إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران ١٩) .
- "أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها" (آل عمران ٨٣) .
- "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه" (آل عمران ٨٥) .

وهي السياسة التي ابتغت انضواء اليهود الكامل ، السياسي ، والعقدي ، بحيث لا يكونون أحلافا على ذات القدر من الندية السياسية والدينية ، أو العمل على إجلائهم عن يثرب ، أو استئصال شأفتهم ، وهو الأمر الذي سيتم تحقيقه بإصرار ودون هوادة ، والذي كان سببه الوضع الخاص لليهود كأصحاب كتاب سماوي ، ودستور عقدي ، وهو ما جعلهم المنكر السماوي الحي لنبوة النبي العربي ، وهو ما كان يشكل خطرا دائما وحقيقيا على الدولة وأيديولوجيتها .

غزوة قينقاع

عن ابن عباس قال :

لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ، فقدم المدينة ، جمع يهود في سوق قينقاع فقال : يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم بمثل ما أصاب قريشا[٤٢] .

فكان رد قينقاع المتحدى :

يا محمد إنك ترانا كقومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[٤٣] .

وهنا يعلن الواقدي ما كان مقدور الحدوث في باطن الأيام بقوله : فحاصرهم رسول الله خمس عشرة ليلة ، لا يطلع فيهم أحد ، ثم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتفوا وهو يريد قتلهم(٤٤) .

ويتقدم رواة السير المسلمون بتقديم التبرير الذي رأوه مناسبا لنقض الصحيفة ، والسير إلى قينقاع وأسرهم ، بحكاية عن امرأة عربية ، ذهبت تبتضع في سوق قينقاع ، فتلاعب بها شباب اليهود ، بأن ربطوا ثوبها بظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه(٤٥) .

ومثل تلك القصة التبريرية واضحة الضعف والوهن ، فالمرأة العربية التي سببت تلك الوقعة الهامة في تاريخ الدولة الإسلامية ، لا ذكر لاسمها ، ولا لقبيلتها ، ولا ما إذا كانت مسلمة أم لا ؟ ولا نعرف اسم الصائغ اليهودي ، ولا من هؤلاء الذين تلاعبوا بها ، بل والأخطر لا نعلم اسم ذلك المسلم الذي استشهد وهو يدافع عن المرأة ، ولا إلى أي قبيلة ينتمي ، ولم تزعم قبيلة أنه قد حدث مثل ذلك لأحد من رجالها ، وهو الأمر الذي يخالف ما ألفناه مع المتفق عليه بكتب الأخبار والسير ، والقصة بكاملها – في رأينا – مختلقة ، صيغت على مثال نموذج قديم حدث زمن حرب الفجار الأولى وكان سببا لها ، وقد لاحظ الحلبي راوي السيرة ذلك التشابه بين الحادثتين ، فتطوع بتذكير القارئ الفطن بقوله : "وقد تقدم وقوع مثل ذلك وأنه كان سببا لوقوع حرب الفجار الأولى"(٤٦) .

وربما وافقنا قارئ حصيف في رفضنا للقصة أعلاه ، إذا ما أحطناه علما بالتبرير الحقيقي لما حدث ، وهو ما جاء مرويا عن الزهري عن عروة :

نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية : "وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين" (الأنفال ٥٨) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخاف من بني قينقاع فسار إليهم ، ولواؤه بيد حمزة(٤٧) .

ولما كان يهود قينقاع ، حلفاء للخزرج وسيدهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فقد قام عبد الله وهو يرى حلفاءه يساقون إلى الذبح مكتفين ، بعد أن استسلموا ، ليخاطب النبي ويقول : يا محمد أحسن في مواليّ ، فلم يرد عليه النبي ، فقام يكرر ، يا محمد أحسن في مواليّ ، ومرة أخرى يعرض عنه النبي ، فيأخذ الغضب بعبد الله حتى يدخل يده في جيب درع الرسول يمسكه من لحمه الشريف وهو يقول : يا محمد أحسن في مواليّ ، حتى غضب النبي غضبا شديدا ، ورؤى لوجهه ظلل وهو يقول لعبد الله : ويحك ، أرسلني ، أرسلني ، بينما ابن سلول لا زال ممسكا به ويقول : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ ، أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود من الناس ، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر !! وهنا قال له النبي : هم لك(٤٨) .

وهكذا ألغى الأمر النبوي بقتل بني قينقاع ، لكن شرط جلاءهم من المدينة خلال أيام ثلاثة لا تزيد ، وبالفعل لم تمض الأيام الثلاثة حتى كان بنو قينقاع يحملون متاعهم راحلين ، تاركين مزارعهم وحصونهم وما لم يقدروا على حمله ، متجهين إلى أذرعات ببلاد الشام ، وبذلك كان أول صدام بين النبي وبين يهود

المدينة ، وأول قرار يصدر يؤكد سيادة الرسول ويعني قيام حاكم واحد لدولة المدينة ، وهو القرار الذي أدى دورا عظيما في انكماش بقية المعارضين في يثرب لسلطان الدولة الجديدة ,كما أدى من جانب آخر إلى تقليم آظافر ابن سلول وإضعاف مركزه ، بهجرة حلفائه الذين كانوا حماية له من الأحمر والأسود من الناس ، أي من اليهود والعرب ، ويكفي أن نعلم مدى ذلك الأثر على ابن أبي ، في فارق الساعات ما بين إمساكه بلحم جنب النبي الشريف ، وإصراره على مطلبه ، وبين مغادرتهم يثرب بقرار آخر ، ما أن سمعه ابن أبي حتى عاد مسرعا إلى النبي ليسأله بقاء قينقاع في يثرب ، فحال بينه وبين الدخول إلى النبي جماعة من الصحابة ، فلما حاول الدخول دفعوه إلى الحائط فشج وجهه ، بينما قينقاع في طريقها وهي تقول : والله لا نمكث في بلد يفعل فيه ذلك بأبي الحباب ، ولا نستطيع أن ننتصر له ، وغادروا يثرب ، بل والجزيرة جميعا إلى الشام[٤٩].

وقد عقبت الآيات على موقف ابن سلول بقولها : "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين" (المائدة ٥١-٥٢) .

أما الحلبي كاتب السيرة ، فلم يرض فيما يبدو بخروج قينقاع سالمين من يثرب ، والرجوع عن قتلهم ، فقال إن النبي دعا عليهم بالهلاك ، فما بلغوا أذرعات الشام ، حتى هلكوا جميعا بتلك الدعوة[٥٠] .

هزيمة أحد

أنزل الله تعالى وتبارك من وعد وبشرى حيث يقول:

- "سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب" (آل عمران ١٥١).
- "وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم" (آل عمران ١٢١).
- "فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان" (الأنفال ١٢).

والأمر على الترتيب في الوحي هو :

- "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء" (محمد ٤).
- "إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" (آل عمران ١٢٥:١٢١).

ومن ثم ؛ فإن موقف ابن سلول إنما يعني عدم أخذه الوعد الإلهي مأخذ الجد ، واعتماده معطيات الواقع فقط في اتخاذ القرار ، مما يشير إلى عدم إيمان حقيقي ، لكن الواجب هنا التنبيه إلى أن ابن سلول وهو يدعو

إلى عدم الخروج من يثرب ، وإشارته إلى أنه ما هاجمها أحد وانتصر ، إنما يعني اعتمادا واثقا على حصانة يثرب ، وما بها من حصون وآطام ، كما يعني أن الرجل يغامر بمدينته وأهله بالكامل في حال انتصار المهاجمين ، وهو احتمال وارد أمام العدد الهائل لجيش قريش ، وإن كان ضعيفا ، وهي مغامرة قبلها على بلده وأهله ، مع خيار النصر المحتمل في رد المهاجمين ، مفضلا ذلك على أن تنزل بالمسلمين إذا خرجوا هزيمة محققة ، قد يفنى فيها الرجال جميعا ، وهو نصح لو أخذناه بإنصاف لأنصفنا الصدق والحق على الأقل ، خاصة أن ما حدث في وقعة أحد بعد ذلك ، كان هزيمة حقيقية للمسلمين على مستويات عدة .

وكانت تلك الهزيمة النكراء لجيش المسلمين ، مدعاة لمحاولة بعض المفسرين القول : إن وعد الآيات بالإمداد بالثلاثة وبالخمسة آلاف ملك ، كان يوم النصر البدرى ، وليس يوم أحد ، بينما وقف آخرون موقفا صارما ، يلتزم التأريخ وأسباب النزول وسياق الآيات في السور مقارنا بالحدث ، بحجج فقهية تؤكد أن الآيات نزلت في أحد تحفيزا للمسلمين ، أما السر في عدم انتصار المسلمين – رغم هذا المدد العظيم ، وهو ما كان يعني عدم نزول الملائكة ، لأنهم لو جاءوا لحققوا نصرا سهلا دون جهد يذكر للمسلمين – فهو أن الإمداد كان معلقا بشرط ، هو التقوى ومصابرة عدوهم ، لكن المسلمين لم يصبروا بل فروا ، فسقط الشرط ، فتوقف الإمداد ، ولم يمدوا بملك واحد ، أما ذكر بدر في الآيات السالفة فقد جاء اعتراضا في سياق آيات أحد ، تذكيرا بنعمة الله على المؤمنين ونصره لهم في بدر رغم ضعفهم ومذلتهم ، ليحفزهم على خوض أحد بذات الثقة في نصر الله ، مع حجة أخيرة تقول : إن القصة الواردة في سورة آل عمران هي قصة أحد وحدها مستوفاة مطولة ، وإن مقارنتها بسورة الأنفال التي تعلقت ببدر ، يقطع باليقين أن الآيات نزلت في أحد وليس في بدر[٥١] .

وقائع أحد

وتجمع كل كتب السير والأخبار ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكره الخروج إلى أحد ، لكنه خرج لرغبة أصحابه ، ولما لبس لامته ، جاءه الذين استكرهوه على الخروج يراجعون موقفهم ويعتذرون ، فكان رد النبي : ما كان لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحارب ، وجعل النبي لأصحابه في ذلك اليوم شعارا يشبه شعار بدر ، مع اختلاف بسيط ، فقد أسقط من شعار بدر (يا منصور) ، ليصبح بدلا من (يا منصور أمت) كلمة واحد تقول : (أَمِتْ ، أَمِتْ)[٥٢] .

وعند خروج النبي إلى أحد قال له الأنصار :

- يا رسول الله ، ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟
- فقال : لا حاجة لنا فيهم[٥٣] .

ولما سار بجيشه ووصل رأس الثنية ، وجد كتيبة كبيرة ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي من يهود ... فقال :

إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك[٥٤] .

ويبدو لنا أن تلك الكتيبة كانت من قبيلة بني قريظة ، خرجت إعمالا لبنود الصحيفة ، وانتصارا لحليفتها الخزرج ، لكن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن على ثقة كافية بهم ، ومرة أخرى عرض الأوس على النبي بعد رجوع ابن سلول ، الاستعانة بحلفائهم من يهود بني النضير ، حلفاء سعد بن معاذ ، ومرة أخرى رفض النبي[٥٥] ، ومع ذلك فقد أصر مخيريق اليهودي على الخروج إلى أحد ، وهو على دينه ، وأوصى بماله للنبي إن هو قتل ، وبالفعل قاتل الرجل حتى قتل ، وآل ما يملكه إلى رسول الله ، وفيه قال النبي الكريم : "مخيريق خير يهود"[٥٦] .

ولاحت بوادر النصر ، وتقهقر المشركون وهم يلقون بدروعهم وجحفهم وتروسهم ، تخففا للهرب ، بينما علا صراخ نساء قريش المنعمات وهن يولولن ، يبرز صراخهن الخائف مفاتن أنوثتهن ، وأخذن يهربن أمام أعين المسلمين .

وقصدن الجبل ، كاشفات عن سيقانهن يرفعن الثياب ، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم[٥٧] .

بينما يصف عبد الله بن الزبير الموقف بقوله :

والله لقد رأيتني أنظر إلى هند بنت عتبة وصواحباتها ، مشمرات هاربات ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير[٥٨] .

بينما يقول آخر :

والله لقد رأيت النساء يشتددن على الجبل ، قد بدت خلاخيلهن وسوقهن ، رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير – الرماة – الغنيمة ، الغنيمة[٥٩] .

وهكذا نزل الرماة يلهثون وراء الغنيمة ، وهو ما يصوره أحدهم : "والله ما نجلس هنا لشئ ، قد أهلك الله العدو ، فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي ألا يتركوها"[٦٠] . "ونهاهم أميرهم عبد الله ابن جبير ، فقالوا له : انهزم المشركون فما مقامنا ها هنا ؟ وانطلقوا ينتهبون وثبت عبد الله بن جبير ، وثبت معه دون العشرة[٦١] .

لكنها لقارئ مدقق ، كانت الخطة والتكتيك ، فقد تقهقر قلب جيش المشركين ، وشمرت النساء عن سوقهن يصعدن الجبل في المعتليات ، وانطلق المسلمون خلفهن ، وترك الرماة مواقعهم ، بينما كانت ميمنة (خالد بن الوليد)في مكانها لا تتزحزح ، كذلك ميسرة (عكرمة بن أبي جهل) ، ظلت ثابتة دون حراك ، حتى إذا ما نزل الرماة ، أطبقت الأجنحة على الوسط ، وثبت القلب المتقهقر ليعاود الهجوم ، في هجمة مرتدة سريعة ، ثم ثنى (خالد) و (عكرمة) على الرماة ، فحملوا على من بقى منهم فقتلوهم مع أميرهم ابن جبير .

وأحاطوا بالمسلمين ، فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والسلب ، إذ دخلت خيول المشركين تنادي فرسانها بشعارها : يا للعزى ، يا لهبل ، ووضعوا السيوف في المسلمين وهم آمنون ... واختلط المسلمون ، وصار يضرب بعضهم بعضا من غير شعار ، وهو أمت ، أمت ، مما أصابهم من الدهش والحيرة[٦٢] .

أما الأخطر من نسيان المسلمين لشعارهم ، نتيجة الدهشة والذهول ، وقتلهم بعضهم بعضا ، هو تمكن المشركين من الانغراس في العمق إلى نهايته ، والوصول إلى موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتأخذ منه ثأرها ، وتنال منه فيخمد الجسد الإسلامي ويستسلم ، وهو ما خرجت من أجله ، لإيقاف نهر الدم ، وإنقاذ ما بقي من مصالحها ، بقتل النبي عليه الصلاة والسلام بالذات وبالتحديد .

صرخة الشيطان

وعندما وصل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هرب أصحابه من حوله ، حتى صار ينادي :

إليّ يا فلان ، إليّ يا فلان ، أنا رسول الله ، فما يعرج إليه أحد ، والنبل يأتي إليه من كل ناحية[٦٣] .

ويروي الطبري إنه عند الهجوم على النبي ، تفرق عنه أصحابه ، فهرب بعضهم وعاد إلى المدينة لا يلوى على شئ ، بينما صعد البعض الآخر إلى صخرة فوق الجبل ، بينما استمر النبي ينادي :

إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله[٦٤] .

واستطاع عتبة بن أبي وقاص أن يصل إلى النبي ، ويهشم بيضته فوق رأسه ، بينما تمكن عبد الله بن شهاب من أن يشجه في جبهته ، ثم كر عليه ابن قملة الحارثي ، فكسر أنفه ورباعيته ، وضربه بالمغفر فدخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته الشريفة ، كل هذا والرسول ينادي أصحابه[٦٥] . ثم وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حفرة ، عندما هاجمه ابن قمئة في كرة ثانية ، فضربه على عاتقه ضربة شديدة ، لكن الدرعين كانا وقاء له ، لكن عزم الضربة جعل رسول الله يشكو من عاتقه بعدها شهرا أو أكثر[٦٦] .

وهنا لمح المحارب الصلب أبو دجانة رسول الله وهو على حاله هذا ، فانطلق إليه ليرتمي فوقه يحميه ، والنبل يتساقط عليه بغزارة حتى ملأ ظهره وهو لا يتحرك ، في الوقت الذي أخذ فيه المهاجمون دورتهم الواسعة في كرة جديدة ، انطلق أثناءها إلى النبي عدد من أصحابه ، فأنهضوه من الحفرة ، وأسرعوا به يصعدون شعب الجبل نحو صخرة منيعة ، في اللحظة التي عادت فيها كرة المهاجمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا لهم يا رسول الله ، فقال : كما أنت يا طلحة ، فقال : رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ومن بقي معه ، فلحقوه ، فقال : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال له : طلحة : أنا لهم يا رسول الله ، فقال : كما أنت يا طلحة ، فقال : رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ومن بقي معه ، فلحقوه ، فقال : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال له : طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فأذن له ،

فقاتل مثل قتاله وقتال أصحابه ، ورسول الله وأصحابه يصعدون ، ثم قتل ، فلحقوه ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة : أنا يا رسول الله ، فيحبسه ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فقال رسول الله : من لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا[٦٧] .

وتصف كتب السير أبا طلحة بأنه "كان رجلا راميا شديد الرمي ، فنثر نبله ، وأخذ يرمي والرسول يجلس خلفه محتميا به ، بينما كان النبي يرسل قوله الآسف على هرب أصحابه المهاجرين عنه : "ما أنصفنا أصحابنا" ، ويشرح البيهقي "معناه ما أنصفت قريش (المهاجرين) الأنصار ، لكون القرشيين لم يخرجوا للقتال دفاعا عن النبي ، بل خرجت الأنصار واحدا بعد واحد"[٦٨] .

وظل أبو طلحة يرمي دفاعا عن النبي يومذاك ، ويترس دونه ، حتى كسر ثلاثة أقواس ، وكان المسلم يفل هاربا فيمر عليهما فيناديه رسول الله صلى الله عليه وسلم : انثر نبلك لأبي طلحة[٦٩] ، حتى وتره رام أصاب يده في أوتارها فشلت من فورها فصرخ متألما : حس ، فقال له النبي ؛ لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة ، والناس ينظرون إليك ، حتى تلج بك في جو السماء[٧٠] .

وبينما النبي وطلحة والزبير يتسللون متخفيين في الشعب يريدون صرخة عالية تصادف أنها كانت الصرخة التي فر إليها بعض المسلمين الفارين ولجأوا إليها لمنعتها ، فكان أن رآه كعب بن مالك من أعلى الشعب وهو قادم مع صاحبيه ويروى :

قد عرفت عينيه الشريفتين تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي :

يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله فأشار إليّ : أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا ، ونهض معهم نحو الشعب على بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، ... في نفر من المسلمين[٧١] .

لكن ليلمحهم أبي بن خلف وهم يخفون إلى النبي يساعدونه على الصعود ، وقد تطرف أُبي عن قومه ، فسمع صيحة كعب بن مالك ، فعلم أن الرسول ما زال حيا ، وبينما النبي يسند رأسه تعبا في الشعب ، كر أبي بن خلف بفرسه وهو يهتف متسائلا : أي محمد (؟!) لا نجوت إن نجا، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله : لا ، دعوه فلما دنا تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة ، ... وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، .. ثم استقبله فطعنه في عنقه ، طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا[٧٢] ، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح[٧٣] .

ولمزيد من المنعة ، بعيدا عن متناول قريش نهض النبي صلى الله عليه وسلم إلى صخرة في الجبل ليعلوها ، وقد كان بدن رسول الله بين درعين ، فلما ذهب لينهض لم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيدة ، فنهض به حتى استوى عليها[٧٤] ، وهكذا نال الإجهاد من النبي كل منال ، وأخذ منه الألم كل مأخذ ، حتى أنه بعد العودة ذكر عمرو مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلى الظهر يوم أحد قاعدا من الجراح التي أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعودا[٧٥] .

وبعد أن امتنع المسلمون الذين بقوا مع نبيهم على الصخرة المنيعة – التي ما كان لأحد أن يصعد عليها إلا ويصاب برماح وسهام الممتنعين فوقها – ومعهم سيوفهم ، لا مجال لأخذهم ، تقدم أبو سفيان حتى اقترب من سفح الصخرة ثم نادى : "أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ ثلاثا ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه" ، وهكذا كانت حصافة القائد تملى على رجاله رغم الامتناع فوق الصخرة ، أن يتركوا قريشا تتوهم قتله ، حتى لا يحاولوا الكر عليهم مرة أخرى ، كما سبق وأمر كعب بن مالك بعدم الإعلان عنه وأمره بالصمت ، لكن أبو سفيان استمر ينادي "أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم ، فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله ، إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد بقى لك ما يسوؤك"(٧٦). فكان أن رد عليه أبو سفيان ومن معه ينادون شامتين متوعدين :

يوما بيوم بدر ، إن موعدكم بدر للعام القابل .

"فقال رسول اله لرجل من أصحابه : قل : نعم هو بيننا وبينكم موعد ... ثم بعث رسول الله علي بن أبي طالب فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون . فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده ، لئن أرادوها ، لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزهم ، قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون . فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة"(٧٧) .

وهكذا ، انتهت غزوة أحد بثأر قريش ، الذي أعملت له حسابات دقيقة ، وهم تجار أصحاب حسابات ، يدققون فيما لهم وفيما عليهم ، تحدوهم المصلحة والمكاسب في الأول وفي الآخر ، فتؤكد كتب الأخبار أنهم قتلوا على التدقيق سبعين مسلما ، بسبعين مشركا يوم بدر ، وأسروا سبعين مسلما بسبعين مشركا يوم بدر ، وهو ما يردفه المفسرون بالآية الكريمة :

"أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا". (آل عمران ١٦٥)

(ومثليها هنا تعنى مثل الأمرين ، السبعين قتيلا ، والسبعين أسيرا) ، وهو ما عبر عنه منطق التاجر الأموي ، أبي سفيان صخر بن حرب ، وهو ينادي المعتصمين بالصخرة ، مقدما كشف حساب تجاري دقيق ، يقول :

يوما بيوم بدر ، وإن موعدكم بدر العام القابل .

هو ما عقب عليه الطبري في حديثه عن أحد مقارنا ببدر ، وهو يقول :

فلما كان العام القابل في أحد ، عوقبوا بما صنعوا ، قُتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون ، وأسر سبعون ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، وفر أصحاب النبي وصعدوا الجبل(٧٨) .

وقد عدد البلاذري في أنساب الأشراف (٣٢٦/١) أسماء بعض الفارين من الميدان تماما – الذين يمثلون موقفا خامسا – بعد أن تركوا إخوانهم ورسولهم إلى مصيرهم ، وهم عثمان بن عفان ، وسواد بن غزية ، والحارث بن حاطب ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان ، وخارجة بن عامر ، وأوس بن قيظى ، حتى أبعدوا عن المدينة بما يصل إلى ثلاثين ميلا[٧٩] ، ولم يعودوا إلى يثرب إلا بعد أن وصلتهم الأخبار بعودة النبي إليها مع من بقي من أصحابه ، فعادوا إليها من مهربهم بعد أيام ثلاثة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد ذهبتم فيها عريضة ، ثم جاء الوحي بشأنهم يقول :

"إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم". (آل عمران ١٥٥).

ويقول ابن حبيب : "الذين تولوا يوم التقى الجمعان فعفا الله عنهم من المهاجرين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسعد بن عثمان من الخزرج وأخوه عقبة بن عثمان"[٨٠] . وكان لهرب عثمان بن عفان من أحد ، مدعاة بعد ذلك بسنين في الصراع السافر الذي قام على السلطة في الدولة الإسلامية ، للتدليل على أن الموقف العدائي لبني أمية من الهاشميين بل من النبي ودعوته ، كان متأصلا في نفوسهم ، فحكى البخاري عن عثمان ابن وهب قوله : "جاء رجل حج البيت فرأى قوما جلوسا ، فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : قريش ، قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ، فأتاه فقال : إني سائلك عن شئ أتحدثني ؟ أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد ؟ قال : نعم ، قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم فكبر ، فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه ، فأما فراره يوم أحد ، فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر ، فإنه كان تحته بنت النبي وكانت مريضة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ، أما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة"[٨١] .

مقتل أسد الله حمزة بن عبد المطلب

يرسم رواة السيرة صورة حية لمقتل حمزة رضي الله عنه بلسان قاتله وحشي الحبشي الذي يروى أنه بينما كان حمزة يصول بسيفه مر به سباع بن عبد العزى الغبشاني وكان يكنى أبا نيار فقال له حمزة : هلم إلي يا ابن مقطعة البظور .. وكانت أمه ختانة بمكة فلما التقيا ضربه حمزة فقتله" . وهنا عثر حمزة فوقع ، فانكشف درعه الحديدي عن بطنه ، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها ، دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوي ، فغلب ، فوقع ، وأمهلته حتى إذا مات ، جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت عن العسكر ، ولم تكن لي بشئ حاجة غيره"[٨٢] .

وهنا هرولت بنت عتبة المدللة الثائرة ، لتبقر بطن حمزة رضي الله عنه ، وتخرج كبده وتلوك منه قطعة تشفيا ، حتى إذا انتهت المعركة ورحلت قريش ، مر رسول الله بعمه وهو على تلك الحال ، فوقف على رأسه وقد أخذ منه الكمد مأخذا ، حتى جعل يقول :

لولا أن تحزن صفية ، ويكون سنة بعدي ، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن ، لأمثلن بثلاثين رجلا منهم[٨٣] .

وقد عقب بعض المفسرين بالقول : إن الوحي جاء يرد النبي عن ذلك بقوله : "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به" (النحل ١٢٦) ، لكن ابن كثير بحصافته ، يدرك أمرا ، فيقول :

قلت هذه الآية مكية ، وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين **!!** فكيف يلتئم هذا **؟!**[٨٤] .
أما ابن مسعود فيروى القول عن حال النبي يوم مقتل حمزة :

ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيا ، أشد من بكائه على حمزة رضي الله عنه ، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته ، وانتحب حتى نشق ، وحتى بلغ به الغشى ، وهو يقول : يا حمزة يا فاعل الخيرات ، يا حمزة يا كاشف الكربات ، يا حمزة يا ذاب[٨٥] .

أما الأنصار ، ورغم مصابهم في قتلاهم ، فإنهم عندما شاهدوا حزن ابن أختهم على عمه قالوا :

والله لئن ظهرنا عليهم يوما من الدهر ، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط[٨٦] .

وقالت اليهود : لو كان نبيا ما ظهروا عليه ، ولا أصيب منه ما أصيب ، لكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه ، وقال المنافقون مثل قولهم ، وقالوا للمسلمين : لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذي أصابوا منكم[٨٧] .

والإشارة هنا إلى ثلاثمائة أنصاري ، قرروا قبل المعركة البقاء في المدينة ، وعدم الخروج إلى أحد ، برأي عسكري عركته خبرتهم بمناعة مدينتهم ، وإزاء ذلك الفوران ، الذي بات يهدد هيبة الدولة الناشئة ، ويعطي الفرصة للرؤوس المحنية للتعالي والتغامز ، وما قد يجره ذلك من تردي هيبة صنعها المجاهدون بدمائهم في بدر ، كان لا بد من خطوة أولى لتهدئة روع المسلمين ، ومن ثم استرسل الوحي يرد على هؤلاء بالقول الكريم :

- "الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين" (آل عمران ١٦٨).
- "وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ..." (آل عمران ١٦٦).
- "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا" (آل عمران ١٤٥).
- "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم" (آل عمران ١٤٢).

أما الذين حزنوا على المغانم الزائلة من عرض الدنيا ، فقد توجه إليهم الوحي يقول :

- "ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب" (آل عمران ١٤).
- "ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون" (آل عمران ١٥٧).

- "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" (آل عمران ١٦٩).

العلاج النفسي

والدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا ينكلوا عند الحرب ، ولا يزهدوا في الجهاد ، قال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ..."[٨٨] .

ثم يلتفت المصطفى إلى جابر رضي الله عنه ويقول له : "يا جابر ؛ ألا أبشرك ؟ قال : بلى بشرك الله بالخير . قال : شعرت أن الله أحيا أباك فقال : تمن على عبدي ، ما شئت أعطكه ، قال : يا رب ما عبدتك حق عبادتك ، أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقتل مع نبيك ، وأقتل فيك مرة أخرى ، قال : إنه قد سلف مني القول ، لا يُرجع إليها"[٨٩] .

وهكذا كان العلاج النفسي ، والبلسم الشافي المداوي ، ولم شتات الأنفس المبعثرة فرقا وهلعا ، وتقوية العزائم بتثبيت الإيمان ، لكن مؤرخينا لا يجدون – عافاهم الله – في تلك الخطة المداوية ، والكلام السديد بالرأي الرشيد ، كفاية وشفاء وغناء ، إنما يطمحون دوما كدأبهم إلى حديث الأحاجي والمعجزات ، وهو حديث ما كان يشفي أصحاب أحد وهم مهزومون ، قدر ما يشفيهم الوحي الصادق ، والقيادة الحكيمة ، لكن أحاديث الأحاجي كتبت على ما يبدو لأجيال بعد ذلك ستقرأ التاريخ ، وربما تتساءل في ضوء المشروع عقلا ، فكان إلقامهم سلفا تلك الدلائل على الإعجاز ، رغم تجرع المسلمين مرارة الهزيمة في هدوء وبطولة ، فجاءتنا الروايات تقفو بعضها ، لتعيد حديث الملائكة ، وتؤكد أن الملأ الأعلى المحارب قد هبط إلى أحد ، وأعمل خبرته القتالية في المعركة ، غير مدركين إلى أي منزلق يذهبون بتلك المزاعم ، ومنها ما جاء يحكي عن الوقعة في حميتها ، والرسول يتعرض للهجوم ، وأمامه سعد بن أبي وقاص ، فقال عليه الصلاة والسلام لسعد : ارددهم ، قال : كيف أردهم وحدي ؟ فقال له : ارددهم ، قال سعد رضي الله عنه : فأخذت سهما من كنانتي فرميت به رجلا منهم فقتلته ، ثم أخذت سهما آخر فإذا هو سهمي الذي رميت به ، فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذت سهما فإذا هو الذي رميت به فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فكان عندي في كنانتي لا يفارق كنانتي" .

ولا تفطن الروايات إلى أن سعدا لو استمر بسهمه المبروك هذا ، لأفنى المشركين ، ثم تؤكد أن هذا السهم "كان بعده عند بنيه ... وروى عنه أنه قال : لقد رأيتني أرمى بالسهم يوم أحد ، فيرده عليّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه ، حتى كان بعد ... فظننت أنه ملك" .
ثم ينسب لسعد حديث آخر يقول فيه :

رأيت يوم أحد عن يمين النبي عليه الصلاة والسلام وعن يساره ، رجلين عليهما ثياب بيض ، يقاتلان عن رسول الله أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده[٩٠] .

بل وتحدد كتب التراث الرجلين البيض بالثياب البيض بالاسم فقد كانا الملكين جبريل وميكائيل(٩١) .

ورواية أخرى ، تضع سعدا مرة أخرى ، في حبكة أخرى ، تقول :

لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسعد يرمى بين يديه ، وفتى ينبل له كلما ذهبت نبلة أتاه بها ، يقول : ارم أبا إسحق ، فلما فرغوا نظروا : من الشاب ؟ فلم يروه ولم يُعرف(٩٢) .

ومثل تلك الروايات التي تصر على نزول الملائكة إلى أحد وحربها مع المسلمين ، رواية تحكي عن أمر تعلمه كتب الأخبار ، وهو أن أبا الروم أخو مصعب بن عمير ، حمل اللواء من مصعب بعد سقوط أخيه شهيدا ، وفي زحمة المعركة وهو لها ، ومع إصابة النبي تلك الإصابات الشديدة ، ظن أبا الروم مصعبا ، لكن الرواية تتم حياكتها لتخبرنا خبرا آخر يقول :

ولما قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وسقط اللواء ، أخذه ملك في صورة مصعب ... وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم للملك الذي على صورة مصعب : تقدم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك فقال : لست بمصعب ، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه ملك أيّد به .

هذا بينما يعقب الحلبي في سيرته على الرواية فيقول : "... رأيت في رواية أنه لما سقط اللواء ، أخذه أبو الروم أخو مصعب ، ولم يزل في يده حتى دخل المدينة"(٩٣) .

وفي سياق سوق المعجزات ، لا يرضى الحلبي في موضع آخر من سيرته ، إلا بموتة قميئة لابن قمئة الذي شج النبي في وجهه وضربه بالمغفر ، فيقول :

إن هذه الشجة لم تشنه ، بل زادته جمالا ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقمأك الله ... وقد استجاب فيه دعوة نبيه ، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة الجبل ، فأخذ يعترضها ، فشد عليه كبشها ، فنطحه أرداه من شاهق الجبل فتقطع(٩٤) .

كذلك تثنى الروايات على أبي بن خلف الذي قتله النبي بالحربة ، حتى يسكته عن إسماع المشركين ندائه وهو يهتف : أي محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، لتقول بلسان عبد الله بن عمر :

مات أبي بن خلف ببطن رابغ ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل ، إذا نار تتأجج لي فهبتها ، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتنبها وهو يصيح : العطش العطش ، وإذا رجل يقول : لا تسقه ، فإن هذا قتيل رسول الله ، هذا أبي بن خلف(٩٥) .

ثم لا يجد مؤرخونا بأسا هنا من تكرار بعض ما صاغوه لبدر الكبرى ، ومنها القول : "أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبي يوم أحد وقد ذهب سيفه ، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم عسيبا من نخل ، فرجع في يد عبد الله سيفا ... وأصيبت يومئذ عين قتادة بن نعمان حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه وأحدّهما ، وتفصيل إعادة تركيب العين في موضعها ، في أن النبي "رفع حدقته فوضعها موضعها ثم غمزها براحته ، وقال : اللهم اكسه جمالا ، فمات وما يدري من لقيه أي عينيه أصيبت"[٩٦] .

ثم يعرج رواة السير والأخبار على ألوان أخرى من الروايات ، قصدوا بها التدليل على صدق نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعصمته ، وطهارته ، وطهارة جسده ، وما قد ينال المؤمن الصادق إذا ما نال من ذلك الجسد شيئا ، يرفع من مكانته ويزكيه ، لكنها من جانب آخر – إن كانت قد حدثت – فإنها تلقي ضوءا على المكانة التي وصل إليها رسول الله بين أتباعه وربما قصد بتلك الروايات وضعها في مقابلة مع أخبار من شك أو فر وهرب ، لإثبات وجود المؤمنين الصادقين الثابتين ، الواثقين بنبيّهم إلى حد التبتّل فيه ، حداً لم يصله قبله إنسان ولا بعده ، ومن تلك الروايات أن مالكا بن سنان الخدري ، أبا سعيد الخدري ، قد امتص دم النبي من جروحه في أحد ، وازدرد تلك الدماء ، فقال النبي :

من سره أن ينظر إلى رجل لا تمسه النار ، فلينظر إلى مالك بن سنان، من مس دمي لم تصبه نار.

ويعقب الحلبي على ازدراد دم النبي تعقيبا شارحا مطولا يقول فيه : "ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم ، أمر هذا الذي امتص دمه بغسل فمه ، ولا أنه غسل فمه بعد ذلك ، كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضي الله عنها ، بغسل فمها ، ولا هي غسلته بعد ذلك لما شربت بوله صلى الله عليه وسلم ، ففيها رضي الله عنها أنها قالت : قام رسول الله من الليل إلى فخارة تحت سريره ، فبال فيها ، فقمت وأنا عطشى فشربت ما في الفخارة ، وأنا لا أشعر ، فما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : يا أم أيمن ، قومي إلى تلك الفخارة فأهرقي ما فيها ، فقالت : والله لقد شربت ما فيها ، فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : لا يجفر بطنك بعده أبدا ... أي لا تشتكي بطنك ... وقد شربت بوله أيضا امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة بنت عمرو ، وكانت تخدم أم حبيبة رضي الله عنها ، جاءت معها من الحبشة ، ... وفي كلام ابن الجوزي ، بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان الحبشية ، خادمة أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ... فقال لها حين علم أنها شربت ذلك : صحة يا أم يوسف ، فما مرضت قط ، حتى كان مرضها الذي ماتت فيه"[٩٧] .

قتل ابنة مروان

قال الرسول بين أصحابه هاتفا :

ألا آخذ لي من ابنة مروان ؟

فسرى إليها ليلا واحد من بني عشيرتها ، هو عمير بن عدي فكلاهما من بني خطمة ، فأعمل سيفه في أحشائها وهي مستسلمة لنومها في فراشها ، "ثم أصبح مع رسول الله فقال : يا رسول الله إني قتلتها ، فقال : نصرت الله ورسوله يا عمير" .

أما سرية زيد بن حارثة إلى بني فزارة بوادي القرى ، فكانت إلى فاطمة بنت ربيعة المعروفة بأم قرفة ، وكانت عجوزا كبيرة تجاوزت من عمرها قرنا ، وكانت مطاعة في قومها ، ذات منعة وشرف وسيادة ، بلغ صيتها كل العربان ، وضربوا بعزها الأمثال ، وبقي من الأمثال التي تتعلق بأم قرفة مثلان على الأقل ، وهما "أمنع من أم قرفة" ، و "لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت"[٩٨] ، وهي كلها أسباب تكشف عن ملامح غزوة زيد بن حارثة وغرضها الذي تم بهبوطه عليها على غرة ، فأعمل السيوف في الفزاريين ، ثم أسر أم قرفة وابنتها هندا ، وبينما أبقى على هند سبية ، فقد أمر بقتل أم قرفة قتلا ذكر ابن هشام أنه كان عنيفا[٩٩] ، وهو ما جاء تفصيله في الطبري شارحا : أنه تم ربط رجليها بحبلين ، ثم ربط الحبلان ببعيرين متعاكسين ، ثم ضرب البعيران فانطلقا ، فشقاها شقا[١٠٠] .

مراحل إنشاء الدولة

كان طبيعيا أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة ، أدى بالنبي – صلى الله عليه وسلم – إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجي الطويل ، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد ، يدعوهم إلى النسب والامتلاك ، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشي ، إنها كنوز كسرى وقيصر بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس ، وعليه كان إعلان الوحي : "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين" (القصص ٥) .

ويروى البلاذري : "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا جلس في المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه : عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة ، وأشباههم من المسلمين ، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض : هؤلاء جلساؤه كما ترون ، قد منّ الله عليهم من بيننا"[١٠١] .

وإعمالا لذلك بات واضحا أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة ، وهم من سيكونون القادة والأئمة ، وهم من سيرثون الملأ وحكومته ، والسبيل أمة جديدة ، تقوم على مبدأ جديد ، يوحد ولا يفرق ، يجمع أصحاب المصلحة في التغيير في مصهر واحد ، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها : "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" (الشورى ١٣) ، ومن هنا ، وفي تلك المرحلة ، قام الإسلام يضرب القبلية ، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أي ولاء آخر .

ولعل أهم وقعة كبرى حولت بالفعل مسار التاريخ بعدها ، كان سببها قافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبي سفيان بن حرب ، وهي وقعة بدر الكبرى ، حين تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المضمرة ، من ميثاق دفاعي إلى حلف هجومي محارب ، تحولت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها – مهاجرون وأنصار – إلى دولة محاربة هجومية ، دولة عسكر ومغانم ، كالقبيلة تماما ، وبذات منطقها ، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ، ممثلة شخصيا في رسول الله ورمزيا في ذات الله ، وإلى المصالح المادية المباشرة التي جمعت بالفعل أعضاء الدولة ، وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحول الكبرى التي لعبت دورا عظيما في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم ، بعد أن ظل النبي – صلى الله عليه وسلم – يدعو في مكة ثلاثة عشر عاما دون إجابة ، ولم

يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالي المائة نفر ، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد ، ولكن عندما تم الإعلان عن تحلّة الغنيمة من أموال الآخرين المخالفين للدعوة ودولتها ، أصبح حل مشكلة المعدمين حقيقة ملموسة ، ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية ، وبعد فترة من الزمن ستصبح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذي سيدفع رجالات قريش المميزين إلى الانخراط في جيش المسلمين ، وهو ما يفصح عنه إسلام عمرو بن العاص الذي ذهب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يؤكد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله ، لكن ليجيبه النبي – صلى الله عليه وسلم – بكل صراحة ووضوح : "نعما بالمال الصالح للرجل الصالح" . ثم أرسله قائدا عسكريا غازيا وهو يقول له : "إني أريد أن أبعثك وجها يسلمك الله فيه ويغنمك ، وأزغب لك زغبة من المال" ، ومن ثم كان إعلان النبي – صلى الله عليه وسلم – تميز عمرو بقوله : "أسلم الناس وآمن عمرو"[١٠٢] .

غيرت الغزوات – والفتوحات بعدها – حال الصحابة من الضنك والفقر إلى الثراء والغنى .

عن علي رضي الله عنه .. "لقد رأيتني مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع ، وإن صدقتي اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار"[١٠٣] .

بالإضافة إلى الترغيب بالغنائم كان على النبي أن يوحد بين أتباعه على اختلاف توجهاتهم .

ومن ثم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التي تتوازن بين النقائض ، على كل المستويات : بين القبلية وبين الطبقية ، بين العشائرية وبين الأممية ، بين الوحدة الشاملة وبين تضمن تلك الوحدة للقبائل في شكل حزم وأضمومات ، وبين إلغاء الشفعاء واستبدالهم بشفيع واحد هو نبي الإسلام ، وبين الوحدانية المطلقة للإله التي لا تقبل شراكة ، ومن ثم كانت التراجعات التي اعترفت بمقدسات القرشيين والتي كانت تعد وثنيات ، كالاعتراف بالكعبة ، ثم في فتح مكة يتم تقديس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود ، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعي ، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات . لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسسي له تاريخه ، بعد الرجوع عن القدس (أورشليم) ، معبد يجتمع عنده جميع العربان ، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول في المقام الأول ، وسدنته الهاشميون آل البيت .

والشئ الآخر الذي كانت تحتاجه الدولة هو الدعم المادي ولهذا بين بدر وأحد لم تتوقف سرايا المسلمين عن مداهمة طريق الإيلاف ، وشن حملاتها التأديبية على القبائل ، مع ظاهرة جديدة تمثلت في شرع نظام الاغتيال ، باغتيال رؤوس القبائل وأشراف الناس وسراتهم وحكمائهم ، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذي رثى قتلى بدر شعرا ، وتبعه قطع عدد من الرؤوس خاصة بعد وقعة أحد .

لم يقف الحد عند هذا ، بل تعداه إلى التخلص من اليهود وإجلائهم عن المدينة ، فعند العودة الظافرة من بدر الكبرى ، كان الوحي يسترسل طالبا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم ، وذلك في النص "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم" (الأنفال ٦٠) ، فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف ، وهم ملأ مكة ، أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكي الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين ؟ إنه ما أوضحته الأحداث

التالية بنداء النبي – صلى الله عليه وسلم – لرجال ÷ "من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه" ، وهو ما تم تنفيذه بالفعل في عدة رؤوس يهودية ، وهو المنحى الذي جاءت مفاصله في آيات تنسخ حرية الاعتقاد ، لتنهي العمل بآيات من قبيل "لكم دينكم ولي دين" (الكافرون ٦) ، وتلغي الصفح الجميل والصبر الأجمل ، لتؤكد معنى جديدا هو "إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران ١٩) .

وهي السياسة التي ابتغت انضواء اليهود الكامل ، السياسي والعقدي ، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مؤسسها ، أو استئصال شأفتهم من يثرب ، وهو الأمر الذي كان سببه الوضع الخاص جدا باليهود ، كأصحاب كتاب سماوي ودستور عقدي وأيديولوجيا تاريخية موثقة ، وهو ما جعلهم المنكر الحضارى الحي لنبوة النبي العربي ، مما كان يشكل خطرا دائما وحقيقيا على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العربية ، وهو ما صب في إعلان واضح يسفر عن الهدف ، فيما جاء مرويا عن الزهري عن عروة :

نزل جبريل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذه الآية : "وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين" (الأنفال ٥٨) ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : أنا أخاف من نبي قينقاع ، فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة[١٠٤] .

ومن ثم انجلت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة ، مع استيلاء المسلمين على كراعهم وأسلحتهم وأرضهم .

توابع أحد

ترنحت الدولة الطالعة ، وكان لا بد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودءوب لا يكل ولا يهدأ ، لإصلاح ما أفسدته أحد ، وذلك بضرب كل من سولت له نفسه الطمع في النيل من سلطان الدولة ، ولما لم يكن ممكنا الخروج في ذلك الظرف إلى قريش ، والجروح لم تزل طازجة ، ومعنويات المسلمين في حضيضها ، فقد اتجه السيف الإسلامي إلى اجتثاث الرؤوس التي أخذت ترتفع وتتطاول على السلطان المحمدي في يثرب أو خارجها ، ومن ثم تدحرجت رؤوس عدة ، منها رأس سلام بن أبي الحقيق المعروف بأبي رافع ، وأبي عفك عمرو بن عوف ، وعصماء بنت مروان عقيلة ابن خطمة (كما أسلفنا) ، وخالد بن سفيان سيد هذيل ، وفاطمة بنت ربيعة زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها (كما أسلفنا) ليكون هذا المسلسل من العنف والاغتيالات والتصفية الجسدية ، إعلانا عن أن السيف المحمدي وإن كسرت منه الذؤابة في أحُد ، فإنه ما زال قويا مقتدرا بل وعنيفا ، إعلانا عن إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مستقبلها ولو مع التضحية بأرواح كثيرة .

اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم - :

اخرج إلينا في ثلاثين رجلا من أصحابك ، وليخرج منا ثلاثون حبرا ، حتى نلتقي بمكان المنصف ، فيسمعوا منك ، فإن صدقوا وآمنوا بك ، آمنا بك ، فلما كان الغد ، غدا عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالكتائب فحصرهم فقال لهم : إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه ، فأبوا أن يعطوه

عهدا ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم[١٠٥] .

ويفهم من الحديث هنا أن يهودا أرادت اختبار نبوة النبي بالحوار المعرفي والفقهي الديني ، لكن النبي رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم كتائبه العسكرية ، وقاتل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه ، ثم أن قريظة رضيت بالعهد دون قتال .

غزوة النضير

يقول الطبري في تاريخه إن يهود النضير عندما أجابوا النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى ما طلب:

قام وقال لأصحابه : لا تبرحوا حتى آتيكم ، وخرج راجعا إلى المدينة ، فلما استلبث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصحابه ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى انتهوا إليه .. فقالوا : يا رسول الله ، انتظرناك ومضيت ، فقال : يهود همت بقتلي وأخبرنيه الله عز وجل .

أما كيف همت نضير بقتل النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو جالس وسط رجاله ، وكيف علم النبي وحده بتلك المؤامرة ، فهو ما تخبرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول : "فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج عائدا إلى المدينة"[١٠٧] ، وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا : "إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدا ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه"[١٠٨] .

ومن ثم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء الصادق بخيانة بني نضير الواضحة ، وهو الجلاء عن يثرب ، وزيادة في النكاية بهم أرسل النبي لهم واحدا من الأوس هو محمد بن مسلمة ، يحمل إليهم رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – تنذر وتقول بلا لبس :

اخرجوا من بلدي فلا تساكنونني بها ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن رُئى بعد ذلك ، ضربت عنقه[١٠٩] .

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هي ، لكن ها هي الرسالة واضحة مفصحة تؤكد أنها قد أصبحت بلد الرسول ، وأنه سيدها ، وأن عليهم مغادرتها فورا وخلال أيام عشرة أو يكونوا في خسر تقطع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين وذلك بعد أن تغيرت القلوب أو بنص الطبري "تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود" .

ويقول ابن كثير أن النضير لما "نابذوه بنقض العهود ، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .. فحاصرهم ست ليال .." ، لكن يهود لم تستسلم ، وهنا أمر النبي بهدم مساكنهم المنتشرة حول حصونهم ، كما أمر بالمعاول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات ، فنادوه :

يا محمد ؛ قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال تقطيع النخل وتحريقها ؟!(١١٠)

ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون ؟(١١١) .

وقال الحلبي في سيرته :

لما قطعت العجوة ، شق النساء الجيوب ، وضربن الخدود ، ودعون بالويل . وعند ذلك نادوه .. يا أبا القاسم .. ما هذا الفساد ؟ .. يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض ؟ وقالوا للمؤمنين : إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون ؟!(١١٢) .

قال السهيلي في شروحه :

فوقع في نفوس المسلمين شئ من هذا الكلام(١١٣) .

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادئ توجه إليها الانتقادات والملامات ، أو أفكار تعاب ، فالمعركة يجب أن تحسم ، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التي قعدها قوم مزارعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم ، وعليه فقد جاء الرد وحيا يرفع الملامة عن النبي وصحبه ، يؤكد ألا ملامة في قطع الزرع وحرق النخيل ، فكله بأمر الله وحده وإرادته ، ليقول الآي الكريم "ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين" (الحشر ٥) .

واستمر الحصار يوما وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يوما ، وهنا "صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة"(١١٤) . ولهم ما حملت الإبل ، ووافق النبي الكريم – صلى اله عليه وسلم – لكن حتى لا تحمل الإبل متاعا ، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بعيرا واحدا يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله .

وحاء وقت توزيع الغنائم ، وفي ذلك يقول الحلبي "كان نخل بني النضير لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – خاصة ، أعطاه الله تعالى إياه .. وأكثر الروايات ، أن أموال بني النضير أي مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم ، حق لرسول الله خاصة له .. حبسا لنوائبه ، وكان ينفق على أهله منها ، وكانت صدقاته منها"(١١٥) . وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال : "إن أموال بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله ، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – خالصة(١١٦) . وهو ما جاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره ، حيث أوضحت أن المسلمين لم يبذلوا في سبيله ولم يحاربوا من أجله ، ومن ثم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وبين بني النضير ، لذلك فهو من حق النبي وحده ، حين تقول الآيات "وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل

ولا ركاب" (الحشر ٦) ، أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله ، حيث تؤكد الآيات "ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير" (الحشر ٦) .

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث ، يتردد صداها بين فيافي الجزيرة ويسري مع الرياح يسمع مضارب القبائل في كل مكان ، ورجع الصدى منه يرجف قلوب العرب ويصك أسماعهم ، حيث تقول :

"سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب" (الحشر ٤/١) .

ولم تنقض أيام بيثرب على الجند المكدود ، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان ، التي كانت حليفا للنضير ، والتي وعدت بإمدادهم وتراجعت ، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة ، ومن ثم كان من الضروري إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية ، هي الغزوة المعروفة بذات الرقاع ، التي أراد بها النبي بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعدادا عسكريا متميزا لملاقاة الجيوش ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة ، ويروا أمامهم جيشا مستعدا متجهزا . ليروي لنا الطبري ما حدث في قوله : "الناس ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضهم بعضا ، حتى صلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالمسلمين صلاة الخوف ، ثم انصرف بالمسلمين"[١١٧] .

ومع الحملات الفاشلة على التوالي ، كان لا بد أن يجد رواتنا عافاهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات ، فالتجأوا كعادتهم إلى حديث المعجزات ففي غزوة ذات الرقاع ، يروي لنا الإمام النويري رواية عجيبة تقول ، وفي هذه الغزوة جاءته – أي إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – امرأة بابن لها ، فقالت : يا رسول الله هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان ، ففتح فاه فبزق فيه وقال : أخسأ عدو الله ، أنا رسول الله ، ثم قال – صلى الله عليه وسلم -: شأنك بابنك ، لن يعود إليه شئ مما كان يصيبه ، فكان ذلك"[١١٨] .

وفي تلك الغزوة التي لم تحقق شيئا ، نجد حديثا آخر يملأ الفراغ بالمسليات من معجزات ، حيث لا ملائكة ، ولا دور عسكري يقوم به جبريل ، فتقول إحدى الروايات أن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل ، فنفدت ميرتهم من الطعام ، فعثروا على ثلاث بيضات نعام ، فقال النبي للصحابي جابر : "دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات ، قال جابر : فعملتهن ثم جئت بهن في قصعة ، فجعلنا نطلب خبزا فما نجد ، فجعل النبي وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز ، حتى انتهى كل إلى حاجته ، أي إلى الشبع ، والبيض في القصعة كما هو"[١١٩] .

ويبدو أن تلك الغزوة التي خاف فيها النبي والمسلمون القتال ، حتى صلوا صلاة الخوف ، كانت مدعاة لكثير من حديث المعجزات ، لملئ فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء ، وهي معجزات شبيهة بالمعجزات

اليسوعية ، فطرد الشيطان من الأجساد ، وإطعام الجمع الغفير في القفر بالقليل من الطعام ، معجزات معلومة للمسيح ، فيسوع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية ، كما أطعم جمعا غفيرا برغيف وسمكتين بعد أن باركها ، وبقيت فضلات تملأ أجولة ، ثم تأتي هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية ، يتحول فيها النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى قدرة التحادث مع الحيوانات ، وهو ما ورد في قصة البعير الذي جاء وحدث النبي بشكواه فأنصفه[١٢٠] .

غزوة الخندق

لم تتوان قريظة عن الوفاء بمعاقلها مع النبي ، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأتربة ، وهو ما قررته كتبنا الإخبارية وهي تمر على الخبر سريعة دون توقف ، في برقية موجزة مقتضبة تقول : "واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة ، ومساحى وكرازين ومكاتل"[١٢١] .

عن سلمان الفارسي : أنه قال : ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت على صخرة ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – قريب مني ، فلما رآني أضرب ، ورأى شدة المكان عليّ ، نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب ضربة ، فلمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، قلت :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما هذا الذي رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب ؟
قال : أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟
قلت : نعم .
قال : أما الأولى فإن الله قد فتح عليّ بها اليمن ، أما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب وأما الثالثة ، فإن الله فتح عليّ بها المشرق[١٢٢] .

فندر ثلث الحجر ، وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله برقة ، ثم ضرب الثانية وقال : وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلمات الله ، وهو السميع العليم ، فندر الثلث الآخر وبرقت برقة ، فرآها سلمان ، ثم ضرب الثالثة وقال : وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم ، فندر الثلث الباقي ، وخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخذ رداءه وجلس ، فقال سلمان : يا رسول الله رأيتك حين ضربت ، لا تضرب ضربة إلا معها برقة ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأيت ذلك يا سلمان ؟ قال : أي والذي بعثك بالحق ، قال : فإني حين ضربت الضربة الأولى ، رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة ، حتى رأيتها بعيني ، قالوا : يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا ، ويغنمنا ذراريها ونخرب بأيدينا بلادهم ، فدعا بذلك .

قال : ثم ضربت الضربة الثانية ، فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني ، قالوا : يا رسول الله : دعوا الحبشة ما وادعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم[١٢٣] .
ولا ينتهي حديث الصخرة والبرقات الثلاث إلى هنا ، إنما يتزايد ويتضخم ، لتتحول الشرارات الثلاث – التي رآها سلمان ، لأنه كان بجوار النبي – صلى الله عليه وسلم – والتي استدعت دهشة النبي وهو يسأل

سلمان : أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟ - تتحول إلى برق إعجازي أسطوري يسجل آية عظمى ، فيدوّنها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة ، ليس فقط لإبراز المعجزة ، إنما أيضا لإبراز قوى النبي الجسدية الهائلة التي صدعت الصخرة ، فيقول :

فأخذ المعول ، وضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة فكبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكبر المسلمون ، ثم الثانية كذلك ، ثم الثالثة كذلك ، ثم خرج وقد صدعها ، فسأله سلمان عما رأى من البرق ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :

أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى ، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم ، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء . وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها[١٢٤] .

أما البيهقي ، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة ، وجامع تلك الدلائل التي رآها جميعا إعجازية ، فقد وجد في قصة الصخرة مناسبة طيبة ليقدمها بما يليق بها من دلائل النبوة ، ليكرر ، ولكن ليفصل القول بقوله:

فأخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المعول من سلمان ، فضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها (أي لابتي يثرب) ، حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تكبيرة فتح ، فكبر المسلمون ، ثم ضربها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الثانية فصدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تكبيرة فتح وكبر المسلمون ، ثم ضربها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الثالثة فكسرها ، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ، حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكبر المسلمون .

فقال سلمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط ، فالتفت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى القوم فقال : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا ، قد رأيناك تضرب ، فخرج البرق كالموج ، فرأيناك تكبر ولا نرى شيئا غير ذلك ، فقال : صدقتم ، ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى ، كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتي الثانية ، فبرق الذي رأيتم ، أضاء لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل – عليه السلام – أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق منها الذي رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل – عليه السلام – أن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا .

ويعقب البيهقي تعقيبا واضح المدلول بقوله : إن الرسول أراد بذلك أن "يبلغهم النصر"[١٢٥] . وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخبارا عن صخور أخرى وصياغات أخرى ، وهو ما جاء في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق ، تقول :

وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عبرة في تصديق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون ، فكان مما بلغني ، أن جابر بن عبد الله كان يحدث : أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية ، فشكوها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من حضرها : فوالذي بعثه بالحق نبيا ، لانهالت حتى عادت كالكثيب(١٢٦) .

ولكن كان لمعتب بن قشير رأيا آخر فها هو يعقب على حديث الصخرة والفتوح المقبلة ساخرا يقول برواية ابن الأثير :

ألا تعجبون ؟ !
يعدكم الباطل !!

ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرَّزوا؟!(١٢٧) .

أو برواية ابن هشام :

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؟!(١٢٨).

ومع الحصار ، واشتداد الأزمة ، يستطيب رجالاتنا حديث الأحاجي ليستمرئوا الاستمرار فيه ، فيروي ابن اسحاق :

وحدثني سعيد بن مينا أنه حدث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير ، قالت : دعتني أم عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ، ثم قالت : أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما .

قالت : فأخذتها فانطلقت بها ، فمررت برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا ألتمس أبي وخالي ، فقال : تعالي يا بنية ؛ ما هذا معك ؟ قالت : قلت : يا رسول الله هذا تمر بعثتني أمي به إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله ابن رواحة ، يتغذيانه ، فأمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب(١٢٩) .
عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله قال :

عملنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الخندق ، فكانت عندي شويهة غير جد سمينة ، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا

منه خبزا ، وذبحت تلك الشاه فشويناها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما أمسينا وأراد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الانصراف من الخندق ، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا ، قلت : يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا ، وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير ، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي ، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحده .

فلما أن قلت ذلك ، قال : نعم ، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بيت جابر بن عبد الله ، قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فأقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها إليه ، فبارك وسمى ثم أكل ، وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس ، حتى صدر أهل الخندق عنها[١٣٠] .

وذات الرواية تروي عن جابر أيضا ، لتفسر السر وراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفي ألف رجل على الأقل ويفيض عنهم ، فتقول :

وجئت امرأتي فقالت : بك وبك .. فأخرجت لنا عجينا فبسق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا فبسق وبارك ، ثم قال : ادع خبازة فلتخبز معك ، واقدحي من برمتك ، ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هي ، وإن عجيننا كما هو[١٣١] .

الإيقاع بين الأحزاب وقريظة

رغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة ، وكيف دبرت ، ومن دبرها ، للإيقاع بين الأحزاب وقريظة ، فإنه يقول بهدوء المؤمن الواثق : "وخذلك الله بينهم" . وحتى يتضح ذلك التدخل الإلهي ، الذي يجب أن تظهر له مظاهر واضحة ، في أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد القول عند ابن قتيبة :

أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة رسول الله ، عن عكرمة قال : لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال : انطلقي نمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت الشمال : إن الحرة لا تسري بالليل ، فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا[١٣٢] .

وهو الأمر الذي جاء تأكيده وحيا يقول :

"يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا" (الأحزاب ٩) .

وهي الجنود الملائكية التي لم تحارب أبدا في الخندق ، وهو ما جاء مشروحا عن مجاهد : "وجنود لم تروها يعني الملائكة ، ولم تقاتل الملائكة يومئذ"[١٣٣] ، وهو ما يعني أن الملائكة كانت وراء تلك الريح الصرصر العاتية ، وأنها أخذت تعبث بالمهاجمين وتقلع خيامهم وتكفأ قدورهم وتطفئ نارهم .

وهكذا يعود ابن هشام من قوله : "وخذل الله بينهم ، إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من أساليب الخداع الإنساني ، فيتابع القول : "وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة الرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم ،" ، مصورا فعل الطبيعة قاصرا فقط على الأحزاب ، لكن بعد سنوات من الخندق ، نجد الصحابي أبا حذيفة يحكي لجلسائه مشاهده القتالية مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقول له جلساؤه : والله لو كنا شهدنا ذلك ، لكنا فعلنا وفعلنا ، فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام ، بعيدا عن واقع الفعل ، ليحكي لهم عن تلك الليالي الشاتية قوله :

لا تمنوا ذلك ؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي – صلى الله عليه وسلم – ويقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم ويتسللون ، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك(١٣٤) .

مذبحة قريظة

عن عائشة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار ، فقال : يا محمد أوضعتم أسلحتكم ؟ فقال : وضعنا أسلحتنا ، فقال : إنا لم نضع أسلحتنا بعد ، أنهد إلى بني قريظة ، ثم قال البخاري .. عن أنس بن مالك قال : كأني أنظر إلى الغبار ساطعا في زقاق بني غنم ، موكب جبريل حين سارع رسول الله – صلى الله عليه – إلى بني قريظة(١٣٥) .

أو برواية الطبري :

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معتجرا بعمامة من استبرق ، على بغلة عليها رحالة ، عليه قطيفة من ديباج ، فقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، وأنا عامد إلى بني قريظة ، فأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مناديا فأذن في الناس : من كان سامعا ومطيعا ، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة(١٣٦) .

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمرا إلهيا ، حمله جبريل إلى الرسول الأمين ، يقدم البيهقي الشواهد الدالة على مقدم مبعوث الإله الأول جبريل ، يحمل ذلك الأمر السماوي ، في قوله :

وخرج النبي فمر بمجالس بينه وبين قريظة ، فقال : هل مر بكم من أحد ؟ قالوا : مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء ، تحته قطيفة من ديباج ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم - : ليس ذلك بدحية ، ولكنه جبريل عليه السلام ، أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب .

هذا ؛ ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب ، فهو دحية بن فروة بن فضالة ، من الخزرج ، وكان صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –[١٣٧] .

وطاعة لأمر السماء ، خرج المسلمون إلى بني قريظة ليضربوا عليهم الحصار ، ولما يهدأ بعد غبار سوائم وخيول الأحزاب المغادرة . واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية ، ويصل الرسول إلى مقدمة الدوائر المقاتلة مقتربا من الحصون ، وبينما يصنع له أصحابه بالحجف ما يشبه البوق ليسمعهم كلامه ، كان يهود قريظة يرهفون الأسماع وهم يرجفون لندائه – صلى الله عليه وسلم - :

يا إخوة القردة والخنازير :

لكن ليرد المرتعدون :

يا أبا القاسم ما كنت فحاشا !![١٣٨] .
ليعود النبي يناديهم :

يا إخوان القردة :
هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة :

يا أبا القاسم ما كنت جهولا!![١٣٩] .

وأما ما تراه قريظة ، أخذت تصرخ طالبة من محمد – صلى الله عليه وسلم – أن يرسل إليهم من حلفائهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسي ، وسمح الرسول لأبي لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم ، وننصت مع كتب السير لذلك المسمع يقول :

قالوا : يا أبا لبابة : ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال ؟

ولم نجد قولا لأبي لبابة ، بل إشارة وحركة ذات معنى ، فيورد ابن كثير رده على التساؤل :

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمره عليه ، يريهم أنه إنما يريد بهم الذبح[١٤٠] .

وهو ذات ما يرويه الطبري في قوله :

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ، - وكانوا حلفاء الأوس – نستشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقَّ لهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم . ثم أشاره بيده إلى حلقه: إنه الذبح[١٤١] .

وندخل مع الطبري إلى حصن قريظة الكبير ، نستمع لما يدور في الداخل ، في تلك الهنيهات البارقة الراجفة من الزمن ، لنسمعه يطالع ما يحدث ويقول :

وقد كان حيي بن أخطب النضري ، قد دخل على بني قريظة في حصونهم ، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه ، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم :

يا معشر يهود ؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه .. قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا .. قال : فهلمَّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد .. ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .. قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟! فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن الليلة ليلة سبت ، وأنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، قالوا : نفسد سبتنا ؟! .. قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازما !![١٤٢] .

وينتهي المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة ، أنها لن تقاتل ، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعا ، وبالفعل ينزلون في طابور طويل يكتف فردا فردا بالحبال التي تصلهم ببعضهم ، لينتظروا مصيرهم ، آملين في موقف الأوس أحلافهم لحقن دمائهم ، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التي خرجت بأرواحها ، وتركت المال والعقار والعتاد ، وبينما هم في وهمهم هذا ، نسمع الطبري يقول :

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في دار امرأة من بني النجار (أي من الخزرج وليس من الأوس) ، ثم خرج – صلى الله عليه وسلم – إلى سوق المدينة .. فخندق بها خنادق[١٤٣] .

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقعت قريظة من الأوس ، حيث تواثبت الأوس حول النبي تذكره بأن قريظة مواليها دون الخزرج ، وأنه سبق ومنح حياة يهود لمواليهم من الخزرج ، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج في المواقف السابقة ، وهنا يجيبهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله : "ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذاك سعد ابن معاذ"[١٤٤] .

في ذلك الوقت كان سعد يعاني من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار ، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجي والمعجزات التي ينسبونها للنبي – صلى الله عليه وسلم – لأن سعداً لقى نهايته الفاجعة خلال أيام ، حيث قام النبي – صلى الله عليه وسلم – يحسم له جرحه بنفسه كيًّا بالنار ، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالنزيف ، فعاد النبي إلى كيّه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى ، أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا ، لأن الأكحل إن قطع فلا علاج له كما أفادوا ، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لا يمكن علاجه كقطع الأكحل .

وبينما سعد على حاله هذا ، أرسل إليه النبي وجاء به في مشهد يرويه الطبري بقوله :

فلما انتهى سعد إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال – صلى الله عليه وسلم - : قوموا إلى سيدكم .. فانزلوه ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : أحكم فيهم ، قال : فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء ..

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لسعد :

حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[١٤٥] .

وهنا يكشف لنا الطبري سر الخنادق التي أمر النبي بخندقتها ، بينما كان القرظيون يكتفون بالحبال ، حيث يقول : إن النبي قد "بعث إليهم ، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج إليه إرسالا ، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، المكثر لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة"[١٤٦] .

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالي :

أُتي بعدو الله حيي بن أخطب .. مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

أما والله ما لمت نفسي في عداوتك أبدا .

ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب الله وقدره ، ملحمة قد كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه[١٤٧] .

ويشرح لنا رجالاتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة ، فيصور لنا الواقدي أحد المشاهد بقوله :

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمر لنا يشق لبني قريظة في الأرض أخاديد ، ثم جلس ، فجعل علي والزبير يضربان أعناقهم بين يديه[١٤٨] .
ويحدد لنا البيهقي مكان المقتلة بدقة فيقول :

قتلوا عند دار أبي جهل التي بالبلاط ، ولم تكن يومئذ بلاطا ، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التي كانت بالسوق[١٤٩] .

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة في الجاهلية ، فإن الخزرج لذلك السبب كانوا يحملون لقريظة العداوة ، ولما كان الخزرج أخوال النبي ، فقد حبس الأسرى القرظيين لديهم ، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة ، فيقول مصورا لنا مشهدا أوسع للمذبحة :

فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم ، ويسرهم ذلك ، فنظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم إلى الخزرج ، ووجوههم مستبشرة ، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم ، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وقريظة ، ولم يكن بقي من بني قريظة إلا اثنا عشر رجلا ، فدفعهم إلى الأوس ، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلا من بني قريظة ، وقال : ليضرب فلان ، وليذفف فلان(١٥٠) .

أما شأن سعد بن معاذ فنعرف من خبره أن أكحله الذي حسمه له النبي – صلى الله عليه وسلم – قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة ، ولما كان هو صاحب الحكم الذي هو حكم الله ، فقد وجبت مكافأته ، فيما يرويه البيهقي :

إن جبريل أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – في جوف الليل ، معتجرا بعمامة من استبرق ، فقال : يا محمد ؛ من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش ؟

فقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يجر ثوبه ، مبادرا إلى سعد بن معاذ ، فوجده قد قبض . ومن ثم وقف النبي يشير إلى سعد وهو يعلن :

إن هذا الذي تحرك له العرش ..

وشيع جنازته سبعون ألف ملك(١٥١) .

أما ابن سيد الناس فيؤكد مشاركة الملائكة في تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله :

ولما حمل سعد على نعشه ، وجدوا له خفة ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : إن له حملة غيركم(١٥٢) .

ثم نعلم من مأثورنا علما جديدا بشأن تلك المذبحة ، حيث يعلمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط ، بل نالت أيضا من الصبية ، حيث يقول الطبري مدعما من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أمر بقتل كل من أنبت منهم(١٣٥) .
وهو أيضا ما يأتينا تأكيده في حكاية ابن إسحاق عن صبي نجا من المذبحة هو عطية القرظي ، حيث يقول :

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أمر بكل من أنبت منهم .. عن عطية القرظي قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم ، وكنت

غلاما ، فوجدوني لم أنبت ، فخلوا سبيلي ، رواه أهل السنن الأربعة .. وقد استدل به من ذهب من العلماء ، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ(١٥٤) .

وعن كثير بن السائب أن بني قريظة عرضوا على النبي – صلى الله عليه وسلم – فمن كان محتلما أو نبتت عانته قتل ، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته ترك(١٥٥) .

واصطفى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ريحانة بنت عمرو لنفسه ، وأمر بالغنائم فجمعت ، فأخرج الخمس من المتاع والسبي ، وأمر بالباقي فبيع في من يزيد ، وقسمه بين المسلمين(١٥٦) .
أما ريحانة بنت عمرو ، التي اختارها النبي ، فقد قال بشأنها ابن كثير :
عرض عليها النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق ، ليكون أسهل عليها ، فلم تزل عنده حتى توفى عنها عليه الصلاة والسلام(١٥٧) .

ويؤكد الطبري موقف ريحانة في قولها لسيدها الجديد :

تتركني في ملكك ، فهو أخف عليّ وعليك ، فتركها ، وكانت حين سباها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد تعصّت بالإسلام ، وأبت إلا اليهودية(١٥٨) .

تلك كانت غزوة الخندق ونتائجها وهي النتائج التي أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البليغ تبلغ العربان وتذكرهم بقولها :

"ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم . وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شئ قديرا" (الأحزاب ٢٧/٢٦/٢٥) .

انتقام النبي من غدر الأعراب

تعرضت لقاح الرسول لغدر الأعراب ، الذين أطمعتهم سوائمه ، فقدم على النبي ثمانية رجال من عرينة ، وأظهروا الإسلام ، وبعد أيام اشتكوا للنبي سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب ، وأنهم أهل بوادي لا يطيقون المدن والزروع ، فأذن لهم بالخروج لرعاية لقاحه ، الذي يرعى بذى الحدر بناحية قباء ، فظلوا فيها فترة ، ثم عدوا على لقاح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقتلوا واحدا من عبيد النبي(١٥٩) ، فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهري ، ليقبض عليهم ، ويلقوا جزاء ما قدمت أيديهم بحق النبي وبحق الدولة ، وهو الجزاء الذي جاءنا ذكره في البيهقي وهو يروي :

فلم ترتفع الشمس ، حتى أُتي بهم ، فأمر بمسامير فأحميت ، فكواهم ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وألقاهم في الحرة ليستسقون فلا يسقون ، حتى ماتوا(١٦٠) .

ويضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافة لذلك بسمل عيونهم[١٦١] .

غزوة المصطلق

هبط عليهم رسول الله (ص) برجاله في جمادي الآخرة من عام ستة للهجرة . فأخذتهم المفاجأة وشلّتهم الصاعقة ، فلم يفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسباياهم وأموالهم تُجمع بيد القائد المنتصر . ومن بين السبايا كانت جويرة بنت الحارث .

وهنا تقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور :

فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتي ، فكرهتها وعرفت أنه – صلى الله عليه وسلم – سيرى منها ما رأيت .

ثم إذ جويرية الأسيرة تدخل على النبي – صلى الله عليه وسلم – وتقول :

يا رسول الله :
أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار
سيد قومه
وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك
فوقعت في السهم لثابت بن الشماس
فكاتبته على نفسي
فجئت أستعينك في كتابتي

وهنا يتطلع سيد الخلق ، العارف بمواطن الجمال والملاحة ، ويملأ عينيه منها ، ليعقب السهيلي على ذلك التطلع الطويل بقوله : "أما نظره عليه السلام لجويرية ، حتى عرف من حسنها ما عرف ، فإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة ، ولو كانت حرة ، ما ملأ عينه منها ، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء ، ويجوز أن يكون نظر إليها ، لأنه نوى نكاحها ، كما نظر إلى المرأة التي قالت له : إني وهبت نفسي لك .. وقد ثبت عنه عليه السلام . الرخصة في النظر إلى المرأة ، عند إرادة نكاحها" .

وكل ما توقعته جويرية الحسناء ، التي تعرف قدر حسنها ، وقدمت لها الأقدار تحقيق رؤياها ، حين قال لها النبي بعد تأمله الطويل :

فهل لك في خير من ذلك ؟
قالت : وما هو يا رسول الله ؟
قال : أقضي عنك كتابك وأتزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت .

وهنا تعقب السيدة عائشة – رضي الله عنها -: "وخرج الخبر إلى الناس ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها[١٦٢] .

غزوة الحديبية

ما أن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة ، حتى أخذت مكة تهيئ رجالها على الطريق ، لتقف في وجه الغزو الآتي . وبلغ النبي أن على الطريق قد وقف بنو لؤي بجموعهم وخيلهم ، فتوجه إلى رجاله قائلا:

أشيروا عليّ ، أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم ، فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محرومين ، وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟[١٦٣] .

ويجلس سهيل مع النبي ، ويعرض عليه عروض مكة ، وهي الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات ، لا يتعرض فيها أحد للآخر ، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجاري ، ويوافق النبي .

وأن من أحب أن يحالف قريشا من العرب حالفها ، ومن أحب محالفة محمد حالفه ، ويوافق النبي .

وترتفع المطالب المكية تدريجيا للاختبار وجس النبض ليقول سهيل :

ومن أتى محمدا بغير إذن وليه رده إليهم ، ويوافق النبي .

ثم تتعالى نبرة التشدد أكثر فيقول سهيل : وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردوه إليه ، ويوافق النبي .

ويستمر سهيل : ويعود محمد برجاله عن مكة هذا العام ليعودوا في العام المقبل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادي ، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام ، يعتمر بها ثم يتركها مغادرا ، ويوافق النبي .

ويقول ابن كثير : إن المسلمين وهم يرون تشدد سهيل وتساهل النبي أمامه كادوا يهلكون غما وغيظا ونكدا ، ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمي ، فعندما بدأ النبي يملي عليا بن أبي طالب الكتاب قائلا : "اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم" ، رد سهيل على الفور :

أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟!
اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب .

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب ، يصرّون على "بسم الله الرحمن الرحيم ، لكن النبي يقول لعلي : "اكتب باسمك اللهم ؛ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو" ، لكن ليعترض سهيل : بالقول :

لو كنا نعلم أنك رسول الله
ما قاتلناك . لكن اكتب اسمك
واسم أبيك .

فيأمر النبي عليا أن يمحو "رسول الله" ، فيرفض علي رفضا قاطعا قائلا : "والله لا أمحاك أبدا ، فيسمك النبي الصحيفة – فيما روى البخاري – ويمحو "رسول الله" ، ويكتب بخط يده "محمد بن عبد الله"(١٦٤) .

ويروي البيهقي عن البراء :

كنا مع النبي أربع عشرة مئة ، والحديبية بئر فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء ماء منها ، فتوضأ ثم مضمض ودعا ، ثم صبه فيها ، فتركها غير بعيد ، ثم أنها أصدرتنا نحن وركائبنا .

ومعجزة مائية أخرى ، يرويها لنا الصحابي جابر في حوار له مع شعبة إذ يقول :

أتى رسول الله بماء في تور ، فوضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا ألفا وخمسمائة(١٦٥) .

ثم معجزة ثالثة حول تكثير الطعام عندما جاع الجيش في قول الصحابة للنبي : "يا رسول الله ، لو انتحرنا من ظهورنا ، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق ، أصبحنا غدًا إذا غدونا عليهم وبنا جمام ، قال : لا ، ولكن ائتوني بما فضل من أزوادكم ، فبسطوا أنطاعا ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم ، فدعا عليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالبركة ، فأكلوا حتى تضلعوا شبعا ، ثم لفلفوا فضول ما فضل من أزوادهم في جربهم .. عن عبد الله قال .. كنا نأكل مع النبي ونحن نسمع تسبيح الطعام"(١٦٦) .

أحداث بعد فتح خيبر

وبانتهاء المعركة ، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال ، فأما الأموال التي أوجف عليها المسلمون بالخيل والركاب ، فقد قسمت بينهم ، أما التي استسلمت وعقدت الاتفاق ، فعائدها كان خاصا لرسول الله ، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المقاتلين من جند الله .

ويؤكد لنا رواة السير والأخبار جميعا ، أن غزوة خيبر قد فشى فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملأ ، ففشت السبايا الخيبريات في المسلمين ، إلى الحد الذي دفع النبي لوقف اغتصاب النساء الحبالى ، يناشد رجاله بندائه الراقي الرحيم :

لا يحل لامرئ أن يسقي ماءه زرع غيره(١٦٧) .

وكان النبي قد قتل كنانة بن أبي الحقيق ، زوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد النضير ، وكان قد سبق وقتل أباها حيي في مذبحة قريظة ، لذلك ، وحتى لا ينصرف ذهن كائد للإسلام ونبيه الكريم ، إلى أن قتل زوجها كنانة ، كان للاستيلاء على صفية ، فإن كتب الأخبار تأتي هنا واضحة لا تحمل في خبرها لبسا ، فتعلمنا أن النبي لم يعلم بجمال صفية بنت حيي زوجة كنانة ، إلا بعد أن قتل زوجها بالفعل ، لنقضه العهود والمواثيق ، وتتفق جميعا حول رواية أنس بن مالك الذي قال :

قدمنا خيبر ، فلما فتح – صلى الله عليه وسلم – الحصن ،
ذُكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب
وقد قتل زوجها
وكانت عروسا
فاصطفاها لنفسه(١٦٨) .

وقد قدرت الأقدار ، أن تحظى صفية بالإكرام ، فتحظى بسيد الخلق أجمعين ، - صلى الله عليه وسلم - ، رغم أنها بنت عدو الله حيي بن أخطب ، الذي حزب الأحزاب ، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبي الحقيق ، الذي نقض العهود والمواثيق ، بعد اتفاقه السلمي مع النبي ، وهو ما يشرحه أنس في قوله :

جُمع السبي
فجاء دحية الكلبي فقال : يا رسول الله اعطني جارية من السبي ،
قال : اذهب فخذ جارية ،
فأخذ صفية بنت حيي ،
فجاء رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال :
يا نبي الله ، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير ؟ ما تصلح إلا لك !!

قال : ادعوا بها ، فلما نظر إليها – صلى الله عليه وسلم –
قال : خذ جارية من السبي غيرها[١٦٩] .

وفي رواية أخرى أن دحية الكلبي صديق النبي ، تم تعويضه عن صفية بسبعة رؤوس دفعة واحدة ، وهو ما أخبرنا به ثابت في قوله : "وقعت صفية في سهم دحية ، وكانت جارية جميلة ، فاشتراها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بسبعة رؤوس ، ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها" .

وما أن ارتحل الجيش عن خيبر ، حتى أناخ في سد الصهباء في الطريق إلى يثرب ، وضربت للنبي وصفية قبة ، ظل فيها النبي معها من الأيام ثلاثة ، أو بتعبير ابن كثير :

وأقام ثلاثة أيام يبني بها ..

وكانت التي جمّلتها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومشّطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك[١٧٠] .
ويروي البيهقي :

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائما قريبا من قبته .

ولما خرج الرسول من القبة سأله عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت ، فردّ أبو أيوب مفصحا عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة :

لما دخلت بهذه المرأة ،
وذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها
وعامة عشيرتها ،
فخفت لعمر الله أن تغتالك[١٧١] .

وهو الأمر الذي يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبي في قولها : "كان رسول الله من أبغض الناس إليّ ، قتل زوجي وأبي ، فما زال يعتذر إليّ ويقول : إن أباك ألّب علي العرب .. حتى ذهب ما بنفسي"[١٧٢] .

وفي خيبر أحداث أخرى حدثت ، تفصح عن كثير مما في النفوس من مكامن ، وتكشف عما في العقول من مفاهيم ، فهذه صفية تصفو للنبي ويزول ما بنفسها من بغض له ، لتخبره وهو يبني بها داخل القبة برؤيا رأتها ، يأتينا خبرها في قص البيهقي علينا :

أقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبني بصفية .. ورأى – صلى الله عليه وسلم – بعين صفية خضرة ، فقال : يا صفية ما هذه الخضرة ؟ قالت : كان رأسي في

حجر بن أبي الحقيق وأنا نائمة ، فرأيت القمر زال من مكانه فوقع في حجري ، فأخبرته بذلك ، فلطمني وقال :

تمنين ملك يثرب ؟!
أو
تمنين هذا الملك الذي بالمدينة ؟!

فأعجب الرسول – صلى الله عليه وسلم – برؤياها(١٧٣) .

وهو الرد الذي يعبر عن رؤية العرب آنذاك للنبي كملك على يثرب ، أو رؤيتهم الأوسع لما هو آت ، في صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية :

ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمدا ؟!(١٧٤)

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يوصف رؤيا صفية في قوله : "فسألها ما شأنها ؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضي الله عنها وأرضاها"(١٧٥) .

ومفهوم كنانة بن أبي الحقيق ، ومفهوم صفية بنت حيي عن النبوة بحسبانها ملكا ، هو الفهم الطبيعي الناشئ عن تأسيس دولة للعرب في يثرب ، وهي رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها ، قبل أن تعاشر النبي وتعرف معنى النبوة الحقة ، فهي لا تعلم حسب مأثورها الديني سوى الملك ، كملك داود ، وملك سليمان وغيرهما ، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش ، وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحّدا قبائل البدو في دولة تأسيسية في فلسطين ، وفي ضوء هذا الفهم يلتقي تجريد الكتائب والجيوش مع أساليب ملوك التوراة ، وهو الأمر الذي ترك في نفسها في مبدأ الأمر بغضا شديدا لذلك الملك الذي حلمت به ، وزادها بغضا ما رأته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه ، ويروي ابن هشام مشهدا لا شك كان ذا أثر عميق في نفس صفية ، حيث يقول نقلا عن ابن إسحاق :

ولما افتتح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القموص ، حصن بني الحقيق ، أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى معها ، فمر بهما بلال ، وهو الذي جاء بهما ، على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التي مع صفية ، صاحت ، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، قال : أغربوا عني هذه الشيطانة .

وأمر بصفية فحيزت خلفه ،
وأبقى عليها رداءه .

فعرف المسلمون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد اصطفاها لنفسه ، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لبلال : أنزعت منك الرحمة يا بلال ، حتى تمر بامرأتين على قتلى من رجالهما؟[١٧٦]

وهكذا كان الرسول ينبه هذا وينهي ذاك ، ويحاول رفع القسوة وانعدام الرحمة ، ويمنع نكاح الحبالى من النساء ، ومع ذلك ظلت هناك مظاهر للقسوة تنبو هنا وتطفو هناك ، مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذي لم يكتف بقتل كنانة زوج صفية ثأرا بأخيه محمود الذي ألقيت عليه الرحى ، حيث يقول الواقدي : "إن محمد بن مسلمة ضرب ساقى مرحب فقطعهما ، فقال مرحب : أجهز عليّ يا محمد ، فقال محمد : ذق الموت ذق ، كما ذاقه أخي محمود ، وظل الرجل على حاله يعاني لولا أن مر عليه الإمام علي ففصل رأسه عن جسده رحمة به[١٧٧] .

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا في أمر صفية ، هل ظلت محظية ضمن جواري الرسول أم تزوجها لتصبح من أمهات المؤمنين ، خاصة أنه قد بنى بها ولم تكمل عدتها ، لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعتقها وتزوجها ، وهو ما جاء في الشاهد : "قال حماد ، قال عبد العزيز لثابت ، يا أبا محمد ، أنت قلت لأنس ما أصدقها ؟ قال أصدقها نفسها ، فحرك ثابت رأسه كأنه صدقه"[١٧٨] بمعنى أنه تزوجها بدليل أنه أعطاها صداقا ، وأن هذا الصداق كان عتقها .

ولا يمضي من الزمن هنيهات وأيام ، حتى يحدث أمر جلل ، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالسم ، وهو ما جاء في رواية تقول :

دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على صفية ومعه بشر بن معرور ، وهو أحد بني سلمة ، فقدمت إليهم الشاة المصلية ، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها ، وتناول بشر عظما وانتهش منه"[١٧٩] .

ويلوك النبي نهشته من لحم الكتف ، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيوفه "ارعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنه مسموم ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان" ، ويموت بشر من نهشته ، ويشعر النبي بآثار السم القاتل تسري في بدنه ، فيحتجم يومئذ ، وقد حجمه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة ، وبقي رسول الله بعده ثلاث سنين ، حتى كان وجعه الذي توفى فيه ، فقال : "ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عددا ، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري ، فتوفي رسول الله شهيدا ، قال ابن هشام : الأبهر هو العرق المعلق بالقلب .. فكان المسلمون يرون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد مات شهيدا ، مع ما أكرمه به الله من النبوة"[١٨٠] .

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتأريخ ، أن تلك الشاة المسمومة ، جاءت صفية هدية من قريبة يهودية لها هي زينب بنت الحارث أهدتها لها لتقدمها إلى سيد الخلق المصطفى ، ولما سألها النبي لم اقترفت ذلك العمل الشنيع ؟ قالت : "قتلت أبي وعمي وزوجي وأخي .. قال القاضي عياض : واختلفت الآثار والعلماء ، هل قتلها النبي – صلى الله عليه وسلم – أم لا ؟"[١٨١] .

غزوة مؤتة

على رأس السرية يوفد النبي زيدا بن حارثة في ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان النبي يعلم جيدا ماذا يواجهون ، ويعلم سلفا النتائج ، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتي ، ولعلمه – صلى الله عليه وسلم – بما هو مقدم عليه قال في رجاله : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن قتل عبد الله فليرتضي المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم(١٨٢).

وتخرج سرية الشهداء العظام ، تلك السرية الفدائية ، ميممة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبي دمشق ، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم ، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرأوا على حدود مملكته في مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من القبائل العربية المتاخمة للروم والموالية لها ، وهو الهول الذي يصوره أبو هريرة قائلا :

شهدت مؤتة ، فلما دنا المشركون منا ، رأينا ما لا قبل لأحد به(١٨٣) .

وكان طبيعيا أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة ، وكثيرا من مقاتلي المسلمين المقدمين ، حتى تناول خالد بن الوليد الراية ، لينسحب بما بقي من الجيش الذي عاد ممزقا إلى يثرب ، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه في وجوههم يقولون :

يا فرار ، فررتم في سبيل الله .

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن أبلغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة ، وإلى قريش ، وإلى العالم أجمع ، بقوله للناس :

ليسوا بالفرار ،
لكنهم الكرار إن شاء الله .

إعلانا عن أن تلك السرية الفدائية كانت مقدمة ، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين ، وأن هناك كرّات آتية وكرّات ، وأن الوعد النبوي قائم كعلم يرفرف لا يتراجع ، يردد في مسمع العربان : "والذي نفس محمد بيده ، لتملكن كنوز كسرى وقيصر" .

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر ، فقد نالوا كفايتهم من الثواب ، إلى الحد الذي ارتفعوا فيه إلى مصاف كبار الأنبياء ، بعد أن رآهم النبي في رحلة سماوية في رؤياه ، حيث اطلع عليهم في فردوس الرحمن "فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر ، فقلت من هؤلاء ؟ قالوا :

هذا جعفر بن أبي طالب
وزيد بن حارثة
وعبد الله بن رواحة .

ثم أشرفوا شرفا آخر ، فإذا بنفر ثلاثة ، فقلت من هؤلاء ؟ قالوا :

هذا : إبراهيم
وموسى
وعيسى
عليهم السلام ، وهم ينتظرونك .

فتح مكة وإسلام أبى سفيان

وتوجه أبو سفيان مع العباس بعد الصلاة ليراه النبي فيفاجئه بالسؤال :

ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

يقينا يعلم أبو سفيان ذلك ، وكذلك سائر قريش يعلمون يقينا ، أن لا إله إلا الله ، وقد شهدت لهم الآيات القرآنية بذلك العلم ، فالله لا إله سواه ، لكن هناك الأرباب الأدنى درجة من الإله ، تلك التي تشفع للناس عند الله ، ومن ثم كنت إجابة أبي سفيان :

بأبي أنت وأمي
ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره
لقد أغنى عني شيئا بعد .

وهنا ينتقل النبي إلى الشق الثاني من السؤال ، وهو الشق الذي لا شك سيشق على أبي سفيان ، فيقول له :

ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربي في التعبير عن الدواخل ليرد قائلا :

بأبي أنت وأمي
ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك
أما هذه
والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير موفقة بالمرة ، وأن الأمور قد تغيرت ، حتى أساليب التعامل العربية لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثوى الأخير ، فيسرع العباس ينبه الرجل بقوله :

ويحك
أسلم واشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمدا رسول الله
قبل أن تضرب عنقك

وعلى الفور يقولها زعيم قريش ، ويسلم الرجل[١٨٥] ، ثم يقول متلعثما محاولا إظهار تمسكه بدينه وبهيبته :

وكيف أفعل بالعزى ؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة ، فيرد عليه بصوت عال ساخرا ضاحكا ليسمعه :

نخرا عليها

فيقول أبو سفيان : "ويحك يا عمر إنك رجل فاحش ، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم"[١٨٦] .

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبي – صلى الله عليه وسلم - : "يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا" .

كان الأمر إذن مقضيا ، وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها ، حتى أن العباس رأى أن يجعل لزعيم قريش شيئا بعدما لم يبق له شئ .

ويرى النبي أنه لا بأس من شئ لأبي سفيان فيقول : "نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن" .

خرج النبي إلى ساحة الكعبة ، يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، ويؤكد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه ، لكن ابن كثير لم يعجبه ذلك ، ورأى في سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزيّداً ورواية ضعيفة[١٨٧] .

وقد أمر الرسول بقتل عدد من الرجال سماهم بأسمائهم حتى لو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة .

وممن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة ، عبد الله بن أبي سرح ، لأنه كان قد أسلم ، واشتغل بكتابة الوحي للنبي ، ثم ارتد إلى مكة مشركا ، وقد جاء به عثمان إلى النبي يستأمنه ، وهو ما جاء عند ابن كثير راويا : فلما جاء ليستأمن له صمت عنه الرسول طويلا ، ثم قال : نعم ، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله : أما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم إلى هذا – حين رآني قد صمت – فيقتله ؟! فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا ؟ فقال : إن النبي لا يقتل بالإشارة"(١٨٨) .

وتقول رواية أخرى بذات الخصوص أن واحدا من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبي سرح نقمت عليه ، فلما جاء به عثمان وكان الأنصاري حاضرا ، وبعد ما خرج عثمان وأخوه قال النبي للأنصاري : "هلا وفيت بنذرك ؟ فقال : يا رسول الله وضعت يدي على قائم السيف أنتظر منك أن تومئ لي فأقتله ، فقال النبي : ليس لنبي أن يومئ"(١٨٩) .

خالد بن الوليد وقتله للمسلمين

رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمي جذيمة ، وأنه ، قتل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيتهم ، وقتل أكثر الأسرى أيضا ، فمع هذا لم يعزله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بل استمر به أميرا .. لهذا لم يعزله أبو بكر في خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة ، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم ، فقال له عمر بن الخطاب : اعزله فإن في سيفه رهقا ، فقال له الصّديق : لا أغمد سيفا سلّه الله على المشركين"(١٩٠) .

وقعة حنين

مع ما جاءت به الآيات الكريمة "وأنزل جنودا لم تروها" فتح الباب لحديث المعجزات ، ورغم القرار الواضح في الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها ، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها ، لتأكيد وجود الملأ الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين ، ومن تلك الشهادات رواية تقول :

أن مالك بن عوف النصري بعث عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى(١٩١) .

ثم نموذج آخر مُجهَّل المصدر بدوره ، لا نعرف أصحابه في رواية تقول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطلبي والطالبي :

عمن شهد حنينا كافرا قال : لما التقينا نحن ورسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، لم يقوموا لنا حلب شاة ، فجئنا نهش سيوفنا بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، حتى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه ، فقالوا : شاهت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام(١٩٢) .

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتي الحديث منسوبا إلى شيبة بن عثمان العبدري ، الذي خرج من قريش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله في زحمة القتال ، فيقول ابن كثير راويا على لسان شيبة :

لما رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم حنين قد عُرى ، ذكرت أبي وعمي وقتل حمزة إياهما ، فقلت اليوم أدرك ثأري من رسول الله – صلى الله عليه وسلم - .. ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف ، إذ رفع شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق ، فخفت أن يمحشني[١٩٣] .

هذا بينما يروي البلاذري الرواية ذاتها ، لكن من منطق آخر ، حيث يقول :

وكان شيبة بن عثمان العبدري شديدا على المسلمين ، وكان ممن أومن فسار إلى هوازن طمعا في أن يصيب من النبي – صلى الله عليه وسلم - ، قال : فدنوت منه ، فإذا أهله محيطون به ، ورآني فقال : يا شيب إليّ ، فدنوت منه فمسح على صدري ودعا لي فأذهب الله كل غل فيه ، وملأه إيمانا وصار أحب الناس إليّ[١٩٤] .

أما ذلك الراوي الذي كان طوال الوقت مغرما بالنمل ، يرى فيه صورة الملائكة ، فيروي لنا على لسان جبير بن مطعم قوله :

إنا لمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم حنين ، والناس يقتتلون ، إذا نظرت مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم ، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادي ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فما كنا نشك أنها الملائكة[١٩٥] .

أما السهيلي فيشرح لنا اختيار النمل تحديدا لتتلبسه الملائكة فيقول :

ورآهم جبير على صورة النمل المبثوث ، إشعارا بكثرة عددها ، إذ النمل لا يُستطاع عدّها ، مع أن النملة يضرب بها المثل في القوة ، فيقال : أقوى من نملة ، أنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف ، وقد قال رجل لبعض الملوك : قوتك قوة نملة ، فأنكر عليه ، فقال : ليس في الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة[١٩٦] .

أما ابن سعد فيخالف الآيات وعلم الله الصادق فيؤكد رؤية الملائكة ، وأن سيماءهم يوم حنين كانت عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم[١٩٧] ؟!

ويعود هنا حديث الحصيات المباركات مرة أخرى في رواية يوردها ابن كثير تقول :

فنظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال : الآن حمي الوطيس ، ثم أخذ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار ثم قال : انهزموا ورب محمد .. ما بقي أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب ، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد ،

فهزمهم الله عز وجل ، ثم أقبل على المشركين فرمى بها في وجوههم وقال : ارجعوا ، شاهت الوجوه ، فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى في عينيه(١٩٨) .

عام الوفود

قال محمد بن إسحاق :
لما افتتح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

قال ابن هشام :
حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود .

قال ابن إسحاق :
وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش ، لأن قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل أفواجا ، يضربون إليه من كل وجه .

يقول الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم -:
"إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا" (سورة النصر)(١٩٩) .

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال :
نُصرت بالرعب ، وأُعطيت الخزائن وخُيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتي ، وبين التعجيل ، فاخترت التعجيل(٢٠٠) .

في أول شهر ربيع الأول يطلب النبي عبده أبا مويهبة ، ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه ، الذين ماتوا في حروب إنشاء الدولة ، ويذهب معه إلى البقيع متحاملا على نفسه ، ليقف وسط المقابر يقول للموتى :

السلام عليكم يا أهل المقابر
ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى (؟!)

ويلتفت إلى أبي مويهبة يقول له :
إني قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة .

ليقاطعه عبده المخلص :
بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة

لكن ليرد عليه المصطفى – لهفي عليه :
لا والله يا أبا مويهبة
لقد اخترت لقاء ربي والجنة

ثم يروي أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر ، ثم عاد أدراجه ليبتدأ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس[٢٠١] :

لما حضر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب ، قال النبي : هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، فقال عمر : إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت فاختصموا ، منهم من يقول : قربوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم – صلى الله عليه وسلم – قوموا – قال عبد الله بن مسعود – فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم .

لكن الشيخ يؤكد أن أصحاب السنن والأخبار ، قد تصرفوا في قول عمر : "إن النبي قد غلب على الوجع ، فنقلوه بالمعنى لأن لفظه الثابت : "إن النبي يهجر" ، لكنهم هيئوا العبارة اتقاء لفظاعتها في حق رسول الله[٢٠٢] .

* * * * *

تلك كانت حروب الرسول – ص – التي أداخ بها العرب وغيرهم وبها استتبت الأمور في امبراطوريته المترامية الأطراف ، وبها تحقق حلم جده الأكبر قصي وجده المباشر عبد المطلب .

المراجع

(١) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٦١
(٢) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٦٣
(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٨٧
(٤) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ٧٧
(٥) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٦٠
(٦) المصدر السابق
(٧) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٦٦
(٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٧١
(٩) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٩٢
(١٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٤
(١١) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ٣٩
(١٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١٣
(١٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١٣
(١٤) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ٣٦
(١٥) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٨٩
(١٦) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٩١
(١٧) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٩٨
(١٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٨٣
(١٩) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٨٠
(٢٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١٢
(٢١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١٠
(٢٢) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ٣٨
(٢٣) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٥٤
(٢٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٥٣
(٢٥) المصدر السابق ص ٤٥٤
(٢٦) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٥١
(٢٧) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ٤١
(٢٨) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٥٨
(٢٩) المصدر السابق ص ٨٧
(٣٠) ابن سيد الناس – ج ١ ص ٣١٢
(٣١) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٣٠٩
(٣٢) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٦٠
(٣٣) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٠٢

(٣٤) في الفلسفة الإسلامية – ابراهيم البيومي ص ٨٣
(٣٥) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٥٨
(٣٦) الروض الأنف – السهيلي
(٣٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٠٧
(٣٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٣ ص ٢٨٠
(٣٩) المحبر – ابن حبيب ص ١١٦
(٤٠) دلائل النبوة – البيهقي ص ١٩٣
(٤١) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٦٤
(٤٢) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ١٧٣
(٤٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٧٩
(٤٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٠
(٤٥) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٤
(٤٦) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٧٥
(٤٧) عيون الأثر – ابن سيد العيون ج ١ ص ٣٥٣
(٤٨) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٠
(٤٩) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٧٨
(٥٠) المصدر السابق
(٥١) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٥٨
(٥٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٩٩
(٥٣) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٤٩
(٥٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٩٣
(٥٥) المصدر السابق
(٥٦) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٨
(٥٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٠٢
(٥٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢٣
(٥٩) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٢٢٩
(٦٠) المصدر السابق ص ٢١٠
(٦١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٠٢
(٦٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٠٣
(٦٣) المصدر السابق ص ٥٠٥
(٦٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥١٩
(٦٥) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٥٦
(٦٦) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥١٣
(٦٧) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٢٣٦
(٦٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٠٥
(٦٩) المصدر السابق ص ٢٣٩

(٧٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢٧
(٧١) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٦
(٧٢) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٦٦
(٧٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥١١
(٧٤) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٧
(٧٥) المصدر السابق
(٧٦) المصدر السابق ص ٢٧
(٧٧) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٧٠
(٧٨) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٧٥
(٧٩) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٣١٠
(٨٠) المحبر – ابن حبيب ص ٢٨٣
(٨١) ابن كثير ج ٤ ص ٢٩
(٨٢) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٥٢
(٨٣) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٤١
(٨٤) المصدر نفسه
(٨٥) السيرة الحلببية ج ٢ ص ٥٣٤
(٨٦) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٢٩
(٨٧) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٤٩
(٨٨) صحيح مسلم – كتاب الإمارة
(٨٩) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٢٩٨
(٩٠) صحيح البخاري – كتاب المغازي
(٩١) صحيح مسلم – كتاب الفضائل
(٩٢) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٢٥٦
(٩٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٤٤
(٩٤) المصدر السابق ص ٥١٣
(٩٥) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٢٠٩
(٩٦) المصدر السابق ص ٢٥١
(٩٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥١٥
(٩٨) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٤٣
(٩٩) الروض الأنف – السهيلي ج ٤ ص ٢٣٧
(١٠٠) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٤٣
(١٠١) أنساب الأشراف – البلاذري ج ٢١ ص ١٥٦
(١٠٢) الروض الأنف – السهيلي ج ٣ ص ١٩٣
(١٠٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٧٣
(١٠٤) عيون الأثر – ابن سيد الفاس ج ١ ص ٣٥٣
(١٠٥) دلائل النبوة – البيهقي ج ٧ ص ١٧٩

(١٠٦) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٥١
(١٠٧) البداية والنهاية - ابن كثير ج ٤ ص ٧٦
(١٠٨) المصدر السابق
(١٠٩) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٤١
(١١٠) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٥٢
(١١١) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ١٨٢
(١١٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٦٤
(١١٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٥٢
(١١٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٥٣
(١١٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٦٧
(١١٦) البخاري في تفسير سورة الحشر
(١١٧) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٥٦
(١١٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٧٦
(١١٩) المصدر السابق ص ٥٧٧
(١٢٠) المصدر السابق ص ٥٧٨
(١٢١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٣٢
(١٢٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٦٢
(١٢٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٠٣
(١٢٤) الكامل – ابن الأثير ج ٢ ص ١٧٩
(١٢٥) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٤١٩
(١٢٦) سيرة ابن هشام في كتاب السهيلي ج ٣ ص ٢٦٠
(١٢٧) الكامل – ابن الأثير ج ٢ ص ١٧٩
(١٢٨) سيرة ابن هشام في كتاب السهيلي ج ٣ ص ٢٦١
(١٢٩) المصدر السابق ص ٢٦٠
(١٣٠) المصدر السابق
(١٣١) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٠٠
(١٣٢) عيون الأخبار – ابن قتيبة ج ٢ ص ٢١١
(١٣٣) دلائل النبوة – البيهقي ج ٣ ص ٤٤٨
(١٣٤) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١١٦
(١٣٥) المصدر السابق ص ١١٩
(١٣٦) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٨١
(١٣٧) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٩
(١٣٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٢٠
(١٣٩) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٨٢
(١٤٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٢١
(١٤١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٨٤

(١٤٢) المصدر السابق ص ٥٨٣
(١٤٣) المصدر السابق ص ٥٨٨
(١٤٤) المصدر السابق ص ٥٨٦
(١٤٥) المصدر السابق ص ٥٨٧
(١٤٦) المصدر السابق ص ٥٨٨
(١٤٧) المصدر السابق ص ٥٨٩
(١٤٨) المصدر السابق ص ٥٩٣
(١٤٩) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٢٠
(١٥٠) سيرة ابن هشام في كتاب السهيلي ج ٢ ص ١٠٤
(١٥١) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٢٨
(١٥٢) عيون الأثر – ابن سيد الناس ج ٢ ص ١٠٤
(١٥٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٩١
(١٥٤) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٢٧
(١٥٥) فتوح البلدان – البلاذري ج ١ ص ٢٣
(١٥٦) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٥١٠
(١٥٧) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٢٨
(١٥٨) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٩٢
(١٥٩) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٦٧
(١٦٠) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٨٧
(١٦١) عيون الأثر – ابن سيد الناس ج ٢ ص ١١٩
(١٦٢) سيرة ابن هشام في كتاب السهيلي ج ٤ ص ٨
(١٦٣) دلائل النبوة – البيهقي ج ٢ ص ١٠٠
(١٦٤) عيون الأثر – ابن سيد الناس ج ٢ ص ١٦٤
(١٦٥) أخرجه البخاري في كتاب المغازي حديث ٤١٥٢
(١٦٦) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ١١٥
(١٦٧) عيون الأثر – ابن سيد الفاس ص ١٧٣
(١٦٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٩٧
(١٦٩) المصدر السابق ص ١٩٨
(١٧٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢١٢
(١٧١) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٢٣٠
(١٧٢) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢١٠
(١٧٣) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٢٣٠
(١٧٤) الروض الأنف – السهيلي ج ٤ ص ٤٣
(١٧٥) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ١٩٧
(١٧٦) الروض الأنف – السهيلي ج ٤ ص ٤٣
(١٧٧) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٤١٦

(١٧٨) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٨٥
(١٧٩) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢١١
(١٨٠) المرجع السابق
(١٨١) دلائل النبوة – البيهقي ج ٤ ص ٢٥٧
(١٨٢) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢٤١
(١٨٣) المرجع السابق
(١٨٤) المرجع السابق ص ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠
(١٨٥) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٩
(١٨٦) المرجع السابق
(١٨٧) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٠٠
(١٨٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٦
(١٨٩) طبقات ابن سعد مجلد ٢ ج ١ ص ١٠٢
(١٩٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣١٣
(١٩١) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٢
(١٩٢) المرجع السابق ص ٣٣١
(١٩٣) المرجع السابق
(١٩٤) أنساب الأشراف – البلاذري ج ١ ص ٣٦٦
(١٩٥) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٣٢
(١٩٦) الروض الأنف – السهيلي ج ٤ ص ١٤٢
(١٩٧) طبقات ابن سعد مجلد ٢ ج ١ ص ١٠٩
(١٩٨) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٤ ص ٣٣٠
(١٩٩) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٥ ص ٣٧
(٢٠٠) البداية والنهاية – ابن كثير ج ٥ ص ١٩٧
(٢٠١) الروض الأنف – السهيلي ج ٤ ص ٢٤٦
(٢٠٢) النص والإجتهاد – عبد الحسين شرف الدين الموسوي ص ٩٠، ٩٣

الباب السادس

بصائر في عام الوفود

الشيخ خليل عبد الكريم

في الفترة من السنة الخامسة للهجرة إلى التاسعة توالى زعماء القبائل العربية من شتى بقاع الجزيرة العربية إلى المثول بين يدي النبي لإعلان فروض الطاعة والولاء لسيد الجزيرة وملك العرب المظفر. هذه الوفود هي:

١- احمس (مائتين وخمسين رجلا)
٢- ازد شنوءة (بضعة عشرة رجلا)
٣- ازد عمان
٤- بني أسد (عشرة رحال)
٥- أسلم
٦- أسير بن أبي أناس
٧- اشجع (مائة رجل)
٨- الأشعريين
٩- أعشى بني مازن
١٠- الأشعث بن قيس (ثمانين رجلا)
١١- بارق
١٢- باهلة
١٣- بنو البكائي (ثلاثة رجال)
١٤- بني بكر بن وائل
١٥- بلى
١٦- بهراء (ثلاثة عشرة رجلا)
١٧- شجيب (ثلاثة عشرة رجلا)
١٨- بني تغلب (ستة عشرة رجلا)
١٩- بني تميم (ثمانين رجلا)
٢٠- بني ثعلبة (أربعة رجال)
٢١- ثقيف
٢٢- حزام
٢٣- جرير بن عبد الله البجلي
٢٤- الجارود بن المعلى وسلمة بن عياض
٢٥- جعفى

٢٦- جهينة
٢٧- الحارث بن حسان
٢٨- بني الحارث بن كعب
٢٩- الحجاج بن علاط السلمي
٣٠- جيشان
٣١- حمير
٣٢- بني حنيفة ومسيلمة الكذاب
٣٣- خثعم
٣٤- خولان (عشرة رجال)
٣٥- الداريين
٣٦- دوس
٣٧- فرد ذئاب بن الحارث
٣٨- زبيد
٣٩- بني سعد هزيم
٤٠- بني سلامان (سبعة رجال)
٤١- بني سليم
٤٢- بني شيبان
٤٣- صداء
٤٤- ضمام بن ثعلبة
٤٥- طئ (خمسة عشرة رجلا)
٤٦- بني عامر
٤٧- بني عبد بن عدي
٤٨- عبد القيس (ثلاثة عشرة رجلا)
٤٩- عدي بن حاتم
٥٠- بني عذرة (اثنتي عشرة رجل)
٥١- بني عقيل بن كعب
٥٢- عمرو بن معدى كرب الزبيدي
٥٣- بني غامد (عشرة رجال)
٥٤- بني غسان (ثلاثة رجال)
٥٥- رحل من عيس
٥٦- فروة من مسيك
٥٧- بني قرارة (عشرة رجال)
٥٨- بني قيس بن عاصم
٥٩- بني كندة (ثمانين رجلا)
٦٠- بني محارب (عشرة رجال)
٦١- بني مرة (ثلاثة عشرة رجلا)

٦٢- بني مزينة
٦٣- معاوية بن حيدة
٦٤- بني علماء نجران
٦٥- أبو رزين لقيط عامر العقيلي
٦٦- بني النجع
٦٧- بني هلال بن عامر
٦٨- همذان
٦٩- وائل بن حجر
٧٠- وائلة بن الأسقع

لمعرفة المزيد عن هذه الوفود والحوار الذي تم بينها وبين نبي الإسلام ، يرجى الرجوع إلى كتاب "دولة يثرب – بصائر في عام الوفود" للشيخ خليل عبد الكريم – دار سينا لنشر – ١٩٩٩– الطبعة الأولى .

كان نبي الإسلام يدرك إدراكا وثيقا أن الأعراب لم تؤمن به كنبي ولكنهم أسلموا خوفا ورعدة ونجاة ، ومن ثم قرأ على أتباعه الآية التي تقول "قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا" الحجرات ١٤ ، فالأعراب امتثلوا لشعار نبي الإسلام الذي فرض على قبائل الجزيرة العربية قاطبة "أسلم تسلم" .

ولهذا كانت أوامر النبي لقادته بأن يعرضوا الإسلام على القبائل ، فإذا رفضوه قاتلوهم حتى يذعنوا إعمالا لآيات القرآن الصريحة :

"فقاتلوا أئمة الكفر" التوبة ١٢
"فقالتوا أولياء الشيطان " النساء ٧٦
"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله" البقرة ١٩٣
"فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم" النساء ٩١
"واقتلوهم حيث ثقفتموهم" البقرة ١٩١
"فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم" النساء ٨٩
"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر" التوبة ٢٩
"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" الأنفال ٣٩
"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم" التوبة ١٤

وأيضا تطبيقا للحديث المتواتر "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" .

وهو المبدأ الذي يتضح في قول خطيب نبي الإسلام ثابت بن قيس الخزرجي إلى وفد بني تميم الذي جاء ليعلن ولاءه لملك العرب :

"فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا" .

وفي هذا جاء في مسند أحمد وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد وفي الرياض النضرة ما يلي :

"أرسل محمد عليّا قائدا على السرايا فسأله علام أقاتل الناس ؟ قال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل" .

تكرر نفس المبدأ في مكتوب نبي الإسلام إلى قائد جيشه خالد بن الوليد قبل وفاة النبي بأربعة أشهر ، وهو الذي جاء فيه ما يلي "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك فإني أحمد الله إليك . الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابك جاءني مع رسولك أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسوله وأن قد هداهم بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم السلام عليك ورحمة الله وبركاته" .

حدثت هذه الواقعة قبل وفاة نبي الإسلام بأربعة أشهر مما يدل على أنه مبدأ الإسلام أو السيف كان معمولا به حتى آخر لحظة .

عندما جاء وفد الداريين على رسول الله وأسلموا وأعطوه هدايا قال له تميم : "لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما حبرى والأخرى بيت عينون ، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي . قال : فهما لك . فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له به كتابا" .

وفي هذا يقول ابن هشام:

"وكتب رسول الله – ص- لنعيم بن أوس أخي تميم الداري أن له حبرى وعينون بالشام قريتهما كلها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها ولعقبة من بعده لا يحاقه فيها أحد ولا يلجه عليها بظلم ومن ظلمهم وأخذ منهم شيئا فإن عليه لعنة الملائكة والناس أجمعين" .

إن إقطاع محمد هاتين القريتين اللتين تقعان بفلسطين (الشام) إيماءة واضحة الدلالة موجهة إلى خلفائه بضرورة الإنسياح خارج حدود جزيرة العرب لأن فيه تحقيقا لتوسيع رقعة الإسلام ومدا لسلطان قريش .

- عن محمد بن عمر الأسلمي عن ابن النعمان عن أبيه (الذي أتى مع وفد بني سعد هذيم إلى رسول الله) قال :

"قدمت على رسول الله – ص – في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله البلاد غلبة وأداخ العرب والناس صنفان إما داخل في الإسلام راغب فيه وإما خائف من السيف" إلى آخر الحديث .

هذا خبر حديث الصراحة عن وضع الجزيرة العربية في ذلك الوقت لا يدع مجالا للتخمين والحدس ويضع سدا منيعا غاية المناعة أمام المماحكة واللف والدوران والتلاعب بالألفاظ .

- وفي حديث الذارعي بن عمر عن البيهقي (واصفا قدوم وفد عبد القيس على رسول الله) :

"فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد رسول الله ورجله" . وهو يدل على مذلة الأعراب (رغم خرافة أنفة العربي وكبريائه) وتقديمه للخشوع لسيد العرب وملك الجزيرة .

- كتب نبي الإسلام إلى وفد بني علماء نجران :

"بسم إله ابراهيم واسحق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران ، إن أسلمتم فإني أحمد إليكم إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من العباد وأدعوكم إلى ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب – والسلام" .

استهلال كتابه بـ "بسم إله ابراهيم واسحق ويعقوب" استمالة لنصارى نجران . أكثر من هذا فإنه سمح للوفد أن يؤدوا شعائر صلواتهم في مسجده ، ولكن يبقى اختيار الحرب قائما عند عدم قبول الإسلام والامتناع عن دفع الجزية .

- عندما فتح محمد مكة ، استثنى أربعة رجال وقيل ستة وقينتين كانتا تتغنيان بأهاجيه وأمر بقتلهم حتى لو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، ونفح محمد أهل مكة في ذياك الوقت لقب الطلقاء وهو سبة ظلت تلاحق مستحقيها حتى آخر لحظة من حياتهم .

ما أتينا به هنا ليس إلا قطرة من بحر زاخر مما تحتويه كتب التراث الإسلامي التى تموج بالأدلة الدامغة على أن غاية نبي الإسلام الكبرى كانت هي إقامة ملك عظيم بحد السيف تتربع على رأسه عشيرته قريش .

الباب السابع

محمد والصحابة

الشيخ خليل عبد الكريم

اجتمعت في محمد الخبرة العملية من النشأة الصعبة التي جابهته في مستهل حياته وصاحبته حتى اقترانه بخديجة ، مع الثقافة العميقة المحصودة من الروافد العديدة ذات الخطر مثل أسفاره واختلاطه بأصحاب الديانات الأخرى وشعراء الحنيفية . كل ذلك بالإضافة إلى ما أطبقت عليه كتب السير والتواريخ أنه كان يتمتع بشخصية آسرة تبهر كل من يلتقيه وتأخذ بمجامع لبه . هذه العوامل : الخبرة العملية ، والثقافة الوسيعة ذات الجذور المتنوعة مع قوة الشخصية أهّلت محمدا لأن يهيمن على الصاحبة هيمنة كاملة أدهشت معاصريه حتى ممن كان يخاصمه ويناوئه بل يعاديه ويحاربه :

أ - قال ابن اسحق قال الزهري فكلمه عروة بن مسعود الثقفي "مندوب قريش في المراودات التي سبقت توقيع صلح الحديبية" بنحو مما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حربا ، فقام من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذوه ؛ فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم مثل محمد في أصحابه ...)[١] . هذه شهادة عروة بن مسعود ، سيد ثقيف وزعيمها والذي يفد على الملوك ومبادرة الصحابة بالاحتفاظ بشعر محمد وردت في عدد آخر من الأحاديث منها .

ب- (النبي – صلى الله عليه وسلم – فرّق شعره بين أصحابه ، قال أنس ، لما رمى النبي – صلى الله عليه وسلم – ونحر نسكه ، ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ثم دعا أبي طلحة الأنصاري فأعطاه إياه ثم ناوله الشق الأيسر قال : إحلقه فحلقه ، وأعطاه أبا طلحة فقال : إقسمه بين الناس)[٢] ، إذن هو خبر صحيح لم ينفرد به ابن هشام في السيرة بل أكدته كتب الصحاح ، وهو يقطع بمكانة محمد لدى صحبه وهي مكانة لم ير التاريخ لها نظيرا وطاعتهم إياه طاعة مطلقة لم يقدمها من قبل ولا من بعد أتباع لمتبوعهم .

التنفير

كان الشغل الشاغل لمحمد هو صبغ الصحابة بصبغة الإسلام وكانت الخطوة الأولى هي تنفيرهم من كل ما يمت بأدنى صلة للفترة السابقة على الإسلام (الجاهلية) واتخذ ذلك أشكالا متنوعة :-

١- (عن أسامة بن زيد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : لا يرث المسلم الكافر)[٣] منع التوارث يعني قطع أي صلة تربط المسلم بغير المسلم ومهما كانت درجة القرابة ومهما كان المال الذي تركه الكافر كان المسلم يزدريه ولا يقترب منه ولا يأخذ منه درهما واحدا .

ولما استتب الأمر لمحمد وأخذت شوكته تقوى – وفي طريقه – لكي يصبح سيد جزيرة العرب كلها بلا منازع تلا على صحابته قرآنا ينص على :

٢- (إنما المشركون نجس)[٤]
أبو سفيان – عندما سافر إلى يثرب / المدينة ليجدد العهد المعروف بصلح الحديبية بين قريش ومحمد ، دخل (أبو سفيان) بيت إبنته أم حبيبة إحدى زوجات محمد التسع وهمّ بالجلوس على فراش محمد فسارعت بطيِّه لكي لا يجلس عليه أبوها أبو سفيان لأنه نجس حسب تعليمات محمد لأنه لم يكن قد أسلم آنذاك فاندهش وقال متعجبا (والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر)[٥] .

وكان محمد إذا أتاه رجل ليدخل دينه ورأى هيئته مثل هيئة الكفار أمره على الفور أن يغيّرها :

٣- (حدّث سليمان بن مروان العبدي عن إبراهيم بن أبي يحيى عن عثيم بن كليب ابن الصلت عن أبيه عن جده : أنه أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : "إحلق عنك شعر الكفر")[٦] .

فحتى تسريحة الشعر السابقة لا يرضاها محمد لمن عزم على اعتناق الإسلام ؛ بل إن كيفية الجلوس التي اعتاد عليها الصحابى منذ طفولته فصباه فشبابه فرجولته فكهولته يحتم عليه محمد أن يقلع عنها :

٤- (عن عمر بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد قال : مرّ بي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا جالس هكذا : وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على إلية يدي فقال : (أتقعد قعدة المغضوب عليهم")[٧] .

محمدا وهو يصبغ الصحابة بصبغة الإسلام ويطبعهم بطابعه غيّر أسماء عدد وفير منهم خاصة تلك التي لا تتوافق مع أوامره ونواهيه بل حتى توجهاته ، ولم يقتصر الأمر على الأشخاص بل تعداه إلى الأماكن ، وكان من البديهي أن يسارع بتغيير اسم البلدة التي هاجر إليها فقد كانت تسمى يثرب فأطلق عليها المدينة وحرّم على أتباعه مجرد النطق بالاسم القديم ومن ينزلق لسانه بالاسم الأول فعليه "كفارة" :

٥- (عن عامر بن ربيعة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : "من قال للمدينة يثرب فكفارته أن يقول المدينة عشر مرات")[٨] .

وراوي الحديث هو عامر بن ربيعة أحد السابقين الأولين هاجر إلى الحبشة ومعه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وما بعدها . وواضح أن الهدف الذي تغياه محمد من تغيير اسم يثرب هو أن ينسى الأنصار على وجه الخصوص الفترة السابقة على وصول محمد إلى مدينتهم وكل ما يتعلق بها ومحوه من الذاكرة ورميه في بئر سحيق ؛ وفرض كفارة على من يخطئ ويتلفظ بالاسم القديم قرينة على ذلك لأن الكفارات في الإسلام هي جزاء لمن يرتكب إثما مبينا ، والكفارة التي اختارها محمد تساعد على نبذ اسم يثرب بالكلية وعلى حفظ الاسم الجديد "المدينة" وتثبيته في الوجدان بتكراره عشر مرات .

التنفير من اليهود واليهودية :

أ - مع اليثاربة :

في داخل بناء المفاصلَة الجسدية أو الهيئية نذكر الحديث الآتي :

(احفوا الشوارب واعفوا اللحى ولا تشبهوا باليهود)[٩]

مجرد المظهر الخارجي أو الهيئة التي ألفها اليثاربة من أوس وخزرج بحكم اختلاطهم بيهود يثرب ، حظر محمد عليهم الاستمرار عليها وأمرهم بعكسها : أن يحفوا (يقصوا) الشوارب ويعفوا (يطلقوا) اللحى .

(عن أبي الدرداء وواثلة بن الأسقع وأبي أسامة ، وأنس بن مالك قالوا : كنا في مجلس أناس من يهود ونحن نتذاكر القدر ، فخرج إلينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مغضبا فعبس وانتهر وقطب ثم قال : "مه ، اتقوا الله يا أمة محمد إلى آخر الحديث) .

كان محمد يعتبر الدين الذي بشّر به ودعا إليه هوية الانتماء إلى الدولة القرشية التي بدأ يرسي قواعدها في يثرب[١٠] ، ويعد الإسلام جنسية من ينتمي إليها ، فإذا خدش الإسلام ولو خدشا طفيفا كان في ذلك مساس بها خاصة وأنها كانت آن ذاك في طور النشوء ومرحلة التأسيس ، فالمشكلة إذن كانت من منظور محمد مشكلة عقيدية / سياسية في وقت واحد .

ب - مع المهاجرين :

عمر بن الخطاب نموذج للمكي المثقف الطّلع الذي يتفحص ما حوله ، ويتعذر عليه أن يعيش مغمض العينين ، فانتهز فرصة وجوده في يثرب / المدينة فبادر إلى الاتصال بيهودها وربما تردد على مدراسهم طالبا الاطلاع على كتابهم المقدس "التوراة" ، ونسخ شيئا منها وأخذ يقرأه ثم جاء به إلى محمد فما إن رآه حتى غضب غضبا شديدا واحمر وجهه :-

١- (قال : انطلقت فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به في أدم فقال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : ما هذا في يدك يا عمر ؟ فقلت : يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد علما إلى علمنا ، فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار : أغضب نبيكم .. السلاح السلاح ...)[١١] .

النداء للصلاة الجامعة لا يكون إلا في النوازل الكبيرة والملمات الجائحة أي أن محمدا اعتبر أن قراءة أحد أتباعه لصحيفة من التوراة نازلة وجائحة وبقية الحديث :

٢- (... ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون) وبعد رد الفعل العنيف من قبل محمد بهذه الصورة التي فاجأت ابن الخطاب ولم تكن في حسبانه يضطر (فيعتذر عمر ويقول : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبك رسولا)[١٢] ، وغضب محمد على عمر : إما أنه تكرر ، وهذا ما نشك فيه لأننا سوف نرى مدى الطاعة المطلقة لمحمد من قِبَل صحابته ما يدفعنا إلى التقرير بأنه من المستحيل على عمر أن يعيد فعلا أثار نقمة محمد عليه ، أو أن الخبر ورد في المصادر بطرق متعددة باعتبار أن نسخ عمر لجزء من التوراة وتعنيف محمد إياه لذلك مسألة ذات بال :

٣- (وقد غضب النبي – صلى الله عليه وسلم – حين رأى مع عمر شيئا مكتوبا من التوراة)[١٣] وفي رواية أخرى :

٤- (لذلك غضب النبي – صلى الله عليه وسلم – على عمر حين رأى معه صحيفة فيها شئ من التوراة ، وقال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ ألم آت بها بيضاء نقية ؟ لو كان أخي موسى حيا لم يسعه إلا اتباعي)[١٤] .

وهناك رواية ثالثة يرويها عز الدين بن أثير الجزري :

٥- (أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ فتغير وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : عبد الله (وهو عبد الله بن ثابت الأنصاري نزل الكوفة فيما بعد) فقلت : ألا ترى ما بوجه رسول الله – ص - ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا .. قال : فسُرّي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قال والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين)[١٥] .

نلاحظ في هذا الحديث وفي الحديث السابق أن عمر بعد أن فوجئ بغضبة محمد عليه تلقظ بعبارات تفيد بأنه ما زال على إسلامه وباعترافه برسولية محمد ، ما يعني أنه فهم أن قراءته للتوراة اعتبرت خلعا لربقة عقيدة محمد وخروجا عليها .

ولكن لماذا كان محمد يغضب ويثور عندما يعلم أن أحد الصحاب قرأ شيئا من كتب الديانتين الإبراهيميتين السابقتين على ديانته ؟

لأنه كان حريصا على فصم كل صلة لهم بما هو خارج عن دائرة الإسلام وبالأخص ما يدخل في دائرة الاعتقاد .

التغنيم والتنفيل

الغنيمة هي المأخوذ من الكفار والمشركين بالقتال والغلبة والقهر وإيجاف الخيل والركاب ، وعنصر العنوة والقوة ركن في الغنيمة وحكمها أن تخمس وأربعة الأخماس للمقاتلين والخمس مردود من الله للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل دون غيرهم ، أما المقاتلون فأربعة الأخماس تقسم بينهم بالسوية مع تفضيل الراكب .

والفيئ هو المال الذي يؤخذ من العدو بدون قهر ولا غلبة ولا إيجاف خيل ولا ركاب أي بالصلح والتراضي وقد جاء ذكره في الآية السابعة من السورة التاسعة والخمسين وهي سورة الحشر .

نحن لسنا بصدد دراسة فقهية ، ولكننا نركز على سياسة محمد المالية في دائرة الغنائم وتوابعها تجاه صحابته ، وكيف أنها (الغنائم وما إليها) كانت أداة فعالة في يده استعملها بمهارة فائقة في رياضة الصحاب .

السَلَب هو ما يستولي عليه القاتل – في ميدان المعركة – ممن قهره أو قتله مما في حوزته ثيابا كانت أو كُراعا (سلاحا) أو دابة وهو عرف انتقل إلى الإسلام من الحقبة التي تقدمته زمنيا مثل الكثير من الأعراف والنظم والتقاليد والعادات بل والطقوس مثل الطواف حول الكعبة ورمي الجمرات .. الخ .

ولقد أقر محمد هذا العرف لتشجيع الأصحاب على الغزو والغارات فقال : (من قتل قتيلا له عليه بيّنة فله سلبه) ، ولقد نقذ الصحابة هذا الحديث باقتدار عجيب (عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعني يوم حنين : من قتل كافرا فله سلبه – فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلا وأخذ أسلابهم)[١٦] .

عندما يروي الخبر مالك بن أنس وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي وابن ماجه والبيهقي والطبراني وابن حبّان والحاكم ؛ لا يجرؤ أحد على التشكيك في صحته .

ومن ثم فإن حديث محمد (من قتل قتيلا ... الخ) حقق نتائج مذهلة لم تكن في الحسبان .

الغنائم والأنفال والفيئ والأسلاب (جمع سلب) كانت مسألة تحظى بقدر وفير من اهتمام الصحابة – أو غالبيتهم التي أدركت الإسلام على كبر – ولاحظ محمد ذلك ووعاه ، وكان من كمال قيادته أن يحقق لهم هذا المطلب فيشبع لديهم ناحيتين : مادية وهي سد الخلة ، ونفسية وهي الشعور بالغلبة والنصرة على العدو وقهره بالاستيلاء على أمواله وحريمه .

ولذلك كان يسارع بتقسيم الغنائم ونفح الأنفال عقب المعركة مباشرة وفي ميدانها قبل أن يكر راجعا حتى تهدأ نفوس صحبه وتستقر وتطمئن أنها حصلت على نصيبها من المغانم وأن خروجها للعراك والقتال وتعريض حياتها للخطر لم يكن بغير عائد ولا طائل بل على العكس رجع بفائدة جزيلة ومكاسب وفيرة :

(قال الأوزاعي : لم يقفل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من غزوة أصاب فيها مغنما إلا خمَّسه وقسم قبل أن يقفل (يرجع) ، من ذلك : غزوة بني المصطلق ، وهوازن ويوم حنين وخيبر)[١٧] .

وأكد هذه الحقيقة التاريخية الإمام الشافعي شيخ المذهب :

قال الشافعي : وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قسم أموال بني المصطلق وسَبْيَهُم في الموضع الذي غنمه قبل أن يتحول عنه ، وما حوله كله بلاد شرك ، وقسم أموال أهل بدر بـ(سَيَر) ، على أميال من بدر ، ومَنْ حول (سَيَر) وأهله مشركون ، وعلى سبيل المثال إثر الانتهاء من غزوة حنين جُمع السبي وحبس في الجعرانة وكان ستة آلاف :

١- (...وقد كان فرق منه وأعطى رجالا :
عبد الرحمن بن عوف كانت عنده إمرأة منهن وطئها بالمِلك وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد وهبها له بـ"حنين" فردها إلى الجعرانة حتى حاضت فوطئها وأعطى صفوان بن أمية أخرى وأعطى عَلي بن أبي طالب جارية يقال لها ريطة ... وأعطى عثمان جارية يقال لها زينب .. فوطئها عثمان فكرهته ولم يكن عليّ وطيئا وأعطى عمر بن الخطاب جارية فأعطاها عمر ابنه عبد الله بن عمر فبعث بها ابن عمر إلى أخواله بمكة بني جُمح ليصلحوا منها حتى يطوف بالبيت ثم يأتيهم وكانت جارية وضيئة مُعجبة ؛ وأعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جبير بن مطعم جارية من سبي هوازن فلم توطأ وأعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طلحة بن عبيد الله جارية فوطئها طلحة وأعطى سعد بن أبي وقاص جارية وأعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أبا عبيدة ابن الجراح جارية فوطئها وأعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الزبير بن العوام جارية ، وهذا كله بحنين)[١٨] .

هذا الخبر يدلنا على أن محمدا قد وهب – عقيب المعركة – كبار أصحابه كل واحد منهم جارية وُصفت إحداهن بأنها "وضيئة معجبة" – أي فائقة الحسن والجمال – بعضهم افترشها أو وطئها وبعضهم لم تتح له فرصة مفاخذتها أو مجامعتها إذ أصدر محمد أمرا آخر بردّ السبايا إلى أهلهن ومن الذين لم يتمكنوا من الوطء عبد الله بن عمر ، ونلاحظ أن الذين نفحهم محمد السبايا الحسان كلهم من قريش ومنهم ثمانية (عبد الرحمن ، علي ، عمر ، عثمان ، طلحة ، سعد ، أبو عبيدة ، الزبير) من "العشرة المبشرين بالجنة" وهم مجلس شورى محمد الذي حل محل "ملأ قرش" أو "حكومة مكة" قبل الإسلام ، ولقد كان منح محمد لهم الجواري ذروة الحنكة منه ، فقد عاشوا باستثناء عليّ – ردحا طويلا من عمرهم في فترة ما قبل الإسلام ، وهم وإن كانوا قرشيين – إلا أن عرف الحصول على الغنائم والأنفال والسبايا والأسلاب إثر الغارات كان طاغيا على مجتمع شبه الجزيرة العربية آنذاك وهم لا مشاحة تأثروا به بل هو مترسب في أعماق شعورهم ويزداد يقيننا بحصافة محمد ودربته في سياسته لصحابه ، إذا علمنا أن أولئك جميعهم ما عدا عليّاً وعمر ممن وَلّوا مدبرين مع المنهزمين "يوم حنين" .

(وبقي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته : العباس وعليّ والفضل بن عباس ، وأسامة بن زيد وأبو بكر وعمر عليهم السلام) ، وقد جاء بالخبر أن محمدا

عند هجوم هوازن عليه لم يبق معه إلا نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته و(النَفَر – بفتحتين – عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة)[١٩] وأكد السُهيلي أن أصحاب محمد فروا عنه (حتى لم يبق منهم إلا ثمانية) وسجّل القرآن عليهم ذلك الموقف (ثم وليتم مُدبرين)[٢٠] وقال أبو سفيان بن حرب مستهزئا وكان حديث عهد بالإسلام (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر)[٢١] .

لو كان القائد غير محمد في تلك الوقعة لعاقب الفارين ومن بينهم أولئك الذين وهبهم الجواري الحُلوات المُلاحات – باستثناء عمر وعليّ – لكنه اغتفر لهم فرارهم من الزحف رغم أنه كبيرة بنص القرآن ، لأنه كان شديد البراعة في معالجة صحبه .

ومما يكشف عن اهتمام الصحاب بمسألة الغنائم وملحقاتها والتفاتهم إليها والتطلع دائما صوبها أنه في غزوة بني النضير تمت المصالحة بين محمد واليهود الذين خلّفوا وراءهم الشئ الكثير من الأموال والحلقة (الأسلحة) فاستشرفت إليها نفوس الصحب وعبّر عن رغبتهم عمر بن الخطاب وسوف نرى فيما بعد أنه كان جريئا في مخاطبة محمد – فقال (يا رسول الله ألا تخمّس ما أصبت من بني النضير كما خمّست ما أصبت من بدر)[٢٢] .

ونرجح أن محمدا كان بوده أن يفعل كدأبه في تطييب خواطرهم ولمعرفته العميقة بتعلق نفوسهم بالمغانم وما إليها ، ولكنه لم يستطع لأنه كان قد تلا عليهم آيات من القرآن تجعلها لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[٢٣] ، ومن ثم كان رده حاسما على وافد الصحابة ومندوبهم في هذا الشأن : ابن الخطاب (لا أجعل شيئا جعله الله لي دون المؤمنين بقوله تعالى "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ..." الآية كهيئة ما وقع فيه السُهمان للمسلمين)[٢٤] ، وفهم عمر من ذلك أن غنائم بني النضير هي من صفايا محمد وأن "الفئ" هو البديل الإسلامي لـ "الصفى" ولو أنه ليس البديل الوحيد لأن لمحمد صفيا من كل غنيمة يصطفيه لنفسه مالاً كان أو حلقة أو سبيا وأبرز مثل على ذلك تذكره كتب السيرة : صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية ؛ إذن "الفئ" يمكن أن يطلق عليه "صفيّ إضافي" ، ولذلك (كان عمر بن الخطاب – رضي الله عليه – يقول كان لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثلاث صفايا – فكانت بنو النضير حُبسا (وقفا) لنوائبه ...)[٢٥] وكلها "فئ" ولكن ابن الخطاب اعتبرها صفايا وبذلك سوّى بين الفيئ والصفيّ .

والصفايا هي التي كان يأخذها رئيس أو زعيم القبيلة لنفسه من الغنائم في الغارات – دون باقي المغيرين – وكان ذلك عرف مستقر في الجزيرة العربية بأسرها ولدى جميع القبائل بلا استثناء ؛ ففي القاموس المحيط للفيروز آبادي (الصفيّ من الغنيمة ما اختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة) .

وبانتقال هذا العرف إلى الإسلام أصبح تعريف الصفيّ (هو شئ نفيس كان يصطفيه النبي – صلى الله عليه وسلم – لنفسه كسيف أو قوس أو أمة) ولم يكن أحد من أفراد القبيلة يعترض أو يمد عينيه إلى صفيّ أو صفية الرئيس .

هناك مصرف آخر وجهه محمد بحنكة لخدمة هدفه وهو تطويع الصحابة ووضعهم في خدمة الدين الذي بشر به والدولة التي أقامها وهو "تأليف القلوب" وهو أحد مصارف الزكاة ولكننا سوف نرى فيما بعد

أن منح "المؤلفة قلوبهم" النفحات الجزيلة لم يكن من الزكاة فحسب بل كان من الغنائم والفئ لأن محمدا كما قلنا مطلق اليد في هذا المجال فهو القائد والمشرِّع في آن واحد وما يفعله تشريع لا يسع المؤمنين إلا إتباعه ؛ فقوله وفعله وأقراره سنة والسنة هي المصدر الثاني في الإسلام .

المؤلفة قلوبهم هم سادة وقادة لهم تأثير على تابعيهم من أتباع القبائل والأفخاذ والبطون ... وكان لهم موقف عدائي من الإسلام أو على الأقل موقف سلبي ، والعطاء والمنح لهم من قِبَل محمد كان الهدف منه كسر شوكة هذا العداء وتحويله من السلب إلى الإيجاب وما يستتبعه ذلك من آثار عليهم وعلى من خلفهم .

ولعل هذا يتضح من ذات اللفظ "المؤلفة قلوبهم" أي الذين كانت قلوبهم مخالفة أو مغايرة أو متنافرة مع دين محمد ودولته وتناولهم تلك العطايا التي كثيرا ما كانت جزيلة تآلفت مع محمد ودعوته ودولته وتحولت من النقيض إلى النقيض ، وكان الإسلام آنذاك في أمس الحاجة إلى عطف قلوبهم عليه وهذا الخطاب كان من أجرأ الصحابة على الإفصاح عما يرى أنه حق وحتى ولو في حضرة محمد :-

وموجز الواقعة أن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وهما من "المؤلفة قلوبهم" وسنورد أخبارهم مفصلة بعد قليل جاءا إلى أبي بكر بن أبي قحافة وهو خليفة واستقطعاه أرضا فأقطعهما إياها وكتب لهما كتابا ولكن عمر (بصق في الكتاب فمحاه وقال : إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل وإن الله قد أعز الإسلام فاذهبا واجهدا جهدكما)[٢٦] .

إذن الهدف الرئيسي هو إزالة العداء من نفوس أولئك وتحويلهم من أعداء إلى أصدقاء وحلفاء مناصرين وما يستتبع ذلك بالضرورة من إدخال أقوامهم حظيرة الإسلام وصبغتهم بصبغته ويتم ذلك بطريق سهل ميسور وهو العطايا الجسيمة بدلا من المحاربة والمواجهة ولم تكن الظروف مواتية لها ؛ ولكن قد تتحقق بعض المقاصد الجانبية مع الهدف المنشود أساسا .

إذن فهذا الصنف من الناس – بخلاف من ذكرنا مَنْ قبل مثل : بلال بن الحارث وفرات بن حيان ، وسوف نلحظ في الوقائع التي سنوردها أن محمدا كان يبالغ في عطائهم مبالغة أدارت رؤوسهم وجعلت أحدهم يصيح : هذا عطاء مَنْ لا يخشى الفقر – مع أنه كان وقت النفح مشركا :

(فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة أعطى صفوان بن أمية الأمان واستصبره صفوان أربعة أشهر لينظر في أمره وخرج معه إلى حنين ، فلما أعطى النبي – صلى الله عليه وسلم – العطايا ، قال صفوان : مالي ؟ فأومأ النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى واد فيه إبل محملة ، فقال هذا لك ، فقال صفوان : هذا عطاء من لا يخشى الفقر)[٢٧] . وصفوان بن أمية شخصية متآمرة ، فقد دبّر مؤامرة في مكة لاغتيال محمد في يثرب / المدينة وأرسل شيطانا من مردة قريش وهو عمير بن وهب بن خلف الجمحي ليفتك بمحمد ، وضمن له أن يؤدي عنه دينه وأن يخلفه في أهله وعياله ولا ينقصهم شئ ما بقوا[٢٨] ، فجهزه صفوان وأمر له بسيف فسم وصُقل وقدم يثرب / المدينة ولكن أمره انكشف لأنّ لمحمد عيونا "جواسيس" في مكة يرصدون بدقة كل حركة ويبلغونه بها فورا ، وحرسا يقظا شديدا اختاره من بين الصحاب ووضع على رأسه مهاجرا قرشيا من مجلس "العشرة المبشرين بالجنة" هو

عمر بن الخطاب ، لذا فما إن رأى عميرا يخطو نحو المسجد حتى أسرع إليه ولبّبه (أخذ بخناقه) وجرّه إلى محمد ونشر عمر سرية الحرس حول محمد محذرا إياهم من عمير وأمرهم بحزم أن ادخلوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واحترسوا من عمير(٢٩) ، وأُسقط في يد عمير الذي لم يكن يتوقع شيئا من ذلك وأخفقت المؤامرة ، واضطر صفوان إلى أن يبتلع خيبته ويجترها .

إذن صفوان بن أمية كان موقفه من محمد شديد العداوة بلغ حد تدبير مؤامرة للفتك به غيلة وغدرا وخيانة وخسة ، فتأليف محمد قلبه خطوة لازمة كان على محمد أن يخطوها ، خاصة بعد إصرار صفوان على شِركه حتى بعد فتح مكة في حين أن أغلب الصناديد أسلموا آنذاك بعد أن تيقنوا أن محمدا صار سيد العرب وأن الوقوف في وجهه عبث – ولكن لما عرض محمد الإسلام على صفوان راوغ وماطل وطلب مهلة مدتها أربعة أشهر فلم يعد أمام محمد من سبيل إلا التأليف بالعطية الوافرة التي تعد حتى بمقياس هذه الأيام ثروة طائلة وفعلت العطية فعل السحر في نفس صفوان وفورا أسلم ودخل دين محمد ، يخبرنا الواقدي أن محمدا بعد أن قال له هو لك وما فيه ، فقال : أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبي وأشهد أنك رسول الله(٣٠) .

وحتى بعد إسلامه كان محمد يوالي تأليفه حتى يضمن تمام صباغته بالصبغة الإسلامية فكان يقربه ويدنيه منه ويناديه بكنيته "أبا وهب" والنداء بالكنية وقتذاك بل حتى الآن عند العرب من علامات الوداد والإعزاز .

الشئ نفسه حدث مع أبي سفيان وغيره . يقول الواقدي :

- (فجمعت الغنائم بين يدي النبي – صلى الله عليه وسلم – فجاء أبو سفيان بن حرب وبين يدي النبي الفضة فقال : يا رسول الله أصبحتَ أكثر قريش مالا ، فتبسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : أبو سفيان أعطني من هذا المال يا رسول الله ، قال : يا بلال زن لأبي سفيان أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل ، قال أبو سفيان : ابني يزيد أعطه ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل ، قال أبو سفيان : ابني معاوية يا رسول الله قال : زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل ، قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبي وأمي ، ولقد حاربتك فنعم المحارَب كنت ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله خيرا)(٣١) .

وأبو سفيان سيد قريش وزعيمها وقائد صناديدها في قتالهم لمحمد ، وتأليفه ومن معه من البنين لا يحتاج منا إلى تحليل .

- (قال : حدثني معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، قالا : حدثنا حكيم بن حزام قال : سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بـ "حُنين" مائة من الإبل فأعطانيها ثم سألته مائة فأعطانيها ثم سألته مائة فأعطانيها)(٣٢) .

تعويض محمد أصحابه عما فقدوه في مكة بسبب الهجرة إلى المدينة

أ - (حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ، قال : لما قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة أقطع أبا بكر وعمر – رضي الله عنه)[٣٣] .

ب- (عن سالم عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعطيني العطاء فأقول : إعطه من هو أفقر مني ، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : إذا جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، ومالا ، فلا تتبعك نفسك)[٣٤] .

جـ - (عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : أصاب عمر بخيبر أرضا فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : أصبحت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه)[٣٥] .

وهذه الأرض التي تملكها ابن الخطاب هي نصيبه في خيبر .

د - (حديث عمر أنه أصاب مائة سهم من خيبر واستأذن النبي – صلى الله عليه وسلم – فيها فأمره بوقفها)[٣٦] .

هـ (قال حسن بن صالح : سمعت جعفر بن محمد قال : أعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليا بئر قيس والشجرة)[٣٧] .

و - (حدثنا أبو معاوية عن هشام عن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أقطع الزبير أرضا بخيبر فيها شجر ونخل)[٣٧] .

ز - (عن ابن عمر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أقطع الزبير حُضْر فرسه حتى قام ثم رمى بسوطه فقال أعطوه من حيث بلغ السوط)[٣٩] .

ومما هو جدير بالذكر أن الزبير عندما وصل المدينة / يثرب – كما روت عنه زوجه أسماء – لم تكن له سوى فرس واحدة وإذ لم يكونوا مستطيعين استئجار خادم فإن أسماء علاوة على خدمة البيت والزبير وأولاده كانت تسير ثلاثة أميال لتحضر نوى تعلف به الفرس[٤٠] .

ثم صار الزبير بن العوام من الأثرياء الأماثل ، وعند وفاته قدرت ثروته بعشرات ومئات الألوف من "الناطق" أي الجواري والعبيد و"الصامت" أي العقار والمنقول : (عبد الله بن جعفر بن أبي طالب له صحبة أسلفه الزبير بن العوام ألف ألف درهم ، فلما قتل الزبير ، قال ابنه عبد الله بن الزبير لعبد الله بن جعفر إني وجدت في كتب أبي أنه له عليك ألف ألف درهم ، فقال : هو صادق فاقبضها إذا شئت)[٤١] ، فكم تبلغ ثروة الشخص الذي يقرض آخر مليونا ؟؟؟

واستمر هذا الثراء الطائل في عقب الزبير بن العوام حتى إن حفيده حمزة بن عبد الله بن الزبير كانت له أرض بناحية "الفرع" – بضم الفاء والراء – من جهة يثرب – المدينة وفيها عينان يقال لهما "الربض" و"النجف" يسقيان عشرين ألف نخلة(٤٢) .

الذين أقطعهم محمد ونفحهم في الأخبار المدونة فيما سبق أبو بكر وعمر وعلي والزبير جميعهم من قريش ومن العشرة المبشرين بالجنة أي مجلس الشورى الذي حل محل ملأ قريش ، ولقد استقرت نفوس الصحاب بتلك الإقطاعات والأموال ؛ وهؤلاء الأربعة قدمناهم كمثال لسياسة محمد التعويضية التي باشرها مع المهاجرين ، فغدوا من أشد أعوانه حماسة لدينه ودولته .

خلاصة الكلام في هذا الصدد أن التغنيم والتنفيل والنفح والمنح والعطاء ... وإن تباينت صورها وتعددت أشكالها واختلفت هيئاتها كانت أسلحة ماضية في يد محمد لتطويع الصحاب وتطبيعهم وصبغهم بالصبغة التي تغيّاها وهو يحارب صناديد قريش ورؤساء العرب في سبيل نشر الدين الذي بشر به وترسيخ قواعد الدولة التي أقامها في يثرب / المدينة ، والوقائع التي أوردناها وكلها موثقة أشد ما يكون التوثيق تقطع بأن محمدا حقق أهدافه جميعها بصورة رائعة تستحق الإعجاب .

<u>التلقيب</u>

محمد عاش في صميم مجتمع الحجاز وخالط أفراده وتعامل معهم إذ كان (يمشي في الأسواق)(٤٣) ولا شئ يعرّف الشخص بطبائع مجتمعه وقيمه وأخلاقه وعاداته ... قدر المشي في الأسواق أي التعامل بيعا وشراءً وقرضا وإقراضا وإجارة ورهنا ومقايضة وسواما ... إلخ ، ومحمد إذ كان ذلك حاله فقد أدرك أهمية اللقب وكيف أنه يُدخل على الشخص البهجة والانشراح والانبساط فإذا وصل إلى هذه الأحوال – وهو لا بد واصل إليها – أصبح في يد مَنْ تفضل عليه به أطوع من عجينة الصلصال في يد المثال وتفانى في الإخلاص لمانحه إياه حتى يضفي عليه آخر فيزداد تيها هو وخَلَفه ، هذا من ناحية ، ومن أخرى فإنه يعلم أن الواهب قد يتقلب مانعا فلا أقل من أن يحافظ على ما ظفر به منه .

ومن هنا نجد أن محمدا اتخذ من إطلاق الألقاب بداهة في جانب الإطراء وسيلة فعّالة في تطويعهم وتطبيعهم وصبغهم وقولبتهم بقالب الإسلام .

(قال العباس : فقلت يا رسول الله : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا (وفي رواية أخرى : فاجعل له ما يفخر به) ، قال : نعم مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ...)(٤٤) .

حظي الأربعة الكبار من الصحابة الذين أصبحوا فيما بعد الخلفاء الراشدين : أبو بكر – عمر – عثمان – عليّ بأكبر حصة من ألقاب الإطراء وبعدهم باقي العشرة المبشرين بالجنة ثم المهاجرون والقرشيون ثم المهاجرون من غير قريش ثم الأنصار وبعض العشائر والقبائل .

وكان من البديهي أن يستأثر بنصيب وفير :

١- أبو بكر بن أبي قحافة :

- (أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين)[٤٥] .

- (أبو بكر في الجنة وعمر وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح)[٤٦] .

وجميعهم بلا استثناء من قريش من مجلس العشرة المبشرين بالجنة ولكن لم يرد في الحديث اسم عثمان ولا اسم عليّ .

- (أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر من الرأس)[٤٧] .

- (أبو بكر وعمر من هذا الدين كمنزلة السمع والبصر من الرأس)[٤٨] .

من الحديث الأخير : أبو بكر وعمر (من هذا الدين) وفي السابق عليه (منى) ، وهكذا وبصراحة لا لبس فيها سوّى محمد بينه وبين الدين .

- (عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ÷ وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولا يغلب اثنا عشر من قلة إذا كانت كلمتهم واحدة)[٤٩] .

- (ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه ، خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة وما نفعني أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن صاحبكم خليل الله)[٥٠] .

- (أخذ جبريل بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي ، فقال أبو بكر : وددت أني كنت معك حتى أراه ، قال : أما إنك أول من يدخل الجنة من أمتي)[٥١] .

- (عن عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه عن جده ، سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : أبو بكر وعمر – رضي الله عنه – بمنزلة السمع والبصر)[٥٢] .

- (عن أنس بن مالك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صعد أُحُدًا فتبعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم ، فضربه النبي – صلى الله عليه وسلم – برجله وقال : اثبت أحد فما عليك إلا نبي وصدّيق وشهيدان)[٥٣] .

- (نعم الرجل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن الحضير وثابت بن قيس ابن شماس ومعاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح وسهل بن بيضاء)[٥٤] .

- (في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال في مرضه الذي مات فيه :

"إن مِن أمَنِّ الناس عَليَّ في ماله وصحبته أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة في الإسلام ومودة ، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سُدّت إلا خوخة أبي بكر)[٥٥].

٢- عمر بن الخطاب :

- (عن ابن عباس قال : نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عمر ذات يوم وتبسم وقال : ... وجعلك الله مفتاح الإسلام)[٥٦] .

- (قال النبي – صلى الله عليه وسلم - : عمر أول من يُسلِّم عليه الحق يوم القيامة وكل أحد مشغول بأخذ الكتاب وقراءته)[٥٧] .

- (عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه)[٥٨] .

- (عن ابن عمر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة)[٥٩] .

- (عن عمر فوالله ما سلك عمر واديا قط فسلكه الشيطان)[٦٠] .

- (عن عائشة قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : قد كان يكون في الأمم مُحدثون فإن يكن في أمتي أحد فهو عمر)[٦١] .

- (عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : لو كان نبي بعدي كان عمر بن الخطاب)[٦٢] .

- (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء بعد النبيين خيرا منك يا عمر)[٦٣] .

٣- عثمان بن عفان :

- (عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : إن عثمان بن عفان أشبه بي خَلقا وخُلُقا ودينا وسمتا وهو ذو النورين زوجتُه ابنتي وهو معي في الجنة كهاتين وحرك السبابة والوسطى)[٦٤] .

- (أشد أمتي حياء : عثمان بن عفان)[٦٥] .

- (عن أنس بن مالك عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : أصدق أمتى حياء : عثمان)[٦٦] .

- (لو أن عندي عشرا لزوجتكهن واحدة بعد واحدة وإني عنك لراضٍ قاله لعثمان)[٦٧] .

- (عن مسلم بن يسار قال : نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عثمان فقال : شبيه بإبراهيم وإن الملائكة لتستحي منه)[٦٨] .

- (عن الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : قال رسول الله – صلى عليه وسلم – غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة)[٦٩] ، وبهذا الحديث أعطى محمد لعثمان "صك براءة" وبذلك حمل عثمان لقب "المغفور له ذنبه" أو "المغفورة له خطاياه" .

- كذلك منحه محمد شرفا لم ينفحه أحدا من صحبه وهو أنه بايع عنه بإحدى يديه من "بيعة الرضوان" وهذه البيعة رتبة عالية في مجتمع الصحابة وفي بيعة محمد نيابة عن عثمان وهذا التشريف يقول ابن عمر : (يد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعثمان خير من يد عثمان لنفسه)[٧٠] .

قابل عثمان هذه الألقاب والتشريفات التي نفحه إياها محمد بالعرفان إذ اشترى من يهودي بئرا بعشرين ألف درهم وجعلها للمسلمين وضمن له بها محمد "مشربا في الجنة" و(عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان بن عفان إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي – صلى الله عليه وسلم – جيش العسرة فصبها في حجر النبي – صلى الله عليه وسلم – فجعل النبي – صلى الله عليه وسلم – يقلبها بيده ويقول : ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مرارا)[٧١] وهذا "صك براءة" آخر من الذنوب منحه محمد ابن عفان بعد أن جهد جهده في رد جميل محمد بإضافة تلك الألقاب عليه ولكن محمدا كان أجود منه ، وعن عبد الرحمن بن خباب السلمى قال : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فحث على جيش العسرة فقال عثمان : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم حث فقال عثمان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث فقال عثمان بن عفان عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فقال : فرأيت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول بيده هكذا يحركها كالمتعجب ويقول : ما على عثمان ما عمل بعد هذا)[٧٢]

وللمرة الثالثة يحصل ابن عفان على "صك البراءة" من الذنوب والخطايا والآثام ، وأنه مهما عمل فلن يضره شيئا – ولكن هذه الأحاديث الأخيرة – على وجه الخصوص – تؤكد أن عثمان بذل غاية ما يملك من وسع وطاقة في أن يضع تحت أنظار محمد البراهين السواطع ، على أنه أهل للألقاب التي منحه إياها .

٤- عليّ بن أبي طالب :

- (عن البراء قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : عليّ منى بمنزلة رأسي من جسدي)[٧٣] .

- (عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله – ص – يا عليّ معك يوم القيامة عصا من عصى الجنة تذود بها المنافقين عن الحوض)[٧٤] .

- (جاء أبو بكر وعليّ يزوران قبر النبي – ص – بعد وفاته بستة أيام ، قال علي لأبي بكر : تقدم يا خليفة رسول الله ، فقال أبو بكر : ما كنت لأتقدم رجلا سمعت رسول الله – ص – يقول عليّ مني بمنزلتي من ربي)[٧٥] .

- (عن القاسم بن جندب عن أنس قال : قال رسول الله – ص - : يا أنس أسكب لي وضوءا ثم قام فصلى ركعتين ثم قال : يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب : أمير المؤمنين وسيد المرسلين وقائد الغرّ المحجَّلين وخاتم الوصيين ؛ قال أنس : اللهم اجعله رجلا من الأنصار وكتمته ، إذ جاء عليّ فقال : من هذا يا أنس ؟ فقلت : على ، فقام مستبشرا فاعتنقه)[٧٦] .

- (عن أنس بن مالك قال : بعثني النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى أبي برزة الأسلمي فقال له وأنا أسمع : يا أبا برزة إن رب العالمين عهد إليّ عهدا في عليّ بن أبي طالب ، فقال : إنه راية الهدى ومنار الإيمان وإمام أوليائي ونور جميع من أطاعني ، يا أبا برزة على بن أبي طالب أمين غدا في القيامة وصاحب رايتي في القيامة على مفاتيح خزائن ربي)[٧٧] .

- (عن سعد بن أبي وقاص قال : خلَّف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليًا في غزوة تبوك فقال : يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان ؟ قال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[٧٨] .

بقية العشرة المبشرين بالجنة

١- طلحة بن عبيد الله :

- (عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة قال : سماني رسول الله – ص – يوم أحد "طلحة الخير" ويوم العُسرة "طلحة الفياض" ويوم حنين "طلحة الجود")[٧٩] .

- (وروي أن رسول الله – ص – نظر إلى طلحة بن عبيد الله فقال : من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة)[٨٠] .

- (قال طلحة : كان النبي – ص – إذا رآه قال : سلفي في الدنيا وسلفي في الآخرة ، وأخرج من طريق ابن منده عن طلحة قال : سماني رسول الله – ص – يوم أحد : طلحة الخير وفي غزوة العسرة : طلحة الفياض ، ويوم حنين : طلحة الجود)[٨١] .

٢- الزبير بن العوام :

- (عن الزبير أنه قال : جمع لي رسول الله – ص – أبويه مرتين : يوم قريظة فقال : إرمِ فداك أبي وأمي ، ويشهد الزبير بدرا وكانت عليه يومئذ عمامة صفراء معتجرا بها فيقال : نزلت الملائكة يوم بدر على سيماء الزبير)[٨٢] .

- (عن مطيع بن الأسود قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول الزبير ركن من أركان الإسلام أخرجه السدي ورفعه ابن عمر إلى النبي – ص – ولفظه قال : قال رسول الله – ص - : الزبير بن العوام ركن من أركان المسلمين)[٨٣] .

- (وكان الزبير أول من سل سيفا في سبيل الله عز وجل . عن سعيد بن المسيب قال : إن النبي – ص – دعا له بخير والله لا يضيع دعاءه) .

- (وروي عن النبي – ص – أنه قال : لكل نبي حواريّ وحواريّيَ الزبير)[٨٤] .

٣- عبد الرحمن بن عوف :

- (عن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن بن عوف قال لأصحاب الشورى : هل لكم أن أختار وأنتقي منها ؟ قال عليّ : أنا أول من يرضى فإني سمعت رسول الله – ص – يقول : أنت أمين في أهل السماء ، وأنت أمين في أهل الأرض)[٨٥] .

- (عن الزبير بن بكار قال : كان عبد الرحمن بن عوف أمين النبي – ص – على نسائه)[٨٦] .

- (عن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله – ص - : عبد الرحمن بن عوف دليل الله في الأرض)[٨٧] .

- (عن أديس بن أبي أديس عن النبي – ص – قال لعبد الرحمن بن عوف : أنت وليى في الدنيا والآخرة)[٨٨] .

٤- سعد بن أبي وقاص :

- (عن أبي بكر – رض – سمعت رسول الله – ص – يقول لسعد : اللهم سدد سهمه وأجب دعوته وحببه)[٨٩] .

- (عن أبي هريرة أن رسول الله – ص – قال : يا سعد أنت ناصر الدين حيث كنت)[٩٠] .

- (عن سعد بن مالك أن النبي – ص – قال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك)[٩١] .

ولذا كان سعد يلقب بـ "مستجاب الدعاء" .

٥- أبو عبيدة بن الجراح :

- (قوله – ص - : لكل أمة أمين ، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح)[٩٢] .

- (عن الحسن قال : قال رسول الله – ص - : ما من أصحابي أحد إلا لو شئت لوجدت عليه إلا أبا عبيدة)[٩٣] .

- (أخرج ابن عساكر عن مسلم قال : بعث أبو بكر إلى أبي عبيدة – رض – هلم حتى استخلفك فإني سمعت رسول الله – ص – يقول : لكل أمة أمين وأنت أمين هذه الأمة)[٩٤] .

- (لما وليّ عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة ، فقال خالد : وُلّي عليكم أمين هذه الأمة ، وقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله – ص – يقول : إن خالدا لسيف من سيوف الله)[٩٥] .

- (عن أنس بن مالك – رض – أن رسول الله – ص – قال : إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة : أبو عبيدة بن الجراح)[٩٦] .

٦- سعيد بن زيد :

محمدا منح أباه زيد بن عمرو بن نفيل – عم عمر بن الخطاب وأحد أكابر حنفاء مكة – لقب "أمّة":

- (وأتى سعيد بن زيد رسول الله – ص – فقال : إن زيدا كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفر له – قال : نعم ، فاستغفر له فإنه يبعث يوم القيامة "أمّة" وحده)[٩٧] .

سار محمد مع باقي الصحاب مهاجرين وأنصارا على النهج عينه في خطة "التلقيب" ومن المتعذر إن لم يكن من المستحيل حصر الألقاب والملقبين بها ولا هو من هدف هذا البحث ، ومن ثم نكتفي بضرب أمثلة لتقديم الدليل على صحة الفكرة التي خرجنا بها من دراسة علاقة محمد بالصحابة وكيف أنه وظّف "اللقب" كأداة لرياضتهم وتطبيعهم وقولبتهم بقالب الإسلام وبصمهم بخاتمه ، ولذا فإن إحصاء عدد مَنْ حظى بالألقاب منهم وحصرها (الألقاب) فهما نافلة أو زيادة لا موجب لها واختلفت بواعث محمد في "التلقيب" كما تنوعت الوسائل التي شكلها في ذلك : فمرة يكون الدافع هو مكافأة الفئة القليلة التي ذاقت العذاب والنكال لانضوائها تحت رايته واتباع دينه الذي دعا إليه فلا أقل من أن تحظى بلقب يبلّ معها ريقها النشف ، ويأسو جراحها التي ما زالت آثارها واضحة على جسومهم .

١- عمّار :

- (ما خُيّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما)[٩٨] .

- (من حديث عليّ بن أبي طالب – رض - : جاء عمار يستأذن النبي – ص – يوما فعرف صوته ، فقال : مرحبا بالطيّب ، المطيّب)[٩٩] .

علاوة على الحديث المشهور (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) وقوله لعمار خاصة :

- (تقتلك الفئة الباغية يا عمار)[١٠٠] . وهو ممن نال "صكّ دخول الجنة"

- (عن أنس عن النبي – ص – أنه قال : اشتاقت الجنة إلى : عليّ وعمّار وسلمان وبلال - رض)[١٠١] .

٢- بـــلال :

- (حدثنا قتادة عن القاسم بن ربيعة عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله – ص - : نعم المرء بلال وهو سيد المؤذنين) .

وهو أيضا ممن ضمن لهم محمد دخول الجنة ، ورد ذلك في أكثر من حديث :

- (روى أبو هريرة أن النبي – ص – قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإنّي سمعت دق نعليك بين يدي الجنة)[١٠٢] .

- (أخبرنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : أصبح رسول الله – ص – فدعا بلالا فقال : يا بلال بم سبقتني إلى الجنة ؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي)[١٠٣] . والخشخشة حركة لها صوت .

- (روى ابن القاسم عن مالك قال : بلغني أن رسول الله – ص – قال لبلال : إني دخلت الجنة فسمعت فيها خشفا أمامي قال : والخشف الوطء والحس ، فقلت : من هذا ؟ قيل بلال ، فكان بلال إذا ذكر ذلك بكى)[١٠٤] .

ومن حديث سابق أخبرنا محمد أن بلالا ممن تنتظرهم الجنة في شوق ولهفة . وفي الحديث الآتي يوصي محمد زوجة بلال ألا تغضبه وأنها إن فعلت حبطت جميع أعمالها وأن بلالا صادق لا يكذب :

- (عن امرأة بلال أن النبي – ص – أتاها فسلّم فقال : ثمّ بلال ؟ فقالت : لا ، فقالت : فلعلك غضبت على بلال ، فقالت : لا ، إنه يحبني كثيرا فيقول (راوي الحديث) : قال رسول الله – ص – لها : ما حدثك عني بلال فقد صدق ، بلال لا يكذب ، لا تغضبي بلالا ، فلا يقبل منك عمل ما أغضبت بلالا)[١٠٥].

٣- صُهيب :

لم يُعذب كبلال وعمَّار ولكنه ضحى بماله عندما عزم على الهجرة من مكة إلى يثرب ، هذه التضحية لا بد أن يقابلها محمد بقدر من التحية الطيبة المتمثلة في منحه لقبا وكنية :

- (روى عن النبي – ص – أنه قال : صهيب سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق الحبشة)[١٠٦] .

- (قال صهيب : وأما اكتنائي بأبي يحيى فإن رسول الله – ص - : كناني بأبي يحيى فلن أتركها)[١٠٧] .

٤- أبو ذر الغفاري :

من السابقين الأولين ، قيل إنه رابع أو خامس مَنْ أسلم وكان يفتخر أنه في وقت من الأوقات كان "ربع الإسلام" ، وهو إن لم يكن قد أوذي بسبب ذلك إلا أن صلابته في دينه وتمسكه به أدهشت محمدا ؛ فأبو ذر آمن مبكرا ثم عاد إلى مضارب قبيلته غفار وعاش بين أفرادها عضا بنواجذه على دينه ولم يهاجر إلى يثرب (المدينة) إلا بعد وقعة الخندق وهذا الثبات النادر على العقيدة لا يدعه محمد دون مكافأة سخية من الألقاب :-

- (عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله – ص - : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر)[١٠٨] .

- (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – ص - : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء في ذي لهجة أصدق من أبي ذر)[١٠٩] .

- (روى عن النبي – ص – أنه قال أبو ذر في أمتي شبيه عيسى بن مريم في زهده وبعضهم يرويه : من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر) [١١٠] .

- وفي رواية أخرى (أبو ذر يمشي في الأرض في زهد عيسى بن مريم) [١١١] .

٥- سلمان الفارسي :

نحن أمام شخصية بالغة الثراء والتعقيد ولا نقصد الثراء المادي بل الروحي الذي تمثل في البحث عن الحقيقة والتعطش إلى المطلق ، طوفت على عدد من العقائد والملل وعلى الديانتين الإبراهيميتين الساميّتين الأخريين (اليهودية والمسيحية) ثم استقرت أخيرا على الإسلام تفضيلا له عليهما جميعها .

هذا الموقف حمده محمد لسلمان الفارسي فمنحه لقب "سابق الفرس" .

- (عن أبي هريرة أنه قال : قال ناس من أصحاب رسول الله – ص - : يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا بنا ثم لم يكونوا أمثالنا ؟ وكان سلمان بجنب رسول الله – ص – قال : "هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله رجالٌ من فارس"[١١٢] .

وتقديرا من محمد لسلمان لاختياره الإسلام وتفضيله على سائر الأديان والعقائد (قيل إنه طوّف على أربعة عشر دينا وقرأ كتبها) منحه صك براءة من العذاب :

- (عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله – ص - : إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : علي وعمار وسلمان)[١١٣] .

وكان عليّ يقول : سلمان منا آل البيت[١١٤] ، وفي رواية أخرى نسب هذا القول إلى محمد نفسه .

ونال عدد من المهاجرين القرشيين حظا من الألقاب :

- (عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله – ص - : إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ومنزلي ومنزل إبراهيم تجاهين في الجنة ومنزل العباس بن عبد المطلب بيننا مؤمن بين خليلين)[١١٥] .

- (ثم قال رسول الله – ص - : أبشروا أتاني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله) [١١٦] .

- (نعم ترجمان القرآن أنت) مخاطبا عبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

- (قال ابن عباس قال لي رسول الله – ص - : نعم الترجمان أنت ودعا لي جبريل مرتين) [١١٧] .

- (نعم عبد الله وأخو العشيرة : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه على الكفار والمنافقين)[١١٨].

- (ذُكر عن رسول الله قال : خير أمراء السرايا زيد بن حارثة أقسمه بالسوية وأعدّ له في الرعية)[١١٩].

وزيد وإن لم يكن قرشيا إلا إنه كان في عدادهم فهو قرشي بالولاء إذ أنه في بداية الأمر كان عبدا لخديجة أولى زوجات محمد فأهدته إليه فتبناه فكان يقال "زيد بن محمد" فلما حُرّم التبني ، اعتبر مولاه لأن القاعدة أن "الولاء لمن أعتق" ، و "مولى القوم منهم" وكان محمد يحبه كثيرا حتى كان يقال عنه "الحِبّ" وكذلك أحب أسامة بن زيد فكان يقال له "الحِبّ بن الحِبّ" وعيّنه قائدا على آخر سرية يجهزها وكان فيها عدد من أكابر الصحابة وأعيانهم مثل عمر بن الخطاب جعلهم مقودين لأسامة ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره .

الأنصار هم الذين آووا محمدا وآزروه ونصروه وكانوا جنوده الأوفياء وأعوانه الخلص ، ولذا فإن تقديره لهم كان عاليا حتى أنه صرح أنه لو سلك الأنصار واديا وسلك الناس واديا لسلك هو وادي الأنصار ودعا لهم له بالرحمة والمغفرة وأوصى بهم كثيرا ، ومن ثم فكان من البديهي أن يكيل لعدد منهم الألقاب الفخيمة كيلا ، خاصة الكبراء والمتنفدين منهم ومن الصعب استقصاء ما ورد من أحاديث في هذا المجال ونكتفي ببعض الأمثلة التي تغني عن الحصر والتعداد :

- أعطى محمد سعد بن معاذ سيد الأوس "صك دخول الجنة" (روى أن جبريل عليه السلام نزل إلى النبي – ص – معتجرا بعمامة من استبرق فقال : يا نبي الله ، من هذا الذي فُتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فخرج رسول الله سريعا يجر ثوبه فوجد سعدا قد قبض) [١٢٠] .

- (روى من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : لقد نزل من الملائكة في جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفا ما وطئوا الأرض قبل) [١٢١] .

وبذلك وضع محمد سعدا في موضع السيادة عند وفاته بالأحاديث التي ذكرناها كما كان قد سيّده إبّان حياته :

- (عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جده قال : كنا جلوسا عند رسول الله – ص – فجاء سعد بن معاذ فقال : هذا سيدكم) [١٢٢] .

- (آمن كل شئ من معاذ بن جبل حتى خاتمه) [١٢٣] . أي كل عمله صادر عن إيمان .

وروى من حديث أبي قلابة عن أنس ومنهم من يرويه مرسلا وهو الأكثر :

(أن رسول الله – ص – قال : أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل) [١٢٤] .

- (روى عن النبي – ص – أنه قال : أقرأ أمتي أُبي (بن كعب بن قيس الخزرجي) [١٢٥] .

- (عن قتادة عن أنس أن النبي – ص – دعا أبيًّا فقال : إن الله أمرني أن أقرأ القرآن عليك ، قال : الله سماني لك ؟ قال : نعم فجعل أُبيّ يبكي) [١٢٦] .

- (نعم العبد من عباد الله الرجل من أهل الجنة : عويمر بن ساعدة) [١٢٧] .

- (حدثني عمارة بن خزيمة بن ثابتة عن أبيه أن رسول الله – ص – ابتاع فرسا من سواء بن قتيل المحاربي فجحده ، فشهد له خزيمة ، فقال له رسول الله – ص – وما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضرا ، قال : صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقا ، فقال رسول الله – ص – من شهد له خزيمة أو شهد عليه ، فحسبه) [١٢٨] .

وأصبح خزيمة بن ثابت الأنصاري من ذلك الوقت يلقب بـ "ذي الشهادتين" ولم يتكرر في الإسلام أن شهادة رجل واحد مهما سما قدره تعدل شهادة رجلين سواه .

- (نعم الرجل : عبد الله بن رواحة) [١٢٩] .

وكان شاعرا مجيدا وقد أتى اللقب ثمرته فقد قاتل حتى استشهد في غزوة مؤتة .

- (روينا عن النبي – ص – أنه قال : خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع) .

وابن الأكوع أسلمي (من بني أسلم) وكان ممن بايع تحت الشجرة وله حكايات تدل على شجاعته وسرعة عدوه ، ولا شك أن اللقب ضاعف من تفانيه وإقدامه وسرعته في الجري .

- (أعلم أمتي بالفرائض زيد بن ثابت) [١٣٠] .

- كان يقال لعبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري : "ابن الغسِّيل" لأن أباه حنظلة قتل يوم أحد فقال النبي – ص - : إن الملائكة تغسله – فقيل لابنه :"ابن الغسيل" ، وله صحبة أيضا) [١٣١] .

- (الأخرم الأسدي كان يقال له : فارس رسول الله – ص – وكذا قتادة الأنصاري) . والأخرم أسدى أي من بني أسد أما أبو قتادة فهو أنصاري بلا خلاف[١٣٢] .

وكان محمد يلقب بعض الصحب لمناسبة مخصوصة فعلى سبيل المثال كان عبد الله بن سلام يهوديا ومن كبار الأحبار مسموع الكلمة لدى اليهود ، فأسلم فشهد له محمد بدخول الجنة :

- (قال معاذ بن جبل : التمسوا العلم عند أربعة رهط ... وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهوديا فأسلم فإني سمعت رسول الله – ص – يقول : إنه عاشر عشرة في الجنة) (١٣٣) .

تلك كانت لقطات يمكن أن نصفها بأنها سريعة ولكنها تفي بالغرض وهو الكشف عن توظيف محمد لسلاح التلقيب في وجهه الإطرائي لرياضة صحبه وقبائلهم وتطويعهم وصباغتهم بصبغته وحفز هممهم واستفراغ أقصى ما في أعماق نفوسهم من دوافع ونوازع لاستخدامها في صالح الدين الذي دعاهم إلى اعتناقه ولتدعيم دولته القرشية التي أقامها في يثرب / المدينة .

وعلى قدر ما قرأنا في سير الأنبياء والزعماء والقادة والمصلحين لم نر واحدا منهم التفت إلى أداة التلقيب التي تثمر مفعولا أشبه بالسحر الحلال وأغدق على حوارييه ونصرائه وشيعته وتابعيه كما وافرا من ألقاب المدح ونعوت الإطراء وصفات التقدير مثلما فعل محمد مع صحابته ، وهو بلا شك كان ملهما في ذلك بقدر ما كان موفقا غاية التوفيق .

الثمرة المرجوة : الطاعة المطلقة

اتخذت طاعة الصحابة لمحمد طابعا فذا لا نظير له ولم ير التاريخ في قديمه أو وسيطه أو حديثه شبيها له . وهاك بعض الأمثلة :

عن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده قال :

خرجنا مع رسول الله – ص – إلى مسجد بني عمرو بن عوف فمر بقرية بني سالم فهتف برجل من أصحابه يقال له صالح فخرج إليه فأخذ رسول الله – ص – بيده حتى إذا دخل المسجد نزع صالح يده من رسول الله – ص – فعمل إلى بعض الحوائط يعني البساتين فدخله فاغتسل ثم أقبل ورسول الله على باب المسجد فقال له أين ذهبت يا صالح ؟ قال هتفت بي وأنا مع المرأة مخالطها فما أن سمعت صوتك أجبتك فما دخلت المسجد كرهت أن أدخله حتى أغتسل فقال رسول الله – ص – الماء من الماء) (١٣٤) .

الصحابي صالح كان ممتطيا زوجه فما إن سمع صوت محمد يناديه حتى نزع نفسه منها قبل أن يقضي وطره وهرول ملبيا مجيبا وهذا معنى قول محمد (الماء من الماء) أي أن الغُسل من الجنابة عند إنزال المني فحسب ، وهو لم ينزل .

وهناك قصة شبيهة بطلها صحابي يُسَمّى حنظلة وكان ذلك في ليلة عُرسه (نسميها في مصر : ليلة الدخلة) فما إن انتهى من فض بكارة عروسه حتى سمع منادي محمد : أن أخرجوا إلى لقاء العدو في أُحُد فأسرع مهرولا قبل أن يغتسل وأخذ سلاحه ودخل المعركة فقُتل فـ (رسول الله – ص – قال : إن صاحبكم لتغسله الملائكة ، فاسألوا أهله ما شأنه ؟ فسئلت صاحبته عنه فقالت : خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة) .

وتكررت هذه الواقعة بذاتها مع أحد الأنصار وهؤلاء عرفوا بإخلاصهم لمحمد وتفانيهم في نصرة دينه – ولكنهم لم يفطنوا إلى أنه كان يؤسس دولة قريش في قلب مدينتهم – يثرب ، فقد أرسل إلى واحد منهم وكان في ذلك الوقت يجامع امرأته فنزل من عليها واغتسل سريعا وذهب إلى محمد الذي لاحظ ذلك عليه (عن أبي سعيد الخدري – رضي – أن رسول الله – ص – أرسل إلى رجل من الأنصار فجاءه ورأسه يقطر فقال له رسول الله – ص – لعلنا أعجلناك فقال نعم ، فقال رسول الله – ص – إذا أُعجلت أو قحطت فعليك بالوضوء) (١٣٥) . وقيل إن هذا الرجل هو رافع بن خديج وعندما سأله محمد (لعلنا أعجلناك) رد بالإيجاب فلم يقل له محمد : لم العجلة لماذا لم تتريث حتى تقضي وطرك ... إلخ إنما علّمه حكما فقهيا وهو أنه عند عدم الإنزال إما للعجلة أو الإقحاط أي إحتباس المني فليس عليه غسل ويكفي الوضوء (هذا الحكم نُسخ وعلى نسخه أجمعت المذاهب الأربعة) أي أن محمدا يرى في تلبية رافع لندائه على الفور وتركه ما كان يمارسه هو صحيح الدين وأنه لو تقاعس لكان من الخاطئين .

وحدث خلاف بين خالد الأرستقراطي القائد العبقري سليل بني المغيرة وبني مخزوم وعمّار الأسود المولى ، الأقرب إلى العبد وأحد المستضعفين المعذبين واستعزّ عمار بالإسلام فأغلظ القول للسيد الماجد خالد بن الوليد وكانت هذه في نظر خالد كبيرة من الكبائر .

(عن ابن عباس قال : يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمني فوالله لولا أنت ما شتمني وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة ، فقال رسول الله – ص - : يا خالد كُف عن عمار فإنَّ من يسبُّ عمارا يسبه الله . ومن يبغض عمارا يبغضه الله فقام عمار فتبعه خالد وأخذ بثوبه وسأله أن يرضى عنه فرضي عنه) (١٣٦) .

كل ذلك من أثر طاعة أصحاب محمد له .

ونواصل عرض الأمثلة التي تدل على الطاعة التي بلا حدود التي كان يوليها الصحاب لمحمد :

(نعم الرجل أنت يا خُريم لولا خلتان فيك إسبالك إزارك وإرخاؤك شعرك فانطلق خُريم فجز شعره وقصر إزاره) (١٣٧) .

وتكرر الأمر عينه مع فتى يدعى سُمرة : (نعم الفتى سمرة لو أخذ من لمته وشمر من إزاره ، ففعل ذلك سمرة : أخذ من لُمته وشمَّر من مئزره) .

وكانت كلمة واحدة أو جملة قصيرة من محمد يفهم منها الصحابي مقصده ، أو مراده حتى يبادر إلى التنفيذ الفوري ، أي لا يشترط أن يتلقى الواحد منهم أمرا أو نهيا صريحا .

(عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده – رضي – قال : انطلقت مع رسول الله – ص – عقبة إذ خر وعليّ ريطة مُضَرّجة ، فالتفت إلي رسول الله – ص – فقال : ما هذا الثوب ؟ فعرفت كراهيته

فأتيت رحلي وهم يُسَجّرون (يوقدون) التنور فألقيتها ثم أتيته فقال : ما فعلت الريطة فقلت ألقيتها في التنور قال : أفلا أعطيتها لبعض أهلك) (١٣٨) .

وتتكرر الواقعة نفسها وإن بصورة مختلفة وفي هذه المرة مع نفر لا مع شخص واحد (روى أبو داود بإسناده عن رافع بن خديج قال : خرجنا مع رسول الله – ص – فرأى رسول الله – ص – على رواحلنا أكسية فيها خيوط عهن أحمر فقال : ألا أرى هذه الحمر قد علتكم . فقمنا سراعا لقول رسول الله – ص – حتى نفر بعض إبلنا فأخذنا الاكسية فنزعناها) (١٣٩) .

وفي كثير من الأحيان كانت الطاعة لمحمد تبلغ حدّاً يدعو للتأمل (النبي – ص – بعث نفرا لطلب قلادة أضلتها عائشة فحضرت الصلاة فصلّوا بغير وضوء وأتوا النبي – ص – فذكروا ذلك له فنزلت آية التيمم) (١٤٠) .

فهؤلاء النفر امتثلوا لأمر محمد – ص – مع أنه أرسلهم في مسألة شديدة الخصوصية وهي ضياع قلادة عائشة أحب زوجاته التسع إليه وأصغرهن سنا – وظلوا ينبشون عنها حتى حضرت الصلاة ولما كانوا في فلاة من الأرض لا ماء فيها فقد صلّوا بغير وضوء مع علمهم بأن ذلك غير جائز ولكن لم يكن أمامهم إلا ذلك لأنهم كانوا محصورين بين أمرين أحلاهما أشد مرارة من الآخر : إما أن يعودوا دون القلادة ليتوضأوا ويصلّوا وإما ألا يؤدوا الصلاة فآثروا الصلاة بغير وضوء وهم يوقنون ببطلانها ولما عادوا أدراجهم قصّوا قصتهم على محمد ، فتلا عليهم آية التيمم التي تجيز الصلاة بالتيمم عند الافتقار إلى الماء . إن الأمور عندما تتأزم كان محمد يقرأ آيات من القرآن فيها حل ناجح للمشكلة .

وكانت مكانة محمد لدى أصحابه لا تدانيها مكانة وهي التي كانت تدفعهم إلى طاعته .

(عن أبي مسعود الأنصاري – ص – قال : كنت أضرب غلاما لي فجعل يقول : أعوذ بالله ، فجعل يضربه ، فقال : أعوذ برسول الله فتركه ، فسمعت من خلفي صوتا : إعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه ، فالتفتُّ فإذا هو رسول الله – ص – فقلت : يا رسول الله : هو حر لوجه الله ، فقال : أما لو لم تفعل للفحتك النار) (١٤١) . أبو مسعود من كبار الصحابة ومن أعيان الأنصار نراه يضرب أحد عبيده وهذا يستعيذ بالله فيواصل ضربه ولكن عندما يستعيذ بمحمد يكف عن ضربه ، وهذا يُظهر عظم مقام محمد في نفسه ونفوس الصحابة كافة . وعندما يعنّفه محمد على فعلته ، يعلن أنه حرر عبده وأعتقه .

وكانت لمحمد رهبة لدى صحبه لم يحظ بها أحد من الملوك أو السلاطين ووصفهم مَنْ رأى مجلسهم معه : كأن على رؤوسهم الطير أي في غاية السكون وكانت هذه الرهبة تمتد حتى في مواطن السرور والبهجة والانبساط : (عن معاذ بن جبل أنه شهد إملاك رجل من الأنصار مع رسول الله – ص – وأنكح الأنصاري وقال : على الألفة والخير والطير المأمون ، دففوا على رأس صاحبكم فدففوا على رأسه ، وأقبلت السلال فيها الفاكهة والسكر فنثر عليهم فأمسك القوم فلم ينتهبوا فقال رسول الله – ص - : ما أزين

الحلم ألا تنتهبون ؟ فقالوا يا رسول الله نهيتنا عن النهبة يوم كذا وكذا فقال : إنما نهيتكم عن نهبة العساكر ولم أنهكم عن نهبة الولائم ، فقال معاذ بن جبل : رأيت رسول الله – ص – يحبذه ويحبذنا إلى ذلك النهب) [١٤٢] .

أظهر ما تكون طاعة الصحاب لمحمد يتمثل في مسارعتهم إلى قتل أصولهم وفروعهم وأقرب الناس إليهم وأمسهم رحما بهم أو الشروع في ذلك – هؤلاء الذين يتفانى الشخص – في الظروف العادية في محبتهم وودادهم والبر بهم والعطف والحدب عليهم والتفاني في خدمتهم ومد يد العون إليهم بشتى الصور – بل والتضحية في سبيلهم بالنفس والنفيس :

(أخرج ابن أبي شيبة عن أيوب قال : قال عبد الرحمن بن أبي بكر – رضي – لأبي بكر – رضي - : رأيتك يوم أُحد فصرفت عنك ، فقال أبو بكر : لكني لو رأيتك ما صرفت عنك) [١٤٣] .

(وقال عمر بن الخطاب لسعيد بن سعيد بن العاص بن أمية : لم أقتل أباك العاص وإنما قتلت خالي العاص بن هشام ، وما بي أن أكون أعتذر من قتل مشرك فقال سعيد : لو قتلته كنت على الحق ، وكان على الباطل فتعجب عمر من قوله وقال : قريش أفضل الناس أحلاما) [١٤٤] .

وصحابي آخر يثب على عمه ويقتله ولا تطرف عينه ولا يتردد :

(امرؤ القيس بن عابس الكندي الشاعر له صحبة وشهد فتح النجير باليمن ثم حضر الكنديين الذين ارتدوا فما أخرجوا ليُقتلوا وثب على عمه فقال له : ويحك يا امرؤ القيس أتقتل عمك ؟ فقال له : أنت عمي والله عز وجل ربي) [١٤٥] .

فهل بلغت طاعة مثل طاعة الصحاب لمحمد ؟

وهذا صحابي من مشاهير الصحابة قتل عمه في غزوة بدر الكبرى :

(فأما نوفل بن خويلد فقتله ابن أخيه الزبير بن العوام يوم بدر ، وكان يقال لنوفل بن خويلد "أسد قريش وأسد المطيبين" وروى أن رسول الله – ص – قال يوم بدر اللهم اكفنا ابن العدوية يعني نوفلا وكانت أمه من عدي بن خزاعة) [١٤٦] .

وفي بعض الأحيان لا تبلغ الطاعة حد قتل القريب أو الشروع فيه ولكنها تصل إلى رتبة أقل إنما يفصح صاحبها عن استعداده للقتل إذا صدر له أمر من محمد والأثر يقول (نية المرء خير من عمله) :

(عن ابن اسحاق قال : حدثني مولى لزيد بن ثابت وهو محمد بن أبي محمد قال حدثتني ابنة محيصة عن أبيها محيصة أن رسول الله – ص – قال بعد قتل كعب بن الأشرف : من ظفرتم به من يهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حُويصة بن مسعود (أخو مُحيصة) إذ ذاك لم يسلم وكان أسنّ من محيصة فلما قتل جعل حويصة

يضربه ويقول أي عدو الله قتلته ؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله فقال محيصة فقلت له : والله لقد أمرني بقتله مَنْ لو أمرني بقتلك لقتلتك) (١٤٧) .

(عن أبي الزناد قال : شهد أبو حذيفة – رضي – بدرا ودعا أباه عتبة إلى البراز) .

وبعد انتصار المسلمين في المعركة أمر محمد بأن يُسحب صناديد قريش المقتولين من أرجلهم ويرموا في القليب (البئر) ومنهم عتبة بن ربيعة(١٤٨) . وابنه الوليد ابن عُتبة(١٤٩) . فلما رأى أبو حذيفة ذلك المنظر المؤلم لمشاعره بأن على وجهه الأسى الشديد وهذه سقطة خطيرة أن يحزن أحد أصحاب محمد على قتل أحد أعدائه حتى ولو كان المقتول أباه فنظر محمد إلى أبي حذيفة نظرة ذات مغزى وسأله عما أظهره من شعور الحزن حيال عدوه فيسارع أبو حذيفة بالإنكار والاعتذار :

(ونظر رسول الله – ص – إلى عتبة بن ربيعة يجر إلى القليب وكان رجلا جسيما في وجهه أثر الجدري ، فتغير وجه ابنه أبي حذيفة فقال له النبي – ص – يا أبا حذيفة كأنك ساءك ما أصاب أباك ، قال : لا والله يا رسول الله ولكني رأيت لأبي عقلا وشرفا كنت أرجو أن يهديه الله إلى الإسلام فلما أخطأه ورأيت ما أصابه غاظني) (١٥٠) .

يسارع أبو حذيفة وينكر أسفه على أبيه الذي لقى حتفه مقتولا ثم يُجرُّ من رجليه ليلقى في البئر كما تلقى جيف الكلاب ولا يكتفي أبو حذيفة بالإنكار بل يقسم بالله حتى يصدّقه محمد ولا شك أن هذا مثل فريد في التسليم والإذعان إذ من النادر أن تجد مَنْ ينكر مشاعره الطبيعية حرصا على مرضاة متبوعه .

وهذا صحابي آخر مرض أبوه فنذر إن عافاه الله من مرضه أن يحارب محمدا والدين الذي أتى به دون هوادة حتى يطهّر مدينة القداسة مكة منهما . فما أن سمع الصحابي الابن ذلك النذر من فم والده حتى دعا ربه ألا يقوم ولا يُعافى من مرضه واستجابت السماء لدعائه فأهلكت أباه في مكانه – أما الصحابي فهو خالد وأما الأب فهو سعيد بن العاص بن أمية : - (يروي خالد بن سعيد بن العاص بن أمية : أن أباه سعيد بن العاص مرض فقال : إن رفعني الله من مرضي لا يُعبد إله ابن أبي كبشة (محمد) بمكة أبدا فقال ابنه خالد : اللهم لا ترفعه ، فهلك مكانه) (١٥١) .

الصحابي خالد هو راوي الخبر – الذي لم يعلمه سواه – ليصل إلى أسماع محمد كعربون للانقياد والمراضاة .

طاعة الصحابيات

وتسابقت النسوان الصحابيات مع الرجال الصحابة على طاعة محمد والامتثال لأوامره واتضح ذلك أبلغ ما يكون في مسألة كانت ترقى في الفترة السابقة على الإسلام (يسمونها الجاهلية) لدرجة المحرمات وهي زواج عربية حره من مولى أو قرشية من غير قرشي فما بالكم إذا كان مولى :-

١- فاطمة بنت قيس القرشية الفهرية أخت الضحاك بن قيس ، طلقها زوجها أبو حفص بن المغيرة فأمرها محمد أن تعتدّ (تقضي مدة العدة) في بيت ابن أم مكتوم وقال لها (إذا حللت فآذنيني فخطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة فاستشارت محمدا فيهما فقال لها (أما معاوية فصُعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه (أي لا يكف عن ضرب نسائه) وفي رواية : وأما أبو جهم فضرّاب للنساء وأمرها أن تتزوج أسامة بن زيد فداخلتها الكراهية لأنه مولى ابن مولى وهي قرشية فقالت بيدها : أسامة أسامة وهي إشارة احتجاجية لا تخفى (فقال لها رسول الله – ص – طاعة الله وطاعة رسوله خير لك ، فنكحته فجعل الله فيه خيرا واغتبطت به) (١٥٢) .

وكان أسامة بن زيد غلاما أسود أفطس (حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي – ص – أخر الإفاضة من أجل أسامة بن زيد ينتظره فجاء غلام أسود أفطس فقال أهل اليمن : إنما حبسنا من أجل هذا) (١٥٣) .

هذه القرشية الفهرية انصاعت لأمر محمد وأطاعته وتزوجت من المولى ابن المولى الأسود الأفطس أسامة بل واغتبطت به .

٢- عربية حرة وأمها قرشية هاشمية كانت من أجمل نساء عصرها : زينب بنت جحش بن رئاب ... بن خزيمة وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ... أمر محمد أن تتزوج زيد بن حارثة عبده سابقا ومولاه وأن تتساوى بذلك في المكانة مع بركة بنت ثعلب مولاة محمد وخادمته وكنيتها أم أيمن أو أم الظباء ، زوجة زيد .

وكان امتحانا صعبا لتلك العربية الحرة فائقة الحسن ، نصف الهاشمية فرفضت في بادئ الأمر واستنكفت أن تكون زوجا لمولى وتتساوى مع أم الظباء (أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال : خطب النبي – ص – زينب وهو يريدها لزيد فظننت أنه يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت)(١٥٤) .

كما (أخرج ابن جرير عن طريق عكرمة عن ابن عباس : خطب رسول الله – ص – زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسبا) ولم يكن الرفض مقتصرا عليه بل صدر من أخيها ووليّها عبد الله بن جحش وعلل رفضه بقوله : "إن زيدا كان عبدا بالأمس" .

ولكنها رضخت لأمر محمد وتزوجت المولى والعبد السابق زيد بن حارثة ولم يعد بينها وبين أم الظباء أي فرق في المرتبة والمنزلة من منظور الزوجية .

وكالعادة ، وكما رأينا فيما تقدم من أمثلة أن الأمور عندما تتفاقم تتدخل السماء لتحسم الأمر ويقرأ محمد آيات من القرآن تنهي المشكلة : (وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا بعيدا) (١٥٥) .

فطاوعت العربية الحرة نصف الهاشمية الوضيئة وقبلت بالزواج من زيد بن حارثة – وكفكف أخوها ووليّها عبد الله من كبريائه ووافق على أن يُصهر إليه عبد سابق ومولى وأن تغدو أخته وأم أيمن في درجة واحدة .

عن عائشة أن سالما مولى أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيته فأتت سهلة بنت سهيل زوج أبي حذيفة النبي – ص – فقالت : إن سالما بلغ ما يبلغ الرجال وعقل ما عقلوا وأنه يدخل علينا وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا فقال لها النبي – ص – أرضعيه تحرمي عليه ويذهب ما في نفس أبي حذيفة(١٥٦) .

واستولت الدهشة على سهلة وعقدت لسانها فسألت محمدا (وكيف أرضعه وهو رجل كبير ؟ فتبسم رسول الله – ص – وقال : قد علمت أنه رجل كبير) إزاء ذلك لم يسع سهلة إلا الرضوخ رغم أنها عندما لجأت لمحمد ليجد لها حلاً لم تكن تتوقع أن يجئ بهذه الصورة غير المألوفة لديها أو لدى نساء قريش (فقد كانت قرشية) أو الأنصار أو الجزيرة كلها أن يرضع ثدي الحرة شاب بالغ وعلى حد تعبيرها (رجل كبير) وأرضعت سالما خمس رضعات مشبعات – وكان لا بد لها أن تعود لتخبر محمدا أنها نفّذت أمره رغم أنه حيّرها (فرجعت فقالت إني قد أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة) (١٥٧) .

ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الطاعة التي قدمتها سهلة من الطاعات النادرة الوقوع .

وهذه القصة وهي إرضاع الكبير أعطت عائشة رخصة مقابلة من ترى دخوله عليها ورؤيتها بأن تأمر بنات أخواتها أن يرضعنه خمس رضعات مشبعات ثم يدخل عليها (ثبت عند أبي داود هذه القصة فكانت عائشة تأمر بنات إخوتها أن يرضعن مَنْ أحبت أن يدخل عليها ويراها وإن كان كبيرا خمس رضعات ثم يدخل عليها وإسناده صحيح وقال أيضا : ذكر الطبري في تهذيب الآثار في مسند عليّ هذه المسألة وساق بإسناده الصحيح عن حفصة مثل قول عائشة وهو ما يخص به عموم قول أم سلمة : أبى سائر أزواج النبي – ص – أن يُدْخلن عليهن بتلك الرضاعة أحدا) (١٥٨) .

ويؤكد ابن تيمية مذهب عائشة في جواز إرضاع الكبير لتثبت به الحُرمة وفي هذا يقول (ورضاع الكبير تنتشر به الُحرمة بحيث لا يحتشمون منه للحاجة لقصة سالم مولى أبي حذيفة وهو مذهب عائشة وعطاء والليث وداود ممن يرى أن ينشر الحرمة مطلقا) (١٥٩) .

وفي موضع آخر يؤكد أن عائشة أخذت بذلك دون سائر أزواج محمد – وهكذا أثمرت طاعة سهيلة لمحمد تلك الطاعة التي وصفناها بأنها نادرة الحدوث رخصة جواز إرضاع الشاب البالغ والرجل الكبير خمس رضعات وهي الرخصة التي أخذت بها عائشة وطبقتها عملا على بنات إخوتها وتابعها على رأيها عطاء والليث (فقيه مصر) وداود .

عبد الله بن عمر بن الخطاب

نموذجا في طاعة رسول الله

(عن إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر أنه كان يخرج إلى الصفا من الباب الأعظم ... فيكبّر.. ثم يدعو فيقول : اللهم اعصمني بدينك وطواعيتك وطواعية رسولك) (١٦٠) .

فهنا يصرح عبد الله بن عمر بطواعيته لمحمد بل ويقرنها بطواعية الله دون فصل بينهما وهذا ملحظ بالغ الأهمية لدى جميع الصحب فقد تلا عليهم محمد آيات من القرآن تؤكد أن (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (١٦١) .

يقول ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عمر (وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله – ص – حتى إنه ينزل منازله ويصلي في كل مكان صلى رسول الله فيه وحتى أن النبي نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس) (١٦٢) .

١- (قال نافع: كان ابن عمر يرمي جمرة العقبة على دابته يوم النحر وكان لا يأتي سائرها بعد ذلك إلا ماشيا ذاهبا وراجعا وزعم أن النبي كان لا يأتيها إلا ماشيا ذاهبا وراجعا) (١٦٣) .

٢- (عن نافع قال : سمع ابن عمر مزمارا ، قال فوضع أصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق وقال لي : يا نافع هل تسمع شيئا ؟ فقلت : لا ، فرفع أصبعيه عن أذنيه وقال : كنت مع رسول الله – ص – فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا) (١٦٤) .

٣- (قال نافع : كان ابن عمر يصلي بالأبطح الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويهجع هجعة ، يذكر ذلك عن رسول الله – ص -)(١٦٥) .

٤- (عن جابر قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن لقد رأيتك تصنع أربعا لم يصنعها أحد من أصحابك فقال فما هي ؟ قال : رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليماني ورأيتك تلبس النعال السبتية وتصبغ بالصُفرة ، ورأيتك إذا كنت بمكة أهل الناس إذا رأوا الهلال ولم تهلل إلا يوم التروية ، قال ابن عمر : أما الأركان فلم أر رسول الله – ص – يمس إلا اليماني ، وأما النعال السبتية فإني رأيت رسول الله – ص – يلبسها وأما الصفرة فأنى رأيت رسول الله – ص – يصبغ بها ، وأما الإهلال فإني لم أر سول الله – ص – يهلّ حتى تنبعث به راحلته ، قال الربيع : النعال السبتية التي لا شعر لها) (١٦٦) .

٥- (قال ابن المنذر ثبت أن رسول الله – ص – لما حلق رأسه قلّم أظفاره وكان ابن عمر يأخذ من شاربه وأظفاره) (١٦٧) .

(ذكر ابن سعد في "الطبقات الكبرى" عن عائشة – رضي – قالت : ما كان أحد يتبع آثار النبي – ص – في مناله كما كان يتبعه ابن عمر) [١٦٨] .

(عن مالك أن رجاءً حدَّثه : أنَّ عبد الله بن عمر كان يتبع أمر رسول الله – ص – وآثاره ويهتم به حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك) [١٦٩] .

(عن عاصم الأحول عمن حدثه قال : كان ابن عمر – رضي – إذا رآه أحد ظن أن به شيئا من تتبعه آثار النبي – ص -)[١٧٠] .

(عن نافع قال : لو نظرت إلى ابن عمر – رضي – إذا تبع آثار النبي – ص – لقلت هذا مجنون) [١٧١].

وهذا الانقياد الشامل الكامل والتقليد الذي لا تحده حدود والذي تمثل في عبد الله بن عمر والذي صورته بدقة الأحاديث السوابق وكلها كالعادة موثقة ومنتقاة من مصادر لا ترقى إليها ذرة من الريبة ، هذا التقليد يقدم لنا برهانا ساطعا على أن المخطط الذي رسمه محمد بحنكة فائقة قبل صحابته قد طرح ثمارا ناضجة وشهية إذ لم يحظ شخص قبل محمد ولا بعده بمثل هذه المطاوعة وهذا الاتباع .

إن ابن عمر عرف فضل الإسلام عليه فبعد أن كان في مقتبل عمره لا يجد مكانا يبيت فيه إلا المسجد إذا به – خاصة بعد وطء العرب للبلاد المفتوحة – غدا ذا مال وفير : يمتلك الجواري الحسان اللاتي كان يحلّي أعناقهن بالقلائد والعقود الذهبية ويلبسهن ملابس الحرائر حتى طلب أبوه عمر من أخته حفصة – بصفتها إحدى أمهات المؤمنين – أن تلفت نظره إلى ذلك ، بخلاف الأرضين والأموال فهو يقر إذن بحسن صنيع الديانة التي بشر بها محمد ، عليه وعلى أنداده ، وأنها نقلته من طبقة إلى طبقة أخرى لا علاقة لها بالأولى ومن ثم فهو يردّ لها الجميل باتّباع مَنْ جاء بها اتباعا كاملا .

هذه الطاعة التي قدمها الصحاب لمحمد والتي لم ير التاريخ لها مثيلا تفاعلت عدة عوامل على تخليقها ومن الصعب إحصاؤها جميعها ونذكر منها ما استطعنا الاهتداء إليه :

١- كان لا بد للعربي من العيش في قبيلة ينتسب إليها وتحميه وتطالب بدينه إذا قُتِلَ وإذا نبذته وتبرأت منه عُدّ خليعا طريدا كوحش الفلاة – والقبيلة من الحتم اللازم أن يكون لها رئيس يسوس أمورها في السلم والحرب (قد يعاونه في المسائل الحربية أي في الغزو من يطلق عليه – "العقيد" أ. هـ) ومن ثم فإن كلمته نافذة وأمره مطاع مع وجود "مجلس القبيلة" .

٢- إن محمدا كان من قريش – أكبر قبائل جزيرة العرب منزلة – يحترمها الجميع ويسمُّون أفرادها (أهل الحرم) إذ في قريتهم تنتصب الكعبة التي تقدسها كل القبائل بل حتى أهل الديانتين الساميّتين اليهودية والمسيحية وكذلك الصابئة باعتبار أن الكعبة هي من إرث إبراهيم أبي الأنبياء ورغم أن كان في الجزيرة العربية ثلاث وعشرون كعبة فإن كعبة مكة كانت هي الأشرف والأكثر تميُّزا وموضع تقدير الكل .

وكانوا يعتبرون قريشا صريح ولد إسماعيل وكان الإصهار إليهم شرفا رفيعا – وأكدت واقعة انكسار أبرهة الحبشي وهي المعروفة بحادثة الفيل مكانة قريش ووثقتها فقد طفق العرب يقولون لولا أنهم أهل الحرم ما هُزم الأشرم دون إراقة نقطة دم واحدة .

وفي يوم السقيفة سقيفة بني ساعدة صرّح ابن أبي قحافة (أبو بكر) للأنصار أن العرب لا تدين (لا تخضع) إلا لهذا الحي من قريش .

وكان محمد من بني هاشم ذؤابة قريش العليا وهم أن لم يكونوا يملكون المال الوفير مثل بني أمية وبني مخزوم ... إلا أنهم في السؤدد والمجد لا يباريهم أحد .

٣- إن محمدا كان صاحب شخصية آسرة يسميها الفرنجة (الشخصية الكارزمية) وهي التي تأسر من يقترب منها وتأخذ بمجامع لبه (عقله) ووجدانه فلا يملك أمامها إلا الخضوع والانقياد طواعية واختيارا والسير في ركابها (بالمعنى الحرفي للكلمة) والائتمار بأمرها والتسليم لها، وقد يرجع ذلك إلى صفات خلقية (بكسر الخاء) أو عقلية أو خُلقية (بضم الخلق) ، والإجماع منعقد على أن محمدا حازها كلها – (ويمتلك القائد الكارزمي استعدادات ومهارات ومواهب يعتقد أتباعه أن مصدرها إلهي) [١٧٢] .

٤- إن محمدا عرك الحياة حلوها ومرها : رعى الغنم واشتغل بالتجارة وسافر مع القوافل وخالط الناس أو بتعبير القرآن كان يمشي في الأسواق وكانت مكة مدينة القداسة والتجارة معا تعج بالحجّاج والمعتمرين والوافدين والمتاجرين والجواسيس (يعملون لحساب الفرس والروم) ومن أولئك يهود ونصارى وحنفاء وصابئة ومجوس ... إلخ وقد اختلط بهم وحاورهم وسمع منهم .

ومن جماع ذلك تكونت لديه خبرة نادرة بالحياة والنفوس مكّنته من قيادة كل أولئك الصحاب بمهارة فائقة يعز نديدها .

٥- ساعدت آيات القرآن على ترسيخ هذه الطاعة في نفوس الصحبة وقرنتها بطاعة الله ووعدت من يطيع الله والرسول بجنات تجري من تحتها الأنهار فيها الحور العين والثمار الشهية والعسل واللبن ... إلخ وبالجملة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ومهما تخيلوا من لذائذها فهي (الجنات) تفوق خيالهم .

وعديدة هي آيات القرآن التي تقرن طاعة الله بطاعة رسوله وتحض عليها وتنذر من يخالفها ولو قيد شبر وتتوعده بعذاب أليم لا طاقة له به وتقرنها بإقامة الصلاة (عمود الدين) وإيتاء الزكاة . وفعلت هذه الآيات المباركات فعل السحر الحلال في نفوس الصحاب وكانت من أهم البواعث على الامتثال والانقياد لمحمد .

٦- وتختلف أسباب الطاعة من فريق إلى آخر : فالقرشيون كانت تدفعهم إلى ذلك عاطفة انتمائهم للقبيلة نفسها التي ينتمي إليها محمد وإدراكهم من الوهلة الأولى أنه كان يشيّد دولة قريش التي وضع أساسها جدهم الأعلى قصي بن كلاب . وهناك مَنْ دفعته الغنائم الوفيرة التي جاءت بها الغزوات

والسرايا إلى الطاعة والانقياد طمعا في نوال قسمة منها وأقرب مثل على ذلك المؤلفة قلوبهم الذين أجزل لهم محمد العطاء من أموال هوازن في وقعة حنين .

ومنهم من كانت النزعة الدينية لديه مشبوبة مثل الأنصار ربما جاء ذلك نتيجة لتأثرهم بجوار يهود فوجدوا في طاعة محمد في المنشط والمكره طريقا مأمونا لدخول الجنة والفوز بلذائذها .

وفريق آخر كان يتمتع بحصافة وسعة أفق ، استشف مما كان يجري أن هيمنة دولة قريش على الجزيرة أصبحت حقيقة ملموسة وأن محمدا غدا بحق (سيد الناس وديّان العرب) فأسلموا قيادهم إليه مختارين .

وهذا أوضح ما يكون ظهورا فيما حدث في العام التاسع الهجري المسمى بـ (عام الوفود) .

وخلاصة القول أنه أيا ما كانت الأسباب والدوافع للطاعة فإنها تحققت على أرض الواقع بصورة يعز نظيرها وأنها (الطاعة) كانت الثمرة الناضجة للخطة البارعة التي رسمها محمد ونفذها بمهارة فائقة .

المراجع

(١) السيرة النبوية – ابن هشام ج ٤ ص ٢٧
(٢) رواه مسلم وأبو داود وذكره ابن قدامة المقدسي في المغنى
(٣) موطأ الإمام مالك ص ٣٢١
(٤) التوبة ٢٨
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٨٧
(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة – بن الأثير الجزري ج ٣ ص ٣٢
(٧) جامع الجموع - السيوطي
(٨) جامع الجموع – السيوطي ج ٤ عدد ١٤
(٩) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٥
(١٠) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٦
(١١) كنز العمال ج ١ ص ٩٤
(١٢) المصدر السابق
(١٣) المغنى – ابن قدامة ج ٧ ص ١٥
(١٤) الشرح الكبير – شمس الدين المقدسي ص ٣١٣
(١٥) أسد الغابة ج ٣
(١٦) البخاري ومسلم ومسند أحمد / موطأ مالك ، سنن ابن ماجة، الترمذي – الطبراني ، السنن الكبرى للبيهقي ، جامع المجموع للسيوطي
(١٧) سنن الأوزاعي ص ٤١١
(١٨) الأم – الشافعي ج ٤
(١٩) الروض الأنف – السهيلي ج ٤ ص ١٤١
(٢٠) التوبة ٢٥
(٢١) السيرة النبوية – ابن هشام ج ٤ ص ١٤١
(٢٢) المغازي – الواقدي ج ١ ص ٣٣٧
(٢٣) الحشر ٧
(٢٤) المغازي – الواقدي ج ١ ص ٣٧٧
(٢٥) المصدر السابق
(٢٦) سنن البيهقي ٢/٧ ، تفسير الطبري ٣١٥/١٤
(٢٧) الشرح الكبير – شمس الدين المقدسي ٢٦٤/٣
(٢٨) الاستيعاب ١٢٢٢/٣
(٢٩) أسد الغابة ٣٠١/٤
(٣٠) المغازي – الواقدي ٩٤٦/٣
(٣١) المغازي – الواقدي ٩٤٥/٣ ، السيرة النبوية – ابن هشام ١٥٤/٤
(٣٢) المغازي – الواقدي ٩٤٥/٣ ، أسد الغابة ٤٥/٢
(٣٣) كتاب الخراج – أبو يوسف قاضي القضاة ص ٦٧

(٣٤) جمع الجوامع – السيوطي ج ١ ص ٤٨٨
(٣٥) أخرجه الستة في الصحاح – نقلا عن كتاب حياة الصحابة للكاند هلوى
(٣٦) المغنى – ابن قدامة المقدسي ٣٥٦/٦
(٣٧) الخراج – قاضي القضاة ص ٨٩
(٣٨) كتاب الأموال – أبي عبيد بن القاسم بن سلام ص ٣٤٨
(٣٩) جامع الجموع – السيوطي ٣٠٧٢/٣
(٤٠) صحيح البخاري وصحيح مسلم
(٤١) أسد الغابة ١٩٩/٣
(٤٢) السيرة النبوية – ابن هشام ١٤٣/٣
(٤٣) الفرقان ٧
(٤٤) السيرة الحلبية ١٩/٣
(٤٥) رواه أحمد في المسند والترمذي في السنن والطبراني في الأوسط
(٤٦) جامع الجموع – السيوطي ٦٨/١
(٤٧) المصدر السابق
(٤٨) المصدر السابق
(٤٩) رواه الترمذي والإمام أحمد في مسنده وأبو داود في السنن
(٥٠) أخرجه الترمذي في السنن وقال حسن غريب
(٥١) الحاكم في المستدرك
(٥٢) أسد الغابة ٦٢/٢
(٥٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة – المحب الطبري ص ٨١
(٥٤) أخرجه البخاري وابن سعد في الطبقات والترمذي في السنن
(٥٥) رواه ابن عباس في الصحيحين – منهاج السنة النبوية – ابن تيمية ٩/٣
(٥٦) الرياض النضرة – المحب الطبري ٣٤٤
(٥٧) المصدر السابق ص ٣٤٥
(٥٨) أخرجه أحمد والترمذي
(٥٩) الرياض النضرة ص ٣٤٨
(٦٠) جمع الجوامع – السيوطي ٢٩٦٤/٤
(٦١) مسند أحمد وصحيح مسلم
(٦٢) مسند أحمد وسنن الترمذي
(٦٣) جامع الجموع – السيوطي ١٩٨٠/٢
(٦٤) الرياض النضرة ص ٤٧٩
(٦٥) جامع الجموع – السيوطي ١٠١٣/١
(٦٦) الرياض النضرة ص ٤٧٩
(٦٧) جمع الجوامع ١١٤٤٩/٣
(٦٨) أخرجه المخلص الذهبي والبغوي في الفضائل
(٦٩) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥٨٨/٣

(٧٠) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٠٣٨/٣
(٧١) جمع الجوامع – السيوطي ٣/٢٣٢٨
(٧٢) مسند أحمد وتفسير ابن كثير وحلية الأولياء والطبراني الكبير
(٧٣) الرياض النضرة – المحب الطبري ص ٥٨٣
(٧٤) المصدر السابق ص ٦٥٣
(٧٥) المصدر السابق ص ٥٨٥
(٧٦) حلية الأولياء – الأصفهاني – المجلد الأول
(٧٧) المصدر السابق ص ٦٦
(٧٨) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي
(٧٩) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٨٦/٣
(٨٠) المصدر السابق ٧٧٧/٢
(٨١) جمع الجوامع ص ٢٠٢٨
(٨٢) الاستيعاب ج ٢/ ص ٥١٣
(٨٣) الرياض النضرة ص ٧٤٠
(٨٤) الاستيعاب ٥١١/٢
(٨٥) الرياض النضرة ص ٧٦٠
(٨٦) المصدر السابق
(٨٧) المصدر السابق ص ٧٦١
(٨٨) المصدر السابق ص ٧٦٣
(٨٩) حياة الصحابة – الكاند هلوى ج ٣
(٩٠) الرياض النضرة ص ٧٨٥
(٩١) الرياض النضرة ص ٧٧٧
(٩٢) الاستيعاب ٧٩٣/٢
(٩٣) المصدر السابق
(٩٤) حياة الصحابة – الكاند هلوى ٩/٢
(٩٥) أسد الغابة ١٢٨٠/٣
(٩٦) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي
(٩٧) الاستيعاب – ابن عبد البر ٦١٧/٢
(٩٨) أورده الترمذي وقال حسن غريب
(٩٩) الاستيعاب ١١٣٨/٣
(١٠٠) تحفة الأحوزي في المناقب وقال الترمذي حديث حسن صحيح
(١٠١) الاستيعاب ١١٣٨/٣
(١٠٢) متفق عليه واللفظ للبخاري
(١٠٣) أسد الغابة ٢٤٥/١
(١٠٤) الاستيعاب ١٨٠/١
(١٠٥) جمع الجوامع – السيوطي ١٨١/٣

(١٠٦) الاستيعاب – ابن عبد البر ٧٢٩/٢
(١٠٧) أسد الغابة – ابن الأثير ٣٩/٣
(١٠٨) أسد الغابة ٣٥٧/١
(١٠٩) الاستيعاب ٢٥٥/١ والحديث أيضا في مسند أحمد وسنن ابن ماجة والطبقات الكبرى لإبن سعد
(١١٠) الاستيعاب ٢٥٥/١
(١١١) أسد الغابة ٣٥٧/١
(١١٢) مسند أحمد وصحيح البخاري – صحيح مسلم وجمع الجوامع وحلية الأولياء
(١١٣) أسد الغابة ٤٢٠/٢
(١١٤) المصدر نفسه
(١١٥) أسد الغابة ١٦٦/٣
(١١٦) المغازي ٢٩٠/١
(١١٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير
(١١٨) مسند أحمد والبخاري والبغوي والطبراني الكبير والترمذي
(١١٩) كتاب السير الكبير – الإمام الشيباني ص ٢٢١
(١٢٠) أسد الغابة ٢/٣٧٥ والاستيعاب ٦٠٥/٢
(١٢١) الاستيعاب ٦٠٥/٢
(١٢٢) أسد الغابة ٣٧٥/٢
(١٢٣) طبقات ابن سعد
(١٢٤) الاستيعاب ٦٨/١
(١٢٥) المصدر السابق ص ٦٦
(١٢٦) المصدر السابق ص ٦٧
(١٢٧) مسند الفردوس للديلمي
(١٢٨) أسد الغابة ج ٢ ص ٤٨٣
(١٢٩) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة
(١٣٠) أسد الغابة ٣/٣٦١
(١٣١) المصدر السابق ٣/٣٦١
(١٣١) المصدر السابق
(١٣٢) الاستيعاب – ابن عبد البر ٧٣/١
(١٣٣) أسد الغابة ٢٦٥/٣
(١٣٤) أسد الغابة ٥/٣
(١٣٥) فتح المبدي في شرح مختصر الزبيدي – كتاب الوضوء ص ٣٤٦
(١٣٦) أسباب النزول – الواحدي النيسابوري
(١٣٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - الاستيعاب ص ٤٤٦
(١٣٨) حياة الصحابة ٢٩٩/١
(١٣٩) صحيح مسلم – المغنى لإبن قوامة ٢٩٩/١
(١٤٠) المغازي – الوافدي ٣٣٤/١

(١٤١) جمع الجوامع ١١١٥/١
(١٤٢) جمع الجوامع – السيوطي ص ١٩٣٦
(١٤٣) أخرجه الحاكم في المستدرك
(١٤٤) الاستيعاب ٦٢٢/٢
(١٤٥) الاستيعاب – ابن عبد البر ص ١٠٤
(١٤٦) المغازي – الواقدي ص ٣٧٤
(١٤٧) أسد الغابة ٧٥/٢
(١٤٨) قتله حمزة عم الرسول
(١٤٩) قتله علي بن أبي طالب
(١٥٠) المغازي – الواقدي ص ٢٤٥
(١٥١) الروض الأنف ٨٠/٢
(١٥٢) رواه مسلم – أسد الغابة وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٢
(١٥٣) الاستيعاب ٧٥/١
(١٥٤) أسباب النزول للسيوطي في سورة الأحزاب
(١٥٥) الأحزاب ٣٦
(١٥٦) صحيح مسلم – أسد الغابة ص ٣٠٨
(١٥٧) المصدر السابق
(١٥٨) ابن حجر العسقلاني – فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج ١١
(١٥٩) الفتاوي الكبرى لابن تيمية ج ٤ ص ٤٣٠
(١٦٠) المغنى – ابن قدامة ٣٤/٤
(١٦١) النساء ٧٩
(١٦٢) أسد الغابة ٣/٣٤١
(١٦٣) المغنى لإبن قدامة ٧٥/٤
(١٦٤) أخرجه أبو داود في باب النهي عن الغناء وأخرجه ابن ماجة في سننه
(١٦٥) المغنى لإبن قدامه ١٠٧/٤
(١٦٦) مسند الربيع ص ٢ جزء ٤
(١٦٧) المغنى لإبن قدامة ٨٣/٤
(١٦٨) حياة الصحابة – الكاند هلوى ٢٣٦/٢
(١٦٩) دلائل النبوة – البيهقي ص ٣٤٩
(١٧٠) حلية الأولياء – أبو نعيم ٢٣٦/٢
(١٧١) أخرجه الحاكم في المستدرك
(١٧٢) علم الاجتماع الديني – د. زيدان عبد الباقي ص ٩٧

الباب الثامن

الصحابة والصحابة

الشيخ خليل عبد الكريم

الصحابة والمال

إن بداية الصحبة من الناحية المالية كانت شديدة الهزال ، ظاهرة النحافة ، بينة الضمور والأمثلة القليلة التي سنطرحها سوف تثبت ذلك ، ثم بدأت الغزوات وما تغله من أسلاب وغنائم وأنفال – رغم أنها في أول الأمر كانت – ضعيفة إلاّ أن ريق الصحاب الناشف طفق يعرف البلل والنداوة . ولما أعقبتها الغزوات الدسمة مثل غزوة حنين تنفسوا الصعداء وسكن البال وهدأ الخاطر . إنما عندما فتح الله عليهم البلاد الموطوءة (العراق / فارس / الشام / مصر / أفريقيا / أذربيجان / وما وراء النهر ... الخ) تغيرت أحوالهم بالكلية :

اقتنوا الضياع وبنوا القصور واشتروا العبيد والجواري من كل جنس ولون وبلغت ثروات بعضهم ملايين الدنانير من الصامت والناطق والمثقال والورق (الذهب والفضة) والأرضين والخيول ، وقطعان الماشية ... الخ .

فسبحان مغيّر الأحوال . وأيقن الأصحاب أن الأيام التي كانوا يضعون فيها الأحجار على بطونهم من الجوع قد ولّت إلى غير رجعة وأنها كانت صفقة كاسبة فقد ربح البيع وطرح ثروات كبيرة وغنى باذخا لم يكن يخطر لهم حتى في الأحلام ...

واعترف عدد منهم إما لامتيازه بالصراحة واستقامة الخلق وإما في ساعة تجل أنهم عبّوا من الدنيا ونهلوا منها وتضلّعوا وأكلوا لحد البشم إلا القليل وهذا القليل هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، وما فعله الصحاب كان أمرا طبيعيا بل بديهيا لأن من نواميس الاجتماع أن الشخص الذي عاش ردحا طويلا من عمره محروما ثم تقع بين يديه وفي حجره ثروة طائلة بدون تعب ، من المستحيل أن يلتفت عنها ويظل في حرمانه ومسغبته خاصة عندما يقنعه (الفقهاء) و (العلماء) أنها حلال بلال (سبق أن ذكرنا في أكثر من موضع أن تلك الأموال كانت نتاج عرق (العلوج) في العراق والشام ومصر وغيرها) .

ومن هنا تبرز الأهمية البالغة للبدء بالكشف عن أحوال الصحبة وهم في بداية الطريق بضرب بعض الأمثلة حتى إذا جاءت أخبار العز والبُلهنية تغدو المقارنة ضرورية ويتأكد أن الصحاب قد ربح بيعهم في الدنيا قبل الآخرة :

١- عن أسماء بنت أبي بكر قالت : تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شئ غير ناضح (الجمل الذي يُسقى عليه الماء) وغير فرسه فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء وأخرز غربه (أخيط دلوه المصنوع من الجلد) وأعجن ولم أكن أحسن الخبز فكان يخبز جارات من الأنصار وكن نسوة صدق ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله (ص) على رأسي وهي على ثلثي فرسخ (الفرسخ حوالي ثلاثة أميال[١]) .

٢- عن أبي الأسود أن عبد الله مولى أسماء بنت أبي بكر حدثه أنه كان يسمع أسماء تقول كلما مرت بالحجون صلى الله على محمد لقد نزلنا معه ها هنا ونحن يومئذ خفاف قليل ظهرنا (ركائبنا) ، قليلة أزوادنا ...) [٢] وسوف نرى فيما بعد كم بلغت ثروة الزبير وكم خلّف من تركة ؟

في الخبر الثاني أسماء بنت أبي بكر تصلّ على محمد لأن مشروع دولة قريش الذي نفذه في يثرب / المدينة نقلها هي وزوجها وأولادها نقلة لم يكونوا يتخيلونها فقد أصبحوا من أثرياء قريش بعد أن كانوا باعترافها الصريح (قليل ظهرنا أي ركائبنا) قليلة أزوادنا .

٣- قال عبد الله بن عمر : كنت غلاما شابا عزبا فكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله (ص)[٣] .

الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أصح كتب السنة ومسند أحمد صاحب المقام العالي بينها يشير بصراحة إلى مشكلة العزوبة التي استجدت على مجتمع يثرب / المدينة بعد نزوح (هجرة) الصحاب ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فسوف نرى هذا الصاحب الذي لم يكن يجد مأوى يؤوب إليه سوى المسجد سوف تتدفق أنهار الثروة بين يديه حتى إنه كان يُلبس جواريه ملابس النسوة الحرائر ويحلّيهن بعقود وأساور الذهب وهو ما لا تجده الحُرّات من النسوان العامة حتى إن أباه عمر بن الخطاب شكاه إلى أخته حفصة إحدى زوجات محمد لتلفت نظره إلى ذلك .

٤- عن عبد الله بن أبي أوفى أنه سئل عن الجراد فقال : غزوت مع رسول الله (ص) ست غزوات نأكل الجراد هكذا رواه سفيان بن عيينة ورواه الثوري عن أبي يعفور قال : سبع غزوات وورد في (تحفة الأحوذي) في كتاب الأطعمة[٤] . والغزوة هي التي يشترك فيها محمد بنفسه ومجموع الغزوات هو سبع وعشرون غزوة أي رُبع الغزوات تقريبا لم يكن طعام الصحبة فيها سوى الجراد ثم تغيّر الحال فأصبح أخشن طعامهم (لعاب النحل بـ لباب البر) .

٥- أما إذا كانت سرية (أي لا يشترك فيها محمد) فإنها تخرج بدون زاد ، اعتمادا على ما تجده عند من تغزوهم فإذا لم تعثر لديهم على شئ فليس أمام أفرادها سوى الشوك .

حدثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد عن أبيه قال سعد بن أبي وقاص : ولقد أصابنا في سفرنا مجاعة ولقد خرجنا من المليحة وبين المليحة وبين المدينة ستة برد وبينها وبين المعدن ليلة – بين معدن بني سُليم وبين المدينة ، قال : لقد خرجنا من المليحة نوبة ، (الجماعة من الناس) وما معنا من ذواق حتى قدمنا

المدينة ، قال قائل : أبا اسحق كم كان بين ذلك وبين المدينة ؟ قال : ثلاث ، كنا إذا بُلغ منا أكلنا العضا ، وشربنا عليه الماء حتى قدمنا المدينة(٥) .

ثم دارت الأيام وتنعّم سعد بن أبي وقاص مثل غيره من كبار الصحاب بالأموال التي كسحت من البلاد المفتوحة وبنى له قصرا في العقيق!(٦) .

٦- وكان بعض الصحاب عديم الكسب ، لا حرفة ولا تجارة ولا زراعة فكانت زوجته هي التي تنفق عليه وعلى أولاده وعلى البيت وكانت تعتبر ذلك صدقة تُحتسب لها ولا يجد هو غضاضة في ذلك :

زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : يا رسول الله أمرت اليوم بالصدقة وكان عندي حلي فأردت أن أتصدق به فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت عليهم ، فقال النبي (ص) : قال ابن مسعود زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم – رواه البخاري(٧) .

ورواه النسائي :

أن زينب امرأة ابن مسعود سألت رسول الله – ص – هل يسعها أن تضع صدقتها في زوجها وبني أخ لها يتامى ؟ قال : نعم ولك أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة(٨) .

ولكن ابن مسعود لا يظل هكذا فإن الفلك الدوّار يحوّل الأحوال فيغدو (ابن مسعود) إقطاعيا يمتلك الإقطاعيات – كما سنرى بعد قليل .

٧- حتى العوالي من الصحاب كان الفقر يضربهم – في البدء – ضربا موجعا حتى لا يجدوا القوت الضروري الذي يسدّون به رمقهم .

روى الأسود بن عامر حدثنا شريك النخعي عن عاصم بن كليب عن محمد بن كعب القرظي قال : قال علي لقد رأيتني على عهد رسول الله (ص) أربط الحجر على بطني من شدة الجوع وإن صدقة مالي تبلغ اليوم أربعين ألفا رواه أحمد عن حجاج عن شريك ورواه إبراهيم بن سعيد الجوهري وفيه لتبلغ أربعة آلاف دينار(٩) . وأبو الحسنين كما وصفناه سابقا مستقيم الخلق يتسم بالصراحة ويستوي باطنه وظاهره ومن ثم نراه في هذا الخبر يعلن أنه أصبح ثريا حتى إنه يدفع زكاة المال أربعين ألفا وهي كما نعلم ربح العُشر وبحسبة بسيطة ندرك أن ثروته مليون وستمائة ألف – من المال السائل فحسب لأن هناك الكثير مما لا يُدفع عنه الزكاة مثل العقارات (المباني) والأرضين والخيول والحلى (في بعض المذاهب) والعبيد والجواري والأسلحة ... الخ .

٨- والخبر التالي يوضح لنا أيضا حال علي وهو في أول الطريق :

إن عليّا (رضي) إستقى لرجل من اليهود كل دلو بثمرة وجاء به إلى النبي (ص) يأكل منه قال علي : كنت أدلو الدلو بثمرة واشترطها جلدة[١٠] .

وبعد ذلك أصبح من أصحاب الأراضي يزارع عليها بالثلث أو الربع كما روى البخاري ؛ وطلق الحسن ابنه إحدى زوجاته فمتعها بعشرة آلاف (درهم أو دينار) فاستقلتها أي رأتها قليلة لا تليق بثروة ابن علي !

٩- عن عبد الله بن مغفل المزني قال : أصبت من فيّئ خيبر جراب شحم فاحتملته على عاتقي إلى رحلي وأصحابي ، قال : فلقيني صاحب المغاني الذي جعل عليها ، فأخذ بناحيته وقال : هلم هذا نقسمه بين المسلمين قال : قلت : لا .

والله لا أعطيكه ، فجعل يجاذبني الجراب قال فرآنا رسول الله (ص) ونحن نصنع ذلك قال : فتبسم رسول الله (ص) ضاحكا ، ثم قال لصاحب المغانم : لا أبا لك خل بينه وبينه قال : فأرسله فانطلقت به إلى رحلي وأصحابي فأكلناه[١١] .

هذا الخبر الذي حمله إلينا ابن هشام في السيرة يرسم صورة ناطقة عن حقيقة الحالة المالية للصحبة في البداية فصحابي في خيبر يعثر (يصيب) جراب شحم فيعتبره غنيمة دسمة ويحتازه ليخص به نفسه وصحبه الذين هم معه في رحله عند عودته إليهم فيراه (صاحب المغانم) أي الموكل بحفظها فينازعه إياه وينكر عليه قصده في الاستئثار به لأنه في نظره من حق كل رجل اشترك في الغزوة لولا أن محمدا أمره أن يخلي بينه وبين الجراب فانطلق عبد الله فرحا مسرورا إلى رحله وأكله هو ومن معه . هؤلاء الصحاب الذين كانوا يتنازعون على جراب شحم والذي اعتبره من أصابه صيدا ثمينا سيملكون قرى بأكملها !!! كما سنذكر بعد قليل في البلاد التي وطأتها خيولهم المباركة بدعوى إخراج أهلها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد مع أن هؤلاء الأهل لم يشكوا لهم من ذلك ولم يستنجدوا بهم !

١٠-أسماء بنت عميس التي ذكرناها فيما سبق في أكثر من خبر تروي لنا هذا الحديث :

عن أسماء بنت عميس أن النبي – ص – دخل عليها لبعض حاجة ثم خرج فشكت إليه الحاجة[١٢] ، ولا شك أن ذلك كان بعد وفاة جعفر بن أبي طالب وكان قد ترك لها بضعة أولاد صغار وقبل زواجها من أبي بكر ثم من علي .

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (له صحبة) أسلفه الزبير بن العوام ألف ألف درهم فلما قتل (الزبير) قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إني وجدت في كتب أبي أن له عليك ألف ألف درهم ، فقال هو صادق فاقبضها إن شئت[١٣] . عبد الله بن جعفر هذا هو أحد أبناء أسماء بنت عميس التي كانت تشتكي إلى محمد حاجتها وحاجتهم ولكن انقلب الحال إنقلابا يفوق الخيال – والفضل في ذلك للبلاد الموطوءة فقد أصبح أحد أولئك الأولاد (عبد الله) مليونيرا إذ بمجرد أن يقول له عبد الله بن الزبير أنه وجد مكتوبا بخط أبيه الزبير (أن له عليك ألف ألف درهم = مليون درهم) ردّ عليه ابن جعفر : هو صادق فاقبضها إن شئت لم يقل نظرة

إلى ميسرة أو أمهلني ولو شهرا بل أبدى استعداده لدفع المليون درهم على الفور لا على التراخي ولو ساعة واحدة – ترى كم كانت تبلغ ثروة عبد الله بن جفر إذا كان على استعداد للوفاء بدينه البالغ مليون درهم في التو !

ومن أي مصدر واتته هذه الثروة السائلة وقد كانت والدته وهو صغير تشكو الحاجة إلى محمد (ابن عم أبيه) ؟

وهذه الواقعة قد حدثت بعد وفاة الزبير أو مقتله أي بعد مصرع عثمان لأن الزبير قتل في أثناء موقعة الجمل – ومعلوم أن معظم الفتوحات تمت في خلافة عمر واستكملت زمن عثمان ، حينذاك بدأت الأموال تتدفق على المدينة من كل صوب وحدب وعبد الله بن جعفر من بني هاشم وكان عمر يغدق عليهم هم بالذات لأنهم من الفروع السامقة من قريش الذين كانت تعتمل في صدورهم عوامل النقمة لأن الخلافة أفلتت منهم وجنحت إلى فرعين متواضعين تيم (فرع ابن أبي قحافة) وعدّي (فرع ابن الخطاب) وعبد الله بن جعفر لا بد أنه كان صاحب نصيب موفور من تلك الغنائم لأنه ولد جعفر الطيّار ابن عم محمد – وهكذا تحوّل هو وأخوته من الحاجة إلى اكتناز الملايين حتى إنه سدد المليون إلى عبد الله بن الزبير فور المطالبة به .

ونكتفي بهذه النماذج العشرة لإثبات أن الصحاب كانوا في أول أمرهم يعانون من جهد للبلاء والخلة والعوز ، والكتب التراثية للسيرة المحمدية ودواوين السنّة تعج بعشرات الأخبار التي تؤكد هذه الحقيقة التي لا يُمارى فيها إلا مكابر .

وننتقل بعد ذلك إلى وصف أحوال الصحاب بعد أن أقبلت عليهم الدنيا إقبالا لم يكونوا يحلمون به بعد الفتوحات التي أشرنا إليها كثيرا – وعدد من الصحاب كان لديه الشجاعة الأدبية ليصدع بذلك دون جمجمة وبعبارات واضحة ذات دلالة أكيدة .

يعترف الصحابي جابر بن عبد الله أن الصحاب مالت إليهم الدنيا ومالوا إليها ولكنه استثنى اثنين فقط هما ابن الخطاب وابنه عبد الله .

قال جابر بن عبد الله : ما منّا إلاّ من مالت إليه الدنيا ومال إليها ما خلا عمر وابنه عبد الله[١٤] . والذي لا شك فيه أن جابر بن عبد الله أثبت بهذه المقولة أن معدن الأنصار كان نقي السريرة مخموم القلب ، طيب الطوية ولا نصدر حكما مسبقا لنرى هل ما قدّمه (جابر) من استثناء صحيح أم فاسد وعلى الأخص فيما يتعلق بالابن :

عبد الله بن عمر بن الخطاب

١- حدثني يحيى بن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يحلّي بناته وجواريه الذهب ثم لا يخرج من حليهن الزكاة[١٥] . فهو هنا يحلّي بناته وجواريه (بالجمع) الذهب ولا يخرج زكاة هذا الحلى .

٢- ولا يكتفي بتحلية جواريه بذهب ، بل كان يُلبسهن ملابس الحرائر (جمع حرة) مع أن التفرقة كانت آنذاك مستقرة بين ملابس الأمة والحرة لكي تُعرف الحرة فلا يتعرض لها ذوو النفوس الضعاف ورقيقو الدين .

ولكن ابن عمر وهو الصحابي المعروف وأخو حفصة إحدى زوجات محمد التسع وإحدى أمهات المؤمنين وابن الخليفة كسر هذه القاعدة وداس عليها بقدميه وسوّى إماءه بالحرائر .

(حدثني مالك أنه بلغه أن أمة كانت لعبد الله بن عمر بن الخطاب رآها عمر بن الخطاب وقد تهيأت بهيئة الحرائر فدخل على ابنته حفصة وقال لها : ألم أرَ جارية أخيك تجوس الناس وقد تهيأت بهيئة الحرائر؟ وأنكر ذلك عمر) [١٦] .

وكان لدى ابن عمر جارية رومية أثيرة لديه (وهذا أمر لا يحتاج إلى تعليل) ولكنه أعتقها نفاذا للآية "لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون"[١٧] . وعندما باعها تصدق بثمنها لينال البر الذي أشارت إليه الآية ، وابن عمر واثق أنه بحصوله على البر سيجد في حوريات الجنة العين والكواعب الأتراب ما يعوّضه عن جمال تلك الجارية الرومية .

وكانت الإماء الروميات (بنات بني الأصفر) أغلى الإماء ثمنا لجمالهن : بياض أجسامهن ، خضرة عيونهن ، ذهبية شعورهن ... الخ . ومن ثم كان لا يقدر على شرائهن إلاّ كبار الأغنياء .

عن نافع قال : باع ابن عمر (رضي) أرضا له بمائتي ناقة ، فحمل على مائة منها في سبيل الله واشترط على أصحابها ألاّ يبيعوا حتى يجاوزوا وادي القُرى[١٨] . ابن عمر كانت له أرض (عزبة) في وادي القُرى (من البقاع الخصبة في منطقة الحجاز) فباعها بمائتي ناقة وكانت طريقة المقايضة في المعاملات معهودة وهذا الثمن المدفوع في الأرض و (العزبة) يوضح لنا قيمتها ، ولم يكتفِ بذلك بل جهّز مائة ناقة بما يصلح للفتوحات مساهمة منه في دعم (جهاز الفتح) لأن كل هذا الخير الوفير الذي يعوم في بحوره كان بفضل الفتوحات .

٥- قال نافع عن ابن عمر : قال وكان ربما تصدّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا[١٩] . والذي يقرأ هذا الخبر يثور في ذهنه سؤال بديهي : كم هي ثروة عبد الله إذا كان في جلسة واحدة يتصدق بثلاثين (ألفا) درهما أو دينارا ؟

٦- ويرد خبر برواية ميمون بن مهران (قال : أتت ابن عمر (رضي) اثنان وعشرون ألف دينار في مجلس فلم يقم حتى فرّقها) [٢٠] . وواضح من سياقته أنه بخلاف الأول وتأكيده على أن الألوف هي من الدنانير .

٧- وابن عمر معذور في هذه البعزقة . فعرق علوج الشام ومصر والعراق يصل إليه في عقر داره وهو لا يعمل شيئا سوى التفرغ للعبادة حتى يجمع بين الحسنيين بُلهنية الدنيا ونعيم الآخرة ، ونحن لا نخمّن ذلك ولا نستنتج ولا يتركنا ابن عمر نضرب أخماسا في أسداس بل أخبرنا بذلك بغاية الصراحة :

قال عبد الله بن عمر : ما غرست نخلة منذ قبض رسول الله (ص) [٢١] .

ومن الطبيعي أن يعيش ابن عمر عيشة ناعمة ليعوّض أيام الشقاء والحرمان (عن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يغسل جواريه رجليه) [٢٢] .

ونختم بهذا الخبر البالغ الدلالة (قال نافع: ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان أو زاد عليه) [٢٣] . ترى كم كان عدد مماليك وجواري عبد الله بن عمر إذا كان عدد من أعتق منهم ألفا أو يزيد ؟؟

عمر بن الخطاب

الكتابات التبجيلية وخاصة المتأخرة منها صورت ابن الخطاب بصورة الزاهد المدبر عن الدنيا وأشاعت عنه حكايات لطيفة مسلية مثل أخذه قميص ابنه عبد الله ليكمل به قميصه ولأنه كان رجلا طوالا وأنه كان أكل الزيت في وقت الرمادة حتى اسودت بشرته وأن ثوبه كان يحمل ما يقرب من عشرين رقعة ... الخ ورغم أن من يتحفوننا بهذه الحكايا الظريفة لم يقدموا لنا مصادرها لتأكيدها فإن أغلبها حسب رواياتهم المحبوكة أو المسبوكة ، قد حدثت إبّان الفتوحات التي أتت بالأموال الوفيرة ، وإذا كان عمر قبل ذلك كان يملك من الثروات ما يغنيه عن ترقيع ثوبه فكيف يلبس ثوبا مرقعا بعد الفتوحات ؟ أما المجاعة : فكيف تحدث في أثرب / المدينة وقد كانت مصب أنهار ثروات العراق والشام ومصر وغيرها وكلها فتحت في عهده وعلى سبيل المثال يوضح لنا الخبر الآتي مقدار الثروة الأسطورية التي كُسحت من بلد واحد :

وفي هذه السنة فتح عمرو بن العاص الإسكندرية وسائر أعمال مصر واجتباها أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رؤوسهم لكل رأس دينار وخراج غلاتهم عن كل مائة أردب أردبين[٢٤] .

فإذا كان هذا هو مقدار الأموال التي جُبيت من مصر وحدها دون سائر البلاد المفتوحة فكيف نسلّم بوقوع رمادة في يثرب / المدينة .

ولو فرضنا مستحيلا فإن تلك المجاعة لم تدم سوى أيام لأن غازي مصر عمرو بن العاص أرسل قافلة امتدت من الفسطاط حتى يثرب تنوء ظهور جمالها بمحصول عرق (العلوج) المصريين وشقائهم في أرضهم !

ولقد ناقشت المصادر مسألة إسمرار وجه عمر في زمن المجاعة أو الرمادة وانتهت إلى عدم صحتها ففي الأصل كان ابن الخطاب أسمر شديد السمرة وصاحب الوجه الأسمر أو البالغ السمرة لا يتأثر وجهه بأكل الزيت أو خلافه بل الذي يفعل ذلك أبيض الوجه (قال أبو عمر : وصفه زر بن حبيش وغيره أنه كان

آدم شديد الأدمة وهو الأكثر عند أهل العلم) [٢٥] . وأكد هذه الحقيقة ابن عبد البر بل إنه أورد العبارة التي تحملها بحروفها ووصف من قال ذلك أنهم (أهل العلم بأيام الناس وسيرهم وأخبارهم) [٢٦] .

ويستطرد قائلا عن حكاية إسمرار وجه عمر من أكله الزيت إبان الرمادة أنها منكرة (وزعم الواقدي أن سمرة عمر وأدمته إنما جاءت من أكله الزيت عام الرمادة وهذا منكر من القول) [٢٧] . وهذا الزعم المنكر ، يتحوّل على ألسنة المُحدثين قصيدة عصماء في مدح عمر ! ونحن نرى أنها (القصة) تنفي الزهد لأنها تدل دلالة قاطعة على أن أكل الزيت بضعة أيام أضرّ به ، فأين هو الزهد إذن ؛ أما ترقيع الثوب فقد قلنا إذا كان عمر لم يفعل ذلك قبل الفتوحات فكيف يفعله بعدها فضلا عن أنه لا يتفق والتفكير السليم إذ إنه كان آنذاك خليفة ورأس دولة مترامية الأطراف ودخولها وفيرة فما الذي يستوجب ذلك ؟

بل العكس هو الأقرب إلى المنطق خاصة وقد صار من ضمن (رعاياه) أبناء شعوب مختلفة تعوّدوا على أن يروا حكامهم في هيئة تليق بمقامهم .

وطول حياته لم يلبس محمد المرقعات ولم يؤثر عنه ذلك أبدا ، فبمن تأسى عمر في ترقيع ثوبه ؟ بل إننا قرأنا في السيرة أن محمدا كان يقابل وفود القبائل في ملابس حسنة وهيأة مناسبة وهذا هو ما يوجبه التفكير الصحيح وطبائع الأمور .

إنها حكايات ابتدعت لإلصاق الزهد بـ (عمر) ولكن خانها التوفيق !

ولنتفحص أحوال عمر في الحقبتين اللتين مرّ بهما :

أ - قبل الخلافة :

١- حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : لما قدم رسول الله (ص) المدينة أقطع أبا بكر وعمرا (رضي) [٢٨] .

٢- عن سالم عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب قال : كان رسول الله (ص) يعطيني العطاء فأقول : إعطه من هو أفقر مني ، فقال له رسول الله (ص) : إذا جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا ، فلا تتبعه نفسك[٢٩] . هذا حديث عائلي إذا صح هذا التوصيف لأن راويه هو حفيد عمر ، مما يعطيه مصداقية كبيرة .

٣- عن ابن عمر (رضي) قال : أصاب عمر بخيبر أرضا فأتى النبي (ص) فقال أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفر منه[٣٠] .

٤- وكان من الطبيعي أن ينشغل ابن الخطاب العدوي في العناية بأراضيه حتى عن حضور مجالس محمد بانتظام فكان يحضرها يوما ويتخلف عن حضورها يوما ليعتني فيه بها (عن ابن عباس

(رضي) عن عمر قال : كنت أنا وجار لي من الأنصار من بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة كنا نتناوب النزول على رسول الله (ص) ينزل يوما وأنزل يوما .. إلى آخر الحديث) [٣١] .

٥- شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله (ص) بدرا وأُحُدا والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنينا وغيرها من المشاهد[٣٢] . بخلاف السرايا التي ساهم وكان في بعضها على رأس السرية مثل (تربة) سنة سبع من الهجرة ، ولا شك أنه أخذ نصيبه من الغنائم فيها وبعضها كثر نزّه مثل خيبر وحنين ، وعن نصيبه في خيبر : (قال ابن إسحق فوقع سهم رسول الله (ص) وعمر و... في الشق) [٣٣] .

أما غزوة هوازن أو غزوة حنين فمشهور أنها أكثر الغزوات غنائم وقصرها محمد على قريش وقبائل من العرب وحرم الأنصار أوسَهُم وخزرجهُم فوجدوا في أنفسهم وكثرت القالة[٣٤] ... الخ .

هذه إطلالة سريعة على ثروة عمر بن الخطاب قبل أن يلي الخلافة ولعمر الحق ليس هذا هو شأن الزهاد مثل محمد الذي مات ودرعه مرهونة عند يهودي ، رهنها ليشتري طعاما لأهل بيته !

ثم نلقي نظرة إلى أحواله المالية :

ب ـ بعد الخلافة :

لم يرد في أي مصدر أن ابن الخطاب العدوي إنخلع من ثروته بعد أن اعتلى كرسي الخلافة وفي عهده مصّر الأمصار وفتح الفتوح : العراق والشام ومصر والجزيرة وديار بكر وأرمينيا وأذربيجان وبلاد الجبال وفارس وخوزستان وغيرها .

وكل واحدة منها كانت تسفح على أثرب / المدينة الأموال الطائلة التي تجاوزت عشرات الملايين بصورة أدهشت الصحاب وحيّرتهم ومنهم ابن الخطاب نفسه كما سنرى في فصلة قادمة ..

وكانت هذه الملايين توزع كعطايا على أهل يثرب المحظوظين وفي مقدمتهم المهاجرين وعلى رأسهم القرشيين ومنهم عمر – ونعوذ بالله أن نقول إنه كان يؤثر نفسه أو بني عديّ بشئ أزيد من أنصبتهم التي فُرضت علانية وعلى رؤوس الأشهاد – ولكنه لكونه قديم الإسلام وقرشيا ومهاجرا ومن أهل بدر فلا شك أن نصيبه من العطاء جزيل مثله مثل غيره ممن يشترك معه في هذه المزايا .

١- ودوّن عمر الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠ هـ وقال : قد كثرت الأموال فأشير عليه أن يجعل ديوانا .. وقال : اكتسبوا الناس على منازلهم ... وكل من شهد بدرا من قريش ثلاثة آلاف ولنفسه أربعة آلاف ولابنه خمسة آلاف[٣٥] . أي أن عطاءه كان أربعة آلاف ، هذا بخلاف راتبه كخليفة .

٢- وفي الوقت الذي كان يخطب فيه من على المنبر ينهي عن المغالاة في المهور نراه يدفع لأم كلثوم بنت علي من فاطمة بنت محمد صداقا في رواية (حفص بإسناد أن عمرا أصدق أم كلثوم ابنة علي أربعين ألفا) [٣٦] . (.. في هذه السنة خطب عمر إلى علي بن أبي طالب أم كلثوم بنت علي وأمها فاطمة بنت رسول الله (ص) فقال علي : إنها صغيرة ... وأمهرها عشرة آلاف دينار) [٣٧] .

وليستبين القارئ ضخامة المهر الذي دفعه ابن الخطاب ليتزوج الصغيرة الشريفة أم كلثوم حفيدة محمد نقول له : إن دينار الذهب بمكة وزنه مائتان وثمانية وعشرون درهما في عهد النبي (ص) .

٣- كانت علامة ثراء المرء هو زواجه من عدد كبير من النسوة الحرائر وتسريه بالإماء وإذا طبقنا هذا المقياس على ابن الخطاب العدويّ الفيناه محبوكا عليه فهو قد تزوج :

١- زينب بنت مظعون أم : عبد الله وعبد الرحمان الأكبر وحفصة .

٢- أم كلثوم بنت علي أم : زيد الأكبر ورقية .

٣- جميلة بنت عاصم بن ثابت حميّ الدُبُر أم عاصم – كان اسمها عاصية فسماها محمد جميلة .

٤- مليكة بنت جرول الخزاعية أم : زيد الأصغر وعبيد الله .

٥- عاتكة بنت زيد أم غياض .

٦- فكيهة بنت الحارث بن هشام بن المغيرة أم : فاطمة .

بخلاف الإماء واللاتي بعد ولادتهن يسمين (أمهات ولد) منهن :

٧- لهية : أم عبد الرحمان الأوسط .

٨- أم ولد هي أم عبد الرحمان الأصغر (المجبر) .

٩- فكيهة أم ولد (بخلاف فكيهة الحرة) وهي أم زينب[٣٨] .

وبعض تلك الزوجات من فروع عالية من قريش مثل فكيهة من آل المغيرة درة قريش يتقاضى مهورا مرتفعة وكان بعضهن يتميز بالحسن الفائق مثل عاتكة بنت زيد التي تعاقب عليها خمسة أزواج لجمالها الفتان .

٤- وقد روي عن عمر (رضي) أنه وصى لأمهات أولاده بأربعة آلاف أي أن كل أم ولد نصيبها أربعة آلاف فإذا لم يكن العبّ من الدنيا والتضلع منها هو : تملك الأراضي ، دفع المهور الباهظة والتزوج من ست حرائر ناعمات فواتن بخلاف ملك اليمين ... الخ فماذا يكون إذن ؟

وعن وهب الخولاني أن عمرا قسّم في الناس فأصاب كل رجل نصف دينار إذا كان وحده فإن كانت معه امرأته أعطاه دينارا)[٣٩] . وكان هناك من بلغ عطاؤه اثني عشر ألفا من أهل القمة ، أي أن عطاء القرشي البدري يساوي ستة آلاف ضعف الرجل العادي من (الناس) وثلاثة آلاف ضعف عطائه هو وزوجته ! مع أنه بأسياف هؤلاء الناس فُتحت البلاد التي صبّت عليهم أنهار الثروة التي عاشوا سنوات طويلة وهم في أشد العطش إلى قطرة واحدة منها !

وهكذا قدمنا شواهد دوامغ على أن استثناء جابر بن عبد الله لعمر وابنه عبد الله قد جانبه الصواب .

هذا عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله – ولكن ماذا عن بقية الأصحاب ؟ .

١- عمرو بن العاص :

وخلف عمرو من العين (الذهب) ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ومن الورق (الفضة) ألف درهم ، وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بـ (الوهط) قيمتها عشرة آلاف ألف درهم[٤٠] .

٢- علي بن أبي طالب :

وأما علي (رضي) فتوسع في هذا المال من جلّه ، ومات عن أربع زوجات وتسع عشرة أم ولد سوى الخدم والعبيد وتوفي عن أربعة وعشرين ولدا من ذكر وأنثى وترك لهم من العقار والضياع ما كانوا به أغنياء قومهم ومساتيرهم وهذا أمر مشهور لا يقدر على إنكاره من له أقل علم بالأخبار والآثار[٤١] .

وقد رأينا في فصلة (البداية) أن ابن أبي طالب كان يعمل بيديه بأجر زهيد وأنه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع ولما بلغ فاطمة بنت محمد خبر عزم أبيها تزويجها منه اعترضت بحجة أنه (فقير آل أبي طالب) .

٣- عبد الله بن مسعود :

روى يحيى بن آدم القرشي عن طريق حجاج عن قاسم بن عبد الرحمن قال : جاء دهقان إلى عبد الله بن مسعود (رضي) فقال : اشتر مني أرضي ، فقال عبد الله : على أن تكفيني خراجها ، قال نعم : فاشتراها منه[٤٢] .

وفي البداية رأينا أن عبد الله بن مسعود كانت زوجته تنفق عليه هو وأولاده من الزكاة (الصدقة) وأنها سألت في ذلك محمدا فأجازه والآن نجده (عبد الله بن مسعود) يشتري الضياع !!!

٤- زيد بن ثابت :

ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يُكسّر بالفئوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار[٤٣] .

٥- عبد الله بن العباس بن عبد المطلب :

حدثنا عبد الرحمان بن مهدي عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن قال : جاء رجل إلى ابن العباس فقال : أتقبل منك الأبُلّة بمائة ألف قال فضربه مائة[٤٤] .

الرجل عرض على ابن العباس أن يدفع له مائة ألف (دينار أو درهما) مقابل أن يتولى هو أمر الضيعة التي تطل على نهر الأبلّة مباشرة ولكن هذا العرض لم يُرق في عين ابن عباس فرفضه ولم يكتفِ بذلك بل أمر بالرجل فضرب مائة سوط وأوقع عليه عقوبة أخرى نحجبها عن القارئ .

٦- سعد بن أبي وقاص :

وابتنى سعد بن وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات[٤٥] . والعقيق كما ذكرنا من أطيب أحياء المدينة وبعض الروايات تسميه (قصر سعد) وسبق أن أوردنا خبرا عن سعد أنهم في بعض السريا لم يكن لهم ما يقتاتون به سوى شجر (العضاء) أو الشوك .

والقصر ذو الشرفات يحتاج إلى إماء وعبيد وخدم يقومون بشؤونه ويرعون سيده ، وسعد من العشرة المبشرين بالجنة وهو بذلك جمع بين الحسنيين : بُلهنية الدنيا ولذائذ الجنة التي لا تخطر على قلب بشر .

٧- أنس بن مالك بن النضر :

أنس بن مالك أنصاري خزرجي من بني النجار – قدمته أمه وهو صبي ليخدم محمدا بعد وصوله أثرب وخدمه عشر سنوات ولذلك حمل لقلب الخادم ، "خادم محمد" وهو من ألقاب التشريف في مجتمع الصحبة .

ونشأته بهذه المثابة تدل على الفقر ولكن عندما تغيرت الأحوال وتاريخه يؤهله لأن يغدو من بين القابعين على رأس الهرم الاجتماعي كان حتما أن ينال نصيبه الوفير من الفرصة الاقتصادية الجديدة . (وهو آخر من توفي بالبصرة من الصحابة وكان موته بقصره بالطف ودفن هناك على فرسخين من البصرة[٤٦] .

ويصرح أنس بذلك : قال أنس : إني لمن أكثر الأنصار مالا وولدا(٤٧) .

ومدلول هذا التصريح أن أنسا بلغ من الثراء حدا كبيرا لأن هناك من بين الأنصار من كان يملك الأطام (جمع أُطم) والحيطان (البساتين) والمزارع والكروم والنخيل ... الخ فإذا فاق غنى أنس ثروة هؤلاء فكم كانت ثروته ؟

٨- سعيد بن زيد بن عمرو :

كان في مهمة تجسس مع طلحة بن عبيد الله فاعتبرهما محمد ممن شهد بدرا وضرب لهما بسهميهما فيها (وكان عثمان قد أقطع سعيد أرضا بالكوفة فنزلها وسكنها) (٤٨) ، وسكنها من بعده أولاده .

كما كانت له أرض بـ (الشجرة) وهي التي خاصمته فيها أو في جزء منها أروى بنت أويس إلى مروان بن الحكم والي المدينة فأنكر سعيد ذلك وقال كيف أظلمها ... الخ(٤٩) .

واستعدى عليها السماء فتولت تصفيتها الجسدية .

٩- عبد الرحمن بن عوف :

كان لثروته الطائلة – يقول له محمد كلما لقيه (لن تدخل الجنة إلاّ زحفا يا ابن عوف) وفي رواية إلاّ حبوا ، ولقد شهدت عائشة بنت أبي بكر بذلك (فقالت عائشة : سمعت النبي (ص) يقول : يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً) (٥٠) ، كل ذلك ولم يكن ابن عوف قد أخذ "هبرته" من غنائم بلاد الفتح المبارك . ولشدة ترفه أعطاه محمد رخصة لبس الحرير دون رجال أمته حتى الذين يجيئون من بعده إلى يوم القيامة وقد أراد أن يمدّ هذا الاستثناء إلى بنيه ولكن عمر بن الخطاب زبره زبرا شديدا(٥١) ، وكان يرتدي البُرد أو الحلة التي تساوي خمسمائة أو أربعمائة(٥١) . في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب يبحث في السوق عن قميص يصلح للبس بثلاثة دراهم(٥٢) ، علما بأن ابن عوف عندما نزح (هاجر) من مكة إلى أثرب كان على رتبة (اللهم لبيك) . وآخى محمد بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وكان من أغنياء الصحابة (توفي بعد ذلك في عركة أحد) وقد عرض سعد على عبد الرحمان أن يشاطره ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه ، أجملهما التي تروق له ولكن ابن عوف رفض وقال له بارك الله في مالك وولدك ، "دلّوني على السوق"(٥٣) . وانصرف للمتاجرة حتى تملك نواة من ذهب فخطب إحدى بنات الأوس وهي بنت أبي الحيسر من بني عبد الأشهل (وهي التي قال له رسول الله (ص) حين نكحها بنواة من ذهب : أولِمْ ولو بشاة) (٥٤) .

وسوف نرى كم وصلت ثروته ! ونحلل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي مكنته وصاحبيه الآخرين أن يصبحوا من أكبر أغنياء العالم في عصرهم الميمون !

أ - عن ابن عيينة عن إبراهيم بن عبد الرحمان بن عوف قال : صالحنا امرأة عبد الرحمان ابن عوف التي طلّقها في مرضه من ثلث الثُّمن بثلاثة وثمانين ألف ، وعن غير إبن عيينة أنها صولحت بذلك عن ربع الثّمن(٥٥) . وبحسبة بسيطة يبين أن ثُمن تركة ابن عوف يبلغ ثلث مليون دينار أي أن ما خلّفه من المال السائل فحسب مليونين وثلثي مليون دينار !!! وأوضح لنا اليعقوبي اسم تلك المرأة (أو الزوجة) ورفع مبلغ التصالح إلى مائة ألف (وكان عبد الرحمان قد طلّق امرأته تماضر بنت الأصبغ لما اشتدت علته فورّثها عثمان فصولحت على رُبع الثمن على مائة ألف دينار وقيل ثمانين ألف دينار) (٥٦) ، والحكاية مشهورة ومتواترة في كتب الفقه لأن بها مسألة فقهية وهي طلاق الزوجة طلقة بائنة في مرض الموت – ومعنى ذلك أن – ثُمن التركة ١٠٠ ألف × ٤ = ٤٠٠,٠٠٠ دينار .

أي أن سائل المال في التركة ٤٠٠,٠٠٠ × ٨ = ٣,٢٠٠,٠٠٠ ثلاثة ملايين دينار ومائتي ألف دينار .

هذا بخلاف عناصر التركة الأخرى المتنوعة ، فهذا الذي أصدق أولى زوجاته في مفتتح وصوله إلى أثرب خمسة دراهم فحسب يتم التصالح مع إحدى زوجاته الأربع (طبعا اللاتي على ذمته) بثلاثة وثمانين ألف دينار وفي رواية اليعقوبي بمائة ألف دينار !

ب - عن عائشة سقى الله عبد الرحمان بن عوف من سلسبيل الجنة ، وقد كان وصل أزواج النبي (ص) بأربعين ألفا(٥٧) .

ج - (... أن عبد الرحمان أوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائة ألف) (٥٨) .

هـ - قال عبد الرحمان : يا أصحاب رسول الله (ص) كل من كان من أهل بدر له عليَّ أربعمائة دينار ؟ فقام عثمان مع الناس فقيل له : ألست غنيا ؟ قال : هذه وصلة من عبد الرحمان لا صدقة – وهو من مال حلال – فتصدّق عليهم في ذلك بمائة وخمسين ألف دينار(٥٩) ، والذي يصل زملاء السلاح – رُفقة بدر – أو الحرس القديم بمائة وخمسين ألف دينار كم كان يملك ؟

وأخيرا نأتي إلى التركة التي خلّفها عبد الرحمان بن عوف فنجد أن الأخبار التي وردت بشأنها اختلفت والذي نراه أن كلاًّ من الرواة علم شطرا منها فحكاه وأنه أقرب إلى تصوير الحقيقة هو الجمع بين ما ورد في الأخبار التي جاءت بخصوصها .

و - خلّف ألف بعير وثلاثة ألف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحا فكان يدخل قوت أهله سنة(٦٠) . وواضح أن الخبر يتناول شطر التركة الذي كان بأثرب / المدينة لأن البقيع والجرف مكانان فيها .

ى - وخلّف مالا عظيما من ذلك :

ذهب قطّع بالفئوس حتى محلت (ظهر بها بثور) أيدي الرجال منه ، وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع[٦١] . وهذا الخبر تدل ألفاظه أنه ذكر بعض التركة (من ذلك) .

هذه هرولة في جنبات ابن عوف أول الصحابة بالغي الثراء أو (المليونيرات) .

١٠ـ الزبير بن العوام

عن أسماء بنت أبي بكر

قالت إن الزبير عندما تزوجها كان مليطا من المال سوى ناضح (جمل لسقاية الماء) وفرس وأنها كانت تمشي ثلثي فرسخ ذهابا وإيابا لتحضر نوى لعلف الفرس وكان نسوان أنصاريات هنَّ اللاتي يخبزن لها لأنها لم تكن تجيد الخبيز ولم يكن لديها خادم تقوم به ... الخ .

وصرحت أسماء بأنها كلما مرت بالمحجون (بمكة) كانت تصلي على محمد لأنهم في حياته كان ظهرهم (ركابهم) متواضع وزادهم (طعامهم) جشب (خشن) وبفضل الخطة الحكيمة والمُحكمة التي نفذها محمد قامت دولة قريش في يثرب وانتقلت أسماء وأسرتها إلى ذروة الثروة فكيف لا تصلي عليه !!!

ولا عجب في ذلك .. بل ربما يمكن العجب في عكسه – فقد طرأت التحولات والزبير بن العوام من أهل القمة لقرابته من محمد فهو ابن عمته وصهر أبي بكر وزوج أخت عائشة وباللقب الفخم الذي منحه إياه محمد (الحواريّ) وبسبقه في دخول الدين فهو خامس المسلمين وهاجر الهجرتين[٦٢] . وبلائه في معارك التثبيت الأولى بل إنه (أول من سلّ سيفا في سبيل الله[٦٣] . وكان ذلك مبكرا للغاية في مكة في أيام الدعوة الوليدة ذلك أنه سمع أن محمدا قد أخذه الكفار (فخرج عريانا ما عليه شئ بيده السيف مصلتا فتلقاه النبي (ص) فقال : ما لك يا زبير قال : سمعت أنك قد قتلت فقال : فما كنت صانعا قال : أردت والله أن استعرض أهل مكة وأجري دماءهم كالنهر لا أترك أحدا منهم إلاّ قتلته حتى أقتلهم عن آخرهم – فضحك النبي (ص) وخلع رداءه وألبسه) [٦٤] . ولذلك كان من الطبيعي أن – هذا الموقف المندفع الذي وقفه الزبير يقابل من السماء بالتحية والجائزة السنية (فنزل جبريل وقال : (أي لمحمد) إن الله يقرئك السلام ويقول له إقرأ مني على الزبير السلام ، وبشره أن الله أعطاه ثواب كل من سلّ سيفا في سبيل الله منذ بعثك حتى تقوم الساعة) [٦٥] .

عن كعب قال : كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فما كان يدخل بيته درهما واحدا يعني أنه كان يتصدق بذلك كله[٦٦] .

الزبير الذي وصفنا حاله في البداية أصبح لديه ألف مملوك يعملون ويكدون ويعرقون ثم (يؤدون إليه الخراج) أي يسلمونه حصيلة شقائهم آخر اليوم أو الأسبوع والخبر يحكي أنه كان يتصدق بعرق هؤلاء الرقيق ولا يبقي منه درهما .

عن أم درّة قالت : بعث الزبير إلى عائشة بغرارتين تبلغ ثمانين ومائة ألف درهم[٦٧] . وعائشة هي أخت زوجته أسماء فكلتاهما بنت أبي بكر بن أبي قحافة فقد عزّ عليه أن تتمرغ زوجته في حنايا النعيم وأختها (عائشة) محرومة إذ توفي زوجها محمد ودرعه مرهونة لدى يهودي كما يدعي المبجلون .

وكانت له دور كثيرة ربما يستعصي إحصاؤها باع أحدهما بستمائة ألف : (عن جويرية قالت : باع الزبير دارا له بستمائة ألف – فقيل له يا أبا عبد الله غُبنت ، قال : كلا والله لتعلمن أني لم أغبن فهي في سبيل الله) [٦٨] .

لقد عزّ عليه وهو الرأسمالي المرموق أن يقال له غُبنت لأن الغُبنة شارة الغفلة وما يجوز لمثله أن يوصف بذلك فسارع إلى الإعلان بأنه قد ظهّر ثمنها لصالح السماء – علما بأنه رد غير سديد إذ ما كان يمنعه أن يستوفي الثمن كاملا دون غبن ثم يضعه في سبيل الله وبذلك يكون ثوابه أجزل .

سبق أن ذكرنا أنه أسلف عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ألف ألف (مليون) درهم فكم كانت ثروته آنذاك وهو يقرض منها مليون درهم ؟

ونظرا لثرائه الوسيع وغناه العريض كان الصحابة يوصونه بأولادهم عند غيابهم (أوصى سبعة من أصحاب النبي (ص) منهم : عثمان وعبد الرحمان بن عوف والمقداد وابن مسعود كان يحفظ عليهم أولادهم وينفق عليهم من ماله) [٦٩] . مع أن من بين هؤلاء الصحبة من كان صاحب مال ممدود مثل عثمان وعبد الرحمان بن عوف وعبد الله ابن مسعود (بعد الفتوحات) ، والذي يكفل ذراري هؤلاء في غيبتهم وينفق عليهم من مائه ولا يمس مالهم لا شك أن ثروته تسع مثل هذا الصنيع دون خدش .

وفي أيام الجهد الأولى اقتصر على زوجة واحدة هي بنت أبي قحافة وكان الوفاء يفرض عليه ألا يرزأها بضرائر ينكدن عليها عيشها وهي التي كافحت معه وكانت تمشي فراسخ طويلة لتحضر النوى لفرسه الفرد .

ولكنه لم يفعل وتزوج خمسا عليها وهكذا لقيت (ذات النطاقين) على يد (الحواري) جزاء سنمار !

وكان يختار زوجاته على الفرازة . وينتقيهن من البطون السامقة : مثل آل أبي معيط (رهط عثمان بن عفان الخليفة الثالث) وآل العاص (بني أمية) وبني أسد بن خزيمة – وكان ذلك بداهة يكلفه الشئ الكثير من المهور وغيرها .

وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة : الضياع والدور منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت (سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهازات وغيرهم وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية .

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة .

طلحة من عبيد الله

عن محمد بن إبراهيم قال : كان طلحة يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف – ويغل بالسراه عشرة آلاف دينار أو أكثر أو أقل ... وكان لا يدع أحدا من بني تيم إلاّ كفاه مؤنة عياله ، ويزوج أياماهم ويخدم عائلهم ويقضي دين غارمهم(٧٠) . وبنو تيم هم رهط طلحة .

وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت عليه كل سنة عشرة آلاف ولقد قضى عن صبيحة (إحدى قريباته) ثلاثين ألف درهم(٧١) . وعائشة هي زوجة محمد وبنت ابن أبي قحافة فهي تيمية مثله وتمتّ له بصلة قرابة حميمة فضلا عن أنها أخت إحدى زوجاته .

وأجمعت المصادر على أن غلته كانت (كل يوم ألفا وافيا ، قال الواقدي والوافي وزنه وزن الدينار(٧٢) . أي أن دخله السنوي هو خمسة وستون وثلاثمائة ألف دينار – والمسعودي نص في الخبر الذي أورده على أن الألف دينار الوافي اليومي كانت غلة أراضيه في العراق فقط وهذا هو المعقول .

ويعطينا المسعودي لقطات سريعة من ثروة طلحة فيقول : (ابتنى داره بالكوفة المشهورة بدار الطلحيين بالكناسّة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك – وبناحية الشراة أكثر من ذلك – وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجرّ والجُص والساج) (٧٣) . ويقول الفيروز آبادي إن الشراة وادٍ بين كبكب ونعمان على ليلة من عرفة ، وبناء الدار بالآجر والجص والسراج كان آية الثراء آنذاك مثل استعمال الرخام الطلياني والسراميك ... الخ في أيامنا هذه .

مغانم البلاد الموطوءة

١- قال أبو يوسف : حدثني بعض أشياخنا قال : سمعت ميمون بن مهران يحدث أن عمر بن الخطاب (رضي) كان يجني من العراق كل سنة : مائة ألف ألف(٧٤) . أي جباية العراق وحده : مائة مليون درهم .

٢- حدثنا عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن معقل حدثني عبد الملك بن أبي حرة عن أبيه قال : أصفى عمر بن الخطاب (رضي) هذا السواد عشرة أصناف : أصفى من قتل في الحرب ومن هرب ... وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله ... وكان خراج ما أصفى سبعة آلاف ألف(٧٥) .

غلة أرض الصوافي في العراق سبعة ملايين وفي رواية أخرى أربعة ملايين في العام الواحد .

عمرو بن العاص كان يجبي من مصر أربعة عشر مليون دينار – ضريبة الرؤوس بخلاف خراج الأرض – ويخبرنا الأخباريون أن هذا القدر استصغره الخليفة الثالث عثمان فعزل ابن العاص واستصفى

من خلفه على ولايتها مبلغا أكبر بداهة بطرق لا تخفى ، فواجه عثمان عَمْرا بذلك فرد أن ذلك كان على حساب الرعية والأرض .

٤- عن يزيد بن حبيب قال : جنى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفا ألف وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أربعة آلاف ألف فقال عثمان لعمرو : إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها قال : ذاك أنكم أعجفتم أولادها[٧٦] . وواضح أن الرقمين اللذين أوردهما البلاذري في الفتوح شديد التواضع بالنسبة للرقم الأول .

ولا ندري كيف يضاعف عبد الله بن سعد بن أبي السرح قيمة الخراج والجزية إلاّ إذا كان قد استعمل أساليب شديدة القساوة ولعل في تعليق عمرو (أعجفتم أولادها) خير دليل على ذلك وكان يتوجب على الخليفة (عثمان) أن يسأله كيف فعل ذلك ولكن فيما يبدو أن كل ما كان يهمه الرقم !

٥- عن موسى بن يزيد قال : حمل أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب (رضي) ألف ألف ، فقال عمر بكم قدمت ؟ قال : بألف ألف قال فأعظم ذلك عمر وقال : هل تدري ما تقول ؟ قال : نعم ، قدمت بمائة ألف ومائة ألف حتى عشر مرات فقال عمر : إن كنت صادقا ليأتين الراعي نصيبه باليمن ودمه في وجهه[٧٧] .

هنا نجد عمرا لا يصدق أن إحدى الولايات التي وطئوها برماحهم وسنابك الخيول تغل مليون درهم في السنة وعقدت الدهشة لسانه واعتقد أن أبا موسى لا يدري ما يقول ! وهي عبارة عميقة الدلالة وحتى بعد أن أكد له أبو موسى الخبر ، وعد المليون على أصابعه (مائة ألف عشر مرات) لم يصدقه (إن كنت صادقا..) عجز الخبر يوضح خطة ابن الخطاب في منح أبناء الجزيرة العربية الأعطيات دون أن يسألوها بل تصلهم في مستقر دورهم . وما هي إلا ناتج عرق (العلوج) في تلك الولايات .

٦- وخبر آخر يقطع بصحة ما قلناه : دهشة الصحاب وتحيّرهم من كثرة الأموال التي صُبّت عليهم صبّا بصورة ما كانت تخطر على بالهم (عن أبي هريرة قال : قدمتُ من البحرين بخمسمائة ألف درهم فأتيت عمر بن الخطاب (رضي) ممسيا فقلت : يا أمير المؤمنين إقبض هذا المال قال : كم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف درهم قال : تدري كم خمسمائة ألف ؟ قلت : نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات ، قال : أنت ناعس إذهب الليلة فبت حتى تصبح فلما أصبحت أتيته فقلت : إقبض هذا المال قال: وكم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف درهم قال : أمن طيب هو ؟ قلت : لا أعلم إلا ذلك . فقال عمر (رضي) أيها الناس إنه قد جاء مال كثير فإن شئتم أن نكيل لكم كيّلنا وإن شئتم نعد لكم عددنا[٧٨] .

هذا الخبر على قصره النسبي مشحون بالدلالات :

أ - إن الخليفة لم يصدق أن يأتي له أحد عماله بخمسمائة ألف درهم من إحدى الولايات الموطوءة وهذا يشي بالحالة المالية المتواضعة التي كانوا عليها حتى إن رأس الدولة يستكثر مثل هذا المبلغ .

ب- أنه يجابه العامل (الوالي) بأنه لا يدري ما يقول وأنه ناعس أي يحلم وما يقوله مجرد حلم ويطلب منه أن يستكمل منامه .

جـ- أنه يدلنا على الأفق المعرفي إذ يتهم الخليفة جابيه بأنه لا يدري كم هو العدد خمسمائة ألف .

د - أن عمرا بعد أن استوثق من صحة العدد صاح في الناس (أيها الناس قد جاءنا مال كثير) يبشرهم أن فتوحاتهم درت درورا وفيرا .

هـ - أنه من كثرة الأموال التي إنهالت عليهم من كل حدب وصوب كانوا يوزعونها بطريق الكيل (فإن شئتم أن نكيل لكم كيلا) .

ز - إن ابن الخطاب يسأل إن كان هذا المال طيبا ؟
فهو يعرف أنه منتوج كدح وكد العلوج وحصيلة عملهم من طلوع الشمس إلى مغيبها .

حـ- إن أبا هريرة الذي أحضر هذا المال كان في أول أمره يلازم محمدا على شبع بطنه أصبح أميرا على البحرين زمن عمر ثم بلغه عنه أنه اشترى أفراسا بألف وستمائة دينار فاستدعاه وسأله عن ذلك وأغلظ له الكلام وقال له : استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين فردّ أبو هريرة : كانت لنا أفراس تنتج وعطايا تلاحقت ، والذي لا شك فيه أن مثله لا يجهل أن عطايا (هدايا) الأمراء غلول (روى إبراهيم الحربي في كتاب الهدايا عن ابن عباس (رضي) أن النبي (ص) قال : هدايا الأمراء غلول) [٧٩] .

ولم يقتنع عمر برد أبي هريرة ولم يوافقه على أنه من حقه شرعا أن يمد يده لـ (عطايا تلاحقت) لأنه يعلم أن تلك العطايا لا تُنفح للأمير (الوالي / العامل) من أجل سواد عينيه إنما رهبة أو رغبة من منصبه ، لهذا شاطره (قاسمه أي أخذ نصف) ماله ومما يلفت النظر أن أبا هريرة لم يكن الأوحد الذي فعل معه ذلك بل طبق الجزاء نفسه الصارم على عدد من أعلام الصحابة منهم :

أبو موسى الأشعري حين عزله عن البصرة وسعد بن أبي وقاص حين عزله عن العراق .

لما فتح سعد بن أبي وقاص مدينة طيسفون ، المسماة عند العرب بالمدائن ، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢١ هجرية ، أرسلت الغنائم التي اغتنمها جيش المسلمين إلى المدينة ، وكان فيها مال كثير من مال كسرى , ومن جملة ذلك سوارا كسرى ، وتاجه ، ومنطقته ، وبساطه الكبير ، وكان ستين ذراعا في ستين ذراعا منظوما باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان أزهار الربيع ، كان يبسط لكسرى في إيوانه ويشرب عليه إذا عدمت الزهور . وأرسلت مع الغنائم السبايا أيضا وهن بنات كسرى ، وكنّ ثلاثا وعليهن من الحلى والحلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه . وأمر عمر بن الخطاب بالمال الذي جيئ به من أموال كسرى فصبّ في صحن المسجد ، وأخذ يفرقه على المسلمين . وعند ذلك دعا سراقة وقال له ارفع يديك وألبسه السوارين ، وقال له : قل : الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، الذي كان يقول أنا رب

الناس ، وألبسهما سراقة بن مالك ، ورفع عمر بهذا الكلام صوته . ثم قطع البساط وفرقه بين المسلمين ، فأصاب عليّا منه قطعة باعها بخمسين ألف دينار . ثم جيئ ببنات الملك الثلاث ، فوقفن بين يديه ، وأمر المنادي أن ينادي عليهن ، وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمون في ثمنهن ، فامتنعن من كشف نقابهن ووكزن المنادي في صدره ، فغضب عمر وأراد أن يعلوهن بالدرة (السوط) وهن يبكين ، فقال له علي : مهلا يا أمير المؤمنين ، فإني سمعت رسول الله يقول : ارحموا عزيز قوم ذل ، وغني قوم افتقر . فسكن غضبه ، فقال له علي : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال له عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ فقال : يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن ، فقومن ، وأخذهن علي ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، فجاءت منه بولده سالم ، ودفع الثانية لمحمد بن أبي بكر فجاءت منه بولده القاسم ، ودفع الثالثة لولده الحسين فجاءت منه بولده علي الملقب بزين العابدين .

ثم إن عمر بن الخطاب قد أساء إلى بنات كسرى ، وقد أغلظ لهن في القول والفعل ، كما أنه أساء إلى العربية بتقسيمه تلك الغنائم وتفريقها بين المسلمين بعد تمزيقها شر ممزق ، إذ كان يجب عليه أن يحتفظ بتاج كسرى ومنطقته وبساطه لتكون عند العرب مفخرة لهم من مفاخرهم التاريخية ، ولكن عمر لم يكن فيما فعله من بيع البنات وتقسيم الغنائم إلا تلميذا لمحمد ، فإن محمدا هو الذي أباح سبي النساء في حروبه وجعلهن ملكا تحت رق من سباهن ، إن شاء وطأهن وإن شاء باعهن ، وهو الذي أحلّ الغنائم لأتباعه ، وأوجب تقسيمها عليهم ، بعد أخذ خمسها لله ولرسوله ، فلا لوم على عمر فيما فعله .

أحداث السقيفة :

في يوم وفاة النبي (ص) اجتمع الأنصار في السقيفة لتولية سعد بن عبادة وأتوا به وهو مريض ملفوف ، ووصل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ومعهم رهط من مؤيديهم من المهاجرين ، بينما سعد بن عبادة يخطب في الأنصار قائلا : "يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لأحد من العرب . إن محمدا لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فما آمن به إلا القليل . وما كانوا يقدرون على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم عنه حتى رزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا أو كرها ، فدانت لرسول الله بأسيافكم ، ولكم أن تستبدوا بهذا الأمر من دون الناس فإنه لكم دونهم فأجابه الجميع أن قد وفقت وأصبت الرأي ونحن نوليك هذا الأمر" .

وخطب أبو بكر مذكرا الأنصار أن المهاجرين أول من آمن من العرب ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر بعده لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ثم ذكر فضل الأنصار وقال : "فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء" .

فقام الأنصارى الحباب بن المنذر يخاطب قومه : "يا معشر الأنصار ، املكوا عليكم أمركم فإن الناس (أي المهاجرين) في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم ، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير" .

فرد عمر على هذا المنطق بقوله : "هيهات ، لا يجتمع اثنان في قرن .. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، لكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم .. فمن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته" .

ومرة أخرى يرد الحباب مخاطبا قومه : "يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به . أنا جذيلها المحك وعذيقها المرجب ، أما والله لو شئتم لنعيدنها جذعة ، والله لا يرد عليّ أحد إلا حكمت أنفه بالسيف ، فقال عمر : إذن يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل (فوطأ عمر في بطنه ودس في فيه التراب في رواية أبى بكر الجوهرى في ابن أبى الحديد ١٦/٢) . فقال أبو عبيدة بن الجراح : يا معشر الأنصار كنتم أول من ناصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير . فقام بشير بن سعد وكان حاسدا لسعد بن عبادة فقال : .. ألا أن محمدا من قريش وقومه أحق به ، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا . فقال أبو بكر : هذا عمرو هذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا .. فقالت بعض الأنصار لا نبايع إلا عليا قال عمر : فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف فقلت لأبى بكر ، ابسط يدل لأبايعك فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر : يا بشير عُقت عقاق !! أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ .. فما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء : والله لئن وليتها عليكم الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم .. فقوموا بايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه .. فوطئوا سعد ابن عبادة فقال أناس من أصحاب سعد : اتقوا سعدا ولا تطأوه فقال عمر : اقتلوه قتله الله وفي رواية بلسان عمر : ثم وثبنا على سعد بن عبادة وهو مريض فوطأناه فقد خشيت إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نتابعهم أو نخالفهم فيكون فسادا" . ثم قام عمر على رأس سعد فقال : "لقد هممت أن أطأك حتى تنذ عضدك . فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر فقال : والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة . فقال أبو بكر : مهلا يا عمر الرفق هنا أبلغ ، فأعرض عنه عمر ، فقال سعد لعمر : أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيرا يحجرك وأصحابك . أما والله إذا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع . إحملوني من هذا المكان ، فحكملوه فأدخلوه داره .. وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال : يا معشر بني هاشم بويع أبا بكر ، فقال بعضهم لبعض : ما كان المسلمون يحدثون حدثا نغيب عنه ونحن أولى بمحمد ، فقال العباس : فعلوها ورب الكعبة"

تاريخ الطبري مجلد ٢ ص ٢٣٤-٢٤٦
البداية والنهاية – ابن كثير مجلد ٣ ص ٢١٥-٢١٧
الكامل – ابن الأثير مجلد ٢ ص ٣٢٥-٣٣٢

* * * * * *

هؤلاء هم أصحاب محمد الذين تلقوا منه الدعوة غضة طرية وفهموا مقاصده وأهدافه حق فهم دون لبس أو غموض ، وعاشوا ما فهموه وتعلموه منه وطبقوه في حياتهم .

المراجع

(١) صحيح البخاري ومسلم وأخرجه ابن سعد في الطبقات
(٢) رواه البخاري في صحيحه في باب العمرة
(٣) الحديث في صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد
(٤) أسد الغابة ١٨٢/٣
(٥) المغازي للواقدي ١٧/١
(٦) حي من الأحياء الراقية
(٧) المغني لإبن قدامة المقدسي٣/٢٨١
(٨) المصدر السابق ص ٢٨٣
(٩) منهاج السنة النبوية – ابن تيمية ١٣٠/٤
(١٠) سنن ابن ماجة وهو من كتب الصحاح السنة
(١١) سيرة ابن هشام ٤٤/٤
(١٢) مجمع الزوائد للهيثمي
(١٣) أسد الغابة ١٩٩/٣
(١٤) أسد الغابة ٣٤٢/٣
(١٥) موطأ الإمام مالك ص ١٧١
(١٦) موطأ الإمام مالك ص ٦٠٧
(١٧) الأحزاب ٥٩
(١٨) حياة الصحابة الكاند هلوى ١٠١/١
(١٩) المصدر السابق ٩٢/٢
(٢٠) المصدر السابق ١٤٠/٢
(٢١) رواه سفيان بن عيينة عن عمر بن دينار وأورده يحيى بن آدم القرشي في كتابه الخراج ص ٧٧
(٢٢) موطأ الإمام مالك ص ٥٧ وسنن الدارمي ٢٦٤/١
(٢٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة
(٢٤) تاريخ اليعقوبي ١٥٤/٢
(٢٥) أسد الغابة ١٨١/٤
(٢٦) الاستيعاب ١١٤٦/٣
(٢٧) المصدر السابق
(٢٨) كتاب الخراج - أبي يوسف قاضي القضاة ص ٣٧
(٢٩) جمع الجوامع للسيوطي ٤٨٨/١
(٣٠) أخرجه الستة في الصحاح وراوي الحديث هو ابنه الأكبر عبد الله
(٣١) المغنى لإبن قدامة المقدس ٣٥٦/٦
(٣٢) أسد الغابة ١٥٤/٤
(٣٣) الدرر في اختصار المغازي والسير - ابن عبد البر الجزري ١٥٤/٤
(٣٤) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير - ابن سيد الناس ١٩٤/٢

(٣٥) تاريخ اليعقوبي ١٥٣/٢
(٣٦) المغنى لابن قدامة ٦٨/٨
(٣٧) تاريخ اليعقوبي ١٥٠/٢
(٣٨) الرياض النضرة في مناقب العشرة ص ٤٦٦-٤٧٠
(٣٩) الأموال - أبو عبيد القاسم بن سلام ص ٣٠٨
(٤٠) مروج الذهب – المسعودي ١٨/٢
(٤١) منهاج السنة النبوية – ابن تيمية ١٣٠/٤
(٤٢) الاستخراج لأحكام الخراج – أبو الفرج الحنبلي ص ٨٤
(٤٣) مروج الذهب – المسعودي ٥٤٤/١
(٤٤) الأموال – أبو عبيد القاسم بن سلام ص ٨٩
(٤٥) مروج الذهب – المسعودي ٥٤٤/٢
(٤٦) أسد الغابة ١٥٢/١
(٤٧) الاستيعاب ١١١/١
(٤٨) الاستيعاب ٦١٨/٢
(٤٩) المصدر السابق
(٥٠) أسد الغابة ٤٨٣/٣
(٥١) طبقات ابن سعد
(٥٢) حياة الصحابة – الكاند هلوى ٤٧١/٢
(٥٣) أسد الغابة ٤٨١/٣
(٥٤) جمهرة أنساب العرب ابن حزم الأندلسي
(٥٥) الاستيعاب ٨٤٧/٢
(٥٦) تاريخ اليعقوبي ١٧١/٢
(٥٧) سنن الترمذي
(٥٨) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب
(٥٩) المصدر السابق ص ٧٦٨
(٦٠) الاستيعاب ٨٤٧/٢
(٦١) أسد الغابة ٤٨٥/٣
(٦٢) أسد الغابة ٢٥٠/٢
(٦٣) الاستيعاب ٥١١/٢
(٦٤) الرياض النضرة للمحب الطبري ص ٧٣٢
(٦٥) المصدر السابق
(٦٦) الاستيعاب ٥١٤/٢، الرياض النضرة ص ٧٧٤، أسد الغابة ٢٥٢/٢
(٦٧) الرياض النضرة ص ٧٧٤
(٦٨) المصدر السابق
(٦٩) أسد الغابة ٢٥٢/٢
(٧٠) الرياض النضرة ص ٧٢٠

(٧١) المصدر السابق
(٧٢) أسد الغابة ٨٩/٢، الرياض النضرة ص ٧٢١، مروج الذهب ٥٤٤/١، الاستيعاب ٧٧٠/٢
(٧٣) مروج الذهب ٥٤٤/١
(٧٤) كتاب الخراج لقاضي القضاة أبي يوسف ص ١٢٤
(٧٥) الاستخراج لأحكام الخراج لابن رجب الحنبلي – دار الحداثة – بيروت ص ١٠٧
(٧٦) فتوح البلدان ٢٥٣/١
(٧٧) كتاب الخراج ص ٥٠
(٧٨) المصدر السابق ص ٤٩، فتوح البلدان ٥٥/١
(٧٩) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية – ابن تيمية

الباب التاسع

الخلافة الإسلامية

المستشار محمد سعيد العشماوي

يقال إن الخلافة الأموية خدمت الدين الإسلامي بالفتوحات المتصلة والغزوات المستمرة ، ونشر الإسلام بين غير المسلمين ، لكن لا يُقال إن الخلافة الأموية – مع ذلك – هي التي دنست حرمة المدينة في عهد يزيد بن معاوية وأهدرت حرمة مكة في عهد عبد الملك بن مروان ؛ فأباحت لجنودها دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ؛ فقتلوا الرجال ونهبوا الأموال وهتكوا أعراض النساء وفضوا بكارات العذارى . كذلك لا يقال إن هذه الخلافة ضربت الكعبة بالمنجنيق مرتين فهدمتها في كل مرة ، وأنها سمحت لجنودها بدخول مسجد الرسول بخيولهم حيث ملأوه بالروث والقاذورات .

ويقال إن الخليفة المأمون هو الذي أنشأ بيت الحكمة ونشر الترجمة ، وأن عهده كان عهد الحضارة الرفيعة والحرية الفكرية ، لكن لا يقال إن المأمون هو الذي أثار فتنة خلق القرآن ، وفرض على الناس اعتقاده بمرسوم خاص .

ربما يفخر البعض بالعهد الخليفى ولكنه لا يستطيع ان ينكر ما فى تاريخ الإسلام من مخازى مثل أحداث الفتنة الكبرى ، وموقعة الجمل ، ووقعة كربلاء ، وموقعة الحَرّة ، ومساوئ الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومظالم الخلفاء الأمويين وغير الأمويين ، وضرب الكعبة بالمنجنيق ، واستباحة دماء وأموال وأعراض المسلمين في مكة والمدينة ، والصراع بين الأمويين والهاشميين ، ثم الصراع بين العباسيين والطالبيين ، وفرض الجزية على المسلمين غير العرب ، ومحنة خلق القرآن ، والحروب بين طلاب السلطة ، وغزو التتار بغداد وتدميرها .

والخلافة ايضا لم تحقق وحدة العالم الإسلامي ، فقد كانت توجد في وقت واحد خلافات ثلاث : الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في مصر ، والخلافة الأموية في الأندلس .

وفي فجر الإسلام وإبان الخلافة الراشدة ، وُجدت خلافتان إحداهما لعلي بن أبي طالب والثانية لمعاوية بن أبي سفيان . وفي أوائل عهد الخلافة الأموية وُجدت إلى جانب هذه الخلافة خلافة أخرى كان مركزها مكة وكانت لعبد الله بن الزبير .

وليس فى الامر ما يدعو للاستغراب لانه مجرد امتداد للانقسام العربى السائد فى شبه الجزيرة.

فخلاصة الحالة السياسية في شبه جزيرة العرب – في العصر الجاهلي – أنه كانت بها أكثر من مملكة (أو إمارة) وأكثر من ملك (أو أمير) ، إلا منطقة الحجاز ، وبالذات مكة . ذلك أنه نظرا للصراع الحاد

والتنافس الشديد بين الهاشميين والأمويين ، وقيام شبه توازن بينهما ، فإنه لم يقم فيهم ملك ، وإنما توزعت الرياسات والإمارات على كافة بطون قريش ،

على أن فراغ الرياسة وخلو الزعامة لم يمنع قريش من أن تتطلع دائما إلى قائد وقائل ، يوحّد كلمتها ويجمع شملها ويرفع شأنها ؛ وكان مثّلها في ذلك عمرو بن لحى (من خزاعة التي سيطرت على مكة قبل قريش) أو مثل قصي بن كلاب الذي جمع قريشا تحت لوائه ومكن لها من السيطرة على مكة وشغْل مكان متميز في شبه جزيرة العرب .

وإلى جانب هذا التطلع من قريش إلى ملك أو أمير ، فإن المؤرخين يرصدون قيام حركة كبيرة بين زعماء الحجاز – في القرن السادس الميلادي (وهو القرن الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٥٧٠م) – أفضت إلى صراعات ونضالات حيث كان كل واحد منهم يطمع في أن يستأثر بالحكم ليتمكن من أن يشيد أركان مملكة جديدة[١] .

وتطلع قريش إلى مُلك أو إمارة ، من جانب ؛ وطمع زعماء الحجاز في الملك والإمارة من جانب آخر ، أمران كان لهما أثر بالغ شديد النتائج بعيد المدى على فكرة النّبوة ثم على نظام الخلافة الإسلامية .

وإذا كانت النبوة ذاتها قد فُهمت من جانب القرشيين ، وغيرهم ، على أنها ملك وإمارة ؛ فلا غرابة أن تكون الخلافة في تقديرهم ملكا صريحا وإمارة محضة . ومن هذا المنزع ، فإن الصراع والتنافس بين الهاشميين والأمويين – على سيادة قريش والإمارة عليهم – سرعان ما ظهر مع نظام الخلافة ، واحتد واحتدم باسم الدين وتحت لواء الشريعة ، حتى أصبحت الخلافة الإسلامية ، بل والتاريخ الإسلامي نفسه ، وحتى وقت قريب ، بيانا ونتائج لهذا التنافس وذلك الصراع .

ولأن الشعر ديوان العرب أي أنه سجل واقعي حي لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقليتهم وعقائدهم ، فلهذا فإننا نستطيع أن نستدل على كل هذا من إشعار العرب قبل ظهور الإسلام ، وهاك عينة من بعض هذه الأشعار .

فيقول قس بن ساعدة (المتوفي سنة ٦٠٠م) :

الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عبثا

ويقول أمية بن أبي الصلت (المتوفي سنة ٦٢٤م) :

كل دين يوم القيامة   عند الله دون الحنيفية زور

ويقول :

أمين لوحي القدس جبريل منهم   وميكال ذو الروح القوى المسدد

ويقول رؤية بن العجاج :-

ومسهم ما مسّ أصحاب الفيـل   ترميهـم حجـارة مـن سجيـل

ولعبت طير بهم أبابيل

ويقول زيد بن عمرو بن نفيل (المتوفي سنة ٦٢٠م) :

أسلمت وجهـي لمـن أسلمـت   له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاهـا فلمـا رآهـا استـوت   على المـاء أرسى عليـها الجبـالا

وأسلمـت وجهي لمن أسلمـت   لـه المـزن تحمـل عذبـا زلالا

ويقول :

فلا العزّى أديـن ولا ابنتيهـا   ولا سنمـى بنـي طسـم أديـر

أربّـا واحـدا أم ألـف رب   أديــن إذا تقسمــت الأمــور

ولكـن أعبـد الرحمــن ربي   ليغفــر ذنبــي الـرب الغفــور

فتقـوى الله ربكـم احفظوهـا   متـى مـا تحفظـوها لا تبـوروا

ويقول :

ففالــت : أنـــى يكـون ولـم أكــن   بغيـا ولا حبلـى ولا ذات قيـم
فقال لها : إنـــي مـــن اللـــه آيـــة   وعلّمنـــي ، واللـــه خيـر مُعلّـم
وأُرسلتُ ولم أُرسَل غويا ولم أكن   شقيا ، ولم أُبعَث بفحش ومأثم

وإلى جانب هذا الشعر الوفير الزاخر كانت ثمّ نماذج من النثر ذى التفاعيل الحرة والإيقاعات المرسلة ، تقع فيما بين موازين الشعر وسجع الكهان ، أنس لها النـاس وارتـاحوا ، فحفظوهـا وتمثلـوا بهـا ، خاصـة مـع وجود الإيقاع وقيام المقابلات وانتصاب التوازنـات ، ولجوئهـا إلـى الاستشهاد بـالظواهر الطبيعيـة مـن نجـوم وأمطار وأراض وبحور ، وغيرها ، ودعوتها الناس إلى عبادة الله وتقواه ، وما إلى ذلك .

وأشهر هذه النماذج النثرية ما يُروى عن قس بن ساعدة الإيادي (المتوفي سنة600م) والذي سمعه النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل الرسالة في سوق عكاظ ، وكان يُعجب به وبقوله أشد الإعجاب فيردده عليه أبو بكر الصديق الذي كان يحفظه عن ظهر قلب ، وهو يقول :

"أيها الناس اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا . إنه من عاش مات . ومن مات فات . وكل ما هو آت آت . مطر ونبات . وأرزاق وأقوات . وآباء وأمهات . وأحياء وأموات . وجمع وشتات . وآيات بعد آيات . ليل موضوع . وسقف مرفوع . ونجوم تغور . وأراض تمور . وبحور تموج . وتجارة تروج . وضوء وظلام . وبر وآثام . ومطعم ومشرب . وملبس ومركب . ألا إن أبلغ العظات ، السير في الفلوات ، والنظر إلى محل الأموات .. إن في السماء لخبرا . وإن في الأرض لعبرا . ليل داج . وسماء ذات أبراج . وأرض ذات رتاج . وبحار ذات أمواج . مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا . أم تُركوا هناك فناموا . أقسم بالله قسما حقا . لا آثما فيه ولا حانثا . إن لله دينا هو أحب إليكم من دينكم الذي أنتم عليه .. تَبًّا لأرباب الغفلة . من الأمم الخالية . والقرون الماضية . يا معشر إياد . أين الآباء والأجداد . وأين المريض والعواد . وأين الفراعنة الشداد . أين من بنى وشيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد . أين من بغى وطغى . وجمع فأوعى . وقال أنا ربكم الأعلى . ألم يكونوا أكثر منكم أموالا . وأطول منك آجالا . طحنهم الثرى بكلكله . ومزقهم بتطاوله . فتلك عظامهم بالية . وبيوتهم خاوية . عمرتها الذئاب العاوية . كلاّ بل هو المعبود ..."

وهكذا ، فإن شبه جزيرة العرب بعامة ، وأرض الحجاز بخاصة ، كانت قبل البعثة المحمدية زاخرة بأفكار وآراء وأقوال كثيرة وواضحة ومحددة عن الله ، وتوحيد ذاته ، وصفاته ، واليوم الآخر ؛ كما كانت ثم ألفاظ وعبارات وصيغ دينية متداولة بين الجميع ببساطة وطلاقة مثل : أسلمت ، وسنة ، وشريعة ، ووحى ، ونذير ، ونوافل ، وذنوب ، وجهنم ، وحلال ، وحرام ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وأبرزت أثقالها ، وبعد العسر يسرا ، وعدنا وعدتم (أو عدتم وعدنا) ، وصلى الله (أو الإله) على فلان ، وليس كمثل الله شئ . إلى آخر ذلك .

وقد كان لكل أولئك أثر هام على فهم العرب (أو بالأحرى الكثير منهم) لرسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى تقديرهم لها ، حتى من هؤلاء الذي بشروا بها وكانوا منتظرين لها عاملين بما دعت إليه .

فأمية بن أبى الصلت قال :-

ألا نبــيّ منـــا فيخبرنـــا   ما بعد غايتنا في رأس محيانا

ومع ذلك فعندما قابل النبي وقرأ عليه النبي أوائل سورة يس أعرض وتأبّى ولم يسلم . وفيما بعد قال عنه النبي لقد أسلم شعر أمية ولم يُسلم قلبه . فشعره كله إسلام في إسلام ، ومع ذلك فقد رغب عن الإيمان بالرسالة المحمدية . وزيد بن عمرو بن نفيل (ابن عم عمر بن الخطاب) كان أول من ذكر لفظ الإسلام في

الشعر العربي . وكانت تصرفاته كلها إسلاما في إسلام ومع ذلك بأنه لم يؤمن برسالة النبي (ص) مع أنه أدرك الرسالة وتوفى بعدها بفترة .

كان العرب يتخذون الأصنام شفاعة لله ويتبين ذلك بجلاء مما جاء في سبب تنزيل ونسخ آيتين من سورة النجم . ذلك أن النبي كان قد تلى على كبراء قريش سورة النجم فقال : "والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ..... أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى" (تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى) ثم أكمل السورة كلها وسجد في آخرها ، فسجد القوم (من القرشيين) – الذين لم يكونوا قد آمنوا به – جميعا ؛ ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته فسجد عليه (لعدم إمكانه السجود على الأرض) ، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ، وهو الذي يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإذا جعلت (والقول للنبي) لها نصيبا فنحن معك . غير أن جبريل عليه السلام قال للنبي بعدئذ إنه لم يوح إليه بالجملتين (تلك الغرانيق "الطيور البيض" . العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى) وأوحى إلى النبي ما يفيد نسخهما . ثم نزلت في ذلك الآية "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته (تلاوته) فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته" (سورة الحج ٥٢:٣٣) .

وكان بين العرب من يصلي ، بصلاة لا تُعرف . كما كان بعضهم يصوم ويتحنث أي يتحنّف . وكان من هؤلاء عبد المطلب جد النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي كان يتحنث في شهر رمضان ، ويصومه نفس الصيام الذي فرض في القرآن على المسلمين فيما بعد . وكان العرب يعتمرون ويحجون بنفس الشعائر التي فُرضت على المسلمين بعد ذلك ، فيما عدا الإضافة "إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك"، قيل إن الذي أضافها هو عمرو بن لحى (من بني خزاعة) ، ثم نسخها الإسلام ورفعها من التلبية .

وظهرت قبل البعثة النبوية بفترة جماعة سمت نفسها : الحنيفية . والحنيفية لفظ مأخوذ من لفظ حنيف العبرى[١] وكان اليهود يطلقونه على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية ، وأطلقه العرب على الشئ أو الشخص المستقيم . وقيل إن من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وقيل الحنيف من سنته الاختتان ، فلما جاء الإسلام سموا المسلم حنيفا[٢] ، وقد قرأ البعض الآية الكريمة "إن الدين عند الله الإسلام" بقراءة تقول : "إن الدين عند الله الحنيفية"[٣] .

والاتجاه النبوي أو التشوق إلى نبي كان يدور بين الشعراء وجماعة الحنيفية كما نرى في أبيات من شعر أمية بن أبي الصلت :

ألا نبـــي منّـــا فيخبرنـــا   ما بعد غايتنا في رأس محيانا

ولعل هذا التشوق الحاد إلى نبي عربي كان هو السبب في ، أو النتيجة إلى ظهور عدة أنبياء سابقين على النبي (ص) دعوا كذلك إلى الإسلام .

فقد ظهر من يدعى فيميون ، ونزل في نجران ، ومر عليه عبد الله بن الثامر فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحد الله وعبده ، وجعل يسأل (فيميون) عن شرائع الإسلام . ثم تولى عبد الله بن الثامر هذا

دعوة الناس إلى الإسلام فكان يقول لمن يدعون "يا عبد الله : أتوحد الله وتدخل في ديني!" ، فإن قال نعم وحّد الله وأسلم [٤] .

(الجزء الأول – ص ٢٩ من السيرة النبوية لابن هشام – تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد – نشر مكتبة الكليات الأزهرية بمصر) .

رغم هذا التشوق للنبوة فأن المسلمون من الأعراب والبدو الصعاليك والمؤلفة قلوبهم والمنافقين والطلقاء (الذين أطلقهم النبي عند فتح مكة) . هؤلاء جميعا – وقد كانوا اكثر الناس- مالوا بنظرتهم الى جانب الملك وجنحوا بنفوسهم الى الطمع فى الغنائم والجشع في الأسلاب ، وقصدوا الحصول على الثروات وجمع السبايا ومقارفة السلطان .

وهذا الاتجاه الملكي الدنيوي المطماع يظهر بجلاء في المؤلفات الإسلامية التي كُتبت بعد عصر النبي(صلى الله عليه وسلم) بفترة طويلة ، حين كان الاتجاه قد استقر وغلب واستتب ، فعاد إلى الماضي بعيد تشكيله من جديد وصياغته مرة ثانية وصبه في قوالبه الذاتية ، بمنظاره هو ومفاهيمه الخاصة . ثم ينزل عليه خفايا نفسه ويسقط فوقه طوايا ذاته .

فقد جاء في سيرة ابن هشام أنه "كان في حجر باليمن ... كتاب بالزبور كُتب في الزمان الأول يقول : لمن ملك ذمار؟ (اسم مدينة) : لحمير الأخيار . لمن ملك ذمار؟ : للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار؟ : لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار [٥] .

وجاء فيها أن ثابت بن قيس قال أمام النبي (صلعم) : ثم كان من قدرته (قدرة الله) أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا [٦] .

وجاء – كذلك – أن أم النبي آمنة بنت وهب حُدثت (من الغيب) فقيل لها : إنك حملت بسيّد هذه الأمة .

وورد في تاريخ الطبري أن الكاهن سطيح – وهو كاهن اليمن – قال لربيعة بن نصر – الذي كان قد رأى رؤيا هالته وفظع بها - ... "إن مُلك اليمن سينقطع برجل (من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر) يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . ثم أضاف – لتأكيد ذلك : نعم والشفق والغسق . والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق" [٧] .

كما ورد فيه أيضا أن كاهنا يدعى السائب قال لكسرى الفرس : لئن صدق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ الشرق ، تخصب عنه الأرض كأفضل ما خصبت عن مُلك كان قبله .[٨]

وفي سيرة ابن هشام أن رجلا عاير امرأته فقال لها : "إنك تمنين (تتمنين) محمداً ملك الحجاز" . [٩]

ورد في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لعمه حين خاطبه في أمر الرسالة واستياء القرشيين: "... أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ...؟ أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم ... (قالة) لا إله إلا الله" . وفي قول آخر: "... كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي بها العجم الجزية". (١٠)

فالمسألة في هذا القول – المنسوب إلى الرسول – أن كلمة (أو قالة) لا إله إلا الله إنما هي سبيل لكي تدين العرب لقريش ، (أي لرياستها وإمارتها وملكها) ، وأن يتملك هؤلاء العرب غيرهم من العجم ويفرضون عليهم الجزية ؛ وليس فيها أي إدراك حقيقي للدين الإنساني الشامل ، أو قصد شريف لنشر الشريعة السمحاء .

وهذا المعنى ذاته تردد في قول للعباس (عم النبي) عندما سأله أعرابي عنه فرد عليه قائلا : "هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به (الدين) وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه" . وقد ردد القول ذاته بعض المنافقين في معركة الخندق أو الأحزاب (في المدينة) – فيما بعد – حين قال يعِدُنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يذهب إلى الغائط" . ففي هذا القول وذاك لم يُذكر أي شئ – ولا تلميحا إن لم يكن تصريحا – عن هداية الروم والفرس أو نشر الإسلام بينهم أو دعوتهم إلى الدين القويم أو التبشير بينهم برسالة محمد ، وإنما يقتصر الأمر على التملك وفرض الجزية وانتهاب الكنوز؛ وهو فهم – بلا أدنى شك – ينزع منازع الملك ويجري مجاري السلطان ، ولا يتجه اتجاه الدين أو ينحو نحو الشريعة .

وفيما روى أن النبي عندما رغب في نشر دعوته ، بعد أن نزلت الآية" "وأنذر عشيرتك الأقربين" (سورة الشعراء ٢٦:٢١٤) ، جمع عشيرته هذه وقدم لهم طعاما ثم قال لهم : يا بني عبد المطلب ، إني بُعثتُ إليكم بخاصة ، وإلى الناس بعامة ، وقد رأيتم من هذا الأمر ما رأيتم ، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟ وفي رواية أخرى : على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي وخليفتي! (١١)

وعندما اشتد أمر النبي على قريش ندبت لمحادثته عتبة بن ربيعة فذهب إليه وقال له "إن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك" . "وقد رد عليه النبي بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، فعاد عتبة إلى قريش وقد أربد وجهه فقال لهم : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه ... فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم(١٢) ...".

وبعد فتح مكة (رمضان سنة ٨ هـ) وقف النبي يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم ، لواء بعد لواء ، ووقف أبو سفيان الأموي والعباس عم النبي يشاهدان الاستعراض ؛ فقال أبو سفيان للعباس "لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما" ، فرد عليه العباس قائلا "إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان ، فقال أبو سفيان "أما هذه (أي النّبوة) فما زال في نفسي منها شئ" . (١٣)

الصدقة (التي سميت زكاة فيما بعد) كانت تدفع إلى النبي ذاته – مقابل صلاته على الناس "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم" (سورة التوبة ٩:١٠٣) وبهذا أصبحت الصدقة واجبا دينيا يخوّل للمتصدق التمتع بصلاة النبي عليه وتزكيته له .

بعد موت نبي الإسلام وانشغال أهله بغسله وتكفينه أسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ابن الجراح إلى سقيفة بني ساعدة ليتداركوا الملك قبل أن ينهبه الأنصار ، فوقف أبو بكر وقال :

يا معشر الأنصار ، فإنكم لا تذكرون منكم فضلا إلا وأنتم له أهل ، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، وهم أوسط (العرب) دارا (أي من مكة) ونسبا ... فلما قضى أبو بكر كلامه قام (من الأنصار) رجل ، فقال منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش ... فارتفعت الأصوات وكثر اللغط (اختلاط الأصوات) ... (وقال أبو بكر للأنصار ، منا (أهل مكة القرشيين) الأمراء ومنكم الوزراء ..) .. (فقال عمر لأبي بكر) : ابسط يدك أبايعك (لقد ارتضاك النبي لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا ؟ ويقول عمر : فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار . ثم نزونا (وثبنا ووطأنا) على سعد (بن عبادة) حتى قال قائلهم : قتلتم سعدا ... وإنا والله ما وجدنا أمرا هو أقوى (أي أصعب) من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما نتابعهم على ما نرضى ، أو نخالفهم فيكون فساد .[١٤]

ولكن مبايعة ابى بكر تقل منزلة عن مبايعة النبى التى تتساوى مع مبايعة الله نفسه "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" (الفتح ٤٨:١٠).

مما هو جدير بالذكر هنا ان سعد بن عبادة الذى عارض البيعة وجد مقتولا بعد ذلك بسهم طائش..وقيل ان الجن هى التى قتلته.

ان القتل وسيلة قوية لاقناع الخصوم والعصاة.

يقول عالم الاجتماع المعاصر جوستاف لوبون "إن سيوف العرب لا بد أن تكون دائما مشهرة فإذا لم توجه إلى الغير فإنها توجه إلى أنفسهم" .

توجه الى الغير على شكل غزوات .. وكان ذلك عرفا سائدا فى الجاهلية والاسلام.

والغزو – لغة – هو إرادة الشئ وطلبه ، أو هو السير إلى قتال العدو وانتهابه (لسان العرب – المعجم الوسيط – مادة "غزو") .

وعن النبي أنه قال من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بغزوة فقد مات ميتة جاهلية . وقال : لا تغزى هذه (أي مدينة مكة) بعد اليوم (يوم الفتح) إلى يوم القيامة . يعني بذلك أن مكة لا تعود دارا لغير المسلمين بغزوتها عليهم ، لأن المسلمين غزوا مكة عدة مرات بعد النبي .

أما عن توجيه المسلمين سيوفهم نحو انفسهم فاننا نسوق مقتل عثمان بن عفان كمثال لذلك .

أخذ المسلمون على عثمان بن عفان أخطاء عدة تدلل على الفساد ، منها أنهم قالوا :-

أ – إن النبي كان قد نفى الحكم بن أبي العاص وطرده من المدينة ، فظل طريدا طوال حياة النبي ومدة خلافة أبي بكر وعمر اللذين رفضا شفاعة عثمان فيه ليعود إلى المدينة . فلما كانت خلافة عثمان قدم الحكم عليه ، لأنه عمه ، فأبقاه في المدينة ولم يأمره بالخروج منها تأسيا بالنبي وصاحبيه فآوى بذلك طريد النبي .

ب – وإن عثمان اتخذ أقرباءه عمالا على أمصار الإسلام ، ولو أنهم كانوا من أهل الفضل ، والذين لكان في توليته إياهم محاباة القرابة التي بينه وبينهم وجنوح إلى عشيرته بني أمية ، فكيف وهم فسقة فجارا؟

ومن هؤلاء العمال الوليد بن عقبة بن أبي معيط (ووالده عقبة هذا عدو النبي الذي قتله صبرا ، فلما قال للنبي ومن للصبية – ومنهم الوليد – يا محمد؟ قال : لهم النار) وقد ولاه عثمان أمر الكوفة فأحدث فيها وصلى بالناس وهو مخمور فزاد في عدد الركعات والسجدات ولما نبهه الناس التفت إليهم وقال لهم: هلا زدتكم؟ ومن عمال عثمان – كذلك – عبد الله بن أبي سرح – وكان رضيعه – فولاه أمر مصر ، وعبد الله بن عامر الذي ولاه البصرة ، ومعاوية بن أبي سفيان الذي ولاه الشام (وأطلق يده فيها ، وكان معاوية واليا على الشام في عهد عمر غير أنه – كما قال عليّ – كان أخوف لعمر من غلام – خادم – عمر له) .

جـ - وفتح خزائن بيت المال لبني أمية ، وتزويجه مروان بن الحكم بنته وتسليمه خمس غنائم أفريقية له ، وقد بلغت مائتي ألف دينار . ثم إنه (عثمان) استسلم في كل أموره لمروان هذا (ابن عمه) فأخذ يفسد كثيرا بسور التصرف وسوء المشورة .

د – هذا فضلا عن إيذاء أصحاب النبي . وممن آذاه عبد الله بن مسعود حتى انحرفت قبيلته "هذيل" عن عثمان بسبب ذلك ، وعمار بن ياسر حتى انحرفت قبيلته "بنو مخزوم" عن عثمان من أجله ، وأبو ذر الغفاري الذي نفاه إلى الربذه ومنعه من البقاء في المدينة أو الذهاب إلى مكة .

ولم يقتصر الفساد على عهد عثمان وعلى الأمويين (بني أمية) وحدهم ، بل حدث كذلك في عهد علي بن أبي طالب الخليفة الرابع ومن الهاشميين (بني هاشم) . وتكفي في بيان ذلك واقعة واحدة ذات خطورة بالغة أدل من واقعات عدة وأفضح من حوادث كثيرة . ذلك أن أبا الأسود الدؤلي صاحب بيت المال في البصرة (وزير المالية) أرسل إلى الخليفة على بن أبي طالب رسالة يقول له فيها : "عاملك وابن عمك (عبد الله بن عباس) قد أكل ما تحت يده بغير علمك" . وعبد الله بن عباس هذا هو ابن عم النبي كذلك وحبر الأمة الإسلامية ، وكان عليّ قد ولاه على البصرة . فأرسل الخليفة إلى ابن عمه وواليه يسأله فيما وصل إليه . وبعد مراسلات أجاب عبد الله بن عباس برسالة استقالة إلى الخليفة جاء فيها : "والله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها وبطلاع ما على ظهرها أحب إلى من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة ، فابعث إلى عملك من أحببت". وهي استقالة تتضمن معنى التبجح وعدم الاستحياء من أكل كل ما في بطن الأرض وما على ظهرها طالما كان ذلك أخف مما عمله الخليفة وأمير المؤمنين

علي بن أبي طالب – في رأي ابن عباس ابن عمه وابن عم النبي – من سفك دماء أمة المسلمين في سبيل الملك والإمارة . وبعد هذه الاستقالة العجيبة جمع ابن عباس ما كان قد تبقى من أموال في بيت المال ، ويقدر بحوالي ستة ملايين درهم ، واحتمى بأخواله من قبيلة بني هلال حيث كانوا معه في البصرة ، ومضى بالمال حتى بلغ البيت الحرام في مكة فأصبح آمنا فيه . ولما كتب إليه الخليفة عليّ يطلب إليه رد الأمانة أجاب ابن عباس قائلا: "... إن حقي في بيت المال لأعظم مما أخذت منه" (يقصد اختلس منه) ... ثم يحذر الخليفة قائلا: "... لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به!!!" [١٥] .

فهذه الواقعة خطيرة غاية الخطورة بالنظر إلى مدلولها ، ومن صدرت عنه ، ومن حدثت في عهده ، وأسلوب تبريرها ، واتهام الخليفة . فهي قد وقعت من عبد الله بن عباس الهاشمي ، ابن عم النبي وابن عم الخليفة علي بن أبي طالب ، راوي الأحاديث ومرجع التفسير ومثل المسلمين . وقد وقعت منه وهو والٍ للبصرة على أموال المسلمين في بيت مال البصرة . وحدثت في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ، أي في العصر الذهبي للإسلام والفترة الماسية للمسلمين ، والتي يدعو البعض إلى عودتها – ولات حين عودة – لنقائها وصفاتها وخلوها من الفساد .

عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس كانا من كبار صحابة الرسول الذين أحاطوا به وفهموا مقاصده وغرض دعوته من فرض نفوذ قريش على الجزيرة العربية وتشييد ملك عظيم يدين لها بالولاء .

في مرض النبي الذي توفى فيه ، أخذ العباس بن عبد المطلب (عم النبي) يد علي بن أبي طالب وقال له: ".. إنك بعد ثلاث عبد العصا : (كناية عن الوصول إلى السلطة) وإني أرى رسول الله سيُتوفى في وجعه (مرضه) هذا ، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، فاذهب إلى رسول الله فسله فيمن يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا . فقال علي بن أبي طالب : والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا ، والله لا أسألها رسول الله أبدا .. قيل : فتوفى رسول الله حين اشتد الضحى من ذلك اليوم [١٦].

وروى أن أبا سفيان قال لعلي بن أبي طالب بعد بيعة أبي بكر بالخلافة : ما بال هذا الأمر في أقل حي (فرع) من قريش! والله لئن شئتَ لأملأنها عليه خيلا ورجالا ! فرد علي قائلا : يا أبا سفيان ! طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا ... وروى – كذلك – أنه لما استُخلف أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبي فصيلْ (يعني أبا بكر) ، إنما هي (أي الأجدر بالإمارة) بنو عبد مناف! ... وروى – أيضا – أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر ، أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف (الهاشميون والأمويون) فيم أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان ! أين الأذلان علي والعباس !

كتب التاريخ ورواة الأحداث تقول أن علي بن أبي طالب كان يضع كل ليلة ، زوجه فاطمة الزهراء بنت النبي على جمل ويخرج بها إلى القبائل خارج المدينة يحرضها على مبايعته هو ، وعلى أحقيته – وهو ابن عم النبي وزوج فاطمة ووالد سبطيه الحسن والحسين – بالخلافة وميراث النبي . ولما ماتت فاطمة دفنها عليٌّ ليلا ولم يخبر أبا بكر بالوفاة . وقد كان لعلي وجه (جراءة) من الناس في حياة فاطمة فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عنه ، فأرسل إلى أبي بكر حتى يأتيه وحده لمبايعته . وعندما ذهب أبو بكر وحده –

كشرط عليّ – قال له: "... إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا ، فاستبددتم به علينا" .

وفي عهد عثمان بن عفان حدث فساد كثير ، أشير إلى بعضه فيما سلف ، فعارضه عدد من المؤمنين ، وكان الهاشميون بزعامة علي بن أبي طالب في طليعة المعارضة بقيادته . وانضمت إلى هذه المعارضة عائشة زوج النبي وحرضت الناس على قتل عثمان (هكذا!!) إذ كانت تقول : اقتلوا نعثلا فقد كفر (ونعثل هذا شخص نصراني كان يعيش في المدينة ويشبه شكله عثمان بن عفان فأطلقوا على عثمان اسم نعثل ، زراية به وازدراء له ، وهو الخليفة ، دون أن يتنبهوا إلى أنهم بذلك يتنابزون بالألقاب خلافا لحكم القرآن) . وطالب المعارضون عثمان بخلع الخلافة ، أي الاستقالة منها أو التنحي عنها . فكتب عثمان في ذلك رسالة جاء فيها : "... لأن يكبلوني (يقيدوني) أحب إلى من أن أترك عمل الله وخلافته" . وعندما حاصر الثوار بيت عثمان أرسل إلى عليّ رسالة معبرة في بيت من الشعر الجاهلي يقول :-

فإن أكُ مأكولا فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أُمزَّق

ويلوح أن أيدي الثوار كانت أقرب من نجدة علي لعثمان ، ذلك أنهم هاجموه في منزله وفيهم محمد بن أبي بكر (شقيق عائشة زوج النبي وعديل الحسين بن علي بن أبي طالب) فقتلوا عثمان وهو يقرأ المصحف . وربما كانوا في هذا القتل متأثرين بقولة عائشة "اقتلوا نعثلا فقد كفر" . فهذه الحميراء التي روى البعض حديثا عن النبي يطلب من المسلمين أن يأخذوا عنها نصف دينهم أفتت بكفر عثمان وأهدرت دمه ، ونفذ الثوار ما أفتت به وأمرت به .

وبقتل عثمان بن عفان اندلعت الفتنة الكبرى ؛ فتأثر بعض المؤمنين لمقتله ، واستنت في الإسلام سنة إهدار الدم وقتل الحاكم ، وهو أمر سوف يحدث لعلي بن أبي طالب نفسه ؛ وقام الأمويون بزعامة معاوية بن أبي سفيان والي الشام بالمطالبة بثأر عثمان ، وظهر الخوارج بفكرهم العليل وفهمهم الكليل ، ودخلت إلى الفكر الإسلامي مصطلحات "خليفة الله" و "عمل الله" و "حُكم الله" وهكذا ؛ بإضافة أعمال الناس وتقديراتهم إلى الله ذاته ، غصبا وغدْرا وظلما وعدوانا .

بينما رأى معارضو عثمان أنه خان وفسق بما يحل معه قتله ، رأى أنصاره – كما يقول الشاعر حسان – أنه ذو مرة (قوة وعقل) ، واضح السنة ، أمين الله ، خليفة الله ، المضطهد ، المسلم الفطن ، اجتمع عليه الغوغاء ، وكانوا أبواقا يدعون عليه ذنبا لم يكن ، وغدر به جيرانه الأدنون .

وعلى الرغم من أن عائشة زوج النبي كانت تحرض على قتل عثمان بن عفان بقولها : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، كما أن الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله (وهما من كبار الصحابة المبشرين بالجنة) كانا قد بايعا عليٌّ بن أبي طالب بالخلافة إثر مقتل عثمان ؛ فإن عائشة ما إن علمت أن علي بن أبي طالب بويع بالخلافة حتى انزعجت جدا وقالت : قُتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن دمه . فلما قيل لها إنها أول من كفّره ودعى إلى قتله ، قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول (هكذا!!!) . ثم عادت إلى مكة – وقد كانت خارجها – وخطبت في الناس قائلة لهم : "... إن الغوغاء من

أهل الأمصار وأهل المياه (أي الباحثين عن المياه في الصحراء) وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ... ولما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام.." (كان لعثمان بن عفان لدى خازنه ثلاثون ألف ألف درهم ، وخمسمائة ألف درهم ، وخمسون ومائة ألف درهم انتُهبت كلها إثر مقتله). أما طلحة والزبير فقد زعما أنهما بايعا عليا كرها تحت سيوف الغوغاء الذين قتلوا عثمان ، وأنه لا بيعة لمكره ! ومن ثم فقد اجتمعت عائشة مع طلحة والزبير وخرجوا لمحاربة علي بن أبي طالب فهزمهم في موقعة الجمل (لأن عائشة كانت تركبُ أثناء الموقعة جملا) ، ثم قتل كل من طلحة والزبير إثر ذلك .

هذا الاعتراك بين المبشرين بالجنة من صحابة محمد بل حتى وزوجته يعكس فهمهم الواضح لغرض الدعوة المحمدية الدنيوي وينفي عنها تماما أي علاقة برب السماء .

ليس هذا فقط ، بل إن ما استحله النبي لنفسه من حقوق يفصح عن هذا بجلاء.

كانت للنبي حقوق أخرى خاصة به أي يختص بها دون المؤمنين منها :

١- حقه في الفئ .
٢- حقه في الغنائم .
٣- حق الجمع بين تسعة أزواج .
٤- حقه في عدم زواج زوجاته بآخرين من بعده .
٥- زواج الهبة "وإن امرأة وهبت نفسها للنبي إن أراد أن يستنكحها خالصة له من دون المؤمنين" سورة الأحزاب ٣٣:٥٥ .
٦- إرجاء من يشاء من النساء وإيواء من يشاء "ترجي من تشاء منهن وتؤوي من تشاء" الأحزاب ٣٣:٥٢.
٧- أخذ الصفية أو الصفى من الغنائم وهي عبد أو أمة أو سيف أو درع يأخذه غير سهمه ، غاب عن المعركة أو حضر (السيرة الحلبية جـ ٢ – ص ٤٤٠) .
٨- ألا ينكح أحد على ابنته إلا بإذنه . فقد أبى على علي بن أبي طالب أن ينكح على فاطمة من بني هشام بن المغيرة (المرجع السابق ص ٤٧٤) .
٩- جواز النظر بالأجنبية والاختلاء بها لأمنه من الفتنة (المرجع السابق ص ٥٨٧) .
١٠- حل عقدة النكاح في الإحرام ، أي ينكح وهو محرم (المرجع السابق ص ٧٨٢) .

والواقع أن فهم قريش لمعنى النبوة على أنها ملكا يرجع إلى ما قبل ظهور محمد بكثير .

كانت قبيلة قريش تسيطر على مكة ، وغالبية سكانها منها ، منذ عهد قصي بن كلاب الذي جمّعهم فيها (حوالي سنة ٤٠٠م) ثم بسط نفوذهم على الكعبة حتى أصبح رجالها يُسمّون رجال الله ، وجيران بيت الله ، وصفوة الخلق ! الأمر الذي جعل لقريش نفوذا حقيقيا بين العرب ومركزا ممتازا فيهم .

وكانت قريش تضم اثنا عشر فرعا (أو حيا) ، أكبرها فرعا بني هاشم وبني أمية . وكان بنو هاشم برياسة عبد المطلب جد النبي ثم آلت الرياسة بعد وفاته إلى أبي طالب عم النبي (ووالد علي) ، وكان بنو أمية (عبد شمس) برياسة أبي سفيان وكان الأمويون أكثر يسارا وأشد رخاء فطمعوا في زعامة قريش ، خاصة بعد أن ضربت النكبات المالية أبا طالب فوطأة الاعسار الذي أدّى بالنبي إلى أن يضم عليّ بن أبي طالب إلى بيته ليكفله حتى يخفف العبء عن عمه .

وهذا التنافس الشديد بين الهاشميين والأمويين كان بعيد الأثر في فهم هؤلاء الأخيرين لمعنى النبوة ، ثم تطلعهم بعد ذلك إلى وراثتها . فلقد فهموا النبوة دائما على أنها صبغة هاشمية للملك . وفي هذا يقول عمرو بن هشام بن المغيرة : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا بنى يأتيه الوحي من السماء ، فمتى تدرك مثل هذه!. وبعد فتح مكة (سنة ٨ هـ) وقف النبي يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم ، لواء إثر لواء ، وإلى جانب÷ وقف أبو سفيان شيخ الأمويين مع العباس عم النبي يشاهدان الاستعراض معا ؛ فقال أبو سفيان للعباس : "لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما" فأجاب العباس قائلا "إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان" فرد أبو سفيان بقوله "أما هذه (أي النبوة) فما زال في نفسي منها شئ"[١٧] .

هذا هو رأي أبي سفيان شيخ الأمويين بعد أن أعلن إسلامه ، وهو رأي ظاهر قاطع بأن النبي – في تقديره – ملك أنشأ ملكا وليس نبيا أرسى دعائم الدين ورسخ قواعد الشريعة . وإذا كان أبو سفيان قد أظهر سريرته أمام العباس عم النبي إثر الفتح العظيم لمكة ، فلا شك أنه قد أضمر أطماعه في أن يرث هذا الملك له ولأبنائه من بعده .

وإثر مقتل عثمان بويع لعلي بالخلافة ، وكان من ضمن المبايعين له طلحة بن عبيد الله والي البصرة ، والزبير بن العوام والي الكوفة ، وقد أشار أحد دهاة العرب وهو المغيرة بن شعبة على عليّ أن يستبقي طلحة والزبير ومعاوية على أعمالهم حتى يستتب له الأمر فرفض وعزلهم[١٨] ومن ثم ادعى طلحة والزبير أنهما بايعا علي بن أبي طالب بالخلافة تحت إكراه سيوف الثوار المتمردين على عثمان ، وحاربا عليا بعد أن انضمت إليهما عائشة زوج النبي ، والتي كان بينها وبين علي عداوة شديدة بسبب موقفه منها إبّان حديث الإفك .

وبعدما انتصر علي على هؤلاء الثلاثة : عائشة وطلحة والزبير في موقعة الجمل ، التفت إلى معاوية يحاربه ، وكاد أن ينتصر عليه لولا أن هذا – بحيلة من عمرو بن العاص – استطاع أن يحمل عليا على أن يحتكما معا في أمر الخلافة – لمن منهما تكون؟ وبمعنى آخر : هل تكون الخلافة للأمويين أم للهاشميين ؟ وعندما خسر عليٌّ التحكيم – بحيلة أخرى من عمرو بن العاص – خرج على عليّ بعض أنصاره الذين سُمُّوا الخوارج ، وقتلوه ؛ وبذلك صفا الجو لمعاوية بن أبي سفيان وصار خليفة المسلمين .

بهذا سقطت الكرة في بئر الأمويين ، وأصبح هؤلاء لا سادة قريش فحسب ، بل قادة العرب جميعا وأمراء المسلمين كلهم ، فوصل رسم أبي سفيان إلى غايته ، وانتهت أحلام الأمويين إلى تحقيق في اليقظة .

وأثناء حصار المتمردين لعثمان بن عفان وطلبهم منه أن يتبرأ (يعتزل) من الإمارة ، كتب رسالة يقول فيها "... أما أن أتبرأ من الإمارة فأن يكلبوني (يقيدوني) أحب إلى من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته . وبهذا النص وردت في التاريخ الإسلامي لأول مرة صيغة "خلافة الله" .

المراجع

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب – اسرائيل ولفنسون – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٧
(٢) لسان العرب مادة حنف
(٣) كتاب المصاحف – أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٥
(٤) السيرة النبوية لابن هشام – مكتبة الكليات الأزهرية بمصر الجزء الأول – ص ٢٩
(٥) سيرة ابن هشام ص ٦٤
(٦) سيرة ابن هشام ص ١٥٣
(٧) تاريخ الطبري – الجزء الثاني ص ١١٣
(٨) المرجع السابق
(٩) سيرة ابن هشام – الجزء الثالث ص ٢١٧
(١٠) تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٣٢٤ – السيرة الحلبية – الجزء الأول ص ١٠٣
(١١) تاريخ الطبري – المرجع السابق ص ٣٢١
(١٢) سيرة ابن هشام – المرجع السابق ص ٢٦٢
(١٣) المرجع السابق – الجزء الرابع ص ٣٤
(١٤) ضحى الإسلام – أحمد أمين
(١٥) تاريخ الطبري – الجزء الرابع ص ١٠٨
(١٦) تاريخ الطبري – المرجع السابق ص ٣١٣ – سيرة ابن هشام – ج٢ ص ٣٧١
(١٧) سيرة ابن هشام – ج ١ ص ٢٦٢
(١٨) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٨